ينشر لأول مرة

سَلسَلَةُ الشَّرُوحَاتِ العِلْمِيَّةِ لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ

الشَّرْحُ الثَّمِينُ عَلى كِتابِ التَّوْحيدِ

للإمام محمد بن عبدالوهاب - رحمه الله

إلى باب ما جاء في النشرة



لفضيلة الشيخ

فهد بن مقعد العتيبي

غفر الله له ولوالديه ولمشايخه وللمسلمين

الشيخ لم يراجع التفريغ

النسخة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه.

نسأل الله عز وجل أن يرزقنا وإياكم الإخلاص في السر والعلن، وأن يرزقنا حُسن التأسي والمتابعة، وأن لا يكلنا إلى أنفسنا، وأن يتجاوز عن خطئنا وتقصيرنا، وأن يسترنا بالستر في الدنيا والآخرة.

وأن يجعلنا وإياكم من المقبولين عنده، وأن يُحسن لنا ولكم الخاتمة والوفادة والمنقلب والعاقبة، وأن يهب سيئاتنا لحسناتنا، وأن يعفو عن خطئنا وزللنا وتقصيرنا، أما بعد:

هذا الدرس متعلق بشرح كتاب التوحيد للإمام المجدد رحمه الله، محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي التميمي رحمه الله تعالى، ولد عام ١١١٥هـ، وتوفي عام ١٢٠٦هـ.

وقبل الكلام عن كتاب التوحيد، كتاب التوحيد في بادئ ذي بدء وضع الله عز وجل له القبول، واهتم به العلماء وشرحوه، ووضعوا عليه متونـًا ومختصرات لشروحه.

وأول شرحٍ لكتاب التوحيد، الكتاب الذي يسمى "كتاب المعلم"؛ بمعنى أن كل من جاء بعده يستفيد منه ويعود إليه، وهو: "تيسير العزيز الحميد" لحفيد الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب رحمهم الله جميعـًا، إلا أنه رحمه الله مات قبل أن يُكمِل الكتاب، انتهى شرحه على باب ما جاء في المصورين، ثم أكمل شرحه ابن عمه عبد الرحمن بن حسن، واختصر شرح الشيخ سليمان رحمه الله في كتاب سماه "فتح المجيد"، ثم وضع له مختصراً سماه "قُرَّة عيون الموحدين"، ولم يزل العلماء يهتمون بكتاب التوحيد.

اهتمام أئمة الدعوة السلفية في نجد بكتاب التوحيد، لا يعني ذلك أن الشيخ رحمه الله لم يُسبَق لتقرير مسائل التوحيد، ولا يقول ذلك أحدٌ من أهل العلم، وإنما لأن هذا الكتاب ألَّفه الشيخ رحمه الله حال كانت نجد على حالٍ غير مرضيَّة من انتشار الجهل والبدع والخرافات

وغير ذلك.

وإذا قيل: إن بلاد نجد قبل دعوة الشيخ رحمه الله بقرون، كانت مظاهر الشرك الأكبر ظاهرة فيها؛ بناء القباب، والتوسُّل لها، واعتقاد النفع والضُرّ بها، إلى غير ذلك كانت قبل الشيخ رحمه الله فاشية، ولا نكير في ذلك، أو أقل الأحوال قد يكون النكير في لفيف العلماء وطلاب العلم، لكن ليس هناك من ينكر إنكاراً ظاهراً يظهر به التوحيد ويندحر به الشرك.

فكان في نجد قبابٌ كثيرة؛ منها قُبَّة زيد بن الخطاب في الجبيلة، وقبة ضرار بن الأزور، مع أنه مات في طاعون عمواس، لكن لا يزال أصحاب البدع يتعلقون بالخرافات ويكذبون على بُسطاء الناس وعوامهم ليروج الشرك من ناحية، ومن ناحية ثانية لأنهم منتفعون من وراء ذلك.. فكانت القباب في نجد كثيرة، وليست قباب تزويق وإن كان البناء على القباب على القبور منهيٌ عنه في الأصل، لكن الأمر أبعد من ذلك من حيث أنهم جعلوها محلاً للقُرُبات والدعوات والأوقاف والنذور وغير ذلك.

كذلك فيما يتعلق بالخرافات السائدة في عامة الناس وقتها، كغار بنت الأمير، ونخلة الفحّال وبريوة وغيرها.

وهذا يا إخوان -وإن تكرر الكلام عنه في مثل هذه الدروس أو في الكتب- ليس رصداً تاريخياً، ولا بد أن يكون هذا مِنَّا على بال، هذا ليس رصداً تاريخياً يُساق سياق الأخبار التي وقعت ومضت؛ لأن الإسلام إذا تعامل مع هذه القصص، صور الضلال والشرك والبدع والانحراف والخرافات التي كانت قبل ذلك، إذا تعامل معها معاملة الرصد التاريخي لم يكن لها فائدة، لكن الصواب أن يُتعامل معها كما تعامل النبي صلى الله عليه وسلم مع الصحابة رضي الله عنهم لما ذكّرهم بما كانوا عليه وما آلوا إليه؛ كما في "صحيح البخاري" أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للصحابة: «ألم تكونوا ضُلَّالاً فهداكم الله بي؟». بمعنى أن المقصود بذكر هذه الأخبار ليس استطراداً في الحديث حتى يكون ذلك رصداً وكشفاً تاريخياً لما

كانت عليه هذه البلاد، وإنما حتى يعلم الإنسان أنه يتقلب في نعمة التوحيد.

فإذا ذُكِرت العتبات والأضرحة عند غيرنا، نقول: كان الحسين له تربةٌ وعتبة وضريحٌ وسدنة يُضلُّون الناس عن التوحيد إلى الشرك وما زال ذلك على ما كان عليه، وكان الناس يتقرّبون إلى قبره يزعمون أنه قبر عبد القادر الجيلاني ويطوفون حوله: "عبد القادر يا جيلاني يا مصرِّف الأكوانِ"، وما زالوا على ذلك، وكان الناس يطوفون بقبر اسمه قبر العيدروس يزعمون أنه وليٌ من أولياء الله، ويقولون: "عيدروس يا مالك النفوس" وما زالوا على ذلك.

وقل مثل ذلك في القبر الذي يُزعم أنه قبر هود في بعض بلدان الجزيرة العربية، وقل مثل ذلك فيما يزعمون أنه قبر عدي بن مسافر، وفيما يزعمون أنه قبر الحسين في مصر، أو قبر الحسين في عسقلان، أو قبر الحسين في الطف والنجف وكربلاء وما زالت على ذلك.

لكننا نقول: من فضل الله سبحانه وتعالى، كان لزيد بن الخطاب قبة تدعى من دون الله، لكن الله عز وجل أزالها بتوفيق الله وتسديده وحمايته سبحانه وتعالى وإعانته.

ولهذا هنا يصدق أن يقال: ما كان لله بقي، فلما كان التوحيد لله، وقُتِل فيه علماء وقُتِل فيه دعاة وأوذي فيه من أوذي من دعاة الإصلاح، وأول من أوذي الإمام المجدد رحمه الله محمد بن عبد الوهاب، فلما كانت هذه التضحيات -كما يقول بعض الناس في زماننا- لأجل التوحيد وعلِمَ الله -نحسبهم والله حسيبهم- أنهم ما كانوا طلاب دنيا؛ أقرّ الله عز وجل عين هذه البلاد -ونسأل الله عز وجل أن يعم الخير بلاد المسلمين كلها- وأهلها بأنه ليس في أطرافها كلها، من شرقها وغربها وشمالها وجنوبها ضريحٌ يُعبد من دون الله.

فمن فضل الله ومن حماية الله عز وجل وصيانته للتوحيد أن جعل حامية التوحيد الدولة نفسها -ولاة الأمور-، بمعنى أنهم يصونون التوحيد على ما كان عليه أجدادهم وأسلافهم: محمد بن سعود، ثم عبد العزيز بن محمد بن سعود، ثم سعود بن عبد العزيز بن محمد بن سعود، ثم تركي بن عبد الله، ثم فيصل بن تركي. وأنت إذا استطردت في ذكر الأئمة الذين

جعلهم الله عز وجل محل الأمر والنهي، والقيام على شؤون الناس في دينهم ودنياهم طال بك المقام.

لكن المقصود أنهم -من فضل الله سبحانه وتعالى- منذ مؤسس الدعوة، أو من بدأ بالدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله ومن ناصره من آل سعود، لم يخرج أحدٌ من ذرية هذا ولا من ذرية هذا داعية شرك، وهذا من توفيق الله وتسديده.

والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس». الكمال عزيز، لكنَّا نحمد الله عز وجل أن الله خصنا بكمال التوحيد، بمعنى أن الله عز وجل خص هذه الدولة وهذه البلاد -ونسأل الله أن يعم الخير بلاد المسلمين كلهم- بأنه ليس فيها معلمٌ ظاهرٌ من معالم الشرك، وأنت تأمَّل هذا حتى في أهل هذه البلاد وإخوانهم الوافدين عليهم من غير أهلها.

حتى لو ظهر معلمٌ من معالم الشرك انقبضت قلوب الناس من ذلك، وبلغوا السلطات، وبلغوا جهات الأمر وجهات الإزالة وسعوا معهم في ذلك؛ بمعنى أن الأرض صلبة -كما يقال- فيما يتعلق بحماية التوحيد والتمييز ما بين السنة والبدعة، حتى عند بسطاء العوام كبار السن، والذين عندهم تعلم بسيط، عندهم أرضٌ ثابتةٌ وصلبة فيما يتعلَّق بالتفريق ما بين السنة والبدعة، والتوحيد والشرك، والهدى والضلال، مع أن تعلّمهم بسيط.

والسبب في ذلك -بعد فضل الله سبحانه وتعالى- أن هذا التوحيد درج عليه أهل هذه البلاد جيلاً بعد جيل، حتى أن الدولة الموفقة -وفّقها الله وسددها- تُلزم من تحت يدها من الرعية بأن يتعلموا التوحيد في مدارسهم، ونحن نلحظ ذلك ونراه، وخرجنا إلى الدنيا ونحن على هذا؛ يتعلمون التوحيد في مراحله الأولى، ومراحله المتوسطة، ومراحله الجامعية؛ ثم بعد ذلك يكون الصغير من أبناء الموحِّدين يغلب كثيراً بمن ربى على الباطل ونشأ على الباطل.

فإذا قيل إن الشيخ رحمه الله ألَّف "كتاب التوحيد" واهتم به أهل العلم، وأن الله عز وجل وضع له القبول؛ لأن هناك اقترانـًا شرطيـًا ما بين ما كانت عليه بلاد نجد قبل ذلك وما آلت إليه.

ما كانت عليه قبل ذلك من انتشار الأضرحة؛ وإذا قلنا الأضرحة لا يعني ذلك أنها في الجبيلة فقط، حتى في مكة -على شرفها- لم تسلم من ابتداع أهل البدع، فوضعوا قُبة لقبرٍ يزعمون أنه قبر خديجة، ولبعض القبور التي يزعمونها للصحابة، وقل مثل ذلك في المدينة، وقل مثل ذلك حتى في أطراف الجزيرة العربية؛ كان في منطقة الشرقية، في الأحساء تحديداً، وفي الهفوف تحديداً، وفي المبرَّز تحديداً، كانت هناك قُبّة تُدعى من دون الله ويُتقرب إليها تسمى "عين نجم"، وعين نجم عينٌ معروفة، نضب ماؤها الآن لكن كانت عليها قباب بناها الذين يعتقدون أن هذا الماء فيه بَرَكة.

والاستطراد في ضرب الأمثلة على ذلك من المشاهد التي هي مخالفة لما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم يطول به المقام.

فالشاهد أن الشيخ رحمه الله نفع الله عز وجل بدعوته، واختصر رحمه الله مسائل التوحيد في كتبٍ لقصد أن تصل إلى الناس، وأن تفشو المسائل التي تدعو إلى التوحيد وتحمي من الشرك وصوره بأقصر طريق؛ فلو كانت كُتُب الشيخ رحمه الله مطولة لتثاقل الناس قراءتها وتثاقل الناس النظر فيها، وربما يتثاقل بعض أهل العلم شرحها، لكنه جعلها زُبَداً رحمه الله ليسهل الاطلاع عليها ويسهل حفظها، ويتخرَّج بها الصغار والكبار.

ولم يرد رحمه الله من وراء ذلك إلا نصح المسلمين، ما أراد محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله وغفر له ورفع منزله- إلا النصح للناس، وما تكثَّر من الدنيا، ولا تأثَّل منها، ولا طلب مالاً، ولا حتى ذريته من بعده ما طلبوا إلا الآخرة -نحسبهم كذلك والله حسيبهم-.

فلما علم الله عز وجل صدق نيته، وضع الله عز وجل لدعوته القبول، وهيأ الله عز وجل

له ناصراً سلطانًا حمى الله عز وجل به الدعوة حتى قامت على أقدامها وضربت بجرانها، بل صار من يفِدُ إلى هذه البلاد يحمل الدعوة التي يراها في أهلها، في كتبهم، في تعاملاتهم، في مساجدهم. ليس في مساجد هذه البلاد -من فضل الله سبحانه وتعالى- ضريح، وليس في هذه المساجد علامة من علامات البدع الظاهرة، وهذا من حماية الله سبحانه وتعالى.

فصار من يفِدُ إليها ممن فشا في بلادهم بعض المخالفة في مسألة التوحيد، يعود داعية إلى التوحيد من حيث لا يشعر: "أتينا إلى المملكة العربية السعودية ولم نر أضرحة في المساجد، ولم نر علامات من علامات أهل البدع"، فيكون داعية للتوحيد من حيث لا يشعر، وهذه بركة الدعوة إلى التوحيد.

والشيخ رحمه الله -وهذه من باب الفوائد ولا تخفى على الإخوان- ما بدأ دعوته مع الإمام محمد بن سعود أول الأمر؛ لأن بعض الناس يظنون أن الشيخ رحمه الله ما بدأ بها إلا في الدرعية.

بدأ الشيخ رحمه الله قبل ذلك بالدعوة إلى التوحيد ونفي الشرك في ثلاثة أماكن، وفي كل مكان يُبتلى ويُؤذى؛ في كل مكان يدعو فيه إلى التوحيد وينهى عن الشرك -أتكلم عن إمام مجدد رحمه الله- يُؤذى وربما ضُرب في بعضها، وأُخذ ماله وقُطع عليه السبيل، وانقطع عن طريقه الذي خرج له لطلب العلم، ومع ذلك يتحمل ويصبر ويذهب إلى بلدٍ آخر ويدعو إلى التوحيد ونفي الشرك ثم يُؤذى، ثم يدعو بعد ذلك إلى التوحيد ويُؤذى المرَّة الثانية، ثم يدعو إلى التوحيد المرّة الثالثة ويؤذى، ثم يهيئ الله عز وجل له ناصراً في الدرعية.

فدعا رحمه الله أول الأمر إلى التوحيد في البصرة، والبصرة كانت فاشية فيها البدعة؛ إما من حيث بدعة التصوُّف والقباب، أو من حيث بدعة الرفض، والرفض خرج من عباءة التصوف كما يُعلم. ومع ذلك أوذي رحمه الله في بلدٍ ليست بلداً له وليس له فيها قرابة، وهو وافدٌ عليها، وأهل تلك البلاد يعلمون أنه من غير أهلها.

ثم خرج رحمه الله من البصرة إلى أن أتى الزبير، وأوذي مرة ثانية، أول ما وقع له من الأذى وقع له في المدينة؛ مختصر رحلة الشيخ رحمه الله في سيرته أنه خرج من بلاد نجد حاجًا، ثم مر محمد حياة السندي رحمه الله -من المشتغلين بالحديث في المدينة-، ثم عزم على أن يذهب إلى الشام وجمع نفقةً لأجل ذلك، فعرض له بعض السُرَّاق وأخذوا مال الشيخ وضربوه، فانقطع رحمه الله في المدينة حتى جمع مالاً يوصله إلى البصرة.

ثم ذهب إلى البصرة وبدأ في إنكار ما رآه من مشاهد الشرك والبدعة، فآذاه أهل تلك البلاد.

ثم ذهب إلى الزبير، وابن الزبير نزل إلى الأحساء، ونزل عند شيخٍ صالح لا يُعرف إلا إذا ذُكرت سيرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله -اسمه عبد الله المجموعي-، فأخبره الشيخ بما كره وما أحب -ما أحب من التوحيد وما كره مما عليه الناس-، وكان رجلاً كفيفًا في البصر وكبيراً في السن، فوافق الشيخ رحمه الله على دعوته فأوذي هو والشيخ. فخرج الشيخ رحمه الله من الأحساء حتى نزل إلى حريملاء التي كان فيها والده ومات قبل ذلك فيها، ثم من حريملاء إلى الدرعية وهيأ الله عز وجل له ناصراً.

إذن معنى ذلك أن الشيخ رحمه الله بدأ بالدعوة، وصرَّح بأن هذا شركٌ وباطل، ويأباه الله عز وجل ورسله كلهم على خلاف ذلك؛ بدأ بها في ثلاثة مواضع: في المدينة وأوذي، وفي البصرة وأوذي، وفي الأحساء وأوذي، حتى قيَّض الله عز وجل له ناصراً.

لو أن الشيخ أراد حظ نفسه من السلامة، وأراد حظ نفسه من أن يعرف الحق لنفسه وأن يقتصر على ذلك، لترك الشيخ الدعوة من أول أذىً حصل له، خصوصًا أن الأذى الذي حصل له في كل أحواله حصل له في بلدٍ ليس له فيها قرابة ولا أهل، وهذا أجمع للإنسان أن يترك ما عزم عليه؛ فلما أوذي في المدينة ليس له فيها قرابة، ولما أوذي في البصرة ليس له فيها قرابة ولا من يوافق ما هو عليه من الحق إلا القليل، ولما أوذي في الأحساء ليس له فيها قرابة

له ولا من يوافقه على ما هو عليه من الحق إلا القليل، ومع ذلك ما زال ثابتاً في هذا محتسباً على ذلك؛ لأنه يعلم أن هذا هو طريق الأنبياء والمرسلين رحمه الله.

وفي هذه الابتلاءات ألَّف الشيخ رحمه الله كتابه: "كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد".

وإذا أراد الله عز وجل شيئاً أمضاه -يا إخوان-، "كتاب التوحيد" الذي وضع الله عز وجل له القبول، ألَّفه الشيخ رحمه الله في البصرة وكانت البدعة فاشية فيها، وهذا من لطف الله سبحانه وتعالى أن حفظ الشيخ، ومن حُسْن تدبيره سبحانه وتعالى لأمر الشيخ أن جعل الشيخ رحمه الله يؤلِّف الكتاب الذي نفع الله عز وجل به في بلدٍ أوذي فيها الشيخ، وكان الشرك ظاهراً فيها في ذلك الوقت وهي البصرة، ثم لما نزل إلى حريملاء، من أهل العلم من قال أنه أضاف عليه المسائل، ومنهم من قال أنه أعاد النظر فيه، لكن أول تأليفه لـ"كتاب التوحيد" كان في البصرة، وهذا كلام حفيده عبد الرحمن بن حسن -صاحب "فتح المجيد"-.

دعوة الشيخ رحمه الله لها أهداف كما هو معلوم، وكل شيء في الدنيا له أهداف؛ الإنسان لا يبدأ مشروعاً -كما يقول الآن أصحاب النظرة الدنيوية- إلا وهو يرمي إلى أهداف يطمح إلى الوصول إليها، وكذلك دعوات الأنبياء والمرسلين، هدف دعوات الأنبياء والمرسلين الأخذ بحجز الناس من طريق النار إلى طريق الجنة، وأن يُعبَّد الناس لله سبحانه وتعالى، وأن يُحذَّروا من الشرك ومن البدعة ومن أسباب سخطه سبحانه وبحمده.

كذلك دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله لم تكن دعوة لطلب الدنيا، وإلا لتأثَّل من الدنيا؛ لأنه بقي رحمه الله وغفر له معاصراً لثلاثة من الأئمة -أئمة الدعوة-: محمد بن سعود، وعبد العزيز بن محمد بن سعود، وسعود بن عبد العزيز بن محمد بن سعود، كلهم عاصروا محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، فلو كان يريد الدنيا وشيئاً من الدنيا لثرّ ماله وملك

مزارع وملك غير ذلك، لكنه ما أراد ذلك ولا ذُكر أن الشيخ رحمه الله ترك ثروة.

إذن ما هو هدفه من الدعوة؟ هدفه هو هدف الأنبياء: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾[هود:٨٨]. والناظرون في دعوة الشيخ رحمه الله يقولون: إن من أهداف الدعوة التي لأجلها تحمَّل رحمه الله المشاق، ونصح للمسلمين، وفارق البلد والأهل والولد؛ أهدافاً منها:

الهدف الأول: تحقيق العبودية لله سبحانه وتعالى.

هذا أول هدف للدعوة، ودعوات الأنبياء والمرسلين جميعاً أولها تحقيق العبودية لله سبحانه وتعالى بدعوة الناس إلى توحيد الله عز وجل، ونبْذ الشرك وصور الشرك؛ سواء كان شركاً أكبر أو أصغر، أو البدع التي توصل إلى الشرك وإن كانت طريقاً إليه؛ نبْذها وأخذ الناس من طريق الضلالة إلى طريق الهداية، ومن طريق الغواية إلى طريق الرشد، ومن طريق المنحرفين والضُلَّال وأهل البدع إلى طريق الأنبياء والمرسلين.

فالهدف الأول هو تحقيق العبودية لله سبحانه وتعالى، بتعليم الناس التوحيد وتحذيرهم من الشرك؛ لأن الناس ربما يُغَشُّون بالشرك فيُصوَّر لهم على أنه توحيد، وهو في حقيقته شركٌ وضلالة.

الهدف الثاني: الإصلاح المجتمعي -كما يقول أصحاب علم الاجتماع-، والإصلاح المجتمعي إنما يكون بعد الإصلاح الديني؛ فإذا صَلُح الدين بحماية التوحيد وطرد الشرك والتحذير منه، يبدأ بعد ذلك الداعية -والأنبياء هم الأسوة في ذلك- بإصلاح المجتمع.

وليس المقصود بإصلاح المجتمع -يا إخواني- إصلاح المجتمع فيما يتعلَّق بمعاشهم وتجارتهم وكسبهم، وإنما المقصود بالإصلاح المجتمعي إغلاق المنافذ التي يدخل منها الباطل إلى الناس.

وأشهر هذه المنافذ ثلاثة:

الحرص على العلم الشرعي: المأخوذ من كلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم عرضـًا وبذلاً وتحمُّلاً في ذلك؛ بمعنى أن العلم الشرعي والتعليم المأخوذ من الكتاب والسنة يُغلق باب الجهل والخرافات على الناس، وإذا تعلَّم انغلقت كل أبواب الخرافات التي كانت سائدة في المجتمع وهذا ما وقع؛ لأن الشيخ رحمه الله وإن كان هدفه الأول هو هدف الأنبياء والمرسلين -الدعوة إلى التوحيد-، لكنه أيضـًا كانت له جهودٌ فيما يتعلق بمسائل الفقه، والسيرة النبوية، والتفسير وغير ذلك. فلا يوضع الشيخ رحمه الله في إطار المجدِّد للتوحيد فقط، بل له إسهامٌ في علم التفسير؛ لأن الناس كانوا يأخذون التفسير عن أهل البدعة والضلالة، وله إسهام في علم الفقه؛ لأن الناس ربما كانوا يبتدعون بِدَعـًا يظنونها من الدين، وإسهامٌ في السيرة؛ لأن الناس ربما سارت لهم أحاديث موضوعة في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم يوظّفونها بعد ذلك لصور الشرك والبدعة.

ومن أيضـًا الإصلاح المجتمعي الذي حرِص الشيخ رحمه الله عليه: نبْذ التقليد.

وليس المقصود بذلك التقليد في مسائل الفقه -وإن كان هذا من هِمَّة الشيخ وغيره من العلماء ألا يكون التقليد مورداً من موارد التشريع-، لكن التقليد الذي كان الشيخ رحمه الله يحذِّر منه هو ما ألفه الناس من تقليد أصاغرهم عن أكابرهم عن أجدادهم عمَّن سلف من آبائهم فيما يتعلَّق بالبدع والانحراف. فأغلق رحمه الله الباب الثاني؛ وهو "باب التقليد".

بمعنى أن الإنسان قد يُقلِّد بعض قرابته على شرك، ويظن أن هذا التقليد عُذْرٌ في أن يسلك ما سلكوه، والله عز وجل عاب على المشركين هذا الأمر، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾[الزخرف:٢٢]، ثم قالوا بعد ذلك: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾[الزخرف:٢٣]؛ يعني سمّوا الاقتداء -الذي هو التقليد- هداية.

فأغلق الشيخ رحمه الله -وهذا من حُسْن نظره وبُعْد سبره- الباب الثاني "باب التقليد"، وإن كنت مجلاً لآبائك إلا أن التقليد إنما يكون بمن أمر الله عز وجل بالاقتداء به: ﴿لَّقَدْ كَانَ

﴿لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[الأحزاب:٢١].

الباب الثالث الذي أغلقه الشيخ رحمه الله لأجل الإصلاح المجتمعي -كما يقال-: هو أن الشيخ رحمه الله جمع الناس بعد أن كانوا مفترقين، وليس المقصود بذلك مجرَّد الجمع، وإنما المقصود بذلك الجمع وحقْن الدماء؛ حتى يتحاجز الناس عن قطع الطريق على بعض، وحتى يكون الائتلاف سبباً لقبول الحق الذي عنده؛ لأن الإنسان إذا أراد أن يدعو إلى شيء والناس مفترقون عليه صعُبت عليه الدعوة.

فجمع الشيخ رحمه الله الناس من حيث أنه أصلح ما بينهم من نزاعات وما بينهم من إحنٍ وما بينهم من تنافر، أصلحهم حتى صارت للدعوة أذنٌ سامعة؛ كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾[آل عمران:١٠٣].

وليس المقصود بذلك أن يجتمع الناس ولو كانوا على باطل، فهذا ليس من طريقة أهل السنة والجماعة، الناس إذا لم يجتمعوا على الحق فلا يسمون مجتمعين، وإنما المقصود بذلك أن يُجمع الناس من حيث أن تُسلّ منهم الأحقاد والإحن والشرور والحروب وغير ذلك؛ حتى تكون الأذن صاغيةً للدعوة، أما إذا كانت النفوس متنافرة فحريٌّ بالدعوة ألا تُقبل، أو أقلُّ الأحوال أن يكون قبولها مؤقتًا محدوداً بزمن معيَّن.

والشيخ رحمه الله تأسى في ذلك بالنبي صلى الله عليه وسلم؛ فأول ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم لما هاجر إلى المدينة، أو من أوائل ما فعل بعدما بنى مسجده صلى الله عليه وسلم، آخى بين المهاجرين والأنصار. ما المقصود من المؤاخاة مع أن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[الحجرات:١٠]؟

آخى بينهم عليه الصلاة والسلام لأنه كانت بينهم أيامٌ في الجاهلية كيوم بُعاث، مع أنهم كلهم أوس وخزرج وكلهم يعودون لأبناء قيلة -كما يقال-، لكن سلَّ هذه السخائم من

الصدور وسلَّ هذه الأحقاد، وجعلها من جثى الجاهلية، ومن علامات أهل الجاهلية يوطِّن النفس لقبول الدعوة التي يجتمعون فيها وإن كانوا مفترقين قبلها، وهذا ما فعله الشيخ رحمه الله.

ومن أهداف دعوة الشيخ أيضاً -التي حرص الشيخ رحمه الله عليها-: إقامة شرع الله عز وجل ودينه في عباده، ويُختصر الكلام فيها بأن يقال: إن الشيخ رحمه الله لم تكن دعوته -يا إخواني- متعلِّقة بحِلَق ذكر في المساجد فحسب؛ هي بدأت هكذا ولا شك في ذلك، لكنها انتقلت إلى الهدف الذي يعُمُّ المسلمين كلهم في بلاده رحمه الله، من حيث أن يُقام شرع الله عز وجل في الناس ليس في المساجد فقط بالوعظ والتذكير والدروس والشرح والتعليم، بل يُقام في الناس بالسيف الحامي والسلطان الصالح الذي ناصره محمد بن سعود.

ما هو الدور منه؟ الدور منه أن يتولى أمر الحسبة أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر، ويهيئ لها من يميز ما بين المعروف وما بين المنكر من أهل العلم وطلابه؛ بمعنى أن إقامة شرع الله سبحانه وتعالى في الناس هذه من مهام من تولى أمر المسلمين أو من ينيبه -ولي الأمر من العلماء والعاملين المفرِّقين ما بين الحق والباطل-، وهي السياسة التي تسمى السياسة الشرعية التي مفادها أو ثمرتها إقامة دين الله عز وجل في الناس، فإذا قيل: ما معنى إقامة دين الله عز وجل في الناس؟ يقال: من أمثلة إقامة دين الله عز وجل في الناس إقامة الحسبة بينهم -الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر-.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يعني ذلك أن يكون بقسوة، وإنما بلطف ورفق؛ أمر من يريد للناس الخير، ونهي من يخاف على الناس عاقبة الشرّ؛ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ما كان الرفق في شيء إلا زانه، وما نُزع من شيء إلا شانه».

الأمر الثاني الذي يتعلق بإقامة دين الله عز وجل في خلقه؛ إقامة الحدود. كما أن الشيخ رحمه الله مذكورٌ في سيرته أنه رجم المرأة التي زنت لما كان في الجبيلة قبل أن يخرج منها إلى

الدرعية، ما أقام الحد بنفسه وإنما أقام الحد مع ولي أمره في ذلك الوقت -ابن معمر-. ولما أقام الحد أيضاً كان ابن معمر الذي كان أميراً لنا وقتها، كان ابن معمر يسمع إلى الشيخ: لماذا تُرجم؟ وما هو الدليل؟ إلى غير ذلك؛ لأن المسألة متعلقة بإقامة حد، فليست إقامة الحد لأفراد الناس ولو كان شيخاً وعالماً، وإنما من المهام التي أناطها الله عز وجل بمن تولى أمر المسلمين.

وكذلك الجهاد، بمعنى أن الجهاد والقتال على التوحيد ودعوة الناس بالتي هي أحسن، فإن أبوا بُيِّنت لهم أسباب الضلالة وأسباب الهداية، فإن أبوا وغُلِبوا على ذلك وغالبهم على ذلك؛ هذا ما كان الشيخ وحده في الميدان، ولا بدأ رحمه الله معركة بينه وبين خصومه إلا لأجل التوحيد، لا لأجل الدنيا، ومع ذلك لم يكن هو الذي ابتدأ، وإنما كان في ظل ولي أمره في ذلك الوقت. وهذا الأمر الثالث.

الأمر الرابع فيما يتعلق بإقامة دين الله في الناس: الحُكم بما أنزل الله، بمعنى أن يُحكَّم شرع الله عز وجل في الناس.

وهذه الأمور الأربع يا إخواني كلها من مهام من تولى أمور المسلمين، ينصح فيها الإمام المجدِّد رحمه الله ويكون ظهيراً عليها، ويكون معيناً عليها، ويكون مؤيداً، ويكون دالاً على الصواب فيما يختاره ولي الأمر مما يتعلق بهذه الأمور الأربع، لكن الذي يتولى إقامة الحدود ولي أمر المسلمين، الذي يتولى الجهاد الكر والفر والإمساك والأسر وغير ذلك ولي أمر المسلمين، والولاية على الناس ابتلاء وتمحيص؛ بمعنى أن الله عز وجل أوكل إليه هذا حتى يقيم شرع الله عز وجل فيهم.

كذلك فيما يتعلق بالحسبة، وإن كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شرعٌ ظاهر في كل مجالات الحياة، حتى الرجل في أهله وفي ولده وفي زوجته؛ آمرٌ بالمعروف وناهٍ عن المنكر، لكنه إن خرج إلى الناس فإنه يغيِّر بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه؛

وقوله صلى الله عليه وسلم: «**من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه**»، وهذا الحديث في صحيح مسلم من حديث أبي سعيد الخدري، قوله صلى الله عليه وسلم: «**فإن لم يستطع .. فإن لم يستطع .. فإن لم يستطع**»؛ معنى ذلك أن بعض أطوار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يعجز عنها الإنسان ما لم يكن له مؤيدٌ من سلطانٍ ظاهر.

فصارت هذه الأمور الأربعة من أظهر الأمور التي حرِص الشيخ رحمه الله على أن يقيمها في المجتمع وقتها، لكنه ما ابتدأها بنفسه لأنه يعلم أن هذه من خصوصيات من تولى أمر المسلمين، وهي: الحُكم بما أنزل الله، والجهاد في سبيل الله، وإقامة الحدود، والحسبة -التي هي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر-.

أقرَّ الله عز وجل عين الشيخ رحمه الله، وما زال دعاة التوحيد يدعون إلى التوحيد، وينالهم من ذلك ما ينالهم من الأذى، وكثُرت الوشاية عليهم وكثُر الكذب عليهم واتهام الشيخ رحمه الله بأنه طالب دنيا.

ومن أغرب ما اتُّهِم به الشيخ رحمه الله وكُذِب فيه عليه: أن بعض السفهاء المبتدعة قال: إن محمد بن عبد الوهاب كارهٌ للنبي صلى الله عليه وسلم، وأنه يدّعي النبوة لنفسه! وأحياناً إذا صارت التُّهْمة بهذه الضحالة وبهذا السُّخْف وبهذا الطيش تكون خادمة للدعوة؛ إذا كان هذا خصمه فالدعوة على خير.

ومنها أيضاً: أن بعضهم اتهم الشيخ رحمه الله بأنه يقتل الناس وأنه خارجي إلى غير ذلك، ومنهم من اتهم الشيخ رحمه الله بأنه مبغضٌ للنبي عليه الصلاة والسلام، ومنهم من ادعى في الشيخ أنه جاء بمذهبٍ خامس على خلاف المذاهب الأربعة المشهورة والمعروفة.

وهذه كلها دعاوا تدلُّ على الخواء وقِلَّة الحيلة في مجابهة الدعوة السلفية. والدعوة السلفية يا إخواني لا تُنمى إلى أحد؛ الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله هيأه الله عز وجل ليكون ناصراً لها من الناصرين الكثير قبله وبعده، رحمه الله وغفر له.

فإذا كانت هذه التُّهَم التي اتُّهِم بها الشيخ رحمه الله، فالشيخ الحمد لله في عافية من هذه التُّهم لأنها ما خرجت إلا من عقولٍ فارغة؛ إما أن تكون تحمل الضغينة على التوحيد وأهله، وإما أن تكون كارهة للدعوة لأنها قطعت عليهم التنفُّع من الأضرحة؛ لأن دعوة الشيخ رحمه الله لما كان من أصول الدعوة إزالة معالم الشرك، وكانت معالم الشرك يحصل من ورائها كما يحصل من حلوان الكاهن وكما يحصل من القُرُبات؛ لما كانت قاطعةً لهذا التنفُّع الدنيوي، امتلأت قلوبهم غِلًّا على الشيخ رحمه الله وكراهية لدعوته.

ومن غريب ما قال بعض خصوم الشيخ في الشيخ رحمه الله وفي أئمة الدعوة كلهم جميعًا؛ والغريب أن هذه المقالة جاءت متأخرة لكنها خرجت من عقلٍ فارغ، قال: إن محمد بن عبد الوهاب والسلفيين -يُسمّون الوهابية، وتلك شكاةٌ ظاهرٌ عنك عارها- يحرِّمون القهوة!

وهذا من السُّخْف بمكان من حيث إن القهوة ما كانت موجودة في زمن الشيخ، هذا من ناحية.

ومن ناحية ثانية: أن الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب ألَّف كتابًا في الرد على من يحرِّم القهوة، ومن حيث إن القهوة باتفاق المسلمين أنها من الطيبات، وأنه لا يقول بتحريمها عاقل فضلاً أن يُنسب ذلك إلى إمامٍ كالإمام محمد بن عبد الوهاب أو أئمة الدعوة عمومًا.

فالمقصود أنه إذا كان الإنسان خصمه بهذا المستوى من الضغينة، وبهذا المستوى من الحَنَق والحقد والسُّخْف، فالدعوة على خير والحمد لله؛ ولهذا جعل الله عز وجل لها قبولاً، وكم من إنسان كان خصمًا للدعوة وأخرج الله عز وجل من صُلْبه من كان نصيراً للدعوة، وكم من إنسانٍ كان في أول الأمر خصمًا للدعوة لكن الله عز وجل استمال قلبه إلى أن يكون من أنصار الدعوة؛ لأن ما وصله عن الدعوة كان مشوشًا ومكذوبًا عليه فيه.

ويكفي أن أضرب مثالين على ذلك: محمد بن إسماعيل الصنعاني الذي يُسمى "الأمير" صاحب كتاب "سبل السلام" وغيرها، كان في أول الأمر منقبضـًا عن دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله لكثرة الكذِب على الشيخ، ولأنه فشا هذا الكذب حتى وصل إلى اليمن، فانقبض الشيخ محمد بن إسماعيل الصنعاني رحمه الله انقباضـًا من الدعوة في أول الأمر، فلما عرف حقيقة الدعوة وأن الشيخ رحمه الله إنما دعوته دعوة الأنبياء والمرسلين ألَّف كتاب "تطهير الاعتقاد من أدران الإلحاد"؛ يعني كان في أول أمره منقبضـًا ثم صار بعد ذلك من أنصار الدعوة، وألَّف قصيدة في الثناء على الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله وعلى دعوته.

وأيضـًا محمد بن علي الشوكاني، ومحمد بن علي الشوكاني من شوكان من اليمن حصل له مثل ما حصل لمحمد بن إسماعيل الصنعاني؛ لأنه وصل إليه أخبارٌ مغلوطة ومكذوبة على دعوة الشيخ، مع أنه ما أدرك الشيخ رحمه الله؛ فمحمد بن علي الشوكاني توفي سنة ١٢٥٠هـ والشيخ رحمه الله توفي ١٢٠٦هـ، فما أدرك الشيخ وإنما أدرك بعض طلابه، ومع ذلك وصلته أكاذيب على الشيخ رحمه الله فصار منقبضـًا من الدعوة في أول أمره، ثم بعد ذلك لما عرف الحق ألَّف كتاب "التُّحف في مذهب السلف".

والأمثلة على ذلك كثيرة؛ بمعنى أنه إذا علم الله عز وجل منهم خيراً، وعلِم الله عز وجل منهم أنهم كُذِب عليهم، يتدارك الله عز وجل بلطفه إياهم فيدلّهم على ما خفي عليهم من الحق، كما دل الله عز وجل هذين الإمامين محمد بن إسماعيل الصنعاني والشوكاني إلى ما خفي عليهما من الحق، ثم صارا بعد ذلك من مؤيدي دعوة الشيخ رحمه الله.

فكتاب التوحيد الذي اختار الإخوان التعليق عليه ألَّف عليه أهل العلم شروحـًا كثيرة، وأُلقيت فيه شروحٌ مسموعة، وتفنَّن أهل العلم المتأخرون فيما يتعلق بالتأليف عليه، فمنهم من ألَّف كتابـًا في شرح الكتاب كـ"تيسير العزيز الحميد" و"قرة عيون الموحدين" و"إبطال

التنديد" و"فتح المجيد" أَلَّف شرحـًا على الكتاب، ومنهم من أَلَّف على الكتاب شرحـًا على طريقة السؤال والجواب كالشيخ عبد الله الجار الله، ومنهم من أَلَّف نظمـًا للكتاب، ومنهم من أَلَّف شرحـًا لمسائل الكتاب لا لأبواب الكتاب كالشيخ سليمان بن حمدان؛ أَلَّف شرحـًا لمسائل الأبواب التي وضعها الشيخ رحمه الله على كل باب.

أما فيما يتعلق بالنظرة العام لكتاب التوحيد للشيخ رحمه الله، فالشيخ رحمه الله سلك فيه طريقة تُقرِّب العلم لطالبه، مدللاً على ما يقول بالكتاب والسنة، ويصدق فيه أن يقال: لو قيل لكل دليلٍ في كتاب التوحيد: عُدْ من حيث أتيت، وتعود الآيات إلى القرآن المجيد، وتعود الأحاديث إلى سنة النبي عليه الصلاة والسلام، لبقي الكتاب ليس فيه إلا الأبواب والمسائل؛ بمعنى أن الكتاب قوامه من أوله إلى آخره كلام الله عز وجل وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم، ليس فيه شرحـًا مطولاً ولا تفصيل ولا تفريع، ليس فيه من كلام الشيخ رحمه الله إلا الأبواب والمسائل، أو نُتَفٌ يسيرة يذكرها في بعض الأبواب دون بعض. وهذه من الميزات التي امتاز بها "كتاب التوحيد".

ومن الميزات أيضـًا التي امتاز بها "كتاب التوحيد": أنه وإن كان عنوانه -وهذا يُتفطَّن له يا إخوان لأن بعض المتأخرين أو بعض الذين لا يعرفون "كتاب التوحيد" على حقيقته، يخطئون في هذا- أن "كتاب التوحيد" وإن كان من عنوانه يتعلَّق بتوحيد العبودية لله -كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد-، إلا أن في "كتاب التوحيد" أبوابٌ متعلقة بتوحيد الربوبية، وفي "كتاب التوحيد" أيضـًا أبوابٌ متعلقة بالقضاء والقدَر، وفي "كتاب التوحيد" في آخره أبوابٌ متعلقةٌ بالأسماء والصفات، وأبوابٌ متعلقة بما لا يجوز من الصفات إلا لله كملك الأملاك وغيرها.

إذن هو شاملٌ لأنواع التوحيد كلها، وأنواع التوحيد كما هو معروفٌ عند الإخوان ثلاثة، ومنهم من يقول إنها اثنان، ولا خلاف فيما يتعلَّق بتقسيمها إلى اثنين أو ثلاثة لأنها كلها عائدة

إلى أن التوحيد إما أن يكون توحيد قصد وطلب، وإما أن يكون توحيد معرفة وإثبات. وتوحيد القصد والطلب هو الذي بعث الله عز وجل له الأنبياء والمرسلين؛ أن يقصد الله عز وجل ولا يقصد غيره، وأن يطلب ما عند الله ولا يدعو غيره، وهذا الذي يُسمى توحيد العبودية أو توحيد العبادة أو توحيد الإلهية.

وإما أن يكون توحيد معرفة وإثبات؛ بمعنى أن يعرف الله عز وجل بما تعرَّف به إلى عباده من أسمائه وصفاته، وما تنزه عنه سبحانه وتعالى من الصفات التي لا تليق به كاللغوب، والإعياء، والظلم، والنوم، والسِّنَة، والعجز وغير ذلك.

وإما أن يكون متعلقاً بإثبات تدبيره سبحانه وتعالى لملكوته؛ الإيجاد من العدم والخلق والرزق والإحياء والإماتة والقبض، والبعث بعد الموت والحساب والجزاء.

فصار التوحيد نوعان: توحيد قصد وطلب، وتوحيد معرفة وإثبات.

هذا التقسيم هو ذاته تقسيم المتأخرين أن التوحيد ثلاثة أقسام: توحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات.

ولماذا سُميت توحيداً؟ لأنه يجب أن يكون الاعتقاد فيها واحداً لله سبحانه وتعالى، وأن يُفرِد الإنسان فيها الاعتقاد لله سبحانه وتعالى؛ فتوحيد الألوهية بمعنى أن تكون العبادة كلها لله ليس لأحدٍ فيها حظ، وتوحيد الأسماء والصفات بمعنى أن يُعتقد أن أسماء الله عز وجل وصفاته ليست كأسماء خلْقه ولا صفاته، وأن الله عز وجل لا يُشبِه خلقه في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، وأن المخلوق يعتريه النقص من كل جهة، وأن الله عز وجل منزَّهٌ عن ذلك.

وتوحيد الربوبية بمعنى أن الله عز وجل كان واحداً سبحانه وتعالى، كما تفرد في الخلْق فلم يشرَكه أحدٌ في الخلْق، وتفرَّد في الرزق فلم يشركه أحدٌ في الرَّزْق، وتفرَّد بالموت، وتفرَّد بالبعث بعد الموت وبالحساب والجزاء؛ كما قال الله عز وجل: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾[لقمان:٢٨]، كذلك تفرَّد سبحانه وتعالى بالتدبير، فتوحيد الله عز وجل أن يكون

واحـداً في مسـائل العبـادة، وواحـداً فيمـا يتعلـق بالربوبيـة، وواحـداً فيمـا يتعلَّـق بالأسـماء والصفات.

نحن أطلنا في هذه المقدمة يا إخواني، وهي إطالة مقصودة على كل حال لأنه من باب التصور على ما كانت عليه الدعوة قبل أن يبدأ الشيخ رحمه الله بالدعوة، وقبل أن يصرِّح بنفي الشرك والتحذير منه.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ.

الْحَمْدُ لِلَّهِ، وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.

كِتَابُ التَّوْحِيْدِ

وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُوْنِ﴾[الذَّارِيَات:٥٦].

وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُوْلًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوْتَ﴾[النَّحل:٣٦] الآيَة.

وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾[الإِسْرَاء:٢٣] الآيَة.

وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾[النِّسَاء:٣٦] الآيَات.



قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

قال رحمه الله: (**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ.**

الْحَمْدُ لِلَّهِ، وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.

كِتَابُ التَّوْحِيْدِ) هذا في بعض النسخ -ما أدري نسخ الإخوان-.

بدأ الشيخ رحمه الله بالبسملة تأسياً بالكتاب العزيز، وهنا مسألة متعلقة بهذا البحث أن بعض الشُرَّاح يقولون "اقتداءً بالكتاب العزيز"، والله عز وجل لا يُقتدى به سبحانه وتعالى، الله عز وجل يُمتثل أمره، الله عز وجل يُستجاب لأمره، والاقتداء إنما يكون بالنبي صلى الله عليه وسلم؛ لأن الاقتداء لا بد أن يكون هناك قاسمٌ مشترك ما بين المقتدي والمقتدى به، أما الله عز وجل فآمرٌ وناهي ومشرِّع سبحانه وبحمده، لكن يقال: "تأسياً بالكتاب العزيز"؛ لأن النبي عليه الصلاة والسلام.. في العرضات الأخيرة وضع البسملة مواضعها التي ترونها الآن.

وأيضاً بما يتعلق بالبسملة أن سنن الأنبياء والمرسلين جميعاً بدء كتبهم بـ"بسم الله

الرحمن الرحيم". يدلُّ على ذلك قوله سبحانه وتعالى في قصة سليمان: ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾[النمل:٣٠].

لماذا نقول الأنبياء جميعاً مع أن الله ما ذكر إلا سليمان؟ لأن الله عز وجل قال: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ ۖ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾[الأنعام:٩٠]؛ فما فعله سليمان فعله الأنبياء قبله، وفعله النبيون بعده صلى الله عليه وسلم. ولهذا النبي صلى الله عليه وسلم كان يبدأ بالبسملة في كتبه التي يبعثها إلى الملوك وإلى كبار الأمم؛ كما بعث النبي عليه الصلاة والسلام كتابه إلى هرقل عظيم الروم، والكتاب في صحيح البخاري في حديث أبي سفيان رواه ابن عباس رضي الله عنهما؛ أن النبي صلى الله عليه وسلم كتب إلى هرقل عظيم الروم: «بسم الله الرحمن الرحيم، محمد بن عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم».

ومعنى «بسم الله الرحمن الرحيم» يعني: أستعين باسم الله واسم الرحمن واسم الرحيم على ما عزمت عليه من تأليف، أو ما عزمت عليه من سفر، أو ما عزمت عليه من دخول بيت أو غير ذلك، أو كل شيءٍ ذي بال؛ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «كل أمرٍ ذي بال -يعني يشغل البال ويهتم له الإنسان- لا يُبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أقطع»، وفي رواية «أجذم»؛ يعني ناقص البركة.

قال رحمه الله: (وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه) الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم كما قال أبو العالية، ويُذكر عن بعض الصحابة رضي الله عنهم وفي سنده كلام، لكنه ثابتٌ عن أبي العالية الرياحي، وقيل: عن أبي قتادة، وقيل: عن قتادة بن دعامة السدوسي؛ أن صلاة الله عز وجل على نبيه صلى الله عليه وسلم: ثناؤه سبحانه وتعالى عليه في الملأ الأعلى، وصلاة من دون الرب سبحانه وبحمده من الخلق هي الدعاء.

فإذا قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ۚ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[الأحزاب:٥٦]، فصلاة الله عز وجل لا يقال دعاءً؛ هل الله عز وجل يدعو

لأحد؟ الله هو الذي يُدعى سبحانه وبحمده.

اعذروني إذا أطلنا في هذه المسألة نوعـًا ما؛ لأن البعض الناس ربما يخفى عليهم أنه لا يقال أن الله عز وجل يدعو لأحد، يدعو لمن سبحانه وبحمده؟ هو الذي يُدعى؛ كما يقال أن الله عز وجل يشفع لفلان، يشفع عند من؟ الله عز وجل هو الذي يُشفع عنده. كما قلنا قبل قليل أنه لا يُقتدى به سبحانه وبحمده؛ لأن الله عز وجل مدبِّرٌ آمرٌ ناهٍ مشرِّع، فمقام الرب عز وجل أعظم من أن يقال فيه مثل هذا.

لما قال رجل: "يا رسول الله، إننا نستشفع بالله عليك ونستشفع بك على الله"، قال: «ويلك أتدري ما تقول؟ إنه لا يُستشفع بالله على أحدٍ من خلقه».

كذلك فيما يتعلق بالدعاء، لا يقال أن الله عز وجل يدعو لك، وإنما يقال: أنت ادعُ الله لمن تحب، أنت ادعُ الله عز وجل لنفسك.

فالشاهد أن الصلاة في أصلها الدعاء، لكن صلاة الله عز وجل على نبيه صلى الله عليه وسلم المقصود بها ثناؤه سبحانه وتعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم في الملأ الأعلى. ولماذا نقول الصلاة في اللغة هي الدعاء؟ لدلالة القرآن على ذلك؛ قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾[التوبة:١٠٣]؛ يعني ادعُ لهم. حتى في أشعار الجاهلية: "عليكِ مثل الذي صليتِ فاغتبطي"؛ لما دعت ابنة الأعشى ميمون بن قيس، لما دعت لأبيها، قال: "عليكِ مثل الذي صليتِ" يعني بمثل دعائكِ لي أدعو لكِ أيضـًا.

فالشاهد أن الصلاة في اللغة: هي الدعاء، إلا إذا أضيفت إلى الرب عز وجل؛ إذا أضيفت لله سبحانه وتعالى يقال أن المقصود بها ثناؤه سبحانه وتعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم.

أما صلاة الملائكة على النبي صلى الله عليه وسلم وصلاة المصلي عليه صلى الله عليه وسلم فهذا دعاءٌ، يُدعى به الله عز وجل أن يصلي الله عز وجل -يعني يُثني- على نبيه صلى الله عليه وسلم، ويسلِّم، وتسليم الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم بعد موته فلا يُطال

عرضه بسوء، تسليم الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم فلا يدخل في سنته بدعة مبتدعة، تسليم الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾[الحجر:٩٥]، يعني مع كونه تسليم دعاء هو تسليمٌ أعمُّ من ذلك.

قال الشيخ رحمه الله: (كِتَابُ التَّوْحِيْدِ).

الكتاب في اللغة مأخوذٌ من "كَتَبَ"، و"كَتَبَ" بمعنى جَمَعَ، الكتْب في اللغة الجمْع؛ ولهذا تسمى الكتيبة كتيبةً لأنه مجموعةٌ من الجند، ويسمى الكتاب كتاباً لأنه يجمع ما بين الكلمات والحروف والمعاني وغير ذلك. والكتْب في اللغة: العقد والجمع.

لا تأمننَّ فزارياً خلوت به ... على قلوصك واكتبها بأسيارِ

يعني اجمع قدميها ورجليها بأسيار -جمع سير- حتى لا يسرق؛ هذا من الشواهد التي تُذكر في مثل هذا المقام.

فكتاب التوحيد بمعنى: هذا كتابٌ يجمع مسائل التوحيد، وليس المقصود بذلك جمْع الحصر؛ بمعنى أن ما خلا منه الكتاب من مسائل التوحيد فليس من التوحيد، حتى الذين ألّفوا قبل الشيخ رحمه الله في كتب التوحيد وكتب السنة وكتب الإيمان وكتب الاتباع، ما قصدوا بذلك الحصر؛ لأن قصد الحصر يوقع في الحرج من حيث أن الإنسان ربما يخفى عليه شيءٌ يتداركه من جاء بعده.

ولهذا الشيخ نفسه رحمه الله في كتاب التوحيد وفي غيرها من الكتب -وننتبه لهذا-، يذكر الشيخ بعض مسائل التوحيد التي لم يذكرها في "كتاب التوحيد"، يذكرها في كتاب "كشف الشبهات" أو في "القواعد الأربعة" أو في "الأصول الثلاثة" أو في غيرها من كتبه؛ فإذا قيل: هذا كتاب كذا، ليس المقصود بذلك الحصر، ولا يقول بذلك أحدٌ من الناس.

قال رحمه الله: (كِتَابُ التَّوْحِيْدِ) وقلنا قبل قليل أن المقصودة بالتوحيد جعْل الشيء المتعدد واحداً، بمعنى أن تُجعل العبادة كلها لله سبحانه وتعالى؛ وإذا قلنا أن العبادة كلها لله

سبحانه وتعالى معنى ذلك أن من صرف العبادة لله عز وجل إلا نوعاً من أنواع العبادة صرفه لغير الله لا يُسمى موحِّداً؛ إذا صرف العبادة كلها لله عز وجل إلا الدعاء، دعا غير الله من الأموات وغيرهم فهذا لا يسمى موحداً -فيما يتعلق بالحكم الظاهر؛ إقامة الحجة وانتفاء الموانع هذا بحث آخر-.

ولهذا ضرب الشيخ رحمه الله مثالاً على ذلك بالنجاسة والطهارة في "القواعد الأربعة"، هذا كلامه في "القواعد الأربعة" من حيث أن الشيخ رحمه الله قَالَ: أن التوحيد والشرك شأنهما شأن الطهارة والحدث؛ فالطهارة إذا تطهَّر الإنسان طهارة ترفع الحدث وتُزيل الخبث، ثم وقع له شيءٌ من الحدث أو شيءٌ من الخبث لا تصح الصلاة حتى يستأنف الطهارة من جديد ويزيل الخبث عن الثياب، فكذلك التوحيد؛ الأصل في التوحيد أن تكون العبادة كلها لله، فإذا طرأ الشرك على النذر فنذر لغير الله سبحانه وتعالى فقد وقع في الشرك الأكبر ولو ما دعا غير الله، ولو طرأ على دعاء غير الله سبحانه وتعالى فقد وقع في الشرك الأكبر ولو لم يذبح لغير الله، وإنما ذبح لله.

بمعنى أن كل عبادة -وهذا من الأصول الثابتة عند أهل السنة والجماعة في باب التوحيد- كل عبادة يُقصد بها وجه الله سبحانه وتعالى مشروعة في كتابه وفي سنة النبي عليه الصلاة والسلام، من صرفها لغير الله فقد وقع في الشرك الأكبر -من صرف عبادة لا تجوز إلا لله لغير الله فقد وقع في الشرك الأكبر-.

أما باب العذر بالجهل، والعذر بالإكراه، والعذر بالتأوُّل وغيرها، فهذا له بحثٌ آخر، لكن المقصود بذلك التقرير بالمسألة؛ التقرير الأول الذي دل عليه كلام الله سبحانه وتعالى وكلام رسوله عليه الصلاة والسلام.

ومن أدلة ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ﴾[البينة:٥]، والشاهد في ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿مُخْلِصِينَ﴾؛ يعني أن تكون العبادة كلها خالصة لله

سبحانه وتعالى؛ كما (قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات:٥٦]).

ولهذا الشيخ رحمه الله بدأ هذا الكتاب بهذه الآية؛ أن الله عز وجل ما خلق الجن والإنس إلا لعبادته سبحانه وتعالى، فما خلقهم الله عز وجل لحاجة إليهم؛ فالله عز وجل ما خلق الجن والإنس إلا لعبادته، ومع ذلك ليس لحاجةٍ إلى عبادتهم إياها -تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً هو الغني الحميد-، وإنما خلقهم لعبادته ليكون ذلك نافعاً لهم في الآخرة، ولأن الذي يستحق العبادة هو المدبِّر سبحانه وبحمده، وأن كل عبادة صُرِفت لغيره باطلة؛ فما خلق الله عز وجل الثقلين ليستكثر بهم من قِلَّة، ولا ليستغني بهم من فقر، ولا ليستأنس بهم من وحشة، ولا ليستقوي بهم من ضعف، ولا لحاجة سبحانه وتعالى إليهم.

وقد قال الله سبحانه وتعالى في الحديث القدسي -الذي يرويه عن ربه-: «يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني». فالله عز وجل غنيٌّ حميد سبحانه وبحمده، وإنما خلقهم لعبادته لأنه لا يجوز إلا هذا؛ لا يجوز أن يكون الإنسان خلقه سبحانه وتعالى ورزقه ودبَّره وكلأه وحفظه وأعانه وكفاه وشفاه ووقاه ثم يعبد غيره! هذا من أقبح الظلم، ومع ذلك إنما هو ظلمٌ للنفس، يظلم العبد فيه نفسه ولا يظلم ربه سبحانه وتعالى؛ كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[البقرة:٥٧].

قال الشيخ رحمه الله: (وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[النَّحل:٣٦])؛ لأنه ما من رسول إلا كانت دعوته الأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك.

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ بمعنى أن الإنسان يدعو إلى عبادة الله سبحانه وتعالى والنهي عن الشرك تأسياً واقتداءً بسنن الأنبياء والمرسلين.

وإن كان هذا جاء تبعـًا -يا إخواني-، نحن لا نقول أن الأنبياء والمرسلين ما جاؤوا لإصلاح حال الناس في بعض مجالات الحياة، نقول: جاء في بعض دعوات الأنبياء والمرسلين ما يتعلَّق بهذا، لكن الأمر الأول الذي بُعثوا لأجله إصلاح الدين أو إصلاح الدنيا؟ إصلاح الدين، أن يكون الدين لله سبحانه وتعالى، وأن لا يقع في الناس الشرك الذي وقع في قوم نوح، ثم يتبع ذلك إصلاحات تتعلق بالدنيا؛ حتى قد تكون إصلاحات تتعلَّق بصحة البدن وحفظ الصحة له، أو فيما يتعلق بالأمور الاقتصادية وغير ذلك، لكن الأصل الذي لأجله بُعث الأنبياء هو الدعوة إلى التوحيد والنهي عن الشرك.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ يعني: كل ما تجاوز به العبد حده من متبوعٍ أو مطاع، وهو يدخل فيها دخولاً أوليـًا عبادة غير الله سبحانه وتعالى، والحامل على عبادة غير الله سبحانه وتعالى عند المشركين الغلو الذي هو الطغيان في الأولياء والصالحين؛ لأنه إذا طغى شيء بمعنى إذا تجاوز حده إلى ما لا يصلح يسمى طاغية؛ كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾[الحاقة:١١].

والمشركون إنما وقعوا في الشرك في زمن نوحٍ بسبب ذلك؛ غلوا في "ود" و"سواع" و"يغوث" و"يعوق" و"نسر"، وكانوا ناسـًا صالحين، لم يكونوا مشركين، هؤلاء كانوا أناسـًا صالحين، فزين الشيطان لمن كانوا في زمنهم أن يصنعوا لهم تماثيل، حتى إذا رأوهم نشطوا على ما كانوا ينشطون عليه من العبادة فيعبدون الله، هذه شُبْهة إبليس الأولى؛ بمعنى أنه فتح باب التصوير في أول الأمر، ولم يدعهم إلى عبادة الأصنام، وإنما زيَّن لهم ذلك حتى يكون ذلك داعيـًا إلى أن يعبدوا الله كما عبد الله سبحانه وتعالى هؤلاء الصالحون.

قال ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾[نوح:٢٣] قَالَ: «هذه أسماء رجال صالحون من قوم نوح، فلما هلكوا؛ أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابـًا،

وسموها بأسمائهم، ففعلوا فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك ونُسي العلم؛ عُبِدت».

فالذين عبدوا الأصنام: ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر، وأيضًا في زمن بعثته صلى الله عليه وسلم: إساف ونائلة وهُبَل واللات والعزى وغيرها، إنما وقعوا في ذلك بسبب الطغيان، بمعنى أنهم طغوا عما خلقهم الله عز وجل لأجله من عبادته، فانحرفوا عن التوحيد إلى الشرك.

وفي قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾؛ هذا مثل قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾[فاطر:٢٤]، وكقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[الإسراء:١٥]. وهذا من كمال لطفه سبحانه وتعالى من حيث الدلالة إلى التوحيد، وقيام حُجَّتِهِ على خلقه من حيث أن الله عز وجل بعث الأنبياء مبشرين ومنذرين، فمن خالف أنبياء الله عز وجل إلى هوى نفسه وإلى ما أدرك عليه آباءه وأجداده واقتدى بهم، وترك دعوة الأنبياء والمرسلين، فقد أُقيمت حُجَّة الله عز وجل عليه.

قال الشيخ رحمه الله: (وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾[الإِسْرَاء:٢٣]).

الشاهد من هذه الآية أولها قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾، قضى يعني قضاءً شرعيًا؛ بمعنى أن الله عز وجل أمر سبحانه وبحمده بعبادته وتـرْك عبادة ما سواه، كما أن الله عز وجل أمر ببر الوالدين.

والحقوق -يا إخواني- في ملكوت الله سبحانه وتعالى على الترتيب: أعظمها حق الله عز وجل، لما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إن لصاحب الحق مقالاً»، في قصة رجل جاء يطلب دينًا له عند النبي صلى الله عليه وسلم -ولم يكن النبي يجد قضاء دينه في ذلك الوقت-

فأغلظ في كلامه للنبي عليه الصلاة والسلام، فهمّ الصحابة بالرجل فقال: «**دعوه فإن لصاحب الحق مقالاً**»؛ هذه الكلمة «**فإن لصاحب الحق مقالاً**» أعظم حقٍّ بين الخلْق هو حق الله سبحانه وتعالى؛ إذن لله عز وجل مقالٌ في من صرف حقه إلى غيره سبحانه وتعالى.

فإذا قيل: قضى الله عز وجل أن لا يُعبد إلا هو، فمن خالف قضاء الله عز وجل الشرعي الديني فإن الله عز وجل آخذٌ بحقه سبحانه وبحمده، بمعنى أن الله عز وجل إذا ذكر الحقوق وما قضى من الشرع، يُرتب حقه سبحانه وتعالى لأنه أعظم الحقوق وخُلِقوا لأجله، ثم يذكر بعد ذلك الحقوق بالتبع.

فآية الحقوق على سبيل المثال في سورة النساء قال الله سبحانه وتعالى: ﴿**وَاعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا**﴾، هذا هو الحق الأول، ﴿**وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۗ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا**﴾[النساء: ٣٦]، فلما ذكر الله عز وجل عشرة حقوق، لا يليق بحق الله عز وجل إلا أن يكون أولها؛ لأن من ضيَّع حق الله وأتى بسائر الحقوق لا ينفعه ذلك، من أتى بحق الله سبحانه وتعالى وقصَّر في سائر الحقوق ربما غفر الله عز وجل ﴿**وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ**﴾[النساء:٤٨].

كذلك فيما يتعلق بالقضاء؛ إذا ذكر الله عز وجل ما قضى على عباده من شرعه ودينه، يذكر الله عز وجل أول قضاءٍ فيهم وهو أن تكون العبادة لله سبحانه وتعالى.

وأوجب حقٍ لمخلوقٍ على مخلوق بعد حق النبي صلى الله عليه وسلم على أمته كلها، وحق النبي صلى الله عليه وسلم لم يُذكر في هذا لأن الكلام يتعلَّق بالحق اللصيق بالإنسان من حيث الرعاية والتربية وغير ذلك، أما حق النبي صلى الله عليه وسلم فحق النبي على أمته قاطبة عليه الصلاة والسلام، أقل حق له عليه الصلاة والسلام أن يصلى عليه كلما ذُكِر، ناهيك عن التأسي به، وناهيك عن الدعوة إلى سنته والصبر على ذلك، والتحذير من البدع

التي طرأت على سنته من المنحرفين، إلى غير ذلك من حقوقه عليه الصلاة والسلام؛ طاعته فيما أمر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وتصديقه فيما أخبر، وأن لا يُعبد الله إلا بما شرع، وأن لا يُغلى فيه عليه الصلاة والسلام غلو النصارى في عيسى... إلى غير ذلك.

لكننا نتكلم هنا فيما يتعلق بحق الوالدين الذي رتَّبه الله سبحانه وتعالى في ثلاث آيات بعد حقه سبحانه وبحمده؛ جعل الله عز وجل حق الوالدين تبعًا لحقه سبحانه وتعالى في ثلاث آيات، والمتتبع للقرآن قد يجد أكثر من ذلك، والمتتبع للسنة قد يجد أكثر من ذلك.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾، هذا فيما يتعلق بالقضاء الشرعي والديني، وفيما يتعلق بالحقوق قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾[النساء:٣٦]، وفيما يتعلق بالوصية: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ إلى أن قال سبحانه وتعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[الأنعام:١٥١]، ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[الأنعام:١٥٢]، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[الأنعام:١٥٣].

فالمقصود أن حق الوالدين قدَّمه الله عز وجل لِعِظم حق الوالدين على ولدهما، وإن كانا كافرين يبقى أن لهما على ولدهما الصُّحبة بالمعروف ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾[لقمان:١٥] وإن كانا كافرين، ولا يعني ذلك أن يصاحبهما بالمعروف ولا يدعوهما إلى التوحيد، كما يظن بعض الناس أنه يُكتفى في الوالد الكافر بالحق الذي ذكره في القرآن من حيث أنه يقتصر على حُسْن الصُحْبة وحُسْن التعامل؛ لا، هو مع ذلك يدعوه إلى الدخول في الإسلام، لأنه وإن فعل حق الوالد من حيث حُسن الصُّحبة.

فحُسن الصُّحبة نفعها في الدنيا للوالد المداوم على كفره، لكن الدعوة للتوحيد نفْعُها وفائدتها وعائدتها في الدنيا والآخرة جميعًا؛ فليس معنى قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾[لقمان:١٥] أن

يقتصر على حُسن الصحبة، بل يداوم على الدعوة باللطف والرفق وبالتي هي أحسن حتى وإن سمع منهم ما يكره.

والآية التي في سورة العنكبوت نزلت في سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، وهو من المبشرين بالجنة، وهذه الآية ذُكِر مثلها في سورة الأحقاف وفي سورة لقمان كما تعلمون، لكن الله عز وجل عاتب سعداً رضي الله عنه لما قال لأمه: "والله يا أماه لو كانت لكِ مائة نفسٍ فخرجت نفساً نفساً ما تركت دين محمد صلى الله عليه وسلم"، إنها أبت أن تأكل حتى يترك دين محمد.

فإذا قيل: أن الله عز وجل أمر بحُسن الصُّحْبة، لا يعني ذلك في حُسْن الصُّحْبة ألا يدعوهم إلى التوحيد، حتى وإن أسمعاه باطلاً، حتى وإن جحد وإن قال كلاماً لا يليق؛ يبقى داعياً إلى التوحيد.

ومما يُذكر في هذا السياق أن أبا هريرة رضي الله عنه -والحديث في صحيح مسلم- كان يسمع من أمه كلاماً لا يُحبه في النبي عليه الصلاة والسلام، وكان باراً بأمه رضي الله عنه وأرضاه، لكنه يُحب لها أن تسلم وكلما دعاها إلى ذلك أسمعته ما يكره، فآلمه يوماً من الأيام كلام أمه، فذهب إلى النبي صلى الله عليه وسلم يبكي رضي الله عنه وأرضاه، فسأله النبي عن ذلك فقال: «يا رسول الله دعوت أمي فأسمعتني ما أكره، ادعُ الله لأمي»، فقال النبي عليه الصلاة والسلام: «**اللهم اهدِ أم أبي هريرة**».

بمعنى أنه ما زال حُبُّه لأن تكون أمه على التوحيد موجوداً ولو كان حَسَن الصُّحْبة لها؛ فذهب أبو هريرة يبشِّر أمه التي قالت في النبي ما لا يليق، أن النبي قال فيكِ ما يدلُّ على أنه يحب لكِ الخير صلى الله عليه وسلم، فلما دخل البيت قالت: "على رسلك يا أبا هريرة"، وأجاف الباب؛ فإذا أمه تغتسل دخلت في الإسلام. بمعنى أن الله عز وجل استجاب دعوة النبي عليه الصلاة والسلام في أم أبي هريرة قبل أن يصل إليها ولدها رضي الله عنه؛ ففرح أبو

هريرة وعاد إلى النبي صلى الله عليه وسلم يبشِّره وهو يضحك، فقال -وما زال طمعه في الخير كثيراً رضي الله عنه-: «يا رسول الله، حببني وأمي إلى المسلمين»، قال: «**اللهم حبب أبا هريرة وأمه إلى المسلمين**». قال أبو هريرة: «فليس على ظهر الأرض أحدٌ إلا وهو يحبني»، وهذا هو الواقع، وإن تكلم بعض الساقطين ووقعوا في أبي هريرة، إلا أن الله عز وجل وضع قبولاً لهذا الصحابي الجليل رضي الله عنه في قلوب الناس.

قال بعض الذين علَّقوا على هذا الحديث: "هذا ليس متعلقاً بأبي هريرة إلا من حيث أن أبا هريرة رضي الله عنه كان وعاء علمٍ للسنة النبوية"، وإلا فمحبة المسلمين لأصحاب النبي عليه الصلاة والسلام ظاهرة في كلام الله عز وجل وكلام رسوله عليه الصلاة والسلام، وهي شعار أهل السنة أنهم يحبون الصحابة جميعاً، لا يحبون بعضهم ويبغضون بعض نحبهم كلهم جميعاً.

لكن هذه خصوصية لأبي هريرة رضي الله عنه، لأن أبا هريرة كان ديوانُ المسلمين، وكان وعاءُ عِلمٍ وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أكثر من خمسة آلاف حديث؛ فمحبة الناس لأبي هريرة رضي الله عنه وأرضاه، وإن كانت خاصية لأبي هريرة رضي الله عنه إلا أنها أيضاً متعلقة بما يرويه أبو هريرة، وتصديق أبي هريرة رضي الله عنه في روايته لحديث النبي عليه الصلاة والسلام.

مع أن أبا هريرة رضي الله عنه إنما أدرك من الزمن الفاضل زمن النبي عليه الصلاة والسلام ثلاث سنين وثلاثة أشهر، حتى أن أكثر حديث أبي هريرة إنما هو من مراسيل الصحابة رضي الله عنهم؛ يعني يروي عن النبي صلى الله عليه وسلم حديثاً هو لم يشهده ولم يحضره ولم يسمعه، لكنه رواه عن صحابيٍ آخر ولم يسمِّ الصحابي، ومراسيل الصحابة بإجماع أهل العلم مقبولة، ما خالف في ذلك إلا ابن حزم وهو خلافٌ مُطّرح لا قيمة له؛ مراسيل الصحابة مقبولةٌ عند المسلمين جميعاً، لأن الصحابة كلهم بمنزلةٍ واحدة من حيث

الثقة والعدالة والصدق وإن اختلفوا في المنزلة من حيث الفضل؛ فليس أبو هريرة في الفضل كأبي بكر رضي الله عنه الجميع، وليس محمود بن الربيع كعمر والمبشرين والسابقين الأولين، لكنهم كلهم من حيث الصدق والعدالة والثقة فيما ينقلون عن النبي عليه الصلاة والسلام كلهم بمنزلةٍ واحدة.

فكثرة أحاديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم لكثرة مراسيله رضي الله عنه وأرضاه، عن الصحابة رضي الله عنهم عن النبي صلى الله عليه وسلم.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾[الأنعام:١٥١].

قال ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى وَصِيَّةِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم الَّتِي عَلَيْهِا خَاتَمُهُ فَلْيَقْرَأْ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾[الأنعام:١٥١]».

وَعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ قَالَ: كُنْتُ رَدِيْفَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى حِمَارٍ؛ فَقَالَ لِي: «يَا مُعَاذُ! أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَى العِبَادِ وَمَا حَقُّ العِبَادِ عَلَى اللهِ؟» قُلْتُ: اللهُ وَرَسُوْلُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «حَقُّ اللهِ عَلَى العِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوْهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقُّ العِبَادِ عَلَى اللهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا». قُلْتُ: يَا رَسُوْلَ اللهِ؛ أَفَلَا أُبَشِّرُ النَّاسَ؟ قَالَ: «لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا». أَخْرَجَاهُ.



قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ الله:

فقد تقدم الكلام في القراءة السابقة على آية الوصايا وآية الحقوق العشرة، وكان مما تقدم أن الله ﷻ قدَّم حقه لما ذكر الحقوق، وقدَّم الوصية بحقه لما ذكر الوصايا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ (**قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾**[الأنعام:١٥١])، تقدم الكلام عن أن الله ﷻ إذا ذكر حقاً لمخلوقٍ يقدِّم حق الوالدين على غيرهما؛ لِعظم ما أوجب الله لهما على أبنائهما من البرِّ ومن السمع والطاعة وحُسْن الصُحبة -والطاعة في غير معصية الله- إلى غير ذلك.

(**قال ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى وَصِيَّةِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم الَّتِي عَلَيْهِا خَاتَمُهُ فَلْيَقْرَأْ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾**[الأنعام:١٥١]»)، وقول ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ذلك لأن الله ﷻ ختم الآيات الثلاث بقوله

سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[الأنعام:١٥١]، ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[الأنعام:١٥٢]، ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[الأنعام:١٥٣].

والحق أن وصية النبي صلى الله عليه وسلم لأمته ليست حديثًا واحداً ولا في أمرٍ واحد، وإنما كل أمرٍ أَمَر الله ﷻ به رسوله صلى الله عليه وسلم وبلَّغه رسوله أمته هو وصيةٌ، يوصي الله ﷻ بها نبيه، ويوصي بها نبيه صلى الله عليه وسلم أمته.

فعلى سبيل المثال قوله صلى الله عليه وسلم: «من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد» هذه وصية، وقول الرب سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ هذه وصية، وقول النبي صلى الله عليه وسلم: «فليكن أول ما تدعوهم إليه..» هذه وصية. وإنما قصد ابن مسعودٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في هذا الحديث التنصيص على الوصية لا حصر الوصية؛ فكل سنته وصيةٌ في أمته صلى الله عليه وسلم، وكل ما نهى عنه صلى الله عليه وسلم وصية لأمته أن لا يفعلوه.

ومن المعلوم أن النبي صلى الله عليه وسلم ما ترك وصيةً مكتوبة وإنما ترك ديناً ظاهراً محفوظًا إلى قيام الساعة، وهذا أبلغ في تحمُّل الوصية وحفظها.

ثم قال الإمام رَحِمَهُٱللَّهُ: (وَعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ؛ قَالَ: «كُنْتُ رَدِيْفَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى حِمَارٍ؛ فَقَالَ لِي: «يَا مُعَاذُ! أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَى العِبَادِ وَمَا حَقُّ العِبَادِ عَلَى اللهِ؟» قُلْتُ: اللهُ وَرَسُوْلُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «حَقُّ اللهِ عَلَى العِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوْهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقُّ العِبَادِ عَلَى اللهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا». قُلْتُ: يَا رَسُوْلَ اللهِ؛ أَفَلَا أُبَشِّرُ النَّاسَ؟ قَالَ: «لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا». أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيْحَيْنِ).

فِيْهِ مَسَائِلُ:

المسألة الأولى: فَضِيْلَةٌ لمعاذ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ؛ لا من حيث أن النبي صلى الله عليه وسلم أردفه على الحمار -لأن النبي أردفه وأردف غيره في أحاديث أخرى-، لكن من حيث أن النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ خصَّ معاذاً رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بهذا الحديث، وأن هذا الحديث يتعلَّق بأعظم حقٍ وهو

حق الله ﷻ على عباده وهو أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، كما أن فيه أن معاذاً رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ له من المنزلة عند الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ ما لا يخفى؛ من حيث أنه أعلم الأمة بالحلال والحرام كما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم، ومن حيث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في معاذ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «يُحشر أمام العلماء برتوة» -يعني رميةً بحجر-، ومن حيث أن النبي صلى الله عليه وسلم أرسله إلى اليمن يعلِّمهم التوحيد ويدعوهم إلى الإسلام وإلى غير ذلك.

ومن حيث أن النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ قال: «يا معاذ إني لأحبك في الله»، ومن حيث أنه ممن استظهر القرآن كله من شباب الصحابة والنبي حاضر صلى الله عليه وسلم، ومن حيث أن معاذ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مات بالطاعون في "عمواس" من بلاد فلسطين والموت بالطاعون شهادة.

وفضائل معاذ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أكثر من هذا، لكن المقصود بذلك أن هذا الحديث متعلِّقٌ بأن النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ لما أردف معاذ بن جبل دلَّ على أن في هذا فضيلة لمعاذٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ؛ لا من حيث الإرداف وحده -وإن كان هذا فضلاً-، لكن من حيث الإرداف ومن حيث خصِّه صلى الله عليه وسلم معاذاً بهذا الحديث، ومن حيث شرف الحديث نفسه أنه يتعلق بحق الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

المسألة الثانية: إرداف الرجل غيره على الدابة.

وهذه من فضول العلم ليست ذات شأن لأنها معروفة عند الناس، ويستوي فيها الناس جميعـًا أنه لا يُردف على الدابة إلا ما تطيق حملانه الدابة.

والمسألة الكبرى في هذا الحديث: حق الله ﷻ الذي هو عبادته سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وأن لا يُعبد غيره معه، ومن باب أولى أن لا يُعبد غيره -تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً-. ولهذا من عَبَد غير الله معه في عبادةٍ أو عباداتٍ أو في الدين كله فقد كفر بالله؛ يستوي في ذلك من عَبَد غير الله ﷻ بنوعٍ من أنواع العبادة، أو من عَبَدَ معه غيره، أو من عَبَد غيره وترك عبادة الرب سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

والأصل الثابت عند المسلمين: أن كل عبادة ثابتة بالكتاب والسنة أنها عبادة، صرْفها لغير الله شِرْكٌ أكبر ناقلٌ عن المِلَّة، هذا من حيث تقعيد المسألة. أما العذر بالجهل وعدم العذر بالجهل واختلاف العبادة هل يسعها العذر أو لا يسعها العذر، فهذا أمرٌ آخر، لكن الأصل أن الله ﷻ إنما خلق الخلْق لعبادته ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ هذا هو حقه، ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات:٥٦] هذا هو حقه، فمن صرف منها شيئاً لغير الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فقد قصَّر تقصيراً يُخرج من المِلَّة.

وقول النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «أتدري ما حق الله على العباد؟»، معاذٌ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ لا يُتصور أنه يجهل ذلك وهو أعلم الأمة بالحلال والحرام، لا يُتصور ذلك في أفراد الصحابة ناهيك عن معاذ، وإنما أراد بذلك استحضار الذهن والقلب لِمَا يُلقى بعد ذلك؛ لأن السؤال عادةً في كل شيء مدعاةٌ لحضور الذهن للتلقي -السؤال بحد ذاته مستدعٍ لحضور الذهن والانتباه لما يُلقى بعد السؤال-، وليس في هذا أن معاذاً رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يجهل حق الله ﷻ على عباده، هذا لا يجهله أحد من المسلمين ناهيك عن معاذ في منزلته رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وعلمه بالحلال والحرام.

قال عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «أتدري ما حق الله على العباد وما حق العباد على الله؟»، حق الله ﷻ على العباد عبادته سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ دون ما سواه بكل أنواع العبادة، سواء كانت عبادة قلبية كالتوكُّل والرجاء والرهبة والرغبة وغير ذلك، أو عبادة متعلقة بالجوارح سواء اللسان أو جوارح البدن، كالتسبيح والدعاء أو الطواف والصلاة أو غير ذلك.

وزاد أهل العلم نوعاً رابعاً وهو: عبادة الله ﷻ بالقُرُبات والأموال، بمعنى أنه لا يُنْذَر إلا لله، ولا يُتصدَّق والمتصدق يريد مدح الناس وثناءهم، ولا يُذبح إلا لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وهي وإن كانت داخلة في العبادة المتعلقة بالجوارح لكن منهم من فرَّق ما بينها وما بين غيرها من أنواع العبادات.

وعلى كل حال: كل عبادة شرعها الله ﷻ وأمر بأن تكون له وحده سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فلا يجوز صرفها لغيره كائنًا من كان، لا نبيٌّ مرسل ولا ملكٌ مقرَّب، هذا هو حق الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ الذي لأجله خلق الخلْق، وليس هذا الحق -يا إخواني- لأن الله ﷻ مفتقرٌ إلى ذلك أو محتاجٌ إلى ذلك سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وهو الغنيُّ الحميد، وإنما لأن الله ﷻ إنما خَلَق الخلْق لذلك -لعبادته-، وإلا فالله ﷻ غنيٌّ عنهم وعن عبادتهم كما قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا﴾[الحج:٣٧].

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم كما في مسلم من حديث أبي ذر أن النبي عَلَيْهِ‌ٱلصَّلَاةُ‌وَٱلسَّلَامُ قال فيما يرويه عن ربه سبحانه وبحمده: «**يا عبادي إني حرَّمت الظلم على نفسي**»، إلى أن قال سبحانه وبحمده: «**يا عبادي لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئًا**»، فلو كانوا كلهم على قلبٍ محمد صلى الله عليه وسلم ما زاد ذلك في ملك الرب شيئًا، «**ولو كانوا كلهم على أفجر قلب رجلٍ منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئًا**».

فدل على أنه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ما أمر العباد بعبادته سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لحاجته إليها، وإنما لحاجتهم إلى عبادتهم لربهم سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وإلا فما استكثر بهم من قِلَّة سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وما استأنس بهم من وحشة، ولا استغنى بهم من فقر، ولا استقوى بهم من ضعف؛ -تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً-.

(**قُلْتُ: اللهُ وَرَسُوْلُهُ أَعْلَمُ**)؛ قال ذلك رَضِيَ‌ٱللَّهُ‌عَنْهُ تواضعًا، أو لعل النبي صلى الله عليه وسلم يزيده علمًا على ما عنده من علم، وما زاده عَلَيْهِ‌ٱلصَّلَاةُ‌وَٱلسَّلَامُ لا شك أنه علمٌ؛ لأن تأكيد العلم السابق هو بحد ذاته علم، لأن الزيادة في أصلها علمًا؛ إما أن تكون زيادة إضافة وإما أن تكون زيادة تقرير وفي كلا الحالتين هي زيادة.

(**قَالَ: «حَقُّ اللهِ عَلَى العِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوْهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقُّ العِبَادِ عَلَى اللهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ**

لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»)؛ ليس للعباد حقٌّ على الله ﷻ يوجبونه على الله من جهة أنفسهم، وإنما الله ﷻ جعله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لهم عليه ﷻ كرمـًا منه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وفضلاً؛ لأنه هو الذي أخذ بقلوبهم إلى التوحيد، وهو الذي عرَّفهم التوحيد من الشرك، وهو الذي حبَّب لهم اختيار التوحيد، وهو الذي ثبّتهم على التوحيد، فالفضل له أولاً وآخراً وهو ذو الفضل العظيم.

وقول النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «(وَحَقُّ العِبَادِ عَلَى اللهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»)، حق العباد من حيث أن الله ﷻ جعل ذلك لهم من جهته سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وإلا لا يُلزم أحدٌ على الله ﷻ حقـًا، فهي مثل قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾[الأنعام:٥٤] لم يكتبها أحدٌ على ربه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وإنما فضلاً منه وكرمـًا، قَسَم الله ﷻ الرحمة لعباده مؤمنهم وكافرهم، وعاقلهم وبهائم وغير ذلك، كما قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[الأعراف:١٥٦].

قال معاذ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: (قُلْتُ: يَا رَسُوْلَ اللهِ؛ أَفَلَا أُبَشِّرُ النَّاسَ؟) هذا يدلُّ على أن الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ حريصين على حمْل البشارة إلى المسلمين، وهذا بحدّ ذاته خُلُقٌ من أخلاق المسلم أن يبشِّر غيره بالخير الذي بلغه.

ولما كان النبي صلى الله عليه وسلم -وهنا لابد أن يُتفطن لهذا الحديث ربما يفهم بعض الناس من ظاهره أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر معاذاً بكَتْم هذا العلم، وهذا لا يكون من النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ وهو القائل: «من كتم علمـًا ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة»- إذن لماذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: «(لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا»)؟ ليس المقصود بقوله صلى الله عليه وسلم: «فيتكلوا» صحابته، هذا ممن قال ذلك بعض من شرح الحديث -ليس المقصود بذلك أن الذين يتّكلون أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم-، وإنما يوجَّه هذا الكلام لحدثاء العهد بالإسلام، أو لأن بعض الناس ربما يتحيَّن مثل هذه الرُّخَص حتى يترك الأمر، كالذي يكون في قلبه نوعٌ من ضعف إيمان أو المنافقين أو غير ذلك.

أما المهاجرين والأنصار الذين عاصروا التنزيل، وفهموا عن الله ﷻ ورسوله صلى الله عليه وسلم الخطاب، فلا يُتصور أنهم يتكلون على هذه البشارة ويتركون العمل، لماذا؟ لأنهم سبقوا إلى الإسلام وعرفوا ما أوجب الله، ولأن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بشَّر أعيانهم وجماعاتهم بالجنة وما اتكلوا على هذه البشارة، بشَّر النبي صلى الله عليه وسلم بعض الصحابة -ليس بأنك إذا فعلت ذلك ستدخل الجنة- بل بالجنة ذاتها، ومع ذلك ما اتكلوا على هذه البشارة، ما زالوا يتعبدون الله ﷻ حتى فارقوا الدنيا.

من ذلك قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾[الفتح:١٨]، ما ترك أحدٌ من أصحاب البيعة -بيعة الرضوان- العبادة، ولا نكل واتكل على البشارة مع أنهم كانوا ألفًا وأربعمائة، فلما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَّقَد تَّابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾[التوبة:١١٧]، ما اتكل أحدٌ من الصحابة على هذه البشارة بقبول التوبة إلى ترك العمل.

ولما قال النبي صلى الله عليه وسلم لبلالٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إني سمعت دف نعليك بالجنة»، ولما قال صلى الله عليه وسلم: «ما ضرَّ عثمان ما فعل بعد اليوم»، ولما قال صلى الله عليه وسلم في يوم أُحُد: «هذا يومٌ كله لطلحة»، ولما قال صلى الله عليه وسلم: «أبو بكرٍ في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعليٌ في الجنة، وسعد في الجنة، وسعيد في الجنة، وطلحة في الجنة، والزبير في الجنة، وابن عوفٌ في الجنة، ولكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة»، ما ترك أحدٌ منهم العمل واتكل على هذه البشارة.

فيوجَّه لأجل هذا الأحاديث وغيرها كثير، الاستطراد في مثل هذه الأحاديث يطول به المقام.

لكن المقصود أن الذين يوجَّه لهم قوله صلى الله عليه وسلم: «فيتكلوا» إما أن يكونوا ضعاف الإيمان، أو أن يكونوا حديثو العهد بالإسلام، أما الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وأرضاهم فقد

وقع لهم من البشارة ما معناه دخولهم الجنة ليس بينهم وبين الجنة إلا أن يموتوا، ببشارة الله لهم أو بشارة رسوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وهو لا ينطق عن الهوى، ومع ذلك ما تركوا العمل ولا اتكلوا على هذا.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بَابُ فَضْلِ التَّوْحِيْدِ وَمَا يُكَفِّرُ مِنَ الذُّنُوْبِ

وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِيْنَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيْمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُوْنَ﴾[الأنعام:٨٢].

عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ قَالَ: قَالَ رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؛ وَحْدَهُ لَا شَرِيْكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُوْلُهُ، وَأَنَّ عِيْسَى عَبْدُ اللهِ وَرَسُوْلُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوْحٌ مِنْهُ؛ وَالجَنَّةَ حَقٌّ؛ وَالنَّارَ حَقٌّ؛ أَدْخَلَهُ اللهُ الجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ العَمَلِ» أَخْرَجَاهُ.

وَلَهُمَا فِي حَدِيْثِ عِتْبَان: «فَإِنَّ اللهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: "لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ" يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ».

وَعَنْ أَبِي سَعِيْدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُوْلِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «قَالَ مُوْسَى: يَا رَبِّ، عَلِّمْنِي شَيْئًا أَذْكُرُكَ وَأَدْعُوْكَ بِهِ. قَالَ: قُلْ يَا مُوْسَى: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، قَالَ: كُلُّ عِبَادِكَ يَقُوْلُوْنَ هَذَا، قَالَ: يَا مُوْسَى! لَوْ أَنَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ وَعَامِرَهُنَّ غَيْرِي؛ وَالأَرَضِيْنَ السَّبْعَ فِي كِفَّةٍ؛ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فِي كِفَّةٍ؛ مَالَتْ بِهِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ». رَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ وَالحَاكِمُ وَصَحَّحَه.

وَلِلتِّرْمِذِيِّ وَحَسَّنَهُ عَنْ أَنَسٍ: سَمِعْتُ النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُوْلُ: «قالَ اللهُ تَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا؛ ثُمَّ لَقِيْتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا؛ لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً».



قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ الله:

ثم ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد ذلك: (بَابُ فَضْلِ التَّوْحِيْدِ وَمَا يُكَفَّرُ مِنَ الذُّنُوْبِ)، يعني هذا بابٌ تُذْكَر فيه النصوص أو بعض النصوص من كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم الدالة على فضل التوحيد.

التوحيد -يا إخواني- أعظم واجب أوجبه الله ﷻ على عباده، ولا ينفع عملٌ إذا لم يأتِ الإنسان بالتوحيد خالصًا لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، كما أن الشرك ضدُّه أعظم ما عُصي الله ﷻ به الشرك سبحانه وبحمده ولا تنفع مع الشرك طاعة، كما قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾[هود:١٦]، وقال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾[الفرقان:٢٣]، فدل على أن أعظم ما عُبد الله ﷻ به التوحيد، ويُنظر بعد ذلك إلى سائر الطاعة.

وأعظم ما عُصي الله ﷻ به الشرك ولا تنفع مع الشرك طاعة في الآخرة وإن كان يُعطى عليها شيءٌ في الدنيا، قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾[هود:١٦]، لأن التوحيد هو الذي خلق الله ﷻ الخلْق لأجله ولأنه أول مأمور به وأول مسؤول عنه في القبر وأول مسؤول عنه في عرصات يوم القيامة، ولأن الشرك أعظم منهي عنه وأول ما يُحاسب عليه -والعياذ بالله- أهل الكفر أن جعلوا مع الله ﷻ نِداً: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[الشعراء:٩٧-٩٨].

قال الشيخ رَحِمَهُٱللَّهُ: (**وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى**) بالخفض من باب العطف على قوله رَحِمَهُٱللَّهُ: (**بَابُ فَضْلِ التَّوْحِيْدِ**) يعني وبابُ قولِه تعالى.

(**وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِيْنَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيْمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُوْنَ﴾**[الأنعام:٨٢]). في هذه الآية دليلٌ على أن الإنسان إنما يُستكمل إيمانه إذا كان عملاً باطنًا وعملاً ظاهراً؛ عمل القلب وأن يكون له أثرٌ في الخارج، والذي يسبق عمل القلب بأن الله ﷻ يقدِّم الإيمان على العمل الصالح، قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[الأنعام:٨٢]، ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ يعني لم يخلطوا إيمانهم بظلمٍ أو لم يُفسِد الإيمان الذي عندهم بظلمٍ أكبر يذهب معه الإيمان والتوحيد، وقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ المقصود بذلك الظلم الأكبر.

وقد ثبت عند البزار من حديث أنس وغيره أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**الظلم ثلاثة**»؛ هذا مشهورٌ عن أبي العالية الرياحي من خيار التابعين، لكنه ثبت مرفوعًا إلى النبي صلى الله عليه وسلم: «**الظلم ثلاثة؛ فظلمٌ لا يغفره الله ﷻ، وظلمٌ لا يعرض الله ﷻ له حتى يجتمع الظالم ومن ظلمه، وظلمٌ يغفره الله إذا شاء ولا يبالي**»؛ فالذي لا يغفره الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ هو المذكور كما نعلم في سورة لقمان: ﴿**يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**﴾[لقمان:١٣].

والظلم الذي لا يغادر الله منه شيئًا حتى يجتمع المظلوم ومَن ظَلَمه؛ هو ظلم العباد في أموالهم وأبشارهم وأعراضهم وحقوقهم إلى غير ذلك، والظلم الذي يغفره الله ﷻ إذا شاء ولا يبالي؛ هو ظلم العبد لنفسه، ﴿**وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا**﴾[النساء:١١٠].

هذا التقسيم هو الذي عند أهل السنة والجماعة، وهو الذي لا محيد عنه لدلالة القرآن والسنة عليه. لما اختلف هذا التقسيم عند الوعيدية جعلوا الظلم كله نوعًا واحداً، وأن الإنسان إذا ظلم في حق الله، أو ظلم غيره بكبيرةٍ من الكبائر، أو ظلم نفسه باقتراف ذنبٍ فيما بينه وبين الله أن هذا الظلم عندهم كله ظلمٌ واحد، وأنه كله ناقلٌ من المِلَّة، بمعنى أنهم يكفِّرون من وقع في الظلم سواء كان الظلم في حق الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أو في حق غيره في أموالهم وأبشارهم، أو في حق نفسه إذا خلا بمعصية وفعلها من تلقاء نفسه، وهذا هو مذهب الوعيدية.

وإذا قلنا الوعيدية -يا إخواني- المقصود بذلك المعتزلة والخوارج، ليس المقصود بذلك الخوارج فقط كما يظن بعض الناس وإنما حتى المعتزلة وعيدية، بل هم وعيدية متلونون؛ يعني أنهم وعيديةٌ يوجبون إنفاذ الوعيد، وعيدية يعني يقدّمون نصوص الوعيد على نصوص الوعد، وعيدية يعني يكفّرون بالذنب، وعيدية يعني لا يرون أن الإيمان يزيد وينقص وإنما يرونه شيئًا واحداً -إما أن يأتي جميعًا وإما أن يذهب جميعًا-، وهذا مذهبٌ سيئ -

والعياذ بالله-، إلا أن المعتزلة تلطفوا لما سموا هذا الأمر بـ "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"، والخوارج أبدوا صفحة اعتقادهم وقالوا: إنه كافرٌ إذا فعل ظلماً، سواء كان متعلقاً بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الذي هو الشرك أو ما دون ذلك.

أما أهل السنة والجماعة فيجمعون النصوص من كلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم بفهم الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وتعاملهم؛ ممن فعل الظلم الأول الأكبر أو ما دون ذلك من ظلم الإنسان لغيره، أو ظلم الإنسان لنفسه، ويرون أن الظلم إما أن يكون مخرجاً من الإسلام وإما أن يكون غير مخرج.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في قصة لقمان: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[لقمان:١٣]، ولما قال الله ﷻ: "ظلم عظيم" دل على أن هناك ظلمٌ أقل منه خطراً، مثل ما قال النبي صلى الله عليه وسلم في الشرك الأصغر: «ألا أنبئكم بالشرك الأصغر؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «الرياء»، فلما قال "أصغر" دل على أن هناك شركاً أكبر.

ولهذا شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ جمع هذا الكلام مع التمثيل والتدليل، ومن قبله كذلك ومن بعده، وما زال على ذلك المسلمون جميعاً؛ أن أسماء الدين الخمسة تنقسم إلى أكبر وإلى أصغر، إما أن تكون مخرجة ناقلةً عن الإسلام وإما أن تكون دون ذلك، فإذا كانت دون ذلك توصف بأنها أصغر، وإذا كانت ناقلة تسمى أكبر أو كلياً.

فالشرك أكبر وأصغر، والظلم أكبر وأصغر، والنفاق أكبر وأصغر -أو اعتقادي وعملي-، والفسق أكبر وأصغر -أو كلي وجزئي-، والكفر أكبر وأصغر.

الكفر والشرك والظلم والنفاق والفسق هذه الخمسة، أسماء الدين الخمسة، وسماها أهل العلم أسماء الدين لا من حيث أنها أسماء مدحٍ وإنما من حيث أنها أوصافٌ للدين - أوصافٌ لدين من اقترف شيئاً من ذلك-، يقسّمها أهل السنة والجماعة قاطبةً على هذا التقسيم؛ لأن هذا التقسيم هو الذي يحفظ للناس دماءهم وعدم الحكم عليهم بالخروج من

الدين، وهو الذي يحفظ أيضاً منزلة الذنب والمعصية من حيث أنه لا يساوى من وقع في الفسق الأكبر ومن وقع في الفسق الأصغر -أو الفسق الكلي والفسق الجزئي-.

فقول النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر» في صحيح مسلم؛ هل كل سبابٍ يكون فسوقاً مخرجاً من المِلَّة؟ معاذ الله. لكن لما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾[الكهف:٥٠]؛ هل هناك أحد يقول أن هذا ليس فسقاً مخرجاً من الدين؟ هذا فسقه فسق كفر.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[البقرة:٢٥٤]، الظالمون في هذه الآية في سورة البقرة المقصود بذلك الظلم الأكبر الناقل عن المِلَّة لأن الله ذكر قبل ذلك الكافرين.

لكن لما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ﴾[النساء:١١٠]؛ هل هذا الظلم مثل هذا الظلم؟ قل مثل ذلك في سائر الأوصاف الخمسة.

لما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك»، هل تكفِّر من حلف بغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كفراً وشركاً ناقلاً عن المِلَّة أو كفرٌ دون كفر؟ هو كفرٌ دون كفر، كما قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وأبو قتادة وأبو مجلز من التابعين فيما يتعلَّق بقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾[المائدة:٤٤]، ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾، ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾؛ يعني أنه ظلم دون ظلم وكفرٌ دون كفر وفسق دون فسق.

هذا ليس تهويناً منه إذا قلنا أنه أصغر في كل الأمور الخمسة، لكن من حيث العدل والإنصاف، وألا يُعامل الكافر الأصلي أو الكافر المرتد معاملة المسلم الذي وقع في ذنبٍ سماه الله ورسوله ظلماً، فلا يعامل هذا كما يعامَل هذا.

فقول الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾[الأنعام:٨٢] لما أشكلت الآية على الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ قال: «إنه ليس الظلم الذي تذهبون إليه، إنه كما قال العبد الصالح: ﴿يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[لقمان:١٣]».

ثم الأمن الموعود به أهل الإيمان إذا أتوا بإيمانٍ لم يلبسوه بشرك هو أنواعٌ من الأمن؛ أمنٌ في الدنيا، وأمنٌ في القبر، وأمنٌ في عرصات يوم القيامة، وأمنٌ إذا دخل أهل الجنة الجنة لأن من أسماء الجنة دار السلام، أليس كذلك؟ بمعنى أن الأمن الأكبر إذا دخلوا الجنة: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ﴾[الصافات:٥٨]، بمعنى أنهم إذا دخلوا الجنة حصل لهم الأمن التام الذي لا فزع بعده، وإن كان قبل ذلك يحصل أمنٌ لا فزع بعده، لكن الأمن الأخير هو أعظم الأمن.

فالأمن الأول يدلُّ عليه قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾[طه:١٢٤]، هذا فيمن أعرض عن ذكر الله، بالمقابلة: أن من أقبل على ذكر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ واطمأن إلى الله عَزَّوَجَلَّ بقراءة كلامه وامتثال أوامره، واطمأن باتباع سنة النبي صلى الله عليه وسلم هدأت نفسه وقرَّت عينه واطمأن قلبه كما قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[الرعد:٢٨]؛ فهذا هو الأمن الأول.

والأمن الثاني: إذا سأله الملكان في قبره عن ربه وعن دينه وعن هذا النبي الذي بُعث فيهم صلى الله عليه وسلم، كما قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في محكم كتابه في سورة إبراهيم: ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾[إبراهيم:٢٧]؛ "الآخرة" وصفٌ يُطلق على ما يكون في القبر وفي عرصات يوم القيامة وما يكون في الجنة -جعلنا الله وإياكم من أهلها-.

والأمن الثالث: قول الرب سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في هذه الآية: (﴿أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُوْنَ﴾[الأنعام:٨٢])، فصار الأمن ثمرة التوحيد؛ يحصل في الدنيا، ويحصل في القبر، ويحصل في عرصات يوم القيامة وآخره ما يكون في الجنة لأهل الجنة -جعلنا الله وإياكم من أهلها-.

قال النبي صلى الله عليه وسلم في حديث عبادة بن الصامت رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «(مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؛ وَحْدَهُ لَا شَرِيْكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُوْلُهُ»)... إلى آخر الحديث.

لكن قبل أن نذكر الحديث، في اعتقاد أهل السنة والجماعة -يا إخواني- أن نصوص الوعد والوعيد تُمَرُّ على ظاهرها؛ ما معنى هذا الكلام؟ معنى هذا الكلام أنه قد يأتي في كلام الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وفي كلام رسوله صلى الله عليه وسلم وعدٌ بالجنة على عملٍ أو عملين أو على اعتقادٍ من غير ذكر العمل، فيُطلق على ظاهره ولا يؤخذ منه أن هذا يكفي في دخول الجنة حتى يُضاف إليه نصٌ آخر؛ فهذا يسمى نصوص الوعد بالجنة.

بالمقابل: نصوص الوعيد، قد يتوعد الله ﷻ على ذنبٍ بالنار أو يذكر النبي ذلك عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فلا يطبَّق ذلك على أعيان الناس وإنما يؤخذ منه التهيُّب من الذنب والتحاجز عنه وعدم الوقوع فيه، ولا يطبَّق الوعيد على كل إنسان.

والمثال يبيِّن هذا؛ إذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**لا يدخل الجنة قاطع رحم**»، وأنا أعرف أن فلانًا قطع رحمه، هل يُقطع له بدخول النار، أو نقول: معرَّضٌ للوعيد؟ نقول: معرَّضٌ للوعيد. هذا معنى قول أهل السنة والجماعة أن نصوص الوعد والوعيد تُمَرُّ على ظاهرها، من حيث أنها لا تُعطَّل؛ هناك فرقٌ ما بين أن تُمَرُّ على ظاهرها ولا يُنزَّل الوعيد على المعيَّن، وبين أن تُعطَّل كما هو شأن المرجئة -لا يعطِّل النصوص في الوعد والوعيد إلا المرجئة-، لكن يقال: أن الحديث دليلٌ على عِظَم شأن المذكور فيه إذا كان أمراً، وعِظم شأن المذكور فيه إذا كان نهيًا، لكن لا يُكتفى ببعض الأحاديث عن بعض، وهذا تقصيرٌ في الأخذ بالنصوص أن يكتفي ببعضها دون بعض.

إذا فهمنا هذه القاعدة عند أهل السنة والجماعة، هنا نقول: (**قَالَ النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ شِهِدَ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؛ وَحْدَهُ لا شَرِيْكَ لَهُ»**) هذا حق الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، «(**وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُوْلُهُ، وَأَنَّ عِيْسَى عَبْدُ اللهِ وَرَسُوْلُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوْحٌ مِنْهُ؛ وَالجَنَّةَ حَقٌّ؛ وَالنَّارَ حَقٌّ؛ أَدْخَلَهُ اللهُ الجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ العَمَلِ**»). هل تقولون أنتم أن النبي صلى الله عليه وسلم لما لم يذكر عذاب القبر ونعيمه في هذا الحديث فإنا لا نكفِّر أحداً بإنكاره؟ هل تقولون: أن

الصلاة ليست واجبة لأن النبي وعد بالجنة في هذا الحديث ولم يذكر الصلاة والزكاة والصيام وغيرها؟ هل يقول بهذا أحدٌ من الناس؟ وإنما تُضاف بعض النصوص إلى بعض ولا يؤخذ ببعضها دون بعض؛ لأن عذاب القبر ونعيمه دل عليه الكتاب والسنة.

قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ أيْ في الدنيا وفي القبر، ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾[التوبة:١٠١]، قال تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾[غافر:٤٦]؛ يعني أن العرض في الغداة والعشي في قبورهم.. إلى غير ذلك من الأدلة، واستعاذة النبي من عذاب القبر، والصلاة والزكاة المذكورة في حديث جبريل وفي حديث ابن عمر: «بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَى خَمْسٍ»؛ فتضاف بعض النصوص إلى بعض ولا يُكتفى بالنظر إلى بعض النصوص دون بعضها.

كل هذا الاستطراد حتى يُقال أن النبي إنما ذكر في هذا الحديث بعض ما أوجب الله من الاعتقاد على عباده، وأن هذا الذِّكْر لا يعني الاكتفاء به دون غيره.

وهذه قد تكون قاعدة مطَّردة في كثيرٍ من النصوص؛ لما قال النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «اجتنبوا السبع الموبقات»، عدَّها سبعاً ولم يذكر النبي صلى الله عليه وسلم الفاحشة التي وقعت فيها أمةٌ من الأمم، هل أحدٌ يقول أنها ليست من الموبقات لأن النبي ما ذكرها في السبع، ولأن النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ حصر المذكور بالعدِّ -بالسبع-؟ لا يقول بهذا أحد.

لمَّا ذكر النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ السبع الموبقات ما ذكر فيها قطيعة الرحم، ما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم فيها بعض كبائر الذنوب؛ فليس الذكر مقصودٌ به الحصر، وإنما ذِكْر بعضها لسبب عِظَم شأنها عند الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، أو لأن غيرها عائدٌ إليها ومتفرِّعٌ عنها.

فقوله صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث: «(مَنْ شِهِدَ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؛ وَحْدَهُ لا شَرِيْكَ لَهُ»)، يعني أنه لا معبود بحقٍ إلا الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وأتبع هذا الأمر أن لا يعبد مع الله ﷻ غيره؛ لا نبيٌ مرسل ولا مَلَكٌ مُقرَّب.

«(وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُوْلُهُ»)؛ بمعنى أنه عبدٌ صلى الله عليه وسلم لا يُعبَد، كما سماه ربه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾[الإسراء:١]، ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾[الزمر:٣٦]، ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ﴾[الجن:١٩]، ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾[النجم:١٠]، وغيرها من النصوص التي ذكر الله عَجَّلَ نبيه فيها بوصف العبودية.

ووصفُ الله عَجَّلَ كرام خلقه بالعبودية هو إغلاقٌ للباب على من غلا فيهم فعبَدَهُم مع الله.

فلما عَبَد النصارى الملائكة -بأن جعلوه بعض الله تعالى عن قولهم علواً كبيراً في اعتقادهم بالتثليث، وأن روح القدس واحدٌ من ثلاثة-، ولما غلا المشركون في الملائكة وقالوا بنات الله -تعالى عن ذلك علواً كبيراً-، وصفهم الله عَجَّلَ بالعبودية من حيث أنهم عبادٌ لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً؛ قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ﴾[الزخرف:١٩]، وقال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾[الأنبياء:٢٦].

والنبي صلى الله عليه وسلم وصفه الله عَجَّلَ في القرآن المجيد كله، وصفه بوصفين؛ يعني كل مدحٍ ذُكِر في القرآن للنبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ وثناءٌ عائد إلى وصفين: وصف العبودية، وهو أعظم وصفٍ يوصف به عبدٌ لربه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ووصف الرسالة والنبوة.

فالرسالة والنبوة من حيث أن النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ صادقٌ لا يُكذَّب، وأمين لا يخوَّن، وأنه أدى ما أوحاه الله عَجَّلَ عليه أكمل الأداء وأبلغ الأداء.

والعبودية من حيث أن النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ جارٍ عليه قلم التكليف كما جرى على غيره، إلا أن النبي سيد الأولين والآخرين عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ.

وفي قوله صلى الله عليه وسلم بعد هذا أيضاً فيما يتعلق بعيسى: «(وَأَنَّ عِيْسَى عَبْدُ اللهِ وَرَسُوْلُهُ»)؛ ما يقال في عيسى يُقال في النبي صلى الله عليه وسلم، من حيث أنهم كلهم عبادٌ لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وأنهم كلهم رُسُلٌ بلَّغوا الرسالة وأدوا الأمانة، إلا أن الله عَجَّلَ خصَّ نبيه صلى الله عليه وسلم بأنصار وحافظةٍ للوحي، والحواريون من بعد عيسى اختلفوا على عيسى، ثم

اختلف بعد ذلك اليهود والنصارى في عيسى كما هو مذكورٌ في كلام الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

ووصفُ العبودية لعيسى فيه ردٌ على النصارى الذين جعلوا عيسى هو الله -تعالى عن ذلك علواً كبيراً-، والنصارى قولهم في عيسى كما هو معروف؛ إما أن يقولون أن عيسى هو الله -تعالى عن ذلك علواً كبيراً-، كما قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾[المائدة:١٧]، وإما أن يجعلون عيسى ابن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ -تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً-، قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ ۖ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ﴾، يعني أن هذا قول الكفار من قبلهم، ﴿قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾[التوبة:٣٠]. وإما أن يقولون أن عيسى ثالث ثلاثة: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾[المائدة:٧٣].

النصارى الموجودون الآن على ظهر الأرض كلهم يعودون إلى الاعتقاد الثالث -أن عيسى ثالث ثلاثة-؛ سواء بروتستانت أو كاثوليك أو أرثوذكس -الكنيسة الشرقية أو المارونية أو الحبشية-، كلهم يعتقدون أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ جزءٌ من ثلاثة، وأن عيسى هو الجزء الثاني، وأن روح القدس هو الجزء الثالث؛ وهي كلها كفر، سواء كان على هذا القول أو هذا أو هذا.

لكن المقصود أن عيسى لما كان هذا اعتقاد النصارى فيه وسببها الغلو، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «(وَأَنَّ عِيْسَى عَبْدُ اللهِ)»؛ يعني أنه عبدٌ كسائر الخلْق. ولما قال صلى الله عليه وسلم: «(عَبْدُ اللهِ وَرَسُوْلُهُ وَكَلِمَتُهُ)»، وقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «(وَرُوْحٌ مِنْهُ)»؛ بمعنى أنه روحٌ من الأرواح، والأرواح ليست قديمة لا مُوجد لها، الأرواح مخلوقة ويعتريها ما يعتري سائر الأرواح من الخوف ومن الفزع، ومن المرض ومن التعب ومن النوم، ومن الحياة ومن الموت.

حتى عيسى وإن كانت حياته حياةً لا يعلم حقيقتها إلا الرب سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، إلا أنه إذا نزل

يموت ويُصلى عليه ويُدفن مع المسلمين، والتفصيل في هذا له مقامٌ آخر في أشراط الساعة، لكن يجري عليه ما يجري على سائر الأرواح؛ لأن الله ﷻ سماه روحًا كما في آخر سورة النساء، والنبي هنا صلى الله عليه وسلم سماه روحًا، ووصفه بأنه روح، قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «(وَأَنَّ عِيْسَى عَبْدُ اللهِ وَرَسُوْلُهُ»)؛ وفي وصفه صلى الله عليه وسلم عيسى بأنه رسولٌ ردٌ على اليهود الذين كذّبوا عيسى وطعنوا فيه وفي أمه عليها السلام مريم.

فهذان الوصفان أحدهما ردٌ على النصارى الذين غلوا في عيسى حتى جعلوه الله أو بعض الآلهة، وردٌ على اليهود الذين اتهموا عيسى وكذّبوه وقالوا فيه البهتان العظيم؛ فوصْفُه بالعبودية ردٌ على النصارى، ووصْفُه بالرسالة ردٌ على اليهود الذين كذبوه.

وهنا فائدة هذا موضعها: لماذا كذَّب اليهود عيسى في النبوة والرسالة؟ لأن اليهود -يا إخواني- يعتقدون ختْم النبوة، وكل نبيٍ جاء بعد موسى عند اليهود إما أن يكون قائداً إذا كان من بني إسرائيل -كيوشع بن نون-، وإما أن يكون كذاباً عندهم -كعيسى وكسيد الخلْق-. فعقيدة "الختم" عند اليهود هي التي جعلتهم يكذّبون عيسى ويكذِّبون غيره.

هذه العقيدة على الضد منها النصارى؛ النصارى -سواء كانوا عرباً أو غير عرب- لا يرون أن النبوة تُختم، بمعنى أنهم لا يرون أن عيسى نبي حتى يقولون أن النبوة خُتِمت بعيسى ولن يصدّقوا محمد صلى الله عليه وسلم.

بل هناك -يا إخواني- نصارى يتكلمون بألسنتنا يقولون: "نعم محمد بن عبد الله رسول، وأنا أسمي ولدي محمداً"، لكنني نصراني؛ لأنه لا يرى أن النبي كذَّاب -وحاشاه من قولهم-، لكنه يقول: "هو نبيٌ، لكن لك أنت، لا تلزمني نبوته"؛ بمعنى أنهم -أيْ النصارى- لا يرون ختم الرسالة، ولهذا يرون الحواريين أنبياء ورسل، النصارى يرون الحواريين الاثني عشر أنبياء ورسل؛ لأن عيسى ليس نبياً عندهم حتى يقال خُتمت به النبوة، ومَن جاء بعده قد يكون نبياً، بدلالة أنهم يرون أن الحواريين الذين جاءوا بعد عيسى هم رسلٌ لعيسى. ولهذا

كل واحدٍ له إنجيل: مرقس، يوحنا، ومتى، ودانيال وغيرهم، كل واحد لـه إنجيـل يضـيف فيـه مـا أراده؛ بمعنـى أنـه مطلـق الاختيـار في أن يضـيف إلـى الله ﷻ -تعـالى الله عـن قـولهم علـواً كبيراً- أو إلى عيسى الذي يرونه ابن الله؛ ما يريده من قصص ومن أوامر ومن نواهٍ.

هذا ليس عند اليهود، ولهذا قال اليهود في عيسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ القول المنكر الذي ذكره الله ﷻ عنهم في كتابه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في قوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾[النساء:١٥٥]، وقولـه: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾[النساء:١٥٦]، ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ﴾؛ يعني قالوا "رسول الله" من باب التهكم بالنصارى، ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾[النساء:١٥٧].

قال النبي صلى الله عليه وسلم: «(وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ»). عيسى كلمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كما قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ ۖ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[آل عمران:٥٩]. بمعنى أن الله ﷻ خَلَق عيسى -ننتبه لهذا- بكلمة "كن"، لكن لا يعني ذلك أنه لم يتقلب في الأرحام كما يتقلب سائر بني آدم؛ لأنه روحٌ من الأرواح التي خلقها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويجري عليه ما جرى على بني آدم كلهم.

فلما جاءت إلى قومها تحمله، لا يعني ذلك أنها حملت به وصارت حُبلى به في يومٍ وليلة، حتى النصارى لا يقولون بهذا، ولو كان ذلك واقعاً في يومٍ وليلة لسَهُلَ إنكار أن يكون ابنًا لها، لكن تقلُّبُه في الأرحام وما يطرأ على المرأة أثناء الحمل بسببه، هو الذي وقع فيه البلاء من حيث تكلُّم اليهود في مريم.

فإذا قلنا: إن عيسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ "كلمة الله"، يعني أن الله ﷻ خلقه بكلمة "كن" كما خلق الله ﷻ آدم؛ ووجه المقارنة ما بين آدم وعيسى: أن آدم خُلِق بغير أبٍ وأم، وأن عيسى خُلِق بأمٍ من غير أب؛ بمعنى أن ما جرت به آية الله ﷻ في آدم لا يستعصي ذلك أن يجري على عيسى، من حيث أن لعيسى أمًا على كل حال، أما آدم فلا أبٌ ولا أم.

قال النبي صلى الله عليه وسلم: «(وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ»)؛ يعني روحٌ من الأرواح، «(وَالجَنَّةَ حَقٌّ؛ وَالنَّارَ حَقٌّ؛ أَدْخَلَهُ اللهُ الجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ العَمَلِ»). "الجنة حقٌّ" المقصود التصديق بالجنة، والتصديق بالجنة له أصول عند أهل الإسلام وعند أهل السنة والجماعة؛ لأن من أهل الإسلام من خالف في بعض الأصول المتعلقة بالجنة والنار كوجودهما وفنائهما، وأنواع النكال والعذاب الذي ذُكِر فيهما إلى غير ذلك.

فالجنة موجودةٌ خلقها الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وأعدها، حتى قال أبو جعفر الطحاوي في متنه: "والجنة والنار مخلوقتان لا تفنيان أبداً ولا تبيدان"، وأن الله خلق الجنة والنار قبل الخلْق؛ من حيث أن الله ﷻ خلق دار التكليف وخلق دار الجزاء قبل أن يخلق آدم وذريته؛ دار التكليف التي هي السماوات والأرض، كما قال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص: «إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة»، فخلَق الله ﷻ الجنة وخلق النار وأعدهما؛ كما قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في النار: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾، وقال في الجنة: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

هل فيها أحدٌ أو ليس فيها أحد؟

نقول: ليس فيها أحد، لكن ضرب الله ﷻ فيها أمثلةً لما سيكون ويؤول إليها من أهلها، سواء كانوا أهل الجنة أو أهل النار. بمعنى أنه -إذا قلنا إنه ليس فيها أحد- لا يُشكل قول النبي صلى الله عليه وسلم لبلال رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «إني سمعت دُفَّ نعليك في الجنة» مع أن معاذ ما زال على ظهر الأرض، ولا يُشكل على ذلك قول النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «رأيت المرأة الحميرية السوداء التي دخلت النار في هرة» والحديث عند أبي داود وأصله في البخاري، ولا يُشكل على ذلك قول النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «رأيت عمرو بن لحي بن خندف يجر قصبه في النار، وكان أول من سيب السوائب ووصل الوصيلة وحمى الحامي»؛ فما رآه النبي صلى الله عليه وسلم أمثلة مضروبة لما سيؤول إليه أهل الجنة ولما سيؤول إليه أهل النار.

أما الآن فليس فيها أحد؛ لا في الجنة ولا في النار، وإنما هي مُعدَّة، ومعنى الإعداد أنها مهيأة حتى يأتون إليها، والناس لا يدخلون الجنة حتى يُبَعْثر مَا في القبور، وتُنصب الموازين، ويمر الناس على الصراط، ويُكبكب الكفار في النار.. إلى غير ذلك.

قوله صلى الله عليه وسلم: «(وَالجَنَّةَ حَقٌّ؛ وَالنَّارَ حَقٌّ») كلمة الحق -يا إخواني- جاءت في سنة النبي صلى الله عليه وسلم، ليست في هذه فقط بل في هذه وفي غيرها. والحق ضد الباطل؛ بمعنى تحقيق الوقوع والإيمان به، وعدم جواز التردد في ذلك؛ لأن التردد والشك والريبة لا يسمى حقًا، يسمى باطلاً، ولو كان عنده بعضه حق وبعضه باطل لابد أن يكون كله حقًا.

كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا قام من الليل يقول: «اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ قَيُّومُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ لَكَ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، أَنْتَ الْحَقُّ، وَوَعْدُكَ حَقٌّ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ، وَقَوْلُكَ حَقٌّ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ، وَمُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ» كم صارت؟ تسع. «أَنْتَ الْحَقُّ» سبحانه وبحمده «وَقَوْلُكَ حَقٌّ وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ وَالْجَنَّةُ حَقٌّ» إلى أن قال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «وَالسَّاعَةُ حَقٌّ».

من هذا ما ذكره النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث: الجنة والنار، ومع ذلك نقول أنه ما جاء في كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من أخبار كلها حق، وكل ما جاء في كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم من أخبار كلها حق؛ من حيث أن الله ﷻ حقٌ ولا يقول إلا حقًا، وأن النبي صلى الله عليه وسلم بُعِث بالحق ولا يقول إلا حقًا.

هذا الكلام حتى يقال أن هذان الأمران المذكوران في هذا الحديث "الجنة والنار" لا يُقصَد بهما الحصر، وإنما يُقصد بهما بعض ما ذكر الله ﷻ وذكر رسوله صلى الله عليه وسلم من إنه حقٌ واقعٌ لا محالة.

والقول بأنهما حق؛ لأن كفار مكة ما كانوا يُقِرُّون لا بجنة ولا بنار، وإن كان بعضهم -يا إخواني- يقولون بالبعث بعد الموت، وإن كان أكثر أهل مكة يجحدون ذلك؛ فبعضهم كان يُقِرُّ بالبعث بعد الموت؛ لأنه الداعي إلى ذلك الفطرة الحاملة على الإقرار بأن الله ﷻ عدلٌ ولا تضيع المظلمة عنده، وهذا مذكور أيضًا في كلام الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أن كفار مكة مختلفون في البعث بعد الموت، الأكثرون على ما قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾[يس:٧٨]، وقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾[التغابن:٧]. لكن الله ذكر سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عن الكفار: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾[الجاثية:٣٢]؛ يعني أن هناك طائفة من الكفار متذبذبون مترددون، لا يجزمون بعدم البعث بعد الموت ولا يجزمون بوقوع ذلك.

لكن من المشركين أيضًا من يُقِرُّ بأن البعث بعد الموت واقع، لكن لا يلزم من ذلك -وهذا له شاهد في صحيح البخاري- الإقرار بالجنة والنار، وإنما البعث للنَّصَف إلى هنا ينتهي اعتقادهم.

ففي صحيح البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن حكيم بن حزام رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ -وقد ورد في السياق ذكر جبير بن مطعم- قال: «يَا رَسُولَ اللهِ، أَرَأَيْتَ أُمُورًا كُنْتُ أَتَحَنَّثُ بِهَا فِي الجَاهِلِيَّةِ مِنْ صَدَقَةٍ، أَوْ عَتَاقَةٍ، أَوْ صِلَةِ رَحِمٍ، أَفِيهَا أَجْرٌ؟» ومعنى ذلك أن هناك نوعًا من الإقرار بأن هناك جزاءً على العمل الصالح في الدنيا؛ إذن هذا موجود عند المشركين لكن ليس عند الأكثر، فالأكثر الإنكار في ذلك.

فصار الذين ينكرون -والكلام هنا فيما يتعلق بالبعث بعد الموت، سنصل إلى الجنة والنار- هل هم على عقيدة واحدة أم مختلفون؟ هم مختلفون؛ منهم من يُنكر ذلك، ومنهم من يرى وقوع ذلك، ومنهم من يتردد ويشك في ذلك.

زهير بن أبي سلمى مات قبل الإسلام بقرابة أربعين سنة -صاحب المعلقة المشهورة-، ابناه صحابيان: كعب بن زهير وبجير بن زهير، ومات على ما كان عليه من عبادة الأصنام، ولما ذكر في معلقته بعض الأعمال التي يُمدَح بها الرجل قَالَ:

تُؤَخَّرْ فَتُوضَعْ فِي كِتَابٍ فَتُدَّخَرْ ... لِيَوْمِ حِسَابٍ أَوْ تُعَجَّلْ فَتُنْقَمِ

أو تُجعل لك عقوبة على أعمالك السيئة، بمعنى أن هذا سائد حتى قبل الإسلام، لكن الأكثرون من المشركين على إنكار ذلك.

هنا نقول: لما ذُكِرت الجنة والنار في هذا الحديث، كل هؤلاء الطوائف ينكرون الجنة وينكرون النار، بمعنى أنه ليس هناك كافرٌ يُقِرُّ بوجود الجنة ولا يقر بوجود النار، حتى ما ذُكِر في شعر عنترة، وعنترة مات قبل زهير، ما ذُكِر من اسم جهنم في شعري ليس المقصود بها جهنم التي جعلها الله ﷻ دار الكافرين، وإنما "جهنَّم" و"جهِنَّام" في لغة العرب قبل الإسلام المقصود بها البئر العميقة البعيدة المدى، ليست جهنم المذكورة في كلام الله وكلام رسوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

فقوله صلى الله عليه وسلم: «(وَالجَنَّةَ حَقٌّ») وإن أنكرها كفار مكة، «(وَالنَّارَ حَقٌّ») وإن أنكرها كفار مكة؛ بمعنى أن الله ﷻ -ولو ما قيل بأن هناك جنة ولا نار-، معنى ذلك أن الأوامر والنواهي كلها عبث لا قيمة لها، والله منزَّهٌ عن ذلك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ يأمر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالطاعة ويَعِد عليها بالثواب، وينهى عن المعصية ويتواعد عليها بالعقاب، فإذا كان العبد مأموراً بالطاعات ولا جنة، ومنهياً عن المعاصي ولا نار، معنى ذلك أن الأمر والنهي عبث -تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً-.

قوله صلى الله عليه وسلم: «(أَدْخَلَهُ اللهُ الجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ العَمَلِ»)؛ يعني أدخله الله الجنة على ما كان من عملٍ حسَن أو سيء، فإذا كان حسناً كان سبباً في رفع درجته في الجنة، وإذا كان سيئاً فهو تحت مشيئة الله؛ إما أن يغفر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أو أن يعذّبه على هذا العمل

السيء، لكن آخر مآله دخول الجنة -إذا كان من أهل التوحيد-.

ولهذا في اعتقاد المسلمين أن الذين يدخلون الجنة -جعل الله إياكم من أهلها- ثلاثة أصناف: إما أن يدخل الجنة مع أول الداخلين الأنبياء وقبلهم يدخلون الجنة بغير حسابٍ ولا عذاب، وإما أن يدخل الجنة بغير حساب من غير عذاب، كما في قصة الرجل -والحديث في صحيح البخاري-: **«أَنَّ اللهَ ﷻ يُدْنِي رَجُلاً فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ فَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ، فَإِذَا أَقَرَّ بِهَا قَالَ: يَا رَبِّ، أَوَ لَمْ تَغْفِرْهَا لِي؟ قَالَ: قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ، وَأَنَا أَغْفِرُهَا الْآنَ»**، فحاسبه ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ليس حساب العرض الذي معناه التشديد وإنما حساب المعاتبة، ومع ذلك يتداركه بلطفه ويدخله الله ﷻ الجنة، هل دخل النار أو عُذِّب في النار؟ فهذا الصنف الثاني لم يدخل النار.

الصنف الثالث: الذين يدخلون النار؛ إذا كانت ذنوبهم توجب الدخول في النار، وكل ذنب متوعَّدٌ عليه في النار على كل حال؛ فإذا دخلوا النار يخرجون من أهل التوحيد خاصة، يخرجون من النار إلى الجنة.

خروجهم من النار إلى الجنة له أسباب: إما أن تكون لأعمالٍ صالحة، أو لدعاء مؤمنٍ، أو لشفاعة أهل الجنة لأهل الجنة، أو أن يكون قُضِي ما عليهم من مدة كتب الله أن يبقوا فيها على ذنوبهم، أو رحمة أرحم الراحمين؛ بمعنى أن الله ﷻ يخرج من النار أناساً ويدخلهم الجنة ما عملوا خيراً قط.

هذا الحديث -يا إخواني- لا يُستدلّ به على عقيدة المرجئة؛ أنه يكفي الإنسان أن يعتقد اعتقاداً وأن الاعتقاد كافٍ لدخول الإسلام، ولهذا الذي يعتقد هذا الاعتقاد من أخبث الطوائف؛ طوائف المرجئة في زماننا.

نعم صحَّ عن النبي صلى الله عليه وسلم، سنخرج في هذه المسألة قليلاً لأنها مهمة، في صحيح مسلم قال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عن الخوارج: **«شَرُّ الْخَلْقِ وَالْخَلِيقَةِ»**، وسيبقون شرّ الخلْق والخليقة، لكن في زماننا بدعة الإرجاء تلقِّي الناس له وقبول الناس له، وحفاوة الناس

بها أشد من حفاوتهم لمذهب الخوارج؛ لأن مذهب الخوارج فيه قتل ومصادمة إلى غير ذلك، وكثير من الناس لا يحبون هذا، أليس كذلك؟ لكن الإرجاء الذي يجعل الدين سهلاً الأوامر ليست ذات بال، والمحرمات ذات بال، كما قال الشاعر شقيهم –والعياذ بالله–:

تكثَّر مما استطعت من المعاصي إذا كان القدوم على كريم

فهذا نوعٌ من الإرجاء الذي يقول الذنب لا يحول بينك وبين الجنة.

ونوع من الإرجاء: أن أصول الاعتقاد إذا جئت ببعضها حتى صار الحال عند غلاة غلاتهم أن قال: إذا عرفت الله بقلبك فليس بينك وبين الجنة إلا أن تموت –والعياذ بالله–! حتى لو ما عرفت بقلبك إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ إبليس يعرف رب العالمين، وفرعون يعرف رب العالمين: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾[الإسراء:١٠٢].

فهذا الاعتقاد –اعتقاد المرجئة– من أخبث الطوائف؛ لأن معناه الاستخفاف بأصول الدين كلها، والاستخفاف بأصول الشريعة الظاهرة كلها؛ الصلاة والزكاة وغيرها.

حتى قال بعض السلف في المرجئة الأولين –الذين لم يصل بهم الحال إلى هذا الموجود الآن–: جَعَل المرجئة الدين كثوب سابري.

ثوب السابري ثيابٌ تُصنع في نيسابور، "ني" يعني مدينة واسم المدينة سابور أصلاً، فسمي ثوب سابرياً لأنه كان يُصنع هناك، هذا ثوبٌ يلبسه الفلاح والمزارع والمسافر ثوب مهنة لا يقي حراً ولا يقي برداً ولا يُتجمَّل به ولا يستر عورة، وهو ما يسمونه إخواننا السودانيين العَرَّاقي –يعني شفاف جداً–.

قَالَ: جعلوا الدين كثوب سابري ليس له من الاسم إلا الوصف –ليس له من وصف الثوب إلا أن العاتق يحمله–.

هكذا المرجئة؛ يكفيك أن تقول: لا إله إلا الله وما سوى ذلك من الأعمال ليست ضرورية. وهم يستدلون بأدلة لكن ينتقون من الأدلة قبل أن يجمعوا غيرها إليها، وهذه طريقة

المبتدعة؛ أنهم يختارون من الأدلة ما وافق هواهم. كما قال المتأخرون أنه يعتقد ثم يستدل، وأما أهل السنة والجماعة فيستدلون أولاً؛ يجمعون الأدلة وينظرون فيها، يضيفون الأدلة بعضها على بعض.

فمن الأدلة التي استدلوا بها على أنه يكفي الإنسان أن يفعل بعض أصول الدين أو يفعل أصلاً واحداً من أصول الدين هذا الدليل؛ لما قال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «(فَإِنَّ اللهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ -يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ-»)، يأتي واحد ويقول: أنا قلت لا إله إلا الله، فإنما أريد ثوابًا من الله، فلا تلزموني بصلاة ولا بزكاة، بعض المرجئة يقول هذا -والعياذ بالله-.

طيب. كيف تفعل بقول النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ»؟ كيف تفعل بقول النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلَاةُ، فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ»؟

كيف تفعل بفهم الصحابة كلهم لما قاتلوا المرتدين ومانعي الزكاة؟ معنى ذلك أنه لابد أن يضاف هذا إلى هذا.

من أدلتهم -وهذا من الطيش في الأدلة- أنهم يستدلون بقول النبي صلى الله عليه وسلم: «قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ تُفْلِحُوا»، فإذا قلت "لا إله إلا الله" أفلحت؟ أليس هذا الحديث صحيحاً؟ بلى صحيح. لماذا تلزمون الناس بغيرها من أصول الشريعة؟ نقول: قال النبي ذلك عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. فإذا قالوا "لا إله إلا الله" يلزمهم بعد ذلك أن يفعلوا ما تأمرهم به "لا إله إلا الله"؛ من أصول الدين، وأحكام الشريعة الظاهرة، وقواعد الدين ومبانيه العظام، إلى غير ذلك.

أحاديث الوعد والوعيد التي قلناها قبل قليل؛ أهل السنة والجماعة يضيفون بعضها إلى بعض، أما الوعيدية فينظرون إلى أحاديث الوعيد بالنار ويعمون عن أحاديث الوعد، والمرجئة على الضد من ذلك -ينظرون إلى أحاديث الوعد ويعمون عن أحاديث الوعيد-.

أما نحن -من فضل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أهل السنة والجماعة- فيجمعون بينها، لكنهم لا ينزّلون هذا على الناس؛ لأنه قد يكون الإنسان على معصية ثم يموت عليها وغفر الله ﷻ له ذلك لخبيئةٍ بينه وبين الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، أو للطف الرب ﷻ أو لغير ذلك، وقد يتوب منها قبل أن يموت؛ فلا يطبّقونه على الناس.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَعَنْ أَبِي سَعِيْدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُوْلِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «قَالَ مُوْسَى: يَا رَبِّ، عَلِّمْنِي شَيْئًا أَذْكُرُكَ وَأَدْعُوْكَ بِهِ»). بمعنى أن موسى بن عمران كليم الرب سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أراد ذكراً يكون خاصاً به يعبد الله ﷻ به، والأصل في ذلك أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يخصُّ أنبياءه بنوعٍ من العبادات تكون لهم دون غيرهم.

ننتبه لهذا قليلاً! الخصوصية للنبي في أصل المسألة قد تكون خصوصية عبادة وقد تكون خصوصية متعلقة بالدنيا، متعلقة بالدنيا كما هو المعروف فيما يتعلق بزوجات النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ التسع، وفيما يتعلق بكشف الفخذ وهو ما وقع إلا في حديثٍ واحد -حديث عثمان-، لكن قد يخص الله ﷻ نبياً من أنبيائه بعبادةٍ خفف فيها على أمته صلى الله عليه وسلم؛ ولهذا أراد موسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أن يُخصَّ بذكرٍ يكون له بينه وبين الله ﷻ.

والذِكْر ليس فيه تخصيص، بمعنى أن ذكر الله ﷻ كل الناس يستطيعونه، لكن من العبادات ما يكون خاصاً بنبيٍ وليس لأمته؛ فعلى سبيل المثال قيام الليل فرضٌ على النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[المزَّمِّل:١-٢] على قول بعض أهل العلم.

بل أظهر من ذلك وأصرح من ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يواصل الصيام وينهى أمته عن ذلك؛ كان يواصل الصيام حتى يصوم اليومين والثلاثة لا يُفطر، فلما واصل أصحابه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ -ونهاهم عن ذلك فلم ينتهوا- واصل بهم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كالمنكِّل لهم؛ ولهذا الذي يدلُّ على خصوصية العبادة في هذا الحديث -وهو مثال على كل حال- أنه قال

عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِنِّي لَسْتُ كَهَيْئَتِكُمْ، إِنِّي أَبِيتُ عِنْدَ رَبِّي يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي»، يعني أن الله ﷻ يغنيه سبحانه وبحمده؛ «يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي» على هذه الصورة -بطعام وشرب-، الله أعلم بصفته ولا نخوض في ذلك.

لا كما يقول بعض الناس أن الله يفتح له باب المعرفة وفتوح الإيمان؛ هذه أمور قد تحصل لأحدٍ من الناس، لكن المقصود الأصل في ذلك أن يُجرى على ظاهره وأن نقول الله ﷻ أعلم به. والصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ما حملهم الفضول على أن يسألوا عن هذه الأمور، فلما لم يحملهم الفضول فغيرهم من باب أولى؛ يصدّقون النبي في خبره عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ويقفون على عتبة المتابعة والتسليم.

قوله صلى الله عليه وسلم: «(قَالَ مُوْسَى: يَا رَبِّ، عَلِّمْنِي شَيْئًا أَذْكُرُكَ وَأَدْعُوْكَ بِهِ. قَالَ: قُلْ يَا مُوْسَى: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، قَالَ: كُلُّ عِبَادِكَ يَقُوْلُوْنَ هَذَا»). يعني يريد ذكراً خاصاً له يُثني به على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. (كُلُّ عِبَادِكَ) ننتبه لهذه الكلمة من موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ (كُلُّ عِبَادِكَ يَقُوْلُوْنَ هَذَا) بمعنى أن كل موحِّدٍ يعرف فضل "لا إله إلا الله" وأنها مفتاحٌ لثلاثة أمور: مفتاحٌ للدين، ومفتاحٌ للسؤال في القبر، ومفتاحٌ للجنة. لكنها لا تنفع حتى تكون لها أمور تنفع معها.

كما قال وهب بن منبه: "إن لا إله إلا الله كالمفتاح، والمفتاح لا يفتح إلا إذا كان له أسنان"؛ بمعنى أن كلمة "لا إله إلا الله" هي الكلمة الطيبة وهي أعظم الذكر، وهي التي يدخل بها الإنسان الإسلام، ويأمن بها من الفتّان، ويكون من أهل الجنة إذا كان آخر كلامه من الدنيا "لا إله إلا الله"، لكن لا يكفي في ذلك أن يترك ما توجبه كلمة "لا إله إلا الله" من أصول الاعتقاد وأحكام الشريعة الظاهرة.

قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «(قَالَ: قُلْ يَا مُوْسَى: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، قَالَ: كُلُّ عِبَادِكَ يَقُوْلُوْنَ هَذَا، قَالَ: يَا مُوْسَى! لَوْ أَنَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ وَعَامِرَهُنَّ غَيْرِي؛ وَالأَرَضِيْنَ السَّبْعَ فِي كِفَّةٍ؛ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فِي كِفَّةٍ؛ مَالَتْ بِهِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»).

«لَوْ أَنَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ وَعَامِرَهُنَّ» يعني وعامرهن من الملائكة ومن الخلْق الذي لا يُدركه إلا الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ. خلْق الله ﷻ ذُكِر في كلامه وكلام رسوله بعضه، وما لم يُذكر من الخلْق أكثر مما ذُكِر، قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾[الحاقة:٣٨-٣٩].

وفي قوله صلى الله عليه وسلم: «وَعَامِرَهُنَّ غَيْرِي»؛ بعض الحلولية يعتقدون أن الله ﷻ حلَّ في سماواته، وهذا من أقبح الكفر؛ اليهود والنصارى على كفرهم لا يقولون بأن الله ﷻ حل في شيءٍ من مخلوقاته.

هناك فرقٌ -يا إخواني- ما بين الحلولية والاتحادية؛ الحلولية كفار والاتحادية كفار، والاتحادية على كفر هؤلاء أشد كفراً منهم.

وحتى يُفرَّق ما بينهما سأختصر الكلام في هذا: الاتحادية الذين يرون أن الله ﷻ اتحد بخلقه، فكل ما تراه هو الله، وكل ما تسمعه هو الله، والآكل والمأكول هو الله، والضارب والمضروب هو الله، والسامع والمسموع هو الله.

وكل كلامٍ في الوجود كلامه ... سواء علينا نثره ونظامه

إلى غير ذلك من أقوالهم.

هذا القول قال به غلاة الغلاة من الصوفية، وهم كفارٌ عند المسلمين، حتى اليهود والنصارى تنقبض قلوبهم من قولهم، ومنهم محيي الدين بن عربي، وابن سينا الطبيب المشهور، وصدر الدين القونوي، وجلال الدين الرومي وغيرهم، الذين الآن يعظِّمهم بعض الذين يرون أنفسهم أصحاب الحِكمة وأصحاب المعرفة والعلم التنويري -هم يسمون أنفسهم العلم التنويري- ويعظمون رموز الصوفية هؤلاء ويقدّسونهم تقديساً ما يجوز لو كان في رجلٍ صالح، فكيف إذا كان في جلال الدين الرومي وصدر الدين القونوي؟ يقدّسونهم مع أن هذا اعتقادهم من حيث الاتحاد أن الله اتحد بمخلوقاته -والعياذ بالله-.

الحلولية كُفَّارٌ لا شك في كفرهم، لكنهم يرون أن الله ﷻ حلَّ ولم يمتزج -تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً- حلَّ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في سماواته! لماذا هذا الكلام؟ لأنهم يستدلون بقوله صلى الله عليه وسلم: «وَعَامِرَهُنَّ غَيْرِي» من حيث أن للسماوات عماراً؛ الملائكة والأجرام السماوية والغبار الكوني كما يقولون والله -تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً-، والدليل على ذلك أن الله ﷻ عَمَر السماوات يعني أنه حلَّ في السماوات والأرض!

هل يقول بهذا مسلم؟ بغض النظر عن الرد على هذه الشُبْهة؛ كيف تفهم قول الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ﴾[الملك:١٦] يعني من على فوقها سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾[فاطر:١٠]، ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾[طه:٥] إلى غير ذلك من الآيات؟ فيأخذ حديثًا -وهذه طريقة أهل الزيغ- حمَّال وجوه، ويعمى عن نصوص ظاهرة كظهور الشمس، ولا ينظر إلى هذه النصوص، وإذا تأملت فيه يكون حُجَّة عليه لا له.

هناك قاعدة -يا إخواني- ذكرها ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أول "درء تعارض العقل والنقل"، وهي كلمة لا تخرج إلا من قلب رجلٍ عالم عرف الوحي وعرف السنة النبوية، قال: "ما استدل مبطلٌ على باطله بكلام الله أو كلام رسوله صلى الله عليه وسلم إلا كان في دليله هو ما يُرَدُّ به عليه قبل أن يُنظَر إلى غيره من الأدلة"؛ لأن الله إنما أنزل كتابه بالحق، ولأن الله ﷻ لا يجعل كلامه وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم حُجَّة للمبطلين.

نضرب مثالاً حتى تكون قريبة إلى الفهم: صلوات الجمعة والجماعات أليست تُقام في المساجد؟ إذن المساجد تُعمر بالصلوات. بمعنى أن المساجد تُعمَر بالصلوات، ما علاقة هذا بما نحن فيه؟

نقول: أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ تُعْمَر السماوات بذكره سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾[الإسراء:٤٤]. لا يعني ذلك أن الرب جلَّ وتقدَّس عَمَر بعض خلقه حُلولاً، وإنما ذكره

وتسبيحه وتعظيمه وإجلاله وتدبيره وخلْقه عَمَرَ السماوات سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، أليس كذلك؟ والعَمْر في ذاته بمعنى أن يكون قائمًا عليها سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، كما قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾[فاطر:٤١].

أين العُمْران الذي يفهمه هؤلاء ناقصو العقل من حيث أن الله ﷻ عمر السماوات والأرض وأنه سكنها؟ لا يقول بهذا مسلم يقْدُر الله ﷻ حق قدره، وإنما عمرانه -أنا ضربت المثال قبل قليل حتى يكون أرسخ للذهن- أن الإنسان أنا وإياكم نعْمُرُ بيوتنا بوضع الزاد فيها لأُسرنا، أليس كذلك؟ مع أنك وضعت الزاد وسافرت لمكة؛ بيتي عامرٌ بي لأنني قمت على شؤونه، بيتي معمورٌ بي من حيث أن أهلي يدعون لي ويثنون علي ويفعلون وصيتي من بعدي... إلى غير ذلك.

كذلك فيما يتعلق بأن الله ﷻ عَمَر السماوات والأرض سبحانه وبحمده، أن أمره فيها، أن تسبيحه فيها، أن الله ﷻ يدبِّره وما فيها من ملكوته سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، لا أن الله ﷻ حلَّ فيها كما يقول هؤلاء؛ لأن عقيدة الحلول هي كُفْرٌ ولا شك في ذلك. الذي يعتقد أن شيئًا حلَّ في شيء، أيهما الأكبر الحال أو المحلول فيه؟ المحلول فيه أليس كذلك؟ إذن معنى ذلك جعلوا غير الله ﷻ أكبر من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وهو الكبير المتعال، ولا شك أن في هذا الاعتقاد كُفْرٌ يأباه اليهود والنصارى.

وهنا فائدة: أول من قال بالحلول النصارى، ومع ذلك ما قالوا أن الله ﷻ حلَّ في السماوات والأرض، ولا قالوا أن الله ﷻ -سبحانه وبحمده وهو الواحد القهار- هو فقط الذي حلَّ في عيسى، وإنما قالوا حلَّ عيسى وروح القدس في عيسى فصاروا ثلاثة في واحد. أما هؤلاء فيقولون: أن الله ﷻ حلَّ في السماوات والأرض، بما فيها عيسى وأنا وأنت، والجن والملائكة، والشجر والحجر والكواكب وغير ذلك؛ فأيهما أعظم كفراً هؤلاء أو النصارى؟ لا شك أن هؤلاء أكفر -والعياذ بالله-، وأن من قال هذا لا يعرف معنى العُمْران ولا يقدر الله

ﷻ حق قدره.

ولهذا لو تأملت الحديث الذي بعد ذلك لما قال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**وَعَامِرَهُنَّ غَيْرِي**»؛ من حيث أنه يُنزَّه الرب ﷻ أن يخلق خلقاً ويعطله أو يهمله، ﴿**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ**﴾[المؤمنون:١١٥]. فصار عَمْرُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعني عَمْرُه بالتدبير أو عَمْر ما فيها من الخلْق بتسبيح الله ﷻ وتعظيمه.

قال صلى الله عليه وسلم: «**وَالأَرَضِيْنَ السَّبْعَ فِي كِفَّةٍ؛ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فِي كِفَّةٍ؛ مَالَتْ بِهِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**» يعني أن "لا إله إلا الله" أثقل في الميزان من السماوات والأراضين، أثقل في الميزان وإن كانت خفيفة على اللسان، وهذا يدلُّ أيضاً على أن الأعمال والأقوال توزن في الآخرة، بدلالة قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في الحديث الآخر: «**كَلِمَتَانِ ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ**»رواه البخاري ومسلم. وهذا الحديث آخر حديث رواه البخاري في صحيحه.

أهل السنة والجماعة يرون أن الذي يوزن يوم القيامة الأعمال والأقوال والعاملون والقائلون وكتب الأعمال.. كلها توزن؛ توزن أولاً ليظهر فضلها عند أهل الإيمان لما فعلوها، فتطمئن قلوبهم أن ثوابهم ليس بضائع، ويظهر فضل أهل الإيمان وإن كان الناس يتقالُّون شأنهم ممن خفَّت أبدانهم، لكنهم ثقيلو الوزن يوم القيامة، وليظهر أن الكلمة التي فيها ذِكْر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ثقيلة ثقلاً معنوياً وأيضاً حسياً في الآخرة لعظم ما تحملته من ثناءٍ وحمد لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ يعني أن دعاء الثناء على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أعظم أنواع الدعاء.

ولما قال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في قصة صاحب البطاقة: «**يُؤْتَى بِرَجُلٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَهُ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ سِجِلًّا، كُلُّ سِجِلٍّ مَدَّ الْبَصَرِ، حَتَّى إِذَا قُرِّرَ عَلَى ذَلِكَ وَظَنَّ أَنَّهُ هَالِكٌ، قِيلَ لَهُ: إِنَّ لَكَ بِطَاقَةً وَإِنَّكَ لَنْ تُظْلَمَ الْيَوْمَ شَيْئًا، فَتُخْرَجُ لَهُ بِطَاقَةٌ فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، قَالَ صلى الله عليه وسلم: فَوُضِعَتِ السِّجِلَّاتُ فِي كِفَّةٍ وَالْبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ، فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ**»، يعني

ثقُلَت البطاقة، لا لكونها بطاقة وإنما لما تضمنته من كلمة "لا إله إلا الله".

هذا يصدِّق هذا الحديث لما قال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَالَتْ بِهِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»؛ يعني أن البطاقة أو أن كلمة "لا إله إلا الله" تميل في كفة الميزان سواء وزن بها عملٌ سيء أو وزنت بها السماوات والأراضين وما فيها؛ لِعِظَم شأنها وأنها تتعلَّق بالثناء على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وكلمة "لا إله إلا الله" هي أعظم الثناء. يقول النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أَحَبُّ الْكَلَامِ إِلَى اللهِ أَرْبَعٌ: سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ».

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (رَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ وَالحَاكِمُ وَصَحَّحَه).

ابن حبان البُستي، والحاكم النيسابوري، وهما ممن اشترط الصحة فيما يرويان، لكن استدرك أهل العلم بعض الأحاديث عندهما.

قال: (وَلِلتِّرْمِذِيِّ وَحَسَّنَهُ عَنْ أَنَسٍ: سَمِعْتُ النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُوْلُ: «قَالَ اللهُ تَعَالَى») هذا يسمى -يا إخواني- الحديث القدسي، والمقصود بالحديث القدسي أو الحديث الإلهي: الذي نسبه النبي صلى الله عليه وسلم إلى ربه سبحانه وبحمده؛ كقول النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «قَالَ اللهُ تَعَالَى: إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ»، وكقوله صلى الله عليه وسلم في حديث: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي»، وهنا قال الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: «يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا».

فالحديث القدسي يُنسب إلى الله ﷻ لكنه ليس كالقرآن؛ يُنسب إلى الله ﷻ لفظًا ومعنى، وأما ما درسها الناس في كتب علوم القرآن أن الحديث القدسي هو ما نُسب إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لفظًا من النبي ومعنى من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى! وهذا القول باطل، وإنما الحديث القدسي لفظه ومعناه إلى الله.

حتى أن أهل الاعتقاد خاصة دقيقون جداً فيما يتعلَّق بألفاظ الاعتقاد لأن الخطأ فيها محسوبٌ على قائله، حتى أن أهل العلم ما قالوا لفظ وإنما يقولون: كلماته من الله ومعناه من

الله، ولهذا من الخطأ ما يقوله بعض الناس أن القرآن الكريم ألفاظٌ وحروف، قال: هذا خطأ ما جاء لا في الكتاب ولا في السنة، وصْف كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بأنه ألفاظ، وإنما وصِف بأنه كلمات وحروف.

حروف لقوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**لَا أَقُولُ الم حَرْفٌ**»، وكلماتٌ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿**قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي**﴾[الكهف:١٠٩]، لكن هات دليلاً من القرآن أو من السنة أن الآيات ألفاظ، كلمة اللفظ هذه تحتاج إلى دليل لأنها متعلقة بالمعنى، إلا إذا كان على سبيل الخبر فأمرٌ آخر.

فقول النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**قَالَ اللهُ تَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ**» هو من الحديث القدسي، وسُمِّي قدسيًا لقدسيته -التقديس هو التطهير-، وسُمّي إلهيًا لأنه منسوبٌ من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لفظه ومعناه من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. فإذا قيل لفظه ومعناه من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -أو كلماته ومعناه من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-.

ما الفرق بينهما إذاً؟ هل معنى ذلك أننا نجعله سورة من السور؟ لا، نقول: الفرق ما بينهما أنه يصح روايته بالمعنى، لكنه لا تصح قراءة الآية بالمعنى.

أنه يصح مسَّ الكتاب الذي فيه الحديث القدسي من غير طهارة، لكنه لا يصح ذلك في القرآن.

أن من قرأ الحديث القدسي في الصلاة بطلت صلاته، وأن من لم يقرأ آية في القرآن لم تصح صلاته.

أن الحديث القدسي ليس كل حرف بعشر حسنات، لكن هذا خاصٌ بالقرآن.

إذن هناك تفصيلاتٌ أخرى تفرِّق ما بين الحديث القدسي وما بين القرآن، لكن كلاهما يتفقان على أنهما كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لفظًا أو كلمة ومعنى، كله من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

من هذا قول النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**قَالَ اللهُ تَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا**»

يعني بملء الأرض أو ما يقارب الأرض من الخطايا والذنوب، ثُمَّ لَقِيتَنِي -هذا هو الضابط والقيد- «ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً».

بمعنى أن الحديث يدلُّ على سَعَة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وأن رحمته سبقت غضبه، وأن الله ﷻ يغفر لمن يشاء، لكنه لمن يشاء، بمعنى أن هذا الحديث يعظِّم الرجاء في الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، لكنه لا يكل على ظاهر الحديث، بمعنى لو أن الإنسان فهِمَ من هذا الحديث أنه يفعل ما أراد من المعاصي ولو ملأ الأرض بالمعاصي، لكنني لا أشرك بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، هل معنى ذلك أنه لا يُحاسَب على سيئته؟

ولهذا نحن نقول -يا إخواني- وهذا منها، هناك نصوص محتاجةٌ إلى نصٍ آخر حتى توضِّحها، لكن هناك نصوصٌ يتساوى كل الناس في فهمها: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[الزلزلة:٧-٨]. هل يختلف الناس في فهم هذه الآية، أو يتفقون في فهمها؟ بمعنى أن هذا يتساوى الناس في فهمه.

فالإنسان لا يحتجُّ بحديثٍ يختلف الناس في فهمه، أو حديثٌ يشرحه حديث آخر ويعمى عن أدلةٍ أو نصوص من كلام الله وكلام رسوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كل الناس يتساوون فيها، وأن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قال: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾[القلم:٣٥].

فإذا قال الإنسان: لو أتيت بملء الأرض خطايا وأنا لا أُشرك أنا أضمن الجنة، نقول: أنت تضمن الجنة إذا غَفَر الله ﷻ لك سيئتك ولم تفعل شيئاً يُفسِد الدين، وأن هذا ليس إليك ولكن إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، بمعنى أنك لا تركن إلى هذا وإنما هذا الحديث مفاده تعظيم الرجاء في الله وحُسْن الظن بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وتعظيم شأن التوحيد، وأن التوحيد ربما لا تبقى معه معصية.

وبالمقابل تهويل -يعني تعظيم- شأن الشرك، وأن الشرك لا تبقى معه طاعة -والعياذ بالله-، وهو من أحاديث الوعد والوعيد التي قلنا أن قاعدة أهل السنة والجماعة فيها أنها تُمَرُّ

على ظاهرها إذا كان وعداً يعظُم الرجاء في الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بأن ينال المسلم هذا الرجاء، وإذا كانت وعيداً يُعظِّم الإنسان ما عظَّم الله عَزَّ وَجَلَّ من المحاذير ولا يقع فيها.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بَابُ مَنْ حَقَّقَ التَّوْحِيدَ دَخَلَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ

وَقَوْلُ الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[النحل:١٢٠].

وقال: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾[المؤمنون:٥٩].

عَنْ حُصَيْنِ بنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قال: كُنْتُ عِنْدَ سَعِيدِ بنِ جُبَيْرٍ، فَقالَ: أَيُّكُمْ رَأَى الْكَوْكَبَ الَّذِي انْقَضَّ الْبَارِحَةَ؟ قلت: أَنا. ثُمَّ قلت: أَمَا إِنِّي لَمْ أَكُنْ فِي صَلاةٍ، وَلَكِنِّي لُدِغْتُ، قال: فَمَا صَنَعْتَ؟ قُلْتُ: ارْتَقَيْتُ، قال: فَمَا حَمَلَكَ عَلَى ذَلِكَ؟ قلت: حديثٌ حَدَّثَنَاهُ الشَّعْبِيُّ، قال: وَمَا حَدَّثَكُمْ؟ قلت: حَدَّثَنَا عَنْ بُرَيْدَةَ بنِ الْحصيبِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قال: لَا رُقْيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ، فقال: قَدْ أَحْسَنَ مَنْ انْتَهَى إِلَى مَا سَمِعَ.

وَلكِنْ حَدَّثَنَا ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قال: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلانِ، وَالنَّبِيَّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ؛ إِذْ رُفِعَ لِي سَوادٌ عَظيمٌ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُم أُمَّتِي، فَقِيلَ لِي: هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ. فَنَظَرْتُ فَإِذا سَوادٌ عَظيمٌ، فَقِيلَ لِيَ: هَذِهِ أُمَّتُكَ، وَمَعَهُم سَبْعونَ أَلفًا يَدْخُلونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ».

ثُمَّ نَهَضَ، فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ. فَخاضَ النَّاسُ فِي أُولَئِكَ، فَقال بَعْضُهُم: فَلَعَلَّهُم الَّذِينَ صَحِبُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ. وقال بَعْضُهُم: فَلَعَلَّهُم الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الْإِسْلَامِ وَلَمْ يُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئًا - وَذَكَرُوا أَشْياءَ-.

فَخَرَجَ عَلَيْهِم رَسُولُ اللهِ ﷺ فَأَخْبَرُوهُ، فقال: «هُم الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقونَ، وَلَا يَكْتَوونَ، وَلَا يَتَطَيَّرونَ، وَعَلَى رَبِّهِم يَتَوَكَّلُونَ».

فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ، فَقال: ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُم، فقال: «أَنْتَ مِنْهُم». ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ آخَرُ، فَقَالَ: ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُم، فَقَالَ: «سَبَقَكَ بِها عُكَّاشَةُ».



قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ الله:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه.

أما بعد:

هذا هو الباب الثاني من كتاب التوحيد، وقول المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى: (**بَابُ مَنْ حَقَّقَ التَّوْحِيدَ دَخَلَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ**).

ومعنى الترجمة (**مَنْ حَقَّقَ التَّوْحِيدَ**) يعني من استكمل التوحيد صافيًا من شوائب الشرك والبدع.

دلَّل على ذلك بقوله: (**وَقَوْلُ الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾**[النحل:١٢٠]). وإبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إنما ذُكِر في هذه الآية وفي غيرها لأن كل الأنبياء من ذريته؛ ما بعث الله نبيًا إلا وإبراهيم أبًا له، فكل أنبياء بني إسرائيل ونبينا محمد ﷺ كلهم يعودون إلى إبراهيم من حيث النسبة، وكل موحِّدٍ يعود إلى إبراهيم من حيث المِلَّة، «**أصبحنا على فطرة الإسلام، وكلمة الإخلاص، ودين نبينا محمد ﷺ، وملة أبينا إبراهيم**»؛ فهو أبٌ لكل موحِّد سواء كان من ذريته أو من غير ذريته.

وتدليل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ على هذه الترجمة بهذه الآية إنما هو على سبيل ضرب المثال، وإلا الذين حققوا توحيد الله ﷻ أنبياء الله ﷻ كلهم ورسله وأتباع الأنبياء من بعدهم، وإنما قصد الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ التمثيل على ذلك.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً**﴾ أي إمامًا؛ لأن "أمة" تأتي في كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ولها عدة معانٍ: إما أن تأتي ويكون المقصود بها الجماعة من الناس ﴿**كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**﴾[آل عمران:١١٠]، وإما أن تأتي ويكون المقصود بها المدة من الزمن ﴿**وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ**﴾[يوسف:٤٥]، وإما أن تأتي ويراد بها المِلَّة ﴿**كَانَ النَّاسُ أُمَّةً**

وَاحِدَةً﴾[البقرة:٢١٣] أيْ على مِلَّة التوحيد، وإما أن تأتي ويكون المقصود بها الإمام والقدوة الذي يُقتدى به.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قَانِتًا﴾ القنوت نوعٌ من أنواع عبادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى التي لا تكون إلا بالقلب ولها أثرٌ في الخارج؛ بمعنى أن الإنسان إذا قنت قلبه قنتت جوارحه، فالقنوت في حد ذاته توحيد، وكل توحيدٍ في القلب لابد أن يكون له أثرٌ في الخارج. قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾[البقرة:٢٣٨].

وسبب نزول هذه الآية فيما قال أهل العلم: أن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كانوا في أول الإسلام يتكلمون في الصلاة، فربما كلم الرجل صاحبه وهو يصلي، وربما سلَّم ورد عَلَيْهِ السَّلَامُ، فلما أُمِروا بالقنوت كان أمرهم بالقنوت أمرٌ بأن لا يتكلموا في الصلاة.

قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كنا نسلِّم على النبي ﷺ ونحن في الصلاة قبل أن نأتي أرض الحبشة فيرد علينا، فلما رجعنا سلَّمنا عليه فلم يرد علينا، فأخذ بنا ذلك -يعني أشغلنا ذلك- فقال النبي ﷺ: «إن الله يُحدث في دينه ما يشاء، وإن الله أحدث في دينه ألا تتكلموا في الصلاة»، ونزلت هذه الآية.

هذا من حيث أن القنوت عملٌ قلبي لكن يكون له أثرٌ في الخارج، فمن حقق القنوت من قلبه كان له أثرٌ في الخارج وهو الإخبات والخشوع والإقبال على التوحيد وأنواع العبادة وترك ما عداها.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿حَنِيفًا﴾؛ قلنا فيما سبق: أن الحنيف هو المائل عن الشرك إلى التوحيد، ويؤيده ما ختم الله به الآية ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

ومثلها قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في ثنائه على عباده المؤمنين: (﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾[المؤمنون:٥٩]) يعني أنهم أخلصوا التوحيد لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فخلّصوه من الشرك وشوائبه، ولا يجتمع التوحيد والشرك في قلب مؤمنٍ أبداً إلا أن يكون شركاً أصغر، ومع

ذلك الشرك الأكبر مفسدٌ للتوحيد كما أن الحدث يُفسد الطهارة.

ثم ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ حديث (**حُصَيْنِ بنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قال: كُنْتُ عِنْدَ سَعِيدِ بنِ جُبَيْرٍ، فَقال: أَيُّكُمْ رَأَى الْكَوْكَبَ الَّذي انْقَضَّ الْبارِحَةَ؟**) يعني الذي انفجر أو رُمي به، منهم من قَالَ: انقضَّ أيْ انفجر، ومنهم من قَالَ: انقضَّ أي رُمِيَ به كما يقال: انقض الشهاب وانقض الصقر وغير ذلك، بمعنى رُمي به، فقلت: أنا.

ثم لما خاف على نفسه أن يُظَن أنه كان في صلاة، وهذا من حياطتهم -رحمهم الله ورضي عنهم- لأنفسهم أن يقع فيها العُجْب؛ بمعنى أنهم يعلمون أن النفوس ميَّالةٌ إلى مدح الناس، فخافوا أن يُمدحوا على شيء لم يفعلوه، وهذا دأب الصالحين أن يُراعوا أنفسهم من حيث أن النفس ربما تميل إلى مدح الناس وتُصغي له.

نعم قال النبي ﷺ في ثناء أهل الإيمان على أهل الإيمان: «**تلك عاجل بشرى المؤمن**»، لكن من دفع عن نفسه وتوقَّى لنفسه من أن يقع في قلبه شيءٌ من العُجْب فهذا هو الأكمل، ولهذا قال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ للرجل الذي أثنى على صاحبه وهو يسمع: «**ويلك لا تقصم ظهر أخيك**»، وفي رواية: «**لا تقطع عُنُق صاحبك**»، والحديث عند أحمد في المسند.

فهم يراعون ذلك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وأرضاهم؛ الصحابة ومن بعدهم من التابعين والصلحاء في كل أمة، من حيث أنهم يعلمون أن النفس ولو كانت تُراقب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على العموم، لكن ربما يحصل لها ضعف فتُحب المدح فتميل إلى هذا، ويكون هذا الميل مفسداً للإخلاص، والإنسان يراعي هذا الجانب لأن النفوس تضعف عند المدح.

ولهذا الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ ما كانوا يمدحون بعضهم، مع علمهم أن الله ﷻ مدحهم في كتابه، وأن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أثنى عليهم فُرادى وجماعات؛ أثنى عليهم فرادى لما شهد لبعضهم بالجنة، وأثنى عليهم جماعات لما أثنى الله ﷻ على المهاجرين والأنصار، وأثنى النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ على من شهد بيعة الرضوان، وأهل بدر وغير ذلك.

والإنسان يُراعي هذا لا لأنه يتَّهِم نفسه، لكن لأنه يخاف من نفسه ويخاف من ميلها إلى ما تحب، ويخاف من تزيين الشيطان، فهو إنما قال ذلك حتى لا يُظنّ أنه كان في صلاة فيُمدح بشيءٍ لم يفعله، فمن باب أولى أنه لو كان في صلاة ما أخبر الناس بذلك -هذا من باب أولى-.

(**قلت: أَنا. ثُمَّ قلت: أَمَا إِنِّي لَمْ أَكُنْ فِي صَلاةٍ**) أيْ لم أكن قائم الليل، (**وَلَكِنِّي لُدِغْتُ**) أي: لدغتني دابة ذات سمٍ، (**قال: فَمَا صَنَعْتَ؟ قُلْتُ: ارْتَقَيْتُ**) يعني: رقيت نفسي من هذه اللدغة -طلبت الرقية-، والرُّقْية في أصلها استشفاءٌ كانت موجودةٌ في الجاهلية، ثم جاء الإسلام بوضع أصولٍ للرقية الجائزة الشرعية، والذي يدلُّ على أنها كانت في الجاهلية أن النبي ﷺ قال له بعض الصحابة: إنَّا كنا نرقي قبل الإسلام، قال: «**اعرضوا علي رقاكم، لا بأس بالرقى ما لم تكن شركًا**».

ويأتي الكلام بعد قليل فيما يتعلق بالرقى المشروعة والرقى الممنوعة، من حيث لفظها ومن حيث نوعها، ومن حيث تعلُّق القلب بها -من هذه الحيثيات الثلاث-: من حيث لفظها.

ومن حيث نوعها؛ لأن من الرقى ما يكون شربًا، ومن الرقى ما يكون ريقًا، ومن الرقى ما يكون معلَّقًا، ومن الرقى ما يكون ملبوسًا أيضًا عند المشركين نقصد.

ومن حيث تعلُّق القلب بها، بمعنى أن الإنسان قد يحتاط للرقية من حيث أنها مشروعة بكلام الله وكلام رسوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ والدعاء المأذون به، الذي فيه توسُّل بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ومشروعةٌ من حيث أن الإنسان يقف فيها على الدليل من كلام الله وكلام رسوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

لكنها تكون ممنوعة ولو استكملت الشروط السابقة من حيث التعلُّق بها والركون إليها، بمعنى أنه تجرَّد من التعلُّق بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الذي هو مسبِّب الأسباب، فتعلَّق بالسبب من دون الله؛ فلها ضوابط جاءت في كلام الله وكلام رسوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ كانوا يرقون ويُرقون، ورقاهُم النبي ﷺ كما رقاه ﷺ جبرائيل وميكائيل في قصة سحر لبيد بن الأعصم من يهود بني زريق.

(قُلْتُ: ارْتَقَيْتُ، قال: فَمَا حَمَلَكَ عَلَى ذَلِكَ؟) يعني ما الذي دعاك إلى أن ترقي نفسك؟ وهذا مما يدلُّ على أن بعض السلف كان يترك الرقية لا لأنه يرى أنها ليست مشروعة وإنما لكمال تعلُّقه بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، هذا مما حُمِل عليه قول سعيد بن جبير: (فَمَا حَمَلَكَ عَلَى ذَلِكَ؟).

ومن المحامل أن سعيد بن جبير لم يكن يعلم أن من الرُّقَى ما يُرقى به من اللدغات، فبعض الناس يظن أن الرُّقى إنما تكون بما يعرض للقلب من هموم وأحزان وغير ذلك، أو ما يعرض للبدن من سموم أو سحر وغير ذلك، ولا يرى أن الرقى متعلقة بما يصيب بني آدم من أذى الدواب -العقارب وغيرها-.

فقوله: (مَا حَمَلَكَ عَلَى ذَلِكَ؟) له محملان: إما لأنه رأى أن من كمال التوكُّل والتوحيد أن يترك الرقى، وهذا يدلُّ عليه آخر الحديث، وإما لأنه كان يظن أن لدغة الدابة ليس لها رقية وإنما يُستشفى بها بالطب التجريبي -كما يسميه المعاصرون الآن- أو غير ذلك.

(قال: فَمَا حَمَلَكَ عَلَى ذَلِكَ؟ قلت: حَدِيثٌ حَدَّثَنَاهُ الشَّعْبِيُّ)، الشعبي من أصحاب عليٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ومن خيار التابعين، عامر بن شراحيل الشعبي.

(قال: وَمَا حَدَّثَكُمْ؟ قلت: حَدَّثَنَا عَنْ بُرَيْدَةَ بنِ الْحَصِيبِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ)، هذا الجزء من هذا الحديث يدلُّ على أن الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ كانوا يحتاطون في الحديث عن رسول الله ﷺ، لا كما يقول الهُّبل والمجانين في زماننا أن الحديث الضعيف والموضوع وغيرها دخلت على الصحابة حتى صاروا ما يميزون؛ لأن بعض الناس يظنون أن قواعد التحديث والجرح والتعديل، والنظر في الإسناد والاحتياط في ذلك، إنما جاء في زمن البخاري ومن بعد البخاري أو من قبله بقليل، وهذا من جهلهم بسِيَر السلف، وإذا قيل السلف: الصحابة ومن بعدهم.

كان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يحتاطون لذلك مع أنهم رأوا النبي وصلوا وراءه ﷺ، وسمعوا حديثه، لكن ربما خفي عليهم حديثٌ للنبي سمعه غيره من الصحابة فيحتاطون لذلك.

إذن خلاصة هذا الكلام: أن الاحتياط لحديث رسول الله ﷺ متأخرٌ إلى زمن التابعين وأتباعهم أو كان في زمن الصحابة؟ كان في زمن الصحابة، وهذا شاهدٌ على ذلك.

بل أنسٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وابن مسعود كانوا لا يحدثون عن رسول الله ﷺ حتى يحتاطوا لذلك، وعليٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان لا يقبل حديث أحدٍ عن رسول الله ﷺ حتى يحتاط لذلك، بل حتى في روايتهم الحديث عن رسول الله ﷺ يحتاطون ليس للإسناد؛ فالعديد منهم سمعوها بآذانهم، يحتاطون حتى إلى اللفظ النبوي، فصار لهم عناية فيما يتعلق بالتلقِّي الاحتياط للناقل، وفيما يتعلق بالرواية الاحتياط للفظ النبوي.

في مسند الإمام أحمد أن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان إذا حدَّث عن رسول الله ﷺ، قَالَ: قال رسول الله ﷺ كذا وكذا، ثم قال -من باب الاحتياط-: أو شبهه أو نحوه أو قريباً منه. وكلنا نعرف حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع عمر رضي الله عن الجميع، لما طلبه عمر فأبطأ عليه أبو موسى فاستدعاه بعد ذلك وقال: ما منعك أن تأتيني؟ كان هذا في خلافة عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: حديثٌ سمعته من رسول الله ﷺ، فإن أُذِن لك وإلا فارجع، قال: لتأتيني بشاهدين أو لأوجعن ظهرك، بمعنى أن عمر كان يحتاط حتى فيما يتعلق بالرواية عن رسول الله ﷺ ولو كان الراوي صحابياً، وأبو موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صحابي أسلم عام خيبر.

فالمقصود: أن هذا جرى عليه السلف الصحابة ومن بعدهم -الاحتياط لحديث النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-؛ وهذا مما يُرَدُّ به، ولابد أن يكون هذا حاضراً في أذهاننا؛ لأن كثيرين من الناس يشككون في الأسانيد التي رويت بها أحاديث النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -قوله وفعله وصفته وغزواته وسيره وغير ذلك-، يشككون بأن هذا أصلاً ما جاء إلا بعد أن مات الصحابة ومات التابعون، ثم جاء بعض الناس يتلقفون الأحاديث من رجالٍ غير معروفين!

هذا جاهل، وإلا كان هذا في هدي الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ وطريقتهم في التعامل مع رواية الحديث عن النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، والنبي علَّمهم ذلك، النبي نفسه ﷺ أمرهم بهذا الاحتياط في مقدمة صحيح مسلم، قال عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «من حدَّث عني بحديثٍ يُرى أنه كذبٌ فهو أحد الكاذبين»، يعني حتى لو حدّثت عني بحديثٍ فلا تحدِّث عني بحديثٍ حتى تتأكد أنني قلته.

«من حدَّث عني بحديثٍ يُرى أنه كذبٌ فهو أحد الكاذبين»؛ بمعنى أن الذي رواه وليس متأكداً منه كذوبٌ، والذي نقله عن هذا الكذوب كذوبٌ مثله؛ لأن قول النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ وحي ولا يُستهان بنقله، والصحابة يفهمون ذلك؛ لأن النبي قال عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ في البخاري: «إن كذبًا عليَّ ليس ككذبٍ على أحد، من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»، وهذا الحديث من المتواتر عن الصحابة عن النبي ﷺ، قوله عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «من كذبًا عليَّ متعمداً» على اختلاف ألفاظه، حديثٌ متواتر والمتواتر رواه جمْعٌ من التابعين عن جمعٍ من الصحابة.

(قلت: حَدَّثَنا عَنْ بُرَيْدَةَ بنِ الْحَصيبِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أَنَّهُ قال: «لَا رُقْيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ»).

يعني لا رقية أنفع وأنجع وأصلح وأحسن إلا إذا كانت الرقية على كلام الله وكلام رسوله ﷺ بالطريقة الشرعية.

(«مِنْ عَيْنٍ») الحاسدة، («أَوْ حُمَةٍ») الحُمَة: اللدغة من ذوات السموم، فلدغة العقرب ولدغة النملة ولدغة غيرها من الدواب تُسمى حُمَةً؛ لأن أثرها يكون حاراً على البدن فيها لذعة السم.

ومعنى قوله: («لَا رُقْيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ») لا يعني ذلك أنها لا تصح الرقية إلا من هذين، لكن معنى ذلك أنها أنفع في هاتين الصورتين: إذا كانت من عينٍ، وإذا كانت من حُمَة.

والعين بحد ذاتها دل عليها كلام الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، والحُمَة بشواهد الأحوال ووقائعها وما وقع في حياة الناس وفي سنته عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ؛ لُدِغ ﷺ ولُدِغ أصحابه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، وأمر النبي

عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بأن يُسترقى من اللدغة.

كذلك العين، العين وقع للصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ الأذى بسبب العين، كما قال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لبعض أبناء جعفر: «استرقوا له فإن به النظرة». وفي كلامه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ما يدل على ذلك: ﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾[القلم:٥١].

وما قص الله ﷻ في قصة يعقوب قال: ﴿يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾[يوسف:٦٧]؛ قيل في أوجه التفسير: أن يعقوب خاف على بنيه من العين؛ لأنه كان مُكْثِرًا أيْ عنده أولادٌ كثير في زمن كان الناس فيه قليل، ودخول أبناؤه في مدخلٍ واحد في زمنٍ قلَّت فيه الذرية للناس ربما يؤذونهم بالعين.

وعلى كل حال هي تقع بقدَرِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ العين وإن كانت مما يتأذى به بنو آدم إلا أنها تقع بقَدَر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، يقال فيها كما يقال في سائر ما يقع لابن آدم من الأعراض، كما قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في العدوى: «فمن أعدى البعير الأول؟»؛ يعني أن العدوى تقع بقَدَر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والعين تقع بقَدَر الله، وما يقع بقَدَر الله يُدفَع بقدر الله، الرُّقْية من قَدَر الله أيضًا، ويبتلي الله ﷻ عباده بهذا وهذا -يبتليهم بالسراء ويبتليهم بالضراء-.

(فقال: قَدْ أَحْسَنَ مَنْ انْتَهَى إِلَى مَا سَمِعَ). وهذا أيضًا مما يدلُّ على أنهم يحتاطون للتلقي؛ قد أحسن من انتهى إلى ما سمع، يعني من سمع حديثًا عن رسول الله ﷺ وانتهى عنده فعَمِل به فقد أحسن.

في مضمون هذه العبارة: أن من لم يعمل بما علِم محلٌ للذمِّ، بمعنى أن الإنسان إذا بلغه عِلْمٌ على إحدى صفتين: إما أن يعمل بالعلم الذي وصل إليه فيكون قد أحسن، وإما أن يترك ما علِم من عِلمٍ فيكون ما علِم من عِلْم وترك العمل به حُجَّةٌ عليه، فهو إنما يستكثر من حجج الله عليه -والعياذ بالله-. الإنسان إذا علِم ولم يعمل بعلمه سلبه الله ﷻ هذا العلم، ومع ذلك

صار هذا العلم حُجَّةً عليه لأنه ما عمِل به.

ضرب الله وصفًا لذلك للمشركين: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾[الأحقاف:٣].

مع أنهم يعلمون أن القرآن لا يستطيعون أن يأتوا بمثله، ويعلمون أن النبي صادق: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾[الأنعام:٣٣]. يعني أنهم علموا، لكنهم لما لم يعملوا بما علموا صاروا محلاً للذمِّ، ولهذا قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قَدْ أَحْسَنَ مَنْ انْتَهَى إِلَى مَا سَمِعَ)، مفهومه: أن الإنسان إذا علِم ولم يعمل بما علِم فإنه إنما يجعل عليه حُجَّةً بين يدي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقد قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَاللهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾[النحل:٧٨]. فإذا وصل الإنسان عِلْمٌ عن الله وعن رسوله ﷺ بسمعه -سمع كلام الله-، أو بصره -رأى شواهد الله عَزَّوَجَلَّ في ملكوته-، أو قلبه -فهِم عن الله عَزَّوَجَلَّ وعَقَل عن الله وعن رسوله ﷺ-، ثم لم يعمل فهذا -والعياذ بالله- آثمٌ في هذا.

قال سعيد بن جبير -وهو من كبار طلاب ابن عباس-: (وَلكِنْ حَدَّثَنَا ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ). ابن عباس هو ابن عم النبي ﷺ وحبر الأمة وترجمان القرآن.

(أَنَّ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ»)؛ هل ما وقع للنبي ﷺ عرْض مشاهدة في اليقظة أو عرْض منام؟ هذا واردٌ وهذا وارد، وسواء كان عرض مشاهدةٍ بعينه ولو كان مستيقظًا ﷺ فهو وحيٌ، وإذا كان في المنام فهو وحي؛ لأن رؤيا الأنبياء وحي.

وكيف يكون رآه النبي ﷺ وهو في يقظته؟ نقول: له نظائر في سنة النبي ﷺ: رأى النبي ﷺ وهو يصلي بالصحابة صلاة الكسوف، رأى الجنة فتراجع والصحابة ينظرون، ثم تقدَّم وهو يصلي بهم، فسألوه عن ذلك فقال: «رَأَيْتُ النَّارَ فَلَمَّا رَأَيْتُمُونِي رَجَعْتُ، وَرَأَيْتُ قِطْفًا مِنْ ثِمَارِ الْجَنَّةِ لَمَّا رَأَيْتُمُونِي تَقَدَّمْتُ». بمعنى أن الله عَزَّوَجَلَّ يكشف للنبي ﷺ حُجُب الغيب، كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن

﴿رَّسُولٍ﴾[الجن:٢٦-٢٧]؛ يكشف له ذلك ﷺ فيرى ما لا يراه الناس.

وكما قال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لما صعد أُطُمًا من آطام المدينة قال: «إِنِّي أَرَى الْفِتَنَ تَنْزِلُ خِلَالَ بُيُوتِكُمْ كَمَوَاقِعِ الْقَطْرِ»؛ بمعنى أن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يُكشَف له شيءٌ من عالم الغيب فيراه، والله أعلم كيف رآه؛ رآه بعينه الباصرة أو رآه بقلبه، هذا محتمل وهذا محتمل.

لكن يقع ذلك للنبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ سواء كان رؤيا أو سماعًا: «لَوْلَا أَنْ لَا تَدَافَنُوا لَدَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُسْمِعَكُمْ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ الَّذِي أَسْمَعُ»؛ يعني لولا خشيتي عليكم ألا يدفن الإنسان ميته خوفًا عليه من عويل أهل القبور، لدعوت الله أن يُسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع.

فيحصل له عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أن يُكشف له شيء من عالم الغيب، ويُحدِّث أمته ويخاطب أمته بذلك عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

وعلى هذا يُحمل العرض الذي وقع للنبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إما أن يكون عرض منامٍ، وإما أن يكون عرض يقظة، لكن كلاهما من وحي الله ﷻ الذي يختص به.

ويدلُّ عليه أيضًا قول النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فيما يتعلَّق بالعرض الذي يكون في اليقظة: «إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رَوْعِي أَنَّهُ لَنْ تَمُوتَ نَفْسٌ حَتَّى تَسْتَكْمِلَ رِزْقَهَا، فَاتَّقُوا اللهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ»، فهذا يتعلق بما يقع في القلب، وإما أن تكون فيما يتعلق برؤيا العين الباصرة -وضربنا شواهدها قبل قليل-.

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَلكِنْ حَدَّثَنَا ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قال: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهْطُ»)؛ الرَّهْط من الثلاثة إلى التسعة، وفي لفظٍ آخر لهذا الحديث قَالَ: «وَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرُّهَيْطُ، وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيَّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ». يعني كلهم بلَّغوا عن الله ﷻ فمنهم من آمن معه إلا قليل، كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في قصة نوح: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[هود:٤٠].

ومنهم من لم يؤمن معه إلا رجلان، ووقع هذا لموسى؛ موسى وإن كانت أمته أكثر الأمم

بعد هذه الأمة، إلا أنه في بعض ما وقع لموسى مع بني إسرائيل لم يؤمن به إلا رجلان؛ قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في قصة موسى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي ۖ فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾[المائدة:٢٥]، ثم بعد ذلك كَثُرَ بنو إسرائيل في زمن موسى، وهذا الضابط في زمن موسى يتعلَّق بهذا الحديث الذي نحن بصدده.

قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: («وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلانِ، وَالنَّبِيَّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ»)؛ يعني دعا قومه فكذّبوه وقتلوه، كما ذُكِر في قصة زكريا أن بني إسرائيل قتلوا زكريا وقتلوا ولده يحيى عليهما الصلاة والسلام، وإن كانا نبيين ليسا رسولين، لكن هناك من أنبياء الله ﷻ من دعوا قومهم إلى التوحيد فكذّبهم قومهم فقتلوهم؛ إما أن يكونوا قتلوهم، أو أن يكونوا ما آمنوا بهم وأمرهم الله ﷻ بمفارقتهم ونزل العذاب على قومهم كما وقع في قوم هود وفي قوم صالح وفي غيرهم، قال تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾[النمل:٥٢].

قال ﷺ: («إِذْ رُفِعَ لِيَ سَوادٌ عَظيمٌ») يعني إذ رُفِع لي أشخاصٌ كثيرون. السواد في الأصل يُطلق على الشيء البعيد الذي لا يتبين ما هو، مثل ما يسمونه العامة "الزول"؛ يعني يتبين أن هناك إنسانٌ قادمٌ من بعيد لكنك لا تدري هل هو رجل أو امرأة، أو اثنين أو ثلاثة، أو دابة أو إنسان، لكنك ترى شيئاً شاخصاً من بعيد؛ يُطلق على الواحد ويُطلق على الجماعات.

قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: («إِذْ رُفِعَ لِيَ») يعني ظهر لي، («سَوادٌ عَظيمٌ») أشخاصٌ كثيرون، («فَظَنَنْتُ أَنَّهم أُمَّتِي»)؛ لأن النبي ﷺ أُخْبِر بأن أمته آخر الأمم وأكثر الأمم وأولها دخولاً الجنة.

قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: («فَظَنَنْتُ أَنَّهُم أُمَّتِي، فَقِيلَ لِي: هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ»). قوله ﷺ «وقومه» له احتمالان: إما أن يكون قومه الذين آمنوا به وماتوا على ما كان عليه موسى من توحيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهذا رأي.

والرأي الثاني وهو الأقرب إلى الصواب: أن («هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ») يعني هذه أمة موسى

بمن فيهم من مؤمنٍ مصدِّقٍ موحِّد، وكافرٍ محرِّفٍ مكذِّب، لكنهم كلهم ينسبون إلى موسى.

لماذا هذا المعنى؟ لأن الذين ليسوا أتباعًا للأنبياء كُبكِبوا في النار فلم يبقَ إلا أتباع الأنبياء، ثم أتباع الأنبياء بعد ذلك يُمحَّصون.

لماذا نقول كُبكِبوا في النار؟ لقوله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾[الشعراء:٩٤]، ولقوله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾[الملك:٨]. فلم يبقَ بعد ذلك إلا الأنبياء.

ولأن النبي عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في حديث الشفاعة الطويل قال: «لِتَتْبَعْ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ».

هل قوم موسى -حتى الذين كانوا آذوا موسى-، هل كانوا يعبدون موسى؟ نعم وقعوا في الشرك لما عبدوا العجل، لكن هل كانوا يعبدون موسى؟ ما كانوا يعبدون موسى، فلا يبعد أن يقال إن الذين في هذا العرض من كانوا مكذبين لموسى، ثم بعد ذلك يُمحصُّ أهل الجنة وأهل النار، كما قال الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾[الشورى:٧].

لماذا هذا الاستطراد؟

لأن الذين آمنوا بموسى ليسوا بالكثرة المذكورة في هذا الحديث، فصار التوجُّه بأن يقال: إن هؤلاء الذين آمنوا بموسى والذين كذَّبوا موسى. وهذا بحد ذاته يا إخوان العرض لما قال النبي عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: («عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ»)، هذا العرض بحد ذاته ليس بشارة بالجنة، وإنما خبرٌ بما يقع في عرصات يوم القيامة، هذا ليس ببشارة بالجنة إلا فيما يتعلق بأمة النبي عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، أما ما قبل ذلك فإخبارٌ بما يقع من عرض الأمم على النبي ﷺ.

وهذا على كل حال قولٌ ممن قال في هذا الحديث؛ أنهم قد يكونوا من كانوا مؤمنين مع موسى، وردوا هذا لأن الذين كانوا على التوحيد الذي بُعث به موسى قليل ليسوا كثيرين.

والحديث الذي قلنا حتى لا يختلط بهذا الحديث -وهو أيضًا يؤيد القول الثاني الذي قلنا هو الذي يرجِّحه أكثر أهل العلم-، لما قال النبي عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «افْتَرَقَتِ الْيَهُودُ عَلَى

إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً». اليهود -يا إخواني- وصفٌ يُطلق على كل بني إسرائيل، أم على الذين قالوا لموسى: ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾؟ يُطلق على أتباع موسى، وإلا بنو إسرائيل يسمون بني إسرائيل، فمن كان قبل موسى لا يُسمى يهودياً، لأن وصف اليهودية إنما جاء في زمن موسى ومن بعده.

كما يقال في عيسى: عيسى من أنبياء بني إسرائيل لكن وصف النصرانية جاء بعد عيسى. فلما قال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «افْتَرَقَتِ الْيَهُودُ»، يعني من كانوا مع موسى، «عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً». إذن الإحدى والسبعون فرقة هؤلاء هل كلهم على التوحيد؟ لا، واحدة التي على التوحيد، فلا يبعد أن يكون ما عُرض على النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هم الإحدى والسبعون فرقة جميعاً، هذا متجه وليس ببعيد، ولهذا اختاره بعض أهل العلم على كل حال.

وسواء هذا أو هذا، هي ليس فيها بشارةٌ لمن كان مع موسى؛ لأن الحديث إنما يتعلق بالفضيلة لهذه الأمة -أمة النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-.

قال ﷺ: («فَقِيلَ لِي: هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ. فَنَظَرْتُ فَإِذا سَوادٌ عَظيمٌ»)؛ يعني أشخاص أكثر، («فَقِيلَ لِيَ: هَذِهِ أُمَّتُكَ»)، في بعض ألفاظ الحديث: «فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ قَدْ سَدَّ الأُفُقَ، ثُمَّ قِيلَ لِي انْظُرْ إِلَى الأُفُقِ الآخَرِ»، حتى نظر إلى الآفاق كلها، «فَقِيلَ لِي هَذِهِ أُمَّتُكَ وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ»، يعني هذا السواد العظيم إضافة إليهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حسابٍ ولا عذاب.

هذا الضابط أو هذا الوصف: للذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، لا يتعلق بالسواد، وإنما يتعلق بالسبعين ألفاً. قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: («وَمَعَهُم سَبْعونَ ألفاً يَدْخُلونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ»)؛ الذين يدخلون الجنة بغير حسابٍ ولا عذاب ليسوا السواد الذي سد الأُفق، وإنما السبعون ألفاً إضافة إلى هذا السواد وإلى هؤلاء الناس الكثيرين.

طيب. هل معنى ذلك أن الذين يدخلون الجنة قليل؟ لا. كثيرون، وإن كانوا سبعين ألفاً،

لأنه جاء في بعض ألفاظ البخاري ومسلم وعند الإمام أحمد أن النبي ﷺ قال: «وَمَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعُونَ أَلْفًا». وعند أحمد وحسَّنه شيخنا الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: «وَمَعَ كُلِّ وَاحِدٍ سَبْعُونَ أَلْفًا، وَثَلَاثُ حَثَيَاتٍ مِنْ حَثَيَاتِ رَبِّي». سبعون ألفًا في سبعين ألفًا، وفوق ذلك أعظم من ذلك: ثلاث حثيات من حثيات ربي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولا يقْدُر قدْر حثْيته إلا هو سبحانه وبحمده.

معنى ذلك أن هذه الأمة كثيرةٌ في عرصات يوم القيامة، وكثيرون في الجنة، كما قال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «وَاللهِ إِنِّي لأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَيْ أَهْلِ الْجَنَّةِ». والحديث له مقدمة وله سببٌ قبل ذلك، لما قال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «إِنِّي لأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ»، فكبَّر الصحابة، قال: «وَاللهِ إِنِّي لأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ»، قال الصحابة فكبَّرنا. ثم قال ﷺ: «والله إني لأرجو أن تكونوا ثلثي أهل الجنة»، وفي بعض الألفاظ: «أن تكونوا أكثر أهل الجنة»، وهي تُصدِّق لفظ الثلثين.

ثم قَالَ: «مَا أَنْتُمْ فِي النَّاسِ إِلا كَالشَّعَرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جِلْدِ ثَوْرٍ أَبْيَضَ، أَوْ كَشَعَرَةٍ بَيْضَاءَ فِي جِلْدِ ثَوْرٍ أَسْوَدَ»؛ يعني ما أنتم في الأمم قبلكم من حيث قِلَّتكم مقارنة بالأمم السابقة، كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾[الفرقان:٣٨]. لكن من حيث كثرة شخوصهم، وكثرة من يدخل الجنة منهم فأمة النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أكثر الأمم، هذا من فضل الله الذي ادَّخره الله ﷻ لهذه الأمة.

ولهذا قال أهل العلم -يا إخوان-: إن هذا الحديث -حديث ابن عباس الذي رواه البخاري ومسلم- بجمع ألفاظه بعضها إلى بعض؛ من أعظم الأحاديث التي تُعظِّم الرجاء وحُسْن الظن بالله.

ناهيك أن فيه كرامة للنبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وكرامة لمن حقق التوحيد، وكرامة لأمته عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، هو بحدّ ذاته يُعظِّم الرجاء في الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لما قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «وَثَلَاثُ حَثَيَاتٍ مِنْ حَثَيَاتِ رَبِّي»، فهو يُعظِّم الرجاء بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويُطْمِع الإنسان في فضل الله

سبحانه وبحمده.

قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: («فَقِيلَ لِيَ: هَـذِهِ أُمَّتُكَ، وَمَعَهُم سَبْعونَ ألفـًا يَدْخُلونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ»).

الذين يدخلون الجنة على صفات: إما أن يدخل الجنة مع أول الداخلين بغير حسابٍ ولا عذاب.

وإما أن يدخل الجنة بحسابٍ من غير عذاب.

وإما أن يدخل الجنة بعد أن يُوقَف على النار -عافانا الله وإياكم منها- كأصحاب الأعراف.

وإما أن يدخل النار -نعوذ بالله من النار- ثم يخرج منها بعد ذلك إلى الجنة.

وكل هذه الأصناف الأربعة تعود إلى قوله ﷺ في صحيح مسلم: «تَعْلَمُوا أَنَّهُ لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ»، أيْ لا يدخل الجنة أحدٌ من أهل الشرك، ولا أحدٌ من أهل الكذب على أنبياء الله ﷻ ورسله. واليهود والنصارى مشركون على كل حال، وهنا بعض الناس يظنون أن المشرك هو الذي عَبَد صنماً من دون الله، وهذا من الخطأ؛ لأن الشرك أنواع، فاليهود والنصارى وإن كانوا كذبوا على الله ﷻ في تحريف كتابه، وكذّبوا أنبياء الله ﷻ وحرّفوا دينهم، وكذّبوا بالنبي محمد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، هم مع ذلك كله مشركون؛ لأنه ليس بالضرورة أن يكون المشرك يسجد لصنم أو لقبرٍ أو جدثٍ أو غير ذلك. قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾[التوبة:٣١]؛ يعني واتخذوا المسيح ابن مريم رباً مع الله، من حيث أنهم يحلُّون ما حرَّم الله وهم يعلمون أنه حرام، ويحرِّمون ما أحل الله وهم يعلمون أنه حلال.

ولهذا موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -نطيل بالنقطة هذه وهي مهمة على كل حال لأن بعض الأغمار في زماننا يقول: لا تسموا اليهود والنصارى مشركين، سموهم أهل كتاب، ما يخالف

سمهم كفار لكن لا تسمهم مشركين!- لا، نقول: كفار وأهل كتاب ومشركون، ولا مشكلة في هذا، وهذا طبقًا لكلام الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ. وما قال الله ﷻ في خبر عيسى في سورة المائدة: ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾[المائدة:٧٢]؛ ما وجه ذِكر الشرك لبني إسرائيل إذا لم يكونوا مشركين؟ بل هم مشركون.

فالمقصود أن السبعون ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حسابٍ ولا عذاب:

إما أن يكونوا من الذين يدخلونها بغير حساب ولا عذاب، هؤلاء من حققوا التوحيد وأولهم أنبياء الله ورسله.

وإما أن يكونوا يُحاسبون كما ذكر النبي ﷺ فيما روى البخاري: «أن الله ﷻ يُدني العبد يوم القيامة فيضع كنفه عليه، فيقرِّره بذنوبه حتى إذا علِم أنه هالكٌ لا محالة، قال: يا رب أولم تغفر لي؟ قال: قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ». فهذا قُرِّر وعُرض عليه عمله، لا عرض المناقشة وإنما عَرْض المعاتبة؛ حتى يشهد فضل الله ﷻ عليه.

والنوع الثالث أصحاب الأعراف الذين يوقفون على النار: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مع الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[الأعراف:٤٧]، ثم بعد ذلك يأمر الله ﷻ بأن يدخلون الجنة.

والنوع الرابع: الذين يُعذَّبون في النار من أهل التوحيد، وهؤلاء إما أن يخرجون من النار لاستكمال ما قضى الله ﷻ أن يبقوا فيها على ذنوبهم التي عندهم -نعوذ بالله من النار-، فيخرجون بعد استكمال ما عليهم، وإما بشفاعة الشافعين ولو لم يستكملوا ذلك، وإما برحمة أرحم الراحمين سبحانه وبحمده.

فقوله ﷺ: («يَدْخُلونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ»)، هذا نوعٌ من الأنواع الأربعة.

قال ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: (ثُمَّ نَهَضَ ﷺ فَدَخَل مَنزِلَهُ). بمعنى أن النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ لم

يكمل الحديث في هؤلاء السبعون ألفًا.

(فَخاضَ النَّاسُ فِي أُولَئِكَ) والصحابة لما كانوا أحرص الناس على الخير، وأحرص الناس على طلبه خاضوا في هؤلاء السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حسابٍ ولا عذاب؛ كلهم يطمع أن يكون من هؤلاء السبعين.

فذكروا (فَقال بَعْضُهُم: فَلَعَلَّهُم الَّذِينَ صَحِبُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ) فرأوا أن الذين صحبوا النبي ﷺ أكثر من سبعين ألفًا؛ لأن الذين شهدوا معه حَجَّة الوداع مائة ألف وعشرون ألفًا، هذا يسمونه الحزْر حزر الذين قاموا معه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يعني التقديري، الذين قاموا معه ﷺ في المشاعر مائة ألفٍ أو مائة وعشرون ألفًا، وإذا قيل إنهم الذين صحبوا النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قبل حَجَّة الوداع فهم أقلُّ من ذلك بكثير.

(وقال بَعْضُهُم: فَلَعَلَّهُم الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الْإِسْلَامِ وَلَمْ يُشْرِكُوا باللهِ شَيْئًا) فرأوا أن الذين ولدوا في الإسلام قد يكونون أكثر من ذلك؛ لأن الإسلام أمده طويل من فضل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والذين ولدوا في الإسلام بعد الصحابة إلى آخر من تقوم عليه الساعة كثيرون، فالسبعون ألف قليل بالنسبة لهم.

(وَذَكَرُوا أَشْياءَ) أيْ ذكروا أشياء ما ذكرها ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

(فَخَرَجَ عَلَيْهِم رَسُولُ اللهِ ﷺ فَأَخْبَرُوهُ) أيْ بما خاضوا فيه، (فقال: «هُم الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقونَ») ذكر النبي أربعة أمورٍ كلها متعلقة بالتوحيد: («هُم الَّذِينَ لا يَسْتَرْقونَ، وَلَا يَكْتَوونَ، وَلَا يَتَطَيَّرونَ، وَعَلَى رَبِّهِم يَتَوَكَّلُونَ»)، وفي لفظ للإمام مسلم: «لَا يَرْقُونَ»، وإن كان بعض أهل العلم قَالَ: هي رواية شاذة، لكن لهيبة مسلم ونتكلم عن هيبة مسلم وأنه لا يُقال في لفظٍ أو حديثٍ عند الإمام مسلم في صحيحه بأنه شاذٌ أو ضعيف إلا بعد استنفاذ كل الاحتمالات.

وهذا الحديث رواه الإمام مسلم: «هُمُ الَّذِينَ لَا يَرْقُونَ». وفي لفظ البخاري: «هم الذين لا

يسترقون». والفرق بينهما ظاهر؛ الذي يسترقي: الذي يطلب من الناس أن يرقيه، والطالب من الناس نفعاً هل حقق التوحيد أو عنده نقصٌ في التوحيد؟ عنده نقصٌ في التوحيد؛ لأن كمال التوحيد أن ترقي نفسك بنفسك.

نعم إذا رقاك إنسان من غير طلب فأنت ما تشوَّفْت لذلك ولم تطلب ذلك، والنبي قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**من استطاع منكم أن ينفع أخاه فلينفعه**».

لكن الذي يتعلق بتحقيق التوحيد، فمن طلب من الناس أن يرقوه -ما لم يكن عاجزاً عن الرقية أو لا يعرف كيف يرقي- فهذا معذورٌ؛ لأن النبي ﷺ أمر برفع الجهل عن النفس، كما قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**ألا سألوا إذ لم يعلموا، فإنما شفاء العي السؤال**». فصارت المسألة متعلقة بالاسترقاء، أي طلب الرقية من الناس مع قدرة الإنسان وإمكانه أن يرقي نفسه.

وهذا -يا إخواني- فيما يتعلق بالرقية المشروعة المأذون بها، بمعنى أن هذا الحديث لا يتعلق بالرقية البدعية، وأنواع الرقية البدعية أكثر بكثيرٍ من أنواع الرقية الشرعية المأذون بها؛ فالرقية الشرعية قرَّب أهل العلم شروطها للناس من أدلة الكتاب والسنة، فمنها: قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿**وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ**﴾[الإسراء:٨٢]، إذن أن تكون الرُقية بكلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿**قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ**﴾[فصلت:٤٤] شفاء مطلقة عامة، "شفاء" جاءت نكرة لتشمل الشفاء فيما يتعلّق بالعارض الصحي البدني والعارض الصحّي الروحي.

ومنها: أن تكون على سنة النبي ﷺ لأنه قَالَ: «**اعرضوا عليَّ رقاكم، لا بأس بالرقى ما لم تكن شركًا**».

وجه الشاهد قوله: «**اعرضوا عليَّ رقاكم**»، يعني أن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حاكمٌ في بيان الرقية الشرعية والرقية الممنوعة.

ثم أن تكون على ما ثبت عن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إما بدعائه ﷺ أو بطريقته، أو فيما

يتعلق بما ذكر النبي من مطعوم ومشروب جعل الله فيه سبباً للشفاء؛ مثل قول النبي ﷺ: **«الحبة السوداء شفاءٌ من كل داء إلا السام»**، في رواية: **«إلا الهرم»**، وكقوله ﷺ: **«ماء زمزم لما شرب له»**، وفي رواية: **«طعام طعم وشفاء سقم»**.

أو ما ثبت عنه ﷺ من الأذكار فيما يتعلَّق بالرُقية: **«بسم الله أرقيك، من كل شيء يؤذيك، الله يشفيك بسم الله أرقيك»**، وكذلك قوله ﷺ: **«اللهم رب الناس أذهب الباس، اشف أنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك»**.

وفي صحيح مسلم أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال هذا الدعاء، قاله عاماً علّم أمته على وجه العموم، وقاله خاصاً لصحابيٍ واحد، فدل على أن ما يصح للواحد يصحُّ للأمة كلها: **«اللهم رب الناس أذهب البأس اشف ثابت بن قيس بن شماس»** كما في صحيح مسلم، وفي لفظ آخر: **«اللهم رب الناس أذهب البأس، اشف أنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقماً»**.

ومنها فيما يتعلَّق بهذا الأصل أن ما صحّ للواحد يصحّ لغيره، كقوله ﷺ: **«اللهم اشف عبدك سعداً، ينكأ لك عدواً، أو يمشي لك إلى صلاة»**.

وهذه رقية نبوية يُغيِّر الراقي الاسم ويكون موافقاً لسنة النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، أو أن تكون بالطريقة النبوية. وهناك طريقة وقعت من بعض التابعين في زمنٍ كان فيه صغار الصحابة فلم ينكروا عليهم، والغريب أنها هي المنتشرة عند الناس بكثرة، فيتركون ما ثبت عن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وما ثبت عن الصحابة، ويطبِّقون ما ثبت عن وهب بن منبِّه -ومع أنه من خيار التابعين-، لكن أقرّه عليه من كان في زمنٍ من الصحابة، ولهذا فليس فيها تبديع لكن غيرها أولى منها؛ فلا تُترك الرقية الثابتة عن النبي ﷺ ويُعتمد على غيرها.

فمن الرُّقى الثابتة عنه ﷺ: أنه كان يبلُّ إصبعه بريقه -وبعض الناس يفهمونها على غير صفتها النبوية-، ثم يضعه على الأرض، فإذا رفع إصبعه علق به شيءٌ من التراب، ثم يضعه على ما يألم من بدنه ويقول: **«بسم الله، تربة أرضنا، بريقة بعضنا، يُشفى سقيمنا، بإذن ربنا»**؛ هذا

في صحيح مسلم. وهذه الطريقة: أن يبلّ سبابته بريقه ثم يضعها على التراب، ثم إذا رفع إصبعه بما فيه من تراب يضعه على ما يألم من بدنه ثم يقول هذا الذكر.

الخطأ الذي يقع فيه بعض الناس أنهم يظنون أن الرقية متعلقة بالريق بذاته أو متعلقة بالتراب بذاته، وهذا هو الخطأ؛ لماذا؟ لأن النبي ﷺ في هذا الدعاء قال: «بِسْمِ اللهِ، تُرْبَةُ أَرْضِنَا، بِرِيقَةِ بَعْضِنَا، يُشْفَى سَقِيمُنَا» وش بعد ذلك؟ «بِإِذْنِ رَبِّنَا».

إذن الرقية في أول الذكر وفي آخره؛ لا علاقة لها بإصبعك -الله يجزاك خير- ولا بتراب أرضك. "بسم الله" هذه رقية، وفي آخرها "بإذن ربنا"، فبعض الناس يظنون أن الرقية متعلقة بالريق أو متعلقة بالتراب، وهذا لا يؤثر، والذي يؤثر هو ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأما ما سوى ذلك لا علاقة له بالرقي على كل حال. ولو كان له علاقة بالريق أو حتى بالإصبع لكان في ذلك تضييق على الناس وتعطيلٍ للحديث؛ لأنه لو كان متعلقاً بريقه الشريف ﷺ وبإصبعه الشريفة، لو قيل أنه متعلق بالريق أو بالإصبع لكان هذا النفع قد انقطع لما قُبض ﷺ، وإنما صارت متعلقة بالذكر، وهذا توسيعٌ على الأمة.

ثم هو عودٌ على الأصل من حيث أن الإنسان إنما يتوسُّل بالله ﷻ وأسمائه وصفاته، ومن أسمائه وصفاته ما جاء في هذا الحديث: «بسم الله» اسمٌ من أسماء الله، «بإذن ربنا» إذنه صفة من صفاته، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾[الأعراف:١٨٠]. ومنها أيضاً مما ثبت أن النبي ﷺ قرأ في ماء وصبه على جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وكان مريضاً، إلى غير ذلك مما ثبت عن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

فصار ما ثبت عن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إما أن يكون بكلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أو بالذكر الثابت عنه في الرقية، أو بالطريقة النبوية الثابتة عنه ﷺ، أو أن يكون الدعاء مطلقاً رُقية في حد ذاته.

التي قلناها قبل قليل التي أخذها بعض الناس عن بعض التابعين ولم تثبت عن الصحابة،

ومن باب أولى أنها ما ثبتت عن النبي ﷺ: كتابة الآية بالزعفران على ورقةٍ ثم ينقعونها في الماء، فإذا ذاب الزعفران شربوا الماء وأحرقوا الورقة أو أخفوها أو دفنوها لأن فيها آية، قد يبقى فيها بعض حروف الآية؛ فمثل هذه كان يصنعها وهب بن منبه، ووهب بن منبه كان في زمنه بعض من بقي من أصحاب النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ولم ينكروا عليه.

لكن مع الاحتياط: أن تُحترم الورقة التي ربما بقي فيها أثرٌ للآيات، وأيضًا من باب أن هذا مرَّره السلف لا لأنه من فِعْل وهب بن منبِّه -يا إخواني-، وإنما لأن الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ ممن بقي منهم لم ينكر عليه. فلا يأتي إنسان بعد ذلك ويقول: "اصنع معجنات بآية الكرسي وكلها وعليك بالعافية!" هذا استخفافٌ بكلام الله، أو اصنع شيئًا من الحلوى بآية أو بحديث ثم أعطها المريض أو أعطها الأطفال، هذا استخفافٌ بكلام الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وليس فيه توقيرٌ لله سبحانه وبحمده.

فالمقصود أن مثل هذه مرَّرها أهل العلم قديمًا وحديثًا لأجل هذا السبب، ويُحتاط في ذلك بأن يقال إن مثل هذا تركه أولى؛ لا لأننا نبدِّع فيه، وإنما لأننا نرى أن الناس مالوا إليه وتركوا ما هو أفضل منه، وهي رقية النبي ﷺ وصحابته رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، وقبل ذلك الاستشفاء بالقرآن المجيد.

قال ﷺ في رواية مسلم: «هُمُ الَّذِينَ لَا يَرْقُونَ»؛ من أهل العلم من قال أنها لفظةٌ شاذة، أولاً: صحيح الإمام مسلم جاز القنطرة كما يقول أهل العلم، وكل ما في صحيح مسلم تلقته الأمة بالقبول، حتى ما تُكُلِّم في بعض أحاديثه إنما تكلَّم فيه بعض أهل العلم ولم يوافقهم الأكثر، كحديث الجساسة وحديث التربة وحديث أبي الزبير محمد بن تدرس بن مسلم المكّي وغير ذلك؛ أحاديث معدودة في صحيح مسلم، وأيضًا في صحيح البخاري أقل منها، تكلَّم فيها أهل العلم من حيث القبول ومن حيث الرد.

والذين تكلموا فيها أفرادٌ من أهل العلم الأجلاء، لكن الذين قبلوها هم الأمة كلها،

فأيهما الذي يُمال إليه: قبول الأمة لكل الأحاديث أو من تكلَّم فيها من أهل العلم؟ الذي تكلَّم فيها يُعتذر له ويُوجَّه كلامه، ولو أصاب في ذلك يبقى أن الناس يُجلُّون هذين الصحيحين في نظر العامة لأنهما تلقتهما الأمة بالقبول؛ تلقت الأمة صحيح البخاري بالقبول وتلقت الأمة صحيح مسلم بالقبول، ولا يعني ذلك أن الحديث الصحيح ما كان في الكتابين فقط، بل ما صح سنده عن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ولو لم يروه البخاري ومسلم فهو واجب الاتباع وواجب الأخذ به.

فالمقصود أن لفظة «هم الذين لا يرقون» منهم من ضعَّفها وقالوا لأنها رواية شاذة، والأكثر على رواية «لا يسترقون». ومنهم من قَالَ: إنها ليست رواية شاذة وأنها صحيحة وعلى الرأس والعين، ووجَّهوا معناها بأن "لا يرقون" أي لا يرقون الرقية التي كانت في الجاهلية، فليس لها علاقة برقية التوحيد.

فتوجَّه على أنها صحيحة لكن المقصود بها الرقية التي كان الجاهليون يفعلونها. وعلى هذا حُفِظت هيبة هذا الحديث وحتى لا يقال إن هذه اللفظة شاذة، ووجِّهت الرواية التوجيه الشرعي.

لماذا هذا التوجيه الشرعي؟ لأن الجاهليون هم الذين كانوا يتطيرون، وكلام ابن تيمية كما قال فيما سبق: إنه لا يستدل إنسانٌ بحديث على خطأ إلا وكان في الحديث ما يُردُّ به عليه. فالذين قالوا: إن هذه الرواية شاذة وأنها مخالفة لأن الرقية مأذونٌ بها، نقول: لا، ليست شاذة والحديث لا يتكلم عن رقية المؤمن للمؤمن، وإنما يتعلق برقية المشرك قبل الإسلام.

لو قال إنسان: "لماذا أقحمت ذِكر المشرك في هذا الحديث والنبي يتكلم عن السبعين ألفًا من هذه الأمة؟" أقول: ما أقحمته؛ لأن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ذكر "التطيُّر"، والتطيُّر فعل موحِّد أم مشرك؟ قال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «الطِّيَرَةُ شِرْكٌ».

ولأن الذين يكتوون في الإسلام وقبل الإسلام، هل أكثرهم أهل توحيد أم أكثرهم أهل

شرك؟ أهل الشرك، وإن كان اكتوى بعض أهل التوحيد مثل عمران بن حصين رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، لكن الأكثر شيوعاً هو الكي عند مَن قبل الإسلام. ولهذا نهى النبي عن الكي ﷺ وقال: «**لَا يُعَذِّبُ بِالنَّارِ إِلَّا رَبُّ النَّارِ**».

فقوله ﷺ «**لا يرقون**» يوجَّه هذا التوجيه؛ لأن هذا التوجيه محتمَلٌ جداً، بأن يقال إن المقصود بذلك رقية المشركين؛ لأن الفعل الذي جاء بعده فعل المشركين حين قال: «**وَلَا يَتَطَيَّرُونَ**». ومن ناحية ثانية كفًّا للألسن عن جلالة ما روى الإمام مسلم في صحيحه.

قال ﷺ: («**وَلَا يَكْتَوونَ**»)؛ يعني لا يكوون أنفسهم على سبيل الاستشفاء، وأقبح من ذلك أن يكوي الإنسان نفسه على سبيل الظن أو على سبيل العبث ببدنه؛ فبدنك ليس لك حتى تعذِّب نفسك بالنار. يعني في بعض الناس يكوي نفسه كياً في يده حتى يكون ببوادره أو مقدماته -حتى لا يُصاب بشيء- وهذا الظن، فالتعذيب بالنار محرَّمٌ أصلاً على أمرٍ ظنيٍ، أو أن يكون على ما كان عليه اليهود والنصارى، أو حتى بعض سفهاء المشركين والكفار في زماننا يكوون أنفسهم بالليزر وبغير الليزر؛ فالتعذيب بالنار محرَّمٌ بكل أنواعه.

وفيما يتعلق بالكي، أذِن النبي ﷺ فيه على نطاقٍ ضيِّق، وإلا فالأصل أنه تعذيبٌ بالنار، ومع ذلك الكاوي -الذي يكوي الناس- يصيب ويخطئ في ظنه أن هذا الكي شفاءٌ لهذا المرض، حتى قال عمران بن حصين رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ -أبو نجيد الخزاعي-: "اكتوينا فما أفلحنا"؛ يعني أنَّا طلبنا العافية بالكي والنبي حاضر ﷺ لكن ما حصل لهم ما يريدون.

فالكي بحد ذاته الأصل فيه المنع، وإنما يؤذن به على نطاقٍ ضيِّقٍ إذا استنفد الإنسان أسباب الشفاء أو ضاقت عليه الحيل. قال النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «**الشفاء في ثلاث: في شرطة محجم، أو شربة عسل، أو كية نار، وأنا أنهى أمتي عن الكي**» يعني وإن كان الشفاء قد يقع هنا إلا أنه مظنون، لأنه لو كان مقطوعاً به لما قال «**وأنا أنهى أمتي عن الكي**». فقوله «**وأنا أنهى أمتي عن الكي**» دل على أن الشفاء بالنسبة للكي ليس مقطوعاً به بل هو مظنون. وهذا هو الذي

قاله عمران بن حصين: "اكتوينا وما أفلحنا".

ثم قال ﷺ: («وَلَا يَتَطَيَّرونَ») التطيُّر في أصله هو التشاؤم، والتطيُّر من فعل المشركين ولا يقع في قلب موحِّدٍ تطيرٌ أبداً -إلا أن يكون شركًا أصغر-، لأن التطيُّر في ذاته من فعل المشركين؛ ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾[يس:١٨]، ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ﴾[النمل:٤٧]. فقد ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن مكذبي الأنبياء أنهم تطيروا وتشاءموا بأنبيائهم، إذن التطيُّر في الأصل هو التشاؤم.

لماذا سمي تطيراً؟ المشركون في الجاهلية لما كانت عقائدهم خواء، ليس فيها توكُّلٌ على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ولا حُسْن ظنٍ بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، كانوا يتطيرون بكل شيء، بل من أغرب ما يُذكَر في ذلك أنهم يتطيرون بالشيء الذي يأكلونه؛ يصيدون الظباء ويأكلونها. لكن إذا عرضت لهم الضباء من غير طلب تشاءموا من ذلك وتطيروا، يعني أنهم يتطيرون بالدابة كما يتطيرون بالغراب، ويتطيرون بالضباء، ويتطيرون بالأرنب، ويتطيرون بالبوم، ومنهم من يتطيَّر بصوته حتى لو لم يره؛ إذا سمع نعيق الغراب -وصوته يسمى نعيقًا ويسمى نعيبًا بالباء وبالقاف- تطيروا من ذلك. ويتطيرون باسم الرجل إذا كان اسمه قبيحًا تشاءموا منه وانقبضوا منه، وربما تطيروا بخِلْقة الرجل إذا كان معيبًا أو غير ذلك، وربما تطيروا بالزمان كما يتطيرون بشهر صفر، وربما يتطيرون بالمكان -حتى الأمكنة يتطيرون بها-.

ما هنا عقيدة ولا توحيد ولا حُسن ظن بالله؛ لأنه مما يدلُّ على أنهم كانوا يتطيرون بالأمكنة بأسمائها -وهذا ذكره ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في زاد المعاد- أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كان مع أصحابه فمر في مسير له بين جبلين، فقال: «ما اسمهما؟» فقيل: فاضح ومخز، فعدل عنهما، ولم يمر بينهما. ما عدل النبي ﷺ تشاؤمًا -وحاشاه من ذلك وهو أعلم الناس بالتوحيد-، ولا عدَلَ لأن الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ احتمالاً أن يقع في قلوبهم شيءٌ من ذلك، وإنما عَدَلَ حتى يخالف ما عليه المشركون في الفعل وفي الاعتقاد؛ في الفعل لما عدل، وفي الاعتقاد لما قال

عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**الطِّيَرَةُ شِرْكٌ**». فخالف المشركين في فعلهم؛ لأنهم كانوا يمرون ما بين هذين الجبلين، فاتخذ طريقًا آخر عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وفي اعتقادهم لما قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**الطِّيَرة شرك**».

فالطِّيَرة في ذاتها -يا إخواني- لا تجوز البتَّة، يعني الاسترقاء -وهو طلب الرقية- قد يجوز وقد لا يجوز، قد يجوز بالشروط التي قلنا، وقد لا يجوز إذا كانت رُقية المشركين.

والاكتواء قد يجوز وقد لا يجوز وترْكه أفضل، لكن التطيُّر بكل أحواله محرَّم، بكل أحواله شِرْك؛ لقول النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في حديث ابن مسعود: «**الطِّيَرَةُ شِرْكٌ، الطِّيَرَةُ شِرْكٌ**». بل إنه ربما يكون شركًا أكبر؛ ربما تكون الطيرة شركًا أكبر إذا اعتقد أن الطيرة يُخبره بشرٍّ واقعٍ لا محالة، فهذا فيه شركٌ في توحيد الربوبية من حيث نِسْبَة علم الغيب إلى مخلوقٌ ضعيف.

كان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يحتاطون لهذا الأمر حتى فيما يتعلق ببوادره أو مقدماته؛ ابن عمر كان في سفرٍ أو في طريق فمرَّ طائرٌ فوقهم فنعَق الغُراب، فقال غلامه -الذي يسوس دابته- للغراب: "خير خير"، فقال ابن عمر: "أيُّ خيرٍ وشرٍ عند هذا؟". وهذا يجري على ألسنة الناس ولا نتهم إخواننا وأهلنا، لكنه يجري على ألسنة الناس إذا جاء خبر أو جاءك واحد من غير موعد يقول: "خير يا طير!".

نحن لا نقول أنهم يعتقدون الطيرة -والعياذ بالله-، لكن نقول: هذا أثرٌ عمَّا كان عليه الناس قديمًا، وإلا فالأصل ألا يُذكر الطير هنا لا من قبيل ولا من دبير.

أهل التوحيد عمومًا لا يعلِّقون بالطير شيئًا؛ لا نحوسةً ولا سعادة. يعني حتى لو مرت حمامة بيضاء قَالَ: "والله هذه تبشِّر بخير"، من أين لك أنها تبشِّر؟

ولهذا جاء في بعض الأحاديث أن «**الطِّيَرَةُ مَا أَمْضَاكَ أَوْ رَدَّكَ**»؛ فالطيرة ليست فقط فيما يتعلَّق بمن ينقبض منه القلب ويكرهه، بل حتى الذين كانوا يتطيَّرون بالشيء الذي يبنون عليه

فعلهم من بيعٍ وشراء وتجارة وسفر؛ إذا رأى طائراً أو أرنبـًا أو غير ذلك ذهبوا إلى ما قصدوا، وإذا لم يروا ذلك عادوا! هذا بحدّ ذاته الطِّيَرة، بمعنى أن الطيرة ليست متعلقة بترك العزم فحسب، الطيرة متعلقة أيضـًا بعقد العزم على الشيء بناءً على ما رآه، فكلاهما لا يجوز.

ولهذا جاء في الحديث: «**الطِّيَرَةُ مَا أَمْضَاكَ أَوْ رَدَّكَ**»، فما أمضاك في سفرٍ متعلقـًا بالتطيُّر لأن الناس يفهمون أن التطيُّر الانقباض، ما أمضاك في سفرٍ أو بيع أو زواج أو غير ذلك بسبب طير، أو ردَّك عنه.. كلاهما بدعة.

ما موقف الطير مما عزمت عليه أو لم تعزم عليه؟

ليس له علاقة؛ دابةٌ ضعيفة تطلب رزقها، فلا يجوز أن يتعلَّق الإنسان لا بطيرٍ ولا بغيره.

المشركون تعلَّقوا بالطير حتى صاروا يعلِّقون مفاصل حياتهم بها، حتى إن بعضهم ربما أزعج الطير حتى يرى أيسافر أم لا يسافر؛ يسمونه "السانح والبارح"، فإذا عزم أحدهم على سفر بحث عن أقرب طير فزجره بالحصاة، فإذا ذهب الطير عن يمينه قال: هذا "سانح"، سنح لك السفر اذهب "دربك أخضر" على قولتهم، وإذا طار عن شماله قال: هذا "البارح"، يعني ابرح ولا تسافر "خل مشوارك باكر"، وإذا ذهب أمامـًا لحق الطير وأزعجه، وإذا ذهب وراءً بحث عن طيرٍ آخر! فعلَّقوا عزمهم بالطير ذهابـًا أو عدم ذهاب.

جاء الإسلام وأمر بالتوكُّل، ولهذا قال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في آخر هذه الصفات: («**وَعَلَى رَبِّهِم يَتَوَكَّلُونَ**»). يستوي عندهم رأوا طيراً أو ما رأوه، يستوي عندهم شهر صفر وشهر رمضان وغيره، يستوي عندهم رأوا إنسانـًا معيبـًا -أعمى أو أعور-، أو إنسانـًا سويـًا لا عيب فيه.

فلما علَّق النبي ﷺ في آخر هذا الحديث بالتوكُّل، دل على أن التوكُّل يمحو كل هذه الأسباب؛ سواء كانت الأسباب محرَّمة كالكي بغير سبب، أو كانت شركية كالتطيُّر، أو كانت جائزة وتركها أولى كطلب الرقية من الناس؛ لأن التوكُّل أن ينقطع الإنسان في حاجته إلى الله

سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

قال ﷺ: («وَعَلَى رَبِّهِم يَتَوَكَّلُونَ» فَقَامَ عُكَّاشَةُ بنُ مِحْصَنٍ)، مِحصَنْ على وزن مِنبر، قُتل في معارك الصحابة مع مسيلمة الكذاب في اليمامة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(فَقَال: ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُم، فقال: «أَنْتَ مِنْهُم»). وفي لفظٍ آخر عن النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ قال: «اللهم اجعله منهم»؛ وهذا كله محتمل على كل حال.

(ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ آخَرُ، فَقال: ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُم، فَقال: «سَبَقَكَ بِها عُكَّاشَةُ »).

«سبقك بها عُكّاشة» كلمةٌ قالها النبي ﷺ فسرت مسرى الأمثال؛ "سبقك بها عُكَّاشة" يعني أُغلِق الباب، سبقك الرجل وأُغلق الباب وراءك.

هل قال النبي ﷺ "سبقك بها عُكّاشة" لأن الذي قال "يا رسول الله ادعُ الله أن أكون منهم" كان منافقـًا، أو لأن النبي ﷺ أراد أن يُغلِق الباب حتى لا يأتي إنسان بعد هذا الإنسان ويقول: وأنا يا رسول الله"، ثم يخرج خمسة أو عشرة يقولون "ونحن أيضـًا يا رسول الله"، وفلان الغير موجود أيضـًا معهم يا رسول الله، فأُغلِق الباب لأجل هذا، أو لأن الرجل كان من المنافقين؟

الصواب في ذلك -يا إخواني- أن الرجل الذي قَالَ: (ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُم)، لم يكن منافقـًا ولم يكن غير مستكملٍ لهذه الشروط الأربعة، بل كان من خِيرة الأنصار واسمه سعد بن عبادة؛ سماه ابن حجر في فتح الباري أنه سعد بن عبادة، وليس سعد بن عبادة سيد الخزرج المشهور، وإنما سعد بن عبادة آخر من الأنصار.

وقد يروي الحديث أكثر من صحابي فيسمي بعضهم من لم يسمه الآخر، وهذا الحديث رواه صحابيٌ آخر غير عبد الله بن عباس، فقال: فقام سعد بن عبادة فقال: يا رسول الله ادعُ الله أن أكون منهم، فقال: «سبقك بها عُكّاشة»، هذا بحد ذاته يرد القول بأن الذي قاله كان منافقـًا؛ لثلاثة أسباب:

السبب الأول: أن القول بأنه منافق بعيدٌ جداً؛ لأن المنافق لا يتعلق بثواب الجنة أصلاً، فالمنافق يُبطن الكفر ويُظهر الإسلام فلا يتطلَّع إلى هذا الفضل.

السبب الثاني: أنه لو قيل إنه رجلٌ منافق، فمعنى ذلك أنه سيكون متمسِّكًا للطعن في الصحابة، وحاشا الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أن يكونون قريبين من النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، هذا القُرب حتى يسألونه مباشرة ويكونون منافقين؛ فهذا لا يقع من منافقين، المنافقون إذا صلوا وراء النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هل يصلون في الصفوف الأولى أم في الصفوف الأخيرة؟ في الأخيرة. وهل هناك منافقٌ روى عن النبي ﷺ حديثًا واحداً؟ لا؛ فالذين يحيطون بالنبي هم خيرة الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

السبب الثالث: أن الصحابة لما سموه، لو كان فيه بذرة نفاق هل يُتصوَّر أنهم يفضحونه؟ لا؛ قالوا "سعد بن عبادة" لأنهم لا يرون أن هذا يتعلق بإيمانه أو بنفاقه، هم لا يشكون في إيمانه وصلاحه، لكنهم رووا ذلك على ما وقع من النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مع الصحابي الآخر، فليس في هذا الحديث لا أنه منافق، وليس فيه أيضًا مطعنٌ في الصحابي الذي سماه سعد بن عبادة.

لكنني كما قلت: أن سعد بن عبادة المذكور في هذا الحديث غير سعد بن عبادة المشهور سيد الخزرج، وكلاهما من الأنصار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

فنقول: إن هذه الأسباب التي يحقِّق بها الإنسان توحيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ليست متعسِّرة؛ يستطيع الإنسان أن يعالج نفسه وأن يغالبها على أن يستكمل هذه الأمور الأربعة.

فقد يرتِّب الله ﷻ ورسوله ﷺ فضلاً عظيمًا على أسبابٍ يظن الناس أنها مستعصية لِعظم الثواب عليها: "أين نحن من دخول الجنة بدون حساب ولا عذاب؟!". فيستصعب الأسباب التي بها يكون دخول الجنة بغير حسابٍ ولا عذاب للنظر إلى النتائج، وهذا هو الخطأ. بمعنى أن ما حصل لعُكاشة بن محصن -وقد استكمل هذه الشروط- ليس عسيراً على هذه الأمة

إلى قيام الساعة؛ خاصة أن النبي ﷺ ذكر أن مع كل واحدٍ من سبعون ألفـًا، فليس ترك الاسترقاء من الناس مستعصيـًا إذا كان الإنسان يستطيع أن يرقي نفسه، وليس ترك الاكتواء مستعصيًا، وليس ترك التطيُّر مستعصيـًا بل هو واجب، وليس التوكُّل على الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ مستعصيـًا على الإنسان الذي يقْدُر الله عَزَّوَجَلَّ حق قدْره.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بَابُ الْخَوْفِ مِنَ الشِّرْكِ

وَقَوْلُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾[النساء:٤٨].

وقال الْخَلِيلُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾[إبراهيم:٣٥].

وَفِي الحَدِيثِ: «أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ: الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ، فَسُئِلَ عَنْهُ؟ فَقَالَ: الرِّيَاءُ».

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قال: «مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَدْعُو للهِ نِداً؛ دَخَلَ النَّارَ» رَوَاهُ الْبُخَارِيّ.

وَلِمُسْلِمٍ: عَنْ جابِرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قال: «مَنْ لَقِيَ اللهَ لَا يُشْرِكُ به شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّار».



قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه.

أما بعد:

انتهى الكلام على كتاب الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند قوله: (بَابُ الْخَوْفُ مِنَ الشِّرْكِ).

قال الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى: (بَابُ الْخَوْفُ مِنَ الشِّرْكِ).

وهذه الترجمة تدلُّ على أن الشرك شأنه عظيم، وأن كل شيءٍ مخوف تُتَّخذ الأسباب للسلامة والوقاية منه؛ فإذا كان الظمأ مخوفًا يُتَّخذ أسباب الري، وإذا كان الجوع مخوفًا يُتَّخذ أسباب الشبع، وإذا كان المرض مخوفًا تُتَّخذ أسباب العافية، وأعظم من ذلك المخوف الذي يتعلَّق بحبوط العمل وسوء المنقلب -عافانا الله وإياكم من ذلك- وهو الشرك؛ وأعظم مخوفٌ منه المنازعة في حق الله ﷻ الذي خَلَقَ الخلْق لأجله.

فقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**بَابُ الْخَوْفِ مِنَ الشِّرْكِ**) يعني بابٌ فيه الخوف من الشرك والعمل على السلامة من الشرك.

وهناك أسبابٌ تدعو إلى الخوف من الشرك، كما أن هناك أسبابٌ تدعو إلى الخوف من كل ما يخاف الإنسان من ضرره، فمن الأسباب التي تدعو إلى الخوف من الشرك: أسبابٌ متعلقةٌ بالشرك ذاته؛ من حيث أن الشرك منازعةٌ في حق الله ﷻ الذي خَلَق الخلْق لأجله، ومن كان خصمه الله ﷻ خُصِم، ومنازعةٌ في حق الله ﷻ على عباده الذي خلقهم لأجله ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات:٥٦]، فهو مخوفٌ من حيث أن الخصومة فيه بين العبد وبين ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ومن حيث أن الشرك مُحبطٌ للعمل، وأنه لا يُنظر إلى العمل الصالح الذي خالطه شيءٌ من الشرك، وأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بيَّن ذلك بيانـًا جليـًا في أكثر من آية، منها قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[الكهف:١٠٣-١٠٤]، وفي قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾[المائدة:٧٢]، وفي قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ (١٥) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[هود:١٥-١٦]، ومنها قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ في آيتين، ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾[النساء:٤٨]، ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا بَعِيدًا﴾[النساء:١١٦] وغير ذلك من الآيات التي بيَّن الله ﷻ فيها خطورة الشرك على من أتى به يوم القيامة.

ومما يتعلَّق بخطورة الشرك أيضـًا: أن من أتى بالشرك يوم القيامة حابطٌ عمله ومخلَّدٌ في النار، لا يرجو منها مخلصـًا ولا خروجـًا؛ ولهذا سماها الله ﷻ للمشرك مأوى باقٍ فيها لا يخرج أبداً -والعياذ بالله-، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي

وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾[المائدة:٧٢].

ومما يدل على خطورة الشرك: أن المشرك لا نصير له ولا ظهير ولا شفيع يوم القيامة، قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾[غافر:١٨]، والظالمون في هذه الآية هم الظالمون الظُّلْم الأكبر الذي قال فيه الرب سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[البقرة:٢٥٤]، وقال فيه الرب سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في قصة لقمان: ﴿يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[لقمان:١٣]. ومثل ذلك قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾، وقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾، وقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾[المدثر:٤٨].

فإذا كان لا شفيع ولا نصير ولا رحمةً يُرتجى من ورائها للمشرك، ولا حظ له في الجنة كما قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «تَعْلَمُوا أَنَّهُ لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ» رواه مسلم، ولا خروج من النار كما قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾[فاطر:٣٦]، قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾[النساء:٥٦]، قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿لَّابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾[النبأ:٢٣]؛ و"أحقاباً" جاءت في سياق نكرة بمعنى أنها لا تنتهي، كلما مضى حِقْبٌ -وهو العديد من السنين- ضُوعف عليهم -والعياذ بالله- بعده أحقابٌ أخرى.

فإذا كان هذا مآل الشرك وأهله يوم القيامة، كان هذا من أدعى الأسباب أن يعلم الإنسان أن الله ﷻ أعدَّ العقوبة لمن جاء مشركاً؛ كما أن من أعظم الجحود أن يعبد الإنسان غير الله ﷻ والله هو الذي خلقه ورزقه وكفاه وآواه وعافاه وشفاه، وأسبغ عليه النِّعم وأفاض عليه بالأرزاق، ودفع عنه المكروه والبلاء وسدده ووفَّقه.. إلى غير ذلك، ثم بعد ذلك يعبد غيره! هذا من أعظم الغَبْن ومن أعظم الخسران -والعياذ بالله-.

فالمقصود أن الخوف من الشرك له أسبابٌ متعلقةٌ بالشرك؛ أولها أنه منازعةٌ في خصيصةٍ هي أعظم خصائص الألوهية، ومنها أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لا يرضى أن يُشرك به سبحانه وبحمده كما قال النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه سبحانه وبحمده: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ».

ومنها ما تقدم من حيث أن الشِّرْك مُحبطٌ للعمل كما قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾[الفرقان:٢٣].

ولو كان للمشرك عملٌ صالح في الدنيا يحب الله ﷻ ذلك العمل، فإن الله ﷻ يُعطيه جُعْلاً أو عطاءً في الدنيا، لكن ليس له في الآخرة إلا النار؛ يُعطيه الله ﷻ ما أراد وما قسم لعباده كما يقسم الله الأرزاق لكل خلقه -مكلفين وغيرهم-؛ إما جاهًا، وإما مالاً، وإما تفريج كربة.. إلى غير ذلك، لكن ليس له في الآخرة إلا النار. فإذا كان هذا حال من جاء بعملٍ صالح، فكيف بالذي لم يأتِ بعملٍ صالح ولم يأتِ بالتوحيد الخالص لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؟ هذا أعظم غبنًا -والعياذ بالله-.

جاء عدي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ إلى النبي ﷺ وقال: يا رسول الله إن أبي مَن قد علمت -وهو حاتم بن عبد الله الطائي-؛ يُقري الضيف، ويُكسب المعدوم، ويعين على نوائب الدهر، فهل ينفعه ذلك بشيء؟ قال: «يَا عَدِيُّ، إِنَّ أَبَاكَ أَرَادَ شَيْئًا فَأَدْرَكَهُ»؛ أي أراد الذكر في الدنيا فبلغه. وهذا تقليل لما كان يطمح إليه عدي وغيره، فقد أراد شيئًا من الدنيا؛ أراد أن يُذكر بالكرم وبحُسن الجوار وغير ذلك، ومع ذلك ما خيبه الله ولا حرمه ما أراد، كما قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[الزلزلة:٧-٨] هذا في الدنيا على العموم، أما في الآخرة فالله ﷻ أعد من الجزاء على الأعمال الصالحة للمؤمن أعظم الجزاء، فليس الجزاء على العمل الصالح من الكافر كالجزاء على العمل الصالح من المؤمن.

ومن الأسباب التي تدعو إلى الخوف من الشرك: أسبابٌ متعلقةٌ بالشرك قبل الوقوع فيه؛

كأن يكون من أسباب الوقوع في الشرك الجهل بالتوحيد، أو الجهل بصور الشرك، أو أن يختلط على الإنسان الأمر: هل هو توحيدٌ أو شرك؟ بمعنى أن الناس إذا فشا فيهم الجهل بطبيعة الحال قلَّ فيهم العلم، وإذا فشا الجهل تبعته البدع والانحرافات والشِّرْك وغير ذلك.

ولهذا قال عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ -كما هو مشهور، وذكر هذا الأثر شيخ الإسلام ابن تيمية وتبعه ابن القيم-: "إنما تُنقض عُرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية". وهذا يؤيده الحديث المرفوع إلى النبي ﷺ من حديث أبي أمامة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ؛ أن النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ قال: «لَتُنْقَضَنَّ عُرَى الْإِسْلَامِ عُرْوَةً عُرْوَةً، فَكُلَّمَا انْتَقَضَتْ عُرْوَةٌ تَشَبَّثَ النَّاسُ بِالَّتِي تَلِيهَا»، بمعنى أنه في آخر الزمان تقلُّ الهمَّة بأن يعود الناس للعروة التي انتقضت فيجددوها.

وهذا لاحتكام الجهل وارتكاسٍ في الضلال وقِلَّة النَّصَحَة، وربما الانصراف عن الدين للدنيا واللهث وراءها، فلا تنبعث همم ذلك الزمان إلى إعادة ما انتقض وإنما التشبث بما بقي، ثم تنتقض ثم يتشبثون بما دونه، ثم تنتقض ثم يتشبثون بما دونه، ثم يقع ما أخبر به النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «يَدْرُسُ الْإِسْلَامُ كَمَا يَدْرُسُ وَشْيُ الثَّوْبِ حَتَّى لَا يُدْرَى مَا صَلَاةٌ وَلَا صِيَامٌ وَلَا نُسُكٌ وَلَا صَدَقَةٌ».

"يدرُسُ" يعني يمَّحى، تَمَّحى آثاره، لأن الدَّرس هو المحو. وقوله ﷺ: «كَمَا يَدْرُسُ وَشْيُ الثَّوْبِ» يعني كما يذهب زخرف الثوب ونقاؤه ولونه.

فالمقصود أن من الأسباب التي تجعل المسلم يخاف من الشرك: أنه ربما خفي الشرك على الناس؛ ليس المقصود أن يخاف على نفسه فحسب، وإنما يخاف من فشوِّه في المسلمين، وبطبيعة الحال يخاف على نفسه، كما أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ذكر ذلك عن خيرة أنبيائه ورسله، فمن باب أولى أن يخاف الإنسان على نفسه.

فالنبي ﷺ كان من دعائه: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكُفْرِ وَالْفَقْرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ،

لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ». فاستعاذته من الكفر ﷺ وهو الذي علَّم الناس التوحيد دليلٌ على الخوف من الكفر، ولما قال النبي ﷺ لأبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -والحديث عند أحمد وهو أول حديث في مسند أحمد، وله ألفاظٌ أخرى عند أحمد وعند البخاري في "الأدب المفرد" وغيرهما-: «الشِّرْكُ فِيكُمْ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ». ثم قال ﷺ: «يَا أَبَا بَكْرٍ، أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى قَوْلٍ إِذَا قُلْتَهُ أَذْهَبَ اللهُ عَنْكَ كَبِيرَهُ وَصَغِيرَهُ؟» وفي لفظ: «أَذْهَبَ عَنْكَ قَلِيلَهُ وَكَثِيرَهُ». ومعنى ذلك أن الشرك فيه ما هو صغيرٌ وفيه ما هو كبير، وفيه ما هو قليلٌ في نظر الناس وفيه ما هو كثير.

«أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى شَيْءٍ إِذَا قُلْتَهُ أَذْهَبَ اللهُ عَنْكَ كَبِيرَهُ وَصَغِيرَهُ وَقَلِيلَهُ وَكَثِيرَهُ؟» قال: بلى يا رسول الله. قال: «قُلِ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أُشْرِكَ بِكَ وَأَنَا أَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا أَعْلَمُ»، هذا هو الصدِّيق خير الأمة بعد نبيها ﷺ، (وقال الْخَلِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾[إبراهيم:٣٥]).

هؤلاء يوحى إليهم وعرفوا التوحيد، واصطفاهم الله ﷻ لتبليغ الرسالة ودعوة الناس إلى التوحيد، وخافوا على أنفسهم من الشرك، مع أنهم يعلمون أنهم معصومون؛ فما من نبيٍ إلا وهو يعلم أنه معصوم، لكنه مع ذلك يخاف من الشرك لعظم خطَرِه، ولأن الشيطان كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾[فاطر:٦]، وقال: ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

ويقال مثل ذلك فيمن هم دون الأنبياء كالصدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ويقال ذلك فيمن هو دون الصديق من أفراد الأمة. وكلما بعُدَ الناس عن أنوار الرسالة كلما صار المخوف أشد، وصار الوارد أقرب، وصار الجهل أكثر، وصار العِلْم أقل، وصار الملبِّس في مثل هذه الأمور أكثر؛ لأنه يستميل الناس بقولٍ ما ألفوه ولا سمعوه.

إذن، من الأسباب التي تدعو إلى الخوف من الشرك: الجهل.

ومن الأسباب التي تدعو إلى الخوف من الشرك: احتيال دعاة الضلال على المسلمين

بأن هذا ليس شركًا؛ إما بحرْف النصوص عن ظاهرها، أو عن مراد الله ﷻ ومراد رسوله ﷺ، أو ترقيقًا للشرك، بمعنى أنهم يجعلون الشرك كذنبٍ من الذنوب يُكفِّره أيُّ شيء. والشرك لا يُكفِّره إلا التوبة إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ والشِّرك -والعياذ بالله- أخبر الله ﷻ أنه لا يبقى معه عملٌ صالح كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾[الفرقان:٢٣].

ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الباب (**قَوْلُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾**[النساء:٤٨]). وهذه الآية فيها مسائل، من أهم المسائل المتعلقة بهذا الباب: أن الله ﷻ لا يغفر لمشركٍ جاء يوم القيامة بالشِّرْك، وهذا حُكْمٌ قاطع؛ حَجَب الله ﷻ وأغلق عنه باب المغفرة، وما دون ذلك ربما يغفر الله ﷻ له، وربما يحاسبه إذا كان ذنبًا من الذنوب ولو كانت من كبائر الذنوب، وربما يغفر الله ﷻ عنه بدعاء ولدٍ، أو بشفاعة الشافعين يوم القيامة، أو برحمة أرحم الراحمين؛ بمعنى أن المغفرة واردةٌ في الذنوب، أما فيما يتعلق بالشرك فهي ليست واردة؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾؛ وهذا هو الأصل وهو الذي لا يخفى على المسلمين.

بعد ذلك لا يقال إن هذا الشرك أكبر من هذا الشرك؛ إذا كان شركًا أكبر فبابه واحد، كُلُّ شركٍ أكبر ناقلٌ من الإسلام إلى الكفر، هذا فيما يتعلق بحكمه.

فيما يتعلق بأحكام الدنيا، تُجرى عليه أحكام المشركين؛ فيُفرَّق بينه وبين زوجته، ولا تُنفَّذ وصيته إذا مات، ولا يُجرى وقفه، ولا يُدعى له ولا يُستغفر له -إلى غير ذلك من الأحكام التي يعرفها الإخوان-، ولا يُجهَّز كما يُجهَّز الموتى من المسلمين؛ فلا يُصلى عليه ولا يُدفن في مقابرهم. يستوي في ذلك من كان مشركًا بالله ﷻ في آلهةٍ أو أكثر من آلهة؛ بمعنى أنه لا يقال إن هذا الشرك أكبر من هذا الشرك وكلاهما شِرْكٌ أكبر، وإنما يقال: إن هذا أقبح من هذا من حيث أن هذا أبعد عن العقل، مع أن الشرك في ذاته بُعدٌ عن العقل وعن الفطرة.

لأن الشرك إذا كان ناقضًا لِلمِلَّة فقد قال النبي ﷺ: «الْكُفْرُ مِلَّةٌ وَاحِدَةٌ»؛ فالكفر بابه واحد، وما بعد ذلك إنما هو استقباح لصور الشرك. وهذا كان في الجاهلية؛ أن بعضهم كان يعبد أكثر من آلهة، كما جاء حُصين -والد عمران- فقال له النبي ﷺ: «كَمْ تَعْبُدُ؟» قال: أعبد ثمانية؛ سبعةً في الأرض وواحدٌ في السماء. قال: «فَمَنْ لِرَغْبِكَ وَرَهَبِكَ؟» قال: الذي في السماء. قال: «فَاعْبُدِ الَّذِي فِي السَّمَاءِ وَدَعِ الذي في الأرض».

فقول الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ يستوي في ذلك ما لو كانت العبادة مصروفة لصنمٍ أو أكثر، أو مصروفة لولي أو نبيٍ أو جنيٍ أو كوكبٍ أو غير ذلك؛ ولهذا النبي ﷺ لم يفرّق بين هؤلاء في الحكم مع افتراقهم في آلهتهم، فلما بُعث ﷺ بُعِث في قومٍ مختلفين في آلهتهم؛ فمنهم من يعبد الحجر والشجر والشمس والقمر والنجم والهوى والجن، ومنهم من يعبد الدهر، ومنهم من يعبد اليوم إلهًا وفي غدٍ إلهًا آخر، ومنهم من يحمل إلهه معه إذا سافر، ومنهم من ينصبه من تمر فإذا جاع أكله! إلى غير ذلك من سُخْف وضلال أهل الجاهلية، فلم يفرِّق النبي ﷺ بينهم؛ للدلالة على أن الشرك كله بابٌ واحد، الشرك الأكبر كله ناقلٌ عن المِلَّة.

وفي قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ دليلٌ على سعة رحمة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وأن رحمته تسبق غضبه سبحانه وبحمده؛ بمعنى أن رحمة الله كما قال سبحانه: ﴿قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[الأعراف:٥٦]. لكن ليس في هذه الآية متمسَّكٌ لمن استخف بالذنوب؛ لأن الله ﷻ علَّق المغفرة بمشيئته، يعني أن الله ﷻ يغفر وربما حاسب على الكبائر، فهذا إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

فذِكر هذه الجملة بعد قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ لبيان خطورة الشرك، وأنه أعظم مما يستعظمه الناس من الذنوب؛ وكلها عظيمة لكن الشرك أعظم، كلها عظيمة لأنها معصية للرب سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ. فذِكرُ الله ﷻ احتمال المغفرة لصاحب الذنب مع

القطع بعدم المغفرة للمشرك دليلٌ على قُبْح الشرك وعظيم خطره.

كما أن في الآية أيضـًا ردٌ على بعض الطوائف الذين يكفِّرون بالذنوب، ويستبيحون دماء المسلمين ويقطعون عليهم الطريق -الوعيدية-، سواء كانوا خوارج أو معتزلة أو غيرهم.

المعتزلة من الوعيدية لكنهم لا يصيِّرون الوعيد إلا فيما يتعلَّق بالأحكام، أما الخوارج فإنهم وعيدية يُظهرون تطبيق الأحكام على من يرونه كفر بالذنب أو بالكبيرة من المسلمين. وإلا فكلهم يُسمّون "وعيدية" وكلهم طوائف -نسأل الله أن يثبتنا وإياكم-، فكلما بعد الناس عن زمن النبوة وأنوار الرسالة كلما تشققت البدع إلى بدعٍ أخرى.

فالخوارج طوائف: الأزارقة، والنجدات، والصفرية، والمحكِّمة، والشبيبية وغيرهم، والقَعَدة، والإباضية.

والمعتزلة طوائف: السالمية، والجاحظية أتباع عمرو بن بحر الجاحظ وغيرهم.

فالمقصود أنه كلما بَعُدَ الناس عن زمن النبوة كلما تشققت البدع وكثُرَت.

فقول الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ ردٌ على من رأى أن صاحب الكبيرة لا يُغفر له، وأن الكبيرة أذهبت عنه اسم الإيمان ولم يعد مسلمـًا. وهما يتفقان في هذا -الوعيدية الخوارج والوعيدية المعتزلة يتفقون على هذا الأصل-: أن الكبيرة إذا تقحّمها الإنسان خرج بها من الإيمان ولم يعد مسلمـًا. لكن الخوارج قالوا: خرج من الإسلام إلى الكفر، وبنوا على ذلك أحكام القتال ووضع السيف في أمة محمد عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ وغير ذلك.

والمعتزلة قالوا: هو في منزلةٍ بين المنزلتين -بين الكفر وبين الإيمان-؛ ولم يقل أحد في الإسلام ولا في اليهودية ولا في النصرانية أن الإنسان إذا فعل ذنبـًا خرج من الإيمان ولم يدخل الكفر وصار في موضعٍ بينهما، لم يقل بهذا أحدٌ أبداً، لا من اليهود ولا من النصارى ولا من المسلمين إلا المعتزلة.

وأول من قال بها -ثبتنا الله وإياكم- رجلٌ كان يجلس عند الحسن البصري ويستفيد منه،

لكنه أُعجب بهواه وراجع الحسن البصري -رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغفر له ورفع منزلته- في أصحاب الكبائر، فقال الحسن: إنهم يفسقون بذنوبهم وكبائرهم وينقص إيمانهم ولا يخرجون منه ما لم يستحلوه. فقال: أنا أقول خلاف ذلك؛ هم في منزلةٍ بين الكفر والإيمان. فاعتزل مجلس الحسن، وسُموا بعد ذلك "معتزلة".

هذا الرجل كان صاحب نُسُك، حتى تعلم أن قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلِّبها كيف يشاء؛ فلا يغتر الإنسان بما هو عليه اليوم من استقامة ومن دين، بل يحمد الله على ذلك ويسأل الله الثبات، لكن الشيطان يوسوس لابن آدم، وربما يوقع في قلبه عُجباً بالنفس، وربما يغرُّه محله من الناس. هذا الرجل كان صاحب عبادة وصاحب خطابة وصاحب أمور أخرى، وكان يبذل وقته في أخذ العلم عن الحسن البصري، ثم أُعجب ببدعته حتى صار رأس المعتزلة؛ واصل بن عطاء الغزَّال صار رأس المعتزلة، وخرج بعد ذلك أناسٌ على هواه صاروا يقدّمونه؛ مثل عمرو بن عبيد، وثمامة بن الأشرس وغيرهم.

وهذا الاستطراد حتى يعلم الإنسان أنه ليس بعيداً عن الانحراف عن السنة إلى البدعة، فمن باب أولى أن يكون الانحراف إلى الشرك قريباً إذا لم يعصمه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولهذا يسأل العبد ربه ﷻ الثبات، ويسأله أن يريه الحق حقاً ويرزقه اتباعه، والباطل باطلاً ويرزقه اجتنابه ولا يجعله ملتبساً عليه؛ فإذا التبس الحق بالباطل تخوَّض الإنسان في الباطل يظنه حقاً، ويقع في الشرك يظنه توحيداً، إلى غير ذلك من الانحراف، ولهذا من أعظم الأسباب التي لأجلها يخاف الناس على أنفسهم من الشرك: أن يقع عليهم جهْلٌ فيما يتعلق بالتمييز ما بين الشرك والتوحيد، أو أن يُبتلوا بأناسٍ يلمِّعون الشرك ويسمونه بغير اسمه؛ وتسمية الشرك بغير اسمه في هذا الزمان كثيرة، ولا بد أن نتفطَّن لهذا في القنوات الإعلامية التي ما اهتمت بالتوحيد من غير هذه البلاد، أو في مواقع أهل البدع، أو عند الذين يشككون الناس في أصول الدين، أو الذين يعظِّمون جانب الدنيا على جانب الدين ولا يكترثون له.

ربما يسمون الشرك بغير اسمه؛ بمعنى أنهم ربما يسمون الأصنام التي يجدونها في المدافن وغير ذلك "حضارة"، أو "ثقافة"، أو "موروثًا". نحن لا نسميها بهذا، إنما نسميها "شركًا"، وأنها ما نُحتت إلا لأجل الشرك. فتسمية الشيء بغير اسمه يوطِّن الإنسان على قبول الرأي المصادم للتوحيد، بدعوى أنها "قناعاتٌ" كانت الناس عليها ولا يزالون؛ والتوحيد ليس مجرد "قناعة"، التوحيد دين وهدى، التوحيد أمْرٌ بعث الله به أنبياءه ورسله. بمعنى أن الإنسان يتدين بالتوحيد إيمانًا لا مجرد قناعة عقلية، بل هو وحي الله وأمره الذي خُلق لأجله الثقلان.

فتسمية الشرك "قناعة" يحملك على أن تحترم القناعات الأخرى! فكما أنهم يصورون الموحِّد بأنه مجرَّد "مقتنعٌ" بمحمد ﷺ وبدينه، فإذا سموه قناعة هذا تمريرٌ لما يضادُّه من التوحيد حتى تقبل قناعة الآخر بعبادته الصنم، بل إن بعضهم يتحذلق في ذلك فيسميها "أيديولوجية فكرية" أو "ثقافة". فتسمية الشرك والكفر بغير اسمهما ترقِّق المعنى، ويسهِّل على الناس التجربة فيه؛ فيسهلون على الناس تجربة الشرك: خض هذه التجربة! بعضهم يصرِّح بذلك -والعياذ بالله ثبّتنا الله وإياكم-، يصرِّح بذلك: لماذا لا نخوض الثقافة البوذية، والثقافة الهندوسية، والثقافة الأزرادشتية، يعني خلها مجرّد تجربة فقط، أحد يجرِّب الكفر بالله؟! هل هي "رياضة ذهنية" أو "ثقافة"؟! وهذا من طواغيت هذا الزمن؛ أن يسمى الشرك ثقافةً أو يسمى قناعة أو غير ذلك.

ومن الأسباب أيضًا التي تدعو إلى الخوف من الشرك: فشوُّه في الناس، حتى يرى الإنسان أنه لا يستطيع إلا أن يتابع الناس عليه. وهذا يكون في آخر الزمان، أو في المجتمعات التي قلَّ فيها النصحَة والعلماء؛ فيفشو في الناس دفن الموتى في المساجد، وتعليق التمائم، وتعظيم الأولياء واعتقاد أن لهم نوعًا من التصرُّف في الكون -والعياذ بالله-.

فإذا فشا ذلك ولم يجد العبد ناصحًا، ويخفى عليه أيضًا الحق، بل ربما وجد من يلبِّس

عليه ذلك تتابع الناس في ذلك. وقد قال النبي ﷺ: «لَا يَكُونَنَّ أحدكم إِمَّعَةً، إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَحَسَن، وَإِنْ أساءوا أساء، وَلَكِنْ وَطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ، إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَنْ تُحْسِنُوا، وَإِنْ أَسَاءُوا فَلَا تَظْلِمُوا». ففشوُّ الباطل ليس متعلقًا بالشرك، ربما يضعف فيه الإنسان فيتابع المجتمع، وهنا يظهر التمحيص والابتلاء.

بمعنى أن الابتلاء والتمحيص إذا كان كل ما حولك وأكثر من حولك على الباطل وأنت وحدك على الحق، هنا الثبات على الحق هو من أعظم أنواع التمحيص، وهو الذي امتحن الله به خيرة خلقه وأنبيائه؛ فما من نبي بُعث إلى أمته إلا وكان المؤمنون معه قِلَّة في البداية، وكلهم يعادونهم أقوامهم ويُبتلون في ذلك، ويثبتون على ذلك، فالتمحيص إنما يكون إذا كثُر الباطل وبقي الإنسان متمسكًا بالحق ولو كرهه الناس ولو أقصاه الناس، ولو سبّه الناس ولو حقّره الناس، ولو آذاه الناس وهاجر لله ورسوله، ولو قاتله الناس، ولو غلبوه على ماله وعلى نفسه.

ففشوُّ الباطل لا يعني أن الإنسان لا يستطيع حماية نفسه، لا يعني أيضًا أن الإنسان لا يستطيع أن يدعو إلى ما هو ضدّه من الحق، وإلا لتعطّلت الدعوة وبقي الشرك طبَّق الأرض كلها. قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في الحديث القدسي: «وَإِنَّ اللهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ، إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ»؛ وهم الذين كانوا على العهد الأول من التوحيد الذي بُعِث به موسى وعيسى عليهما السلام.

فالمقصود أنه من الأسباب التي تدعو إلى الخوف من الشرك والحرص على أسباب السلامة منه: فشوُّ الباطل في المجتمعات، سواء في آخر الزمان أو حتى في هذا الزمان؛ فبعض المجتمعات في أطراف العالم لا يجدون من النَّصَحَة كما نجد نحن والحمد لله في هذه العصور التي امتلأت علمًا، والقرآن يُقرأ والكتب تُدرَّس إلى غير ذلك.

ومن الأسباب أيضًا الداعية إلى الخوف من الشرك: أن يعيب المشرك أو صاحب

الباطل أهل التوحيد، فيكون ذلك سبباً لانهزامه عن التوحيد ومتابعته للناس؛ بمعنى أنه ربما يُبتلى بمن يعيبه على التوحيد ويستخفُّ به، ويقلِّل من شأنه، وربما كَذَب عليه، فيكون في ذلك نوعٌ من المضايقة له على ما هو عليه، فيدفع المضايقة عن نفسه بمتابعتهم على باطلهم طلباً للسلامة من أذاهم.

وقد وقع للصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ هذا في أول الإسلام؛ نالهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وأرضاهم -والنبي ﷺ بينهم، نالهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ما نالهم من الأذى من كفار مكة؛ ليس المقصود بذلك التعذيب والقتل فقط، بل نوعٌ من الأذى النفسي والاجتماعي، فلا يُبايعون ولا يُشترى منهم ولا يُصاهرون ولا يُجالَسون ولا يُسلَّم عليهم ولا يُصافحون، ولم يفتَّ ذلك في عضدهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وفي ثباتهم على التوحيد، حتى وصل الأمر إلى أن خرجوا من مكة وأهلها، وذهبوا إلى شِعْب أبي طالب، وذهب معهم النبي ﷺ.

فالمقصود أنه كلما ضُيِّق على الموحِّد كلما زاد ثباتاً وتمسُّكاً بالحق، فليس عذراً لأن يفعل الإنسان ما يريده الناس من الشرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إذا ضايقوه في شيءٍ من أمور الدنيا. قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾[النحل:١٠٦] وهذه حالةٌ خاصة، أما الأصل فهو الثبات كما ثبت أنبياء الله عَزَّ وَجَلَّ، كل أنبياء الله عَزَّ وَجَلَّ أُكرهوا، لكنهم ما اعتذروا بالإكراه في ترك الدعوة للتوحيد والثبات عليه.

وهناك كلام لأهل العلم في "أيُّ إكراه هو الذي يكون عذراً في مثل هذه المسائل؟": هل هو مطلق الإكراه أو الإكراه الملجئ؟ هل هو الإكراه بعمومه أو الإكراه من القادر على إنفاذ ما يُكره عليه؟ وهل هو الإكراه على النفس والمال والعِرض أو هو متعلِّقٌ بالنفس فقط والعِرض؟ وهذا له بحثٌ آخر.

ومن الأسباب أيضاً الداعية إلى الخوف من الشرك: النظر فيما قصَّ الله عَزَّ وَجَلَّ من أخبار الأمم السابقة، الذين ما وقعوا في الشرك وتخوَّضوا فيه لأول وهلة، بل سبقت ذلك أمور

حققت الشرك في نظرهم حتى فعلوه، ثم ارتكسوا ولم يسموه شركًا، ثم كذَّبوا أنبياء الله الداعين إلى التوحيد. وهذه هي خطوات الشيطان كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾[البقرة:١٦٨].

فعلى سبيل المثال؛ قوم نوحٍ في أول أمرهم لم يكونوا مشركين، وإنما كان عندهم تعلُّقٌ وحُبٌ للصالحين -ليس حبًا للرؤساء والزعماء بل للصالحين- "ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر" كانوا أناسًا صالحين، فلما ماتوا تعلَّقت قلوبهم بهم حُبًا لهم، فلما تعلَّقت القلوب غلوا فيهم حتى جاء الجيل الثاني، فعبدوا التصاوير التي صوَّرها الذين تعلَّقوا بهم.

هذه التصاوير إنما صوَّرها المحبون المتعلقون بهم، ولم يقعوا في الشرك أول الأمر، كما قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾[نوح:٢٣] قَالَ: «هذه أسماء رجال صالحون من قوم نوح، فلما هلكوا؛ أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابًا، وسموها بأسمائهم، ففعلوا فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك ونُسي العلم؛ عُبِدت».

فكان في أول الأمر حبًا وتعلقًا، ثم صار غلواً، ثم عبدوهم من دون الله بدعائهم، ثم زاد الأمر بعد ذلك في المشركين عمومًا حتى صرف المشرك للأصنام الدعاء من دون الله، والذبح من دون الله، وخوف السرِّ من دون الله، إلى غير ذلك. بمعنى أنه كان في أول الأمر انحرافٌ في الدعاء فقط، والانحراف في الدعاء شِرْكٌ ناقل من المِلَّة وكفر مخرجٌ من الإسلام، لكنهم زادوا على ذلك -لما حصل الارتكاس والتراكمات الشركية- حتى صار عندهم شِرْكٌ في غير الدعاء، بل زادوا على ذلك حتى صار عندهم شركٌ في توحيد الربوبية؛ فصار بعضهم يعتقد في الأصنام أنها تُلحِق الضرر بمن عابها، وأنها تحفظ غائبهم وتدفع كربهم، كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾[هود:٥٤].

فصاروا يعتقدون أن الأصنام تتصرف في الكون ولو بنوعٍ من التصرُّف -والعياذ بالله-،

وهذا من السُّخْف والجنون والضلال، فهم الذين صنعوا الأصنام بأيديهم ثم عبدوها واعتقدوا فيها هذا الاعتقاد!

بل زاد الأمر على ذلك حتى صار بعضهم يعتقد في غير الله عمومًا تدبير ملكوت السماوات والأرض، كما يقول غلاة الصوفية في عبد القادر الجيلاني: "عبد القادر يا جيلاني يا مصرِّف الأكوانِ"، نعوذ بالله من هذا الخذلان. وكما يقول البوصيري: "فإنَّ من جودك الدنيا وضرتها" بمعنى أن من جود النبي ﷺ أن أعطى البشرية الدنيا كلها والآخرة كلها عنده ﷺ.

فإنَّ من جودك الدنيا وضرتها ... ومن علومك علم اللوح والقلم

ثم قال: "إن لم تكن في معادي آخذاً بيدي..." إلى آخر ما قال من شركياته.

بل في زماننا بعض غلاة الصوفية من يعتقد هذا، ولا بد أن تُعرف هذا لأن الكثير من الناس ربما يفهمون بعض الألفاظ التي جاءت على ألسنة أهل السنة والجماعة فهمًا خاطئًا؛ فقد ذكر أهل السنة والجماعة أن من الصالحين "أولياء" وأن منهم "أبدالاً"، وإن كانت أحاديث الأبدال ضعيفة.

الأولياء والأبدال وردت في الحديث، الأولياء ورد في كلام الله وكلام رسوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، والأبدال وردت عن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يصححه بعض أهل العلم ويضعّفها بعض أهل العلم، لكن الأبدال يفهمها أهل السنة والجماعة كفهمهم لقول النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا أَمْرَ دِينِهَا». بمعنى أن الله ﷻ يُبدِل هذه الأمة إذا مات عالمٌ بعالمٍ آخر، وإذا مات ناصحٌ جاء ناصحٌ آخر؛ لقول النبي ﷺ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ». هذا هو اعتقاد أهل السنة والجماعة.

أما الصوفية فقد أضافوا إلى ذلك أحاديث موضوعة، فجاءوا بأوصاف "الأبدال" و"الأغواث" و"الأوتاد" و"الأقطاب" وغير ذلك، ويعتقدون أن "الأبدال" أولياء -تعالى

الله عما يقولون علواً كبيراً- أوكل الله إليهم بعض ما يتعلَّق بملكوته! و"الأغواث" فوق الأبدال، ثم جاءوا بلفظ الأوتاد -والإخوان يعرفون الوتد الذي تُشد به الخيمة-، فيعتقدون أنهم كالأوتاد للكون -والعياذ بالله-، فماذا بقي لله، يعني ما جعلوا لله شيئًا سبحانه وبحمده إلا أنه خَلَق الخلْق.

ومن ضلالهم وارتكاسهم أنهم قالوا: نعتقد أن الله ﷻ أوكل إلى الملائكة مهامًا متعلقة بالكون؛ فالله ﷻ قال: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ﴾[السجدة:١١]، وقال: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾[الحج:٧٥]، والنبي ﷺ أخبر بأن الذي ينفخ في الصور إسرافيل، وأخبر أن ميكائيل موكَّلٌ بالقطر. قالوا: فإذا كان الله قد وكّل الملائكة بمثل هذا، فلماذا لا يوكِّل أولياءه بتدبير الكون؟

أليس هذا اعتراضًا على الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى؟ أليس هذا كذبٌ على الله الذي قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾[فاطر:٤١]؟ ثم إن الملائكة لا يتصرفون من تلقاء أنفسهم بل بأمر الله، قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[التحريم:٦].

وعندنا خبرٌ من كلام الله وكلام رسوله بما وكله للملائكة، فهل عندكم خبر بما تزعمونه في "الأولياء والأقطاب والأغواث"؟ ثم إن هؤلاء الذين يزعمون أنهم أولياء قد يكونون غارقين في الضلال والبدعة إلى آذانهم، ولو فرضنا أنهم أولياء أو حتى أنبياء، فإن اعتقاد ذلك في أحد من الخلْق كُفْرٌ بالربوبية.

فهذا استطرادٌ مناسب لهذا الموضع؛ من حيث أن من أسباب الخوف من الشرك أنه لا ينتهي عند حد، فربما يبدأ الأمر تعلُّقًا بالصالحين، ثم يصل التعلُّق أحيانًا إلى تزويق قبورهم وتلميعها وترخيمها، ثم دعاؤهم من دون الله، ثم بعد ذلك ينصرف الانحراف إلى توحيد الربوبية، ثم بعد ذلك بجعلهم "مصرفين للأكوان" -والعياذ بالله-.

حتى قال بعض أهل الرفض: إن الكون في كفِّ الأئمة كالدرهم في كفِّ أحدكم -يعني

يقلِّب الكون كما يريد-، فلا يوجد كفر على ظهر الأرض أعظم من هذا الكفر.

وهذا من الأسباب الداعية للخوف من الشرك والحذر منه؛ قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في قصة إبراهيم: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾[إبراهيم:٣٥]. ﴿وَاجْنُبْنِي﴾ إبراهيم عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، ﴿وَبَنِيَّ﴾ الأنبياء إسماعيل وإسحاق، ويدخل في ذلك كل أبناء إبراهيم ممن كان على الحنيفية، بمعنى أنه يدخل فيه الأسباط، ويدخل فيه أنبياء بني إسرائيل وغير ذلك؛ فإذا خافه إبراهيم -وهو الذي يوحى إليه- على نفسه وعلى أبنائه الأنبياء، أليس ذلك أدعى بأن يخاف الإنسان على نفسه في هذا الزمان؟ لا شك أن هذا أدعى، خاصة وأنه في زمن إبراهيم عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ لم يكن دعاة الشرك نشيطون ومتلونون ويلبّسون على الناس كما هو في زماننا الآن، ولم يكن لهم حظوةٌ عند الناس، بمعنى أن الله ﷻ أظهر إبراهيم عليهم لما ألقاه الكفار في النار فسلّمه الله ﷻ منها، لكن في زماننا لهم من يؤيدهم، لهم من ينصرهم، وهم أيضًا عندهم كَلَبٌ وحِرصٌ على الدعوة إلى الشرك -والعياذ بالله-، فصار الخوف منه في هذا الزمان من باب أولى وأحرى.

(**قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ: الشِّرْكُ الأَصْغَرُ، فَسُئِلَ عَنْهُ؟ فَقَالَ: الرِّيَاءُ»**).

فالنبي ﷺ يخاف على أمته الشرك الأصغر لأنه يخفى على الناس. وقوله ﷺ: «**الرياء**» يعني من الشرك الأصغر شرك النيات والإرادات، الذي يتعلق بأن يُحسِن الإنسان عمله لما يرى من نظر الناس إليه.

ومن أنواع الشرك الأصغر ما يتعلق بالألفاظ؛ كقول: "ما شاء الله وشئت"، و"لولا الله وأنت"، والحلف بغير الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وغير ذلك مما سماه النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ شركًا لكنه لا يصل إلى الشرك الأكبر.

ومن الشرك الأصغر أيضًا ما يتعلق بالأفعال؛ كتعليق التمائم والتطيُّر وغيرها، لقوله عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «**الطِّيَرَةُ شِرْكٌ**».

وهنا يأتي قول النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حين سُئل عنه فقال: «**الرِّيَاءُ**». الأصل في الرياء: أن يطلب الإنسان بعمله رؤية الناس إليه، وهذا محبطٌ للعمل لا شك في ذلك، وهو شرْكٌ كما سماه النبي ﷺ.

فاتق ذا الشرك ومنه فخفي　　　لأنه عن العيون قد خفي

وهو يُبطل ما صاحبه من العمل.

لكن لو كان الإنسان كل عمله من أوله إلى آخره مراءاةً للناس، هل يكون في هذا مُشركًا شركًا أصغر أو يكون منافقًا؟ يكون منافقًا، وهذا نفاق اعتقادي؛ ولهذا قال بعض أئمة الدعوة: إن المقصود بذلك "يسير الرياء"، أما أن يكون مرائيًا في الصلاة والزكاة والصيام والحج وغير ذلك، فهذا هو النفاق العقدي الذي قال الله فيه سبحانه وبحمده: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾[النساء:١٤٥].

خوف النبي ﷺ على أمته من الشرك الأصغر لأسباب؛ منها: أنه تشريكٌ مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أولاً، والخصم فيه رب العالمين.

وثانيًا: لأنه يُحبط العمل.

والأمر الثالث: أنه يخفى على الإنسان، وربما وقع فيه وانصرف من العبادة وهو لا يشعر؛ بمعنى أنه خالطه الرياء لما دخل الناس عليه وهو يصلي، فحسَّن صلاته لأن قلبه مال إلى نظر الناس، وغفَل عما وقع في قلبه من الشرك حتى خرج من العبادة وهو ينظر إلى نظر الناس، وهذا مُحبطٌ للعمل -والعياذ بالله-.

وحتى تعلم خطورة هذا الشرك يا أخي! لما ذكر النبي ﷺ في حديث أبي سعيد الخدري عند أحمد وغيره؛ ذكر المسيح الدجال ثم قام ونهض ودخل منزله، فخرج النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ على الصحابة وهم يتكلمون في المسيح الدجال كلام الخائف من فتنته؛ فهم يعلمون أن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال: «**مَا خُلِقَتْ فِتْنَةٌ مُنْذُ خَلَقَ اللهُ آدَمَ أَعْظَمَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ**

الدَّجَّالِ»، وما من نبيٍ إلا وحذَّر أمته المسيح الدجال، «**وَلَقَدْ أَنْذَرَ نُوحٌ أُمَّتَهُ الدَّجَّالَ**»، ثم قال: «**وإني سأقول لكم فيه قولاً لم يقله نبيٌ قبلي: إنه أعور...**» إلى آخر الحديث.

خرج النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ على الصحابة وهم خائفون من المسيح الدجال؛ لما سمعوا من وصف النبي هذا وغيره، فقال: «**أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنَ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ؟**» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «**الشِّرْكُ الْخَفِيُّ؛ يَقُومُ الرَّجُلُ فَيُصَلِّي، فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ، لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ**».

إذن الرياء أخطر من المسيح الدجال؛ كيف يكون هذا مع أن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وصف المسيح الدجال وصفًا واضحًا؟ حتى قال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في وصفه: «**عَيْنُهُ الْيُمْنَى كَأَنَّهَا عِنَبَةٌ طَافِئَةٌ**»؛ يعني ما لها وبيص باردة. «**كَأَنَّ عَيْنَهُ عِنَبَةٌ طَافِرَةٌ**» يعني ناتئة، «**كَأَنَّ عَيْنَهُ عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ**» يعني ليست مستقرة على الماء، قال: «**كَأَنَّ عَيْنَهُ عَيْنُ أَبِي يَحْيَى -رجلٌ من الأنصار-، كَأَنَّ عَيْنَهُ نُخَاعَةٌ فِي حَائِطٍ**». قال ﷺ: «**أَشْبَهُ النَّاسِ بِهِ عَبْدُ الْعُزَّى بْنُ قَطَنٍ**» -حدادٌ لبني المغيرة-. قال ﷺ: «**جَفَالُ الشَّعَرِ**» يعني منتشر الشعر، قال: «**مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَافِرٌ**»، وفي لفظ: «**ك ف ر**». وقال ﷺ: «**أَحْمَرُ، أَجْعَدُ، قَصِيرٌ**». وصفٌ تفصيلي للغاية لشدة خطره.

حتى أخبر النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بمخرجه؛ قال: «**إِنَّهُ خَارِجٌ فِي خَلَّةٍ بَيْنَ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ**». ومع ذلك لما قال ذلك عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، قال: «**يَا عِبَادَ اللهِ فَاثْبُتُوا**»؛ حرصًا على أمته من فتنة المسيح الدجال.

وذكر النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ما معه من فتن، وكم يبقى في الأرض: «**أَرْبَعُونَ يَوْمًا؛ يَوْمٌ كَسَنَةٍ، وَيَوْمٌ كَشَهْرٍ، وَيَوْمٌ كَجُمُعَةٍ، وَسَائِرُ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُمْ**». وذكر النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أنه لا يدع مكانًا إلا وطأه إلا مكة والمدينة، وإيليا في بعض الأحاديث.

وذكر النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أنه يقتله عيسى ابن مريم، وقال لعمر في شأن ابن صياد: «**إِنْ يَكُنْهُ فَلَنْ تُسَلَّطَ عَلَيْهِ**». هذا الوصف الدقيق للمسيح الدجال ما ذُكر في غيره مما يقع في آخر

الزمان؛ حتى عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ما وصفه النبي وصفاً دقيقاً كما وصف المسيح الدجال، قصارى ما قال في عيسى أنه «أَقْنَى الْأَنْفِ»، وأنه «كأنما خرج من دِيمَاسٍ»، وأنه أشبه الناس به عروة بن مسعود، وهي أحاديث معدودة. لكن المسيح الدجال وصفه وصفٌ دقيق وكثير في أحاديث شتى وبعضها في الصحيح.

لماذا هذا الوصف؟ لشدة خطر المسيح الدجال، ولأن الرجل يأتيه ويظن أنه يخلص منه فلا يزال به حتى يتابعه. وذكر النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال: «لَيَفِرَّنَّ النَّاسُ مِنَ الدَّجَّالِ فِي الْجِبَالِ»، وقال: «مَنْ سَمِعَ بِالدَّجَّالِ فَلْيَنْأَ عَنْهُ». وأخبر أن الرجل يخلِّف أهله فيربطهم بالسلاسل خوفاً عليهم من اللحوق به.

مع هذا كله، يقول النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «الشِّرْكُ الْخَفِيُّ» أخوف على أمتي من المسيح الدجال. لماذا؟ لأن المسيح الدجال -بكل هذا الوصف- إنسانٌ -خلْقٌ- من ذرية آدم تراه بعينك، وتدفع فتنته بعشر آياتٍ من سورة الكهف أولها أو آخرها روايتان عند أصحاب السنن ومسلم من حديث أبي الدرداء.

بمعنى أن المسيح الدجال فتنةٌ تطبق الأرض كلها، لكن هناك من يسلم منها. فمن استعاذ بالله أعاذه؛ ألسنا نستعيذ من أربع -منها المسيح الدجال- قبل أن نسلِّم في الصلاة؟ فمن استعاذ أعاذه الله عَزَّوَجَلَّ من المسيح الدجال، ومن أغلق عليه بابه أعاذه الله، ومن قاتله مع عيسى أعاذه الله، والذين يفرُّون إلى رؤوس الجبال يعيذهم الله، الذين يقرؤون العشر آيات من سورة الكهف أولها أو آخرها يعيذهم الله من المسيح الدجال، والذين ماتوا قبله أو يولدون بعده يعاذون منه.

إذن "المعاذون" من الدجال كثيرون، أما الرياء فجارٍ مع الإنسان ما جرى معه قلم التكليف؛ الشرك الخفي جارٍ مع الإنسان ما دام يعبد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. فإذا سلمت اليوم فاحتط لنفسك غداً؛ إذا سلمت في الصلاة احتط للصيام، وإذا سلمت من الصدقة احتط

للحج. بمعنى أنه عُرضة للرياء، ما دامت روحه في جنبيه، ليس كالمسيح الدجال الذي تسلم منه إذا قُبِضت روحك قبله أو ولدت بعده، أما الرياء فهو مصاحبٌ للعمل والعمل مصاحبٌ لحياة الإنسان؛ ولهذا كان خوفه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ على أمته من الشرك الخفي أعظم، وهو أنصح الناس للناس بأبي هو وأمي ﷺ.

(وَعَن ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قال: «مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَدْعُو للهِ نِداً؛ دَخَلَ النَّارَ»). يعني من مات وقد جعل مع الله أنداداً وآلهة غيره دخل النار؛ كما قال الله على لسان المشركين: ﴿تَاللهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[الشعراء:٩٧-٩٨].

ولهذا الذي يشرك بالله -والعياذ بالله- لا يوقف حيث يوقف الناس، وليس هو ممن تُنصب لهم الموازين، وإنما يكبكبون في النار؛ كما قال سبحانه: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾[الشعراء:٩٤]، وقال: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾[الطور:١٣]، هذا حال المشرك يوم القيامة.. المشرك هل يُسأل عن عمله الصالح؟ ليس له عملٌ صالح حبط -والعياذ بالله-، هل هو محلٌ للكرامة حتى يُخاصمه الرب ﷻ أو يكبكب؟ يُكبكب -والعياذ بالله-، بمعنى أن حال المشرك يوم القيامة دخول النار -والعياذ بالله-، إذا بُعثِر ما في القبور يُكبكب كما أخبر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بذلك.

ولهذا جاء في الصحيح عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سألت النبي ﷺ: أيُّ الذنب أعظم؟ قال: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ»، وهنا قَالَ: («مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَدْعُو للهِ نِداً»)، وقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾[البقرة:٢٢]؛ لأن التنديد أن تجعل مع الله ﷻ مساوٍ له في خصائصه سبحانه من العباد.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَلِمُسْلِمٍ: عَنْ جابرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قال: «مَنْ لَقِيَ اللهَ لَا يُشْرِكُ به شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ») يعني أنه وإن كان صاحب ذنبٍ فإن مآله إلى الجنة، ما عنده من ذنوبٍ قد يكفِّرها الله ﷻ في الدنيا بمصائب مكفِّرة، أو بدعوة ولدٍ، أو بصدقة جارية، أو بغيرها من

المكفِّرات، لكن يبقى أن آخر مآلاته الجنة ولو لم يدخلها مع أول الداخلين إلا أنه إن لم يدخلها وعُذِّب في النار فإنما يُعذَّب بقدر ما عليه من ذنوب ومعاصي، ومع ذلك هذا ليس مدعاة للاستهانة بالذنب؛ لأنه قد يخطر في بال البعض: "إذا كان مآلنا إلى الجنة وإن عُذِّبنا في النار، يعيننا الله على ذلك"، وهذا استخفافٌ بعقوبة الله؛ فالإنسان يطلب المخلص لنفسه والنجاة والسلامة، وقد استعاذ النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من النار كلها.

فليس في هذا الحديث أن الإنسان إذا علِم أن صاحب الذنب لا يُخلَّد في النار، لا يعني ذلك ترقيق الذنب؛ لأن ترقيق الذنب وتهوينه بحدِّ ذاته عدمُ توقيرٌ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وربما يُحاسب الإنسان المستخف بالذنب بأشد مما يظن؛ لأن المستخف بالذنب مستخفٌ بمن عُصي سبحانه وبحمده، فقد يُعذَّب بشيءٍ أشد من ذلك، لا على الذنب فحسب، وإنما لما وقع في قلبه من تهوين الذنب وتقليل شأنه، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ * وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾[الزمر:٤٧-٤٨].

فهذا مستهزئ بالله -والعياذ بالله-.

ولا نظن هذا بإخواننا ولا بأنفسنا والحمد لله، لكن نقول: إذا ورد هذا الوارد الشيطاني يدفعه الإنسان بمثل هذه الآيات، أن هذا استهزاءٌ بعقوبة الله وتقليلٌ من شأنها، وأن الإنسان ربما يعاقبه الله عَزَّوَجَلَّ على هذا الذي وقع في قلبه من تهوين الذنب والاستخفاف به، أشد من عقوبته على الذنب فيما لو وقع في الذنب وهو معترفٌ على نفسه بالتقصير. قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ هذا الذنب، ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾[الزمر:٤٨] من الاستخفاف به والوقوع فيه.

(**قال ﷺ: «مَنْ لَقِيَ اللهَ لَا يُشْرِكُ به شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّار»**).

الفرق بين أول الحديث وآخره: أن أول الحديث للمؤمن فيه حالتان -(**«مَنْ لَقِيَ اللهَ لَا**

يُشْرِكُ به شَيْئًا»)، هذا الموحِّد له حالتان-: إما أن يدخل الجنة مع أول الداخلين، أو أن يسلَم من النار؛ عليه ذنوبٌ ومعاصي لكن الله ﷻ يمحوها عنه ويغفرها له، كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: **«يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا، لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً»**. فيكون للمؤمن في هذا الحديث حالتان: إما أن يغفرها الله ﷻ له فيدخل الجنة ولا يُعرَض على النار، كما قال النبي ﷺ: **«قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْآنَ»**.

والحالة الثانية: أن يدخل النار فيُعذَّب على قدر ذنبه، لكنه يخرج بعد ذلك إلى الجنة، التي يسميها أهل العلم "نار الموحدين".

ونار الموحدين لا بد أن يمر عليها زمنٌ ليس فيها أحدٌ، لأن الموحِّد لا يُخلَّد في النار، لكن ماذا يبقى في النار؟ ما هو نوع العذاب الذي يأتي إلى غير ذلك؟ هذا إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، إلا أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُخرِج أهل التوحيد من النار، كما قال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في حديث البعث: **«يَا آدَمُ، أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ، فيُخرج من كان في قلبه مثقال ذرةٍ من إيمان»**، هذا بعد أن امتُحِشوا في النار وبعد أن نالهم ما نالهم من عذاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

أما آخر الحديث فليس فيه للكافر إلا حالةٌ واحدة، قوله ﷺ: (**«وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّار»**) يعني مع أول الداخلين، لأن في اعتقاد المسلمين أن من دخل الجنة لا يخرج منها، لكن من دخل النار يخرج منها إذا كان موحداً، وإذا كان من أهل الشرك أو من أهل الكفر أو من أهل الإلحاد أو من غيرهم ممن كتب الله مُكثهم وخلودهم في النار، فهؤلاء لا يخرجون.

فصارت الجنة لها أهلها والنار لها أهلها، فأهل الجنة مآلهم إلى الجنة وإن نالهم ما نالهم من قبل ذلك، وأهل النار مآلهم النار، إلا أنهم لا ينالهم شيءٌ من نعيم الجنة وليسوا أهلاً لذلك، لأن الله ﷻ سمى الجنة "دار السلام"، ولأن النبي ﷺ قال: **«تَعْلَمُوا أَنَّهُ لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ»**.

ويبقى أن الإنسان يفعل أسباب رضا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأعظمها توحيده سبحانه وبحمده، وأعظم ما يحوط الإنسان من الشرك ووسائله ودعاته والباطل وخفاياه، أعظم ما يحوط الإنسان بعد توفيق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تدبُّره لكلام الله، والله لن يتقدم شيء من الأسباب قبل هذا؛ تدبُّره كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لأن الله عَزَّ وَجَلَّ بيَّن التوحيد بيانًا شافيًا كافيًا، وبيَّن الشرك بيانًا شافيًا كافيًا، فلم يبق فيه عماء؛ بمعنى أن التوحيد بيِّنٌ في كلام الله، والشرك بيِّنٌ في كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ قُبحه وعاقبته وعائدته، والتوحيد ثمرته وفائدته ودعاته من أنبياء الله وأتباعهم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ودعاة الشرك من أهل الكفر وزبانيتهم. فأقامت حُجَّة الله عَزَّ وَجَلَّ على خلقه.

ثم بعد ذلك إذا وُفِّق لمراضي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يسأل الله عَزَّ وَجَلَّ الثبات، يدعو الله عَزَّ وَجَلَّ بأن يخلِّصه من حِيَل أهل الشرك وضلال أهل الباطل، وما دام الإنسان في هذه الدنيا فهو ما بين أن يُفتن أو أن يسدِّدَه الله ويثبَّته على ما أراد الله عَزَّ وَجَلَّ من الحق والتوحيد.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بَابُ الدُّعَاءِ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لا إِلَهَ إلا اللهُ

وَقَوْلِهِ تَعَالَى:﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾[يوسف:١٠٨]

وعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمَّا بَعَثَ مُعَاذاً إِلَى الْيَمَنِ قال لَهُ: «إِنَّك تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ؛ فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهم إِلَيْهِ شَهَادَةُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ -وفِي رِوَايَةٍ: إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللهَ -، فَإِنْ هُم أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ؛ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِم خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ؛ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِم، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ؛ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَها وبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ» أَخْرَجَاهُ.

وَلَهُمَا: عَنْ سَهْلِ بنِ سَعْدٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قال يَوْمَ خَيْبَرٍ: «لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَداً رَجُلاً يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ؛ يَفْتَحُ اللهُ عَلَى يَدَيْهِ». فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ؛ أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا. فَلَمَّا أَصْبَحُوا؛ غَدَوا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، كُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا، فَقَال: «أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ؟» فَقِيلَ: هُوَ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ. فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ، فَأُتِيَ بِه، فَبَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ، وَدَعَا لَهُ، فَبَرِئَ حَتَّى كَأَنْ لَمْ يَكُنْ به وَجَعٌ، فَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ، وقال: «انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُم إِلَى الْإِسْلَامِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِم مِنْ حَقِّ اللهِ تعالى فِيهِ، فَوَاللهِ! لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِداً خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ».



قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللّه:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه.

اللَّهُمَّ عَلِّمْنَا مَا يَنْفَعُنَا وَانْفَعْنَا بِمَا عَلَّمْتَنَا وَزِدْنَا عِلْمًا يَا كَرِيمُ.

توقف الكلام على قول المؤلف الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله: (بَابُ الدُّعَاءِ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إلا اللهُ).

ومعنى الترجمة: أيْ هذا بابٌ يتعلق بالدعوة إلى شهادة أن "لا إله إلا الله"، وما تدعو إليه من إفراد الله ﷻ بالعبادة، وتخليص التوحيد من شوائب الشرك، وأن هذا هو منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله؛ يدعون أول ما يدعون إليه توحيد الله ﷻ، والعمل بما يوجبه التوحيد من كمال التعبُّد والذُّلِّ لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، ﴿عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ أيْ على نورٍ من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، وإنما نور الله ﷻ ما أنزله في كتابه وبعث به أنبياءه ورسله.

قال الشيخ رحمه الله: (وَقَوْلِهِ تَعَالَى) هذه معطوفةٌ على الدعاء ﴿قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ﴾؛ يعني هذه سبيله ﷺ وسنته وطريقته في الدعوة إلى الله على بصيرة.

وفي هذا القَدْر من الآية بيان أن دعوات الأنبياء كلهم على هذا الأمر، من حيث أنهم إنما يدعون إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى وعلى بصيرةٍ أيْ على علم؛ لأن من يدعو إلى الله ﷻ على غير بصيرة ربما دعا إلى باطل يظنه حقًا، وربما دعا إلى شِركٍ يظنه توحيداً، وربما دعا إلى غيٍ يظنُّه رشداً.

ولهذا يُؤخذ من هذه الآية أن العِلْم سابقٌ للعمل، والبصيرة علمٌ فتكون سابقة للعمل.

وهكذا دعوات الأنبياء؛ الأنبياء إنما نُبِّئوا في أول الأمر ثم أُرسلوا بعد ذلك، بمعنى أنه حصل لهم العلم من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى بأنهم دعاةٌ إلى توحيد الله ﷻ، ثم بدأوا بعد ذلك بالدعوة.

فقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ تقدير الجزء من هذه الآية: أن البصيرة التي سبقت الدعوة هي التي بموجبها يعرف الإنسان ما أوجب الله وما حرَّم، وما شرع وما نهى سُبْحَانَهُوَتَعَالَى عنه مما يُضاد التوحيد.

وهذه دعوات الأنبياء وأتباع الأنبياء؛ قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿هَـٰذِهِ سَبِيلِي

أَدْعُو إِلَى اللهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾؛ فكل أتباع الأنبياء إنما يكونون أتباعـًا لأنبيائهم إذا سلكوا ما كان عليه الأنبياء، ومن خالف سنن أنبياء الله ﷻ ورسله فليسوا من أتباعهم ولو سموا أنفسهم بذلك، ومعيار الصدق في الاتباع والاقتداء إنما يكون بموافقة ما بُعِث به أنبياء الله ﷻ.

ثم ذكر الشيخ بعد ذلك حديث (عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمَّا بَعَثَ مُعَاذاً إِلَى الْيَمَنِ).

قال أهل العلم: إن هذا كان في السنة التاسعة من الهجرة. (قال لَهُ: «إِنَّك تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ؛ فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُم إِلَيْهِ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ -وفِي رِوَايَةْ: إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللهَ-»)، هذا الجزء من الحديث يدلُّ على أن الدعوة إلى شهادة أن "لا إله إلا الله" هو معنى التوحيد -إفراد الله ﷻ بالألوهية-؛ لأن "الإله" المقصود به المألوه المعبود سبحانه وبحمده، لأن من معاني كلمة "التألُّه" التعبُّد لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال ﷺ: («فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُم إِلَيْهِ»)؛ بمعنى أنه لا يصح أن يُدعى الناس إلى شيءٍ قبل التوحيد، لأنه ولو وافقوك على ما تدعوهم إليه ولم يوافقوك على التوحيد لا ينفعهم ذلك؛ فلا بد أن يُدعى إلى التوحيد أولاً. وهكذا كان أنبياء الله ﷻ: ﴿اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾؛ دعوا إلى التوحيد، فمن وافقهم على ما دعوا إليه من إفراد الله ﷻ بالقصد والطلب، أمروهم بعد ذلك أو دعوهم بعد ذلك إلى ما أوجب الله ﷻ عليهم وما نهاهم عنه؛ فلا يُسبق في الدعوة إلى شيءٍ قبل التوحيد.

قال الشيخ رحمه الله: (وفِي رِوَايَةْ: «إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللهَ-؛ فَإِنْ هُم أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ»).

مفاده أنهم إذا لم يطيعوك إلى ذلك فلا تدعوهم إلى غيره؛ لأنهم وإن أتوا به على وجه الكمال لا ينفعهم ذلك، («فَإِنْ هُم أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ») هذه جملة شرطية في أنه لا يُدعى إلى شيءٍ بعد التوحيد حتى يُقرُّوا بالتوحيد لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ ولهذا كل عملٍ صالح لا ينفع صاحبه

إذا لم يكن مبنيًا على توحيد الله ﷻ، كما قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ ۚ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾[التوبة:١٧].

بمعنى أن العمل الصالح -ولو سماه الإنسان عملاً صالحًا- لا ينفع صاحبه حتى يسبقه ما هو أصلح منه وهو توحيد الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فإذا فعل عملاً صالحًا أو طاعة وغير ذلك؛ فإن الله ﷻ قال في مثل هؤلاء: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[هود:١٦].

ففي قوله ﷺ: («فَإِنْ هُم أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ») دليلٌ على أن مطاوعتهم لمعاذٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فيما دون ذلك لا تنفعهم، حتى يستجيبوا له في المطاوعة بتوحيد الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

قال ﷺ: («فَإِنْ هُم أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ؛ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِم خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ»). وهذا دليلٌ على أن الله ﷻ هو الذي افترض على عباده هذه الصلوات الخمس بأوقاتها، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾[النساء:١٠٣]، وأركانها وواجباتها وشروطها وما يتبعها من أحكام.

وهذا مثل حديث الرجل الذي جاء إلى النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ وقال: يا رسول الله ما أوجب الله علي؟ وفيه أن النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ قال: «خَمْسُ صَلَوَاتٍ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ»، قال: هل عليَّ غيرها؟ قال: «لَا، إِلَّا أَنْ تَطَّوَّعَ». يعني أن الله ﷻ إنما أوجب هذه الصلوات الخمس، وهذا الحد الأدنى مما أوجب الله وافترض على عباده، ويُرد به على من أوجب الوتر وغيره.

المقصود أن هذا لا يعني أن يتقلل الإنسان من الطاعات، وإنما يُراد أن هذا هو الحد الذي لا يجوز تركه من الصلوات، وإلا فقد قال النبي ﷺ للصحابي الذي قال: يا رسول الله أسألك مرافقتك في الجنة، قال: «أَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ». وفي حديث آخر قال: «إِنَّكَ لَنْ تَسْجُدَ لِلَّهِ سَجْدَةً إِلَّا رَفَعَكَ اللهُ بِهَا دَرَجَةً، وَحَطَّ عَنْكَ بِهَا خَطِيئَةً».

فالاستكثار من السجود أمرٌ مسنون مدعوٌ إليه، وشرعه النبي ﷺ لأمته، وهو مُقرِّبٌ إلى الرب سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ قال ﷻ: ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾[النجم:٦٢]، وقال: ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب﴾[العلق:١٩] إلى غير ذلك من الآيات.

لكن المقصود من هذا الجزء من الحديث أن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أراد بذلك أن يعلموا أن الحد الأدنى مما افترض الله ﷻ عليهم من الصلوات هو الصلوات الخمس بصفتها وزمانها وواجباتها وأركانها.. مما يتبعها من أحكام.

ثم قال: («فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ؛ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ»). وإضافة الصلاة والزكاة إلى الله ﷻ فرضًا هو إخبارٌ لهم أن هذا إنما افترضه الله وحده، والنبي مبلِّغٌ عنه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ. كما أن نسبة الافتراض إلى الله في الزكاة يدفع الظنة أن النبي ﷺ بُعِث جابيًا للأموال -وحاشاه من ذلك-، فلما نسبها إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ دُفعت هذه التهمة عن معاذٍ وعمَّن هو أفضل منه ﷺ. وأُكِّد دفع ذلك بقوله: («تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِم»)؛ بمعنى أنه إنما بُعِثَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لينتفع الناس بعضهم من بعض، لا لينتفع هو من أموالهم.

ففي قوله ﷺ: («تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ») أيْ أغنياء أهل اليمن، («فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِم») أي فقراء أهل اليمن، ثم التفصيلات في كتب الفقه حول نقل الزكاة أمرٌ آخر، لكن المقصود أن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لما قال: («تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِم») فيه أَنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ -كما يقول المعاصرون- بُعِث بـ"التكافل الاجتماعي"، بُعِث لكي يغتني الفقير من مال الغني، وتعطف قلوب المسلمين على بعضهم، وحتى يواسوا بعضهم بعضًا... إلى غير ذلك من المعاني الإنسانية.

والنبي دينٌ إنساني -كما يقول الناس المعاصرون الآن-، يجعلون الإنسانية دينًا يبعث إليه الخُلُق البشري والخُلُق الإنساني، هذا في ظنهم، لكن الإسلام دعا إلى مثل هذه المعاني

الإنسانية وما هو أعظم من ذلك، كما أنه دعا أول ما دعا إلى حق الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ من إفراد العبادة له سبحانه وبحمده وطاعة نبيه ﷺ واتباعه.

فقوله ﷺ: («تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِم»)، ثم قَالَ: («فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ») أيْ فإن هم أطاعوا معاذاً فيما يتعلّق بأخذ الزكاة من الأغنياء إلى الفقراء.

ثم قَالَ: («فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ») أيْ لا تأخذ نفائس الأموال وإنما خذ أوسطها، لا تأخذ الرديء منها لأن ذلك يضر بالفقير -لا ينتفع بالشاة العجفاء إذا أخذ الشاة من الغني الموسر-، ولا تأخذ كرائم أموالهم؛ لأنها تضر بصاحب المال، وإنما يُؤخذ ما لا يضر بالطرفين.

ثم ختم بقوله: («وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلَومِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ»). ومناسبة ذكر دعوة المظلوم هنا: أن من أخذ نفيس المال من الغني أضرَّ بصاحب المال فصار مظلوماً في حكم الله، ومن أخذ المال الرديء ودفعه للفقير أضرَّ بالفقير فصار مظلوماً، وهذا بحد ذاته يبعث على الدعاء على جابي الزكاة -العاملين عليها-، ففي كلتا الحالتين يقع الظلم، سواء على صاحب المال أو على الفقراء.

ولهذا توقي دعوة المظلوم بحد ذاته أمرٌ يدفع إليه مراقبة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أولاً؛ كما قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا»، أيْ لا يظلم بعضكم بعضاً.

ثم طلب السلامة من ذلك أيضاً؛ أن يسلم الإنسان من أن تلحقه دعوة إنسانٍ ناله ظلم، وقد جاء في بعض الأحاديث أن دعوة المظلوم تصعد إلى السماء كأنها شررة، فيقول الله ﷻ: «وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَأَنْصُرَنَّكِ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ»، وقد قال النبي ﷺ: «اتَّقُوا الظُّلْمَ؛ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

وفي قوله ﷺ: («وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلَومِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ»)، يعني أن الله ﷻ

سبحانه وبحمده ينصر المظلوم ممن ظلمه؛ كما قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾[النمل:٦٢]. والله ﷻ حُكْمُه عدلٌ، وأمره عدلٌ، فإذا وُضع الشيء في غير موضعه صار ظلماً. فظَلَم الذي أخذ المال عباد الله بشيءٍ نسبه إلى الله، أو ظنوا أن هذا حكم الله فيهم، فيكون بذلك قد تعدى على الرب سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بسوء ما فعله، وبما ظنه الناس من شرع الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

وفي هذا الحديث دليلٌ على أن الله ﷻ يستجيب دعوة المظلوم ولو كان كافراً، وهذا مما قاله أهل العلم، وإن كان من أهل العلم من قالوا أن هذا محمولٌ على أنهم فيما لو وحَّدوا الله ﷻ وأقرُّوا بالصلاة والزكاة وصاروا مسلمين، ثم دعوا بعد ذلك على من ظلموا استجاب الله دعاءهم.

فصار آخر الحديث لأهل العلم فيه قولان: من حيث أن يكون القول بأن دعوة المظلوم مستجابةٌ على كل حال، وإن كان كافراً ليس بالضرورة أن يستدل بهذا الحديث -قد يكون له أدلةٌ أخرى-، لكن هذا وجه من أوجه توجيه الحديث.

والوجه الآخر: أن النبي ﷺ لما قَالَ: («وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلَومِ») قَصَد بالمظلوم هنا المسلم من أهل اليمن الذي وافق معاذاً في دعوة إلى التوحيد، وأقام الصلاة وآتى الزكاة، ثم ظُلِم بعد ذلك، فإذا ظُلِم بعد ذلك ودعا على من ظلمه استجاب الله دعاءه.

وسواء هذا أو هذا إجابة الرب ﷻ دعوة المظلوم هي من لوازم ربوبيته سبحانه وبحمده، والرب ﷻ ربٌ للخلائق أجمعين الموحِّد وغير الموحِّد، فالله ﷻ من لوازم ربوبيته سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في ملكوته أن يستجيب لمن دعاه سبحانه وبحمده.

وعلى كل حال، جاء في كلام الله أن الكافر العابد لغير الله، ربما يتوجَّه قلبه إلى الله ﷻ فيدعو الله حتى في غير مسائل الظلم إذا نزل به اضطرار؛ بمعنى أن هناك ما يبعث إلى قصد الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في قلب الكافر في أحوالٍ خاصة.

معنى هذا أنه ربما يتصور أن يدعو الكافر بالله، أن يدعو الله ﷻ في بعض أحواله وفي بعض ما ينزل به، قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[العنكبوت:٦٥]، وقال: ﴿لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾[يونس:٢٢].

فقد يميل الكافر إلى الله ﷻ لما فطر الله الخلائق عليه، ولما خضعت القلوب لوجود الله وربوبيته لخلقه؛ فورود ذلك من الكافر ليس مُستبعَداً بدلالة الكتاب وبدلالة هذا الحديث وغيره.

قال الشيخ رحمه الله: («فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ» أَخْرَجَاهُ) أيْ البخاري ومسلم من حديث معاذ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(وَلَهُمَا) أيْ للبخاري ومسلم (عَنْ سَهْلِ بنِ سَعْدٍ)؛ سهل بن سعد الساعدي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ من صغار الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، وقيل: إنه آخر من مات منهم، كعامر بن واثلة وأنس بن مالك وغيرهم.

(أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال يَوْمَ خَيْبَرٍ) -وكان يوم خيبر في السنة السابعة من الهجرة-: («لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَداً رَجُلاً يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ»).

هنا نوعان من المحبة:

المحبة الأولى: محبة الله ﷻ، وهي محبة تعظيم وعبادةٍ وتألُّه وتذلُّل، وهي أصل كل محبةٍ مشروعة، ولا يصح دين الإنسان حتى تكون لله ﷻ خالصة، لا يصح فيها التنديد كغيرها من أوجه العبادة؛ بمعنى أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يُحَبُّ -سبحانه وبحمده- محبة تعظيم وتذلل.

فإذا قال الإنسان: لماذا أحب الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؟ فالجواب على ذلك: لكل ما تراه وما لا تراه من خيره سبحانه وبحمده، ولأن المحبة التي هي محبة العبادة والتذلل لا تصح إلا لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ولأن الإنسان لا يذوق الإيمان وحلاوته حتى يكون مُحباً لله ﷻ، ولأن من

أشرك مع الله ﷻ غيره في هذه المحبة كمن أشرك مع الله ﷻ غيره في الدعاء؛ ولهذا محبة غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كمحبة الله تنديدٌ وشركٌ وخروجٌ من الإسلام.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[التوبة:٢٤]. الفسق هنا المقصود به الفسق الكلي -الخروج من الإيمان-؛ من أحب غير الله ﷻ كمحبة الله فهذا ليس بمسلم ولا موحِّد، بل هو كافر خارجٌ من الإسلام.

قال النبي ﷺ في هذا الحديث: («لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غداً رَجُلاً يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ»).

يا إخواني! مثل هذه المعاني التي ربما تمرُّ علينا مرًّا -ما أقول جامداً لكننا لا نتأمل فيها-، أحب الله ﷻ لما غذاني من نعمه، لما دفع عني من النقم، لأن الله خلقني من العدم وأسبغ عليَّ النِّعم، ليس هذا الحامل على محبة الله ﷻ فقط.

بل أعظم من ذلك أنك تحب الله ﷻ لما هداك وأضل غيرك، أن الله ﷻ أرشدك ووقع غيرك في الغي، أن الله ﷻ اختار لك سبحانه وبحمده أن تكون من أهل توحيده وإفراده بالعبادة؛ ما اختلط عليك الحق بالباطل، ما اختلطت عليك السنة بالبدعة، ما جعلك الله ﷻ في عمى، بل أنزل إليك كتاباً وأرسل إليك رسولاً عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ما ترك خيراً إلا دلك عليه، ما علم شراً إلا حذَّرك منه، جعل الله ﷻ لك مدركاً عقلياً تميِّز بين ما يحب وما يكره سبحانه وبحمده.

أخذ بقلبك إلى الطاعة يا رجل -الله ﷻ مِنَّته عليك عظيم-، ما بغَّضك ونفَّرك عنها، ثم حببها إليك، ثم جعلك ثابتاً عليها، ثم أحدث في قلبك استشعار أنك عبداً له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ثم أحدث في قلبك توقُّع الخير من الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على الطاعة التي هداك إليها وحببها إليك وثبَّتك عليها، وجعلك تحس باللذة في فعلها طاعةً لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ولهذا محبة الله ﷻ لا يحيط العقل بلوازمها؛ لأن كل خيرٍ تتقلَّب فيه -لا نقصد بالخير الطعام والشراب، هذا خيرٌ لا شك في ذلك، ولا باللباس ولا بالدفء ولا بالأمن ولا بغيرها مما هو متعلِّقٌ بزهرة الدنيا-، الخير الذي هو أعظم من ذلك ما يتعلَّق بإفراد الله ﷻ بالعبادة.

ولهذا الإنسان يحمد الله ﷻ إذا شعر بما هو فيه من توحيده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ومطاوعته لأمر الله وأمر رسوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، لا القلب نافر، ولا النفس كارهة، ولا اختلط عليك الحق بالباطل، ولست والحمد لله في ضلالٍ كما ضل غيرك، ومع ذلك ترى أن أكثر الناس في ضلال والله ﷻ خصَّك بالخير.

هذا بحد ذاته يحرك القلب إلى أن الله ﷻ يُحَبُّ سبحانه وبحمده محبة التعظيم والتذلُّل، وهي محبةٌ تبعث إلى الازدياد من الطاعات -هي بحد ذاتها محبةٌ تبعث إلى الاستكثار من الطاعات-، إلى التزود من القربات، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾[البقرة:١٩٧].

إذا عرفت أنا وإياك أن الله ﷻ يحب السجود أكثروا من ذلك، يحب الذكر أكثروا من ذلك، يحب كلامه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كما جاء في بعض الأحاديث عن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بحديثٍ معناه؛ أن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال: «**اعلموا أنكم لن ترجعوا إلى الله ﷻ بشيءٍ أحب إليه مما خرج منه**» يعني كلامه سبحانه وبحمده، فإذا علمت بالطاعات وأنها في محل محبته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تستكثر من ذلك.

هذا الاستطراد الطويل أحتاجه أنا قبل إخواني، لكن هذا من باب التذكير؛ أن الإنسان إذا عرف أن محبة الله ﷻ، هذه بعض الأسباب المحرِّكة للقلوب إلى استشعار عظم منزلتها تحمل الإنسان على الاستكثار من الطاعات، على التزود منها، تحمل الإنسان أن يتأمل في حاله وهو في ظل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما وحَّد الله ﷻ وضل غيره.

أذكر أنني قلت لإخواني في غير هذا المقام: أن بشر بن الحارث الحافي -صاحب الإمام

أحمد رحمه الله- كان رجلاً صالحًا ناسكًا، مُقبلاً على الآخرة ليس له همة بالدنيا، ومع ذلك من الأثبات الثقات الذين يُسند عنهم حديث النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، خرج من بيته فوقف عند مصراع الباب، قدمٌ خارج البيت وقدمٌ داخلها، وكان له أخوات صالحات ثلاث كلهن مثله على ما هو عليه من الصلاح والزُّهد، فنظرت إليه الكبرى منهن وهو واقف عند الباب -لا خرج ولا دخل-، ثم دخل وأغلق الباب، قالت: ما لك يا بشر قطعت الوقوف؟ قال: تذكرت في بشرٍ النصراني في الكوفة، وبشر المجوسي، وبشر اليهودي، وبشر بن عبد الرحمن الحارث، بماذا خصَّني الله ﷻ من الناس بهذا التوحيد؟!

يعني أن الإنسان يستشعر -وكلنا خلق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ-، لماذا هداك الله ﷻ وأضل غيرك؟ الخلْق خلقه، لكن هذا بحد ذاته يُحرِّك القلب على أن الإنسان يستشعر أنه في ظل الله ﷻ، وأن الله ﷻ خصَّك بشيء أنت في هذه الدار لا تُدرك عظيم النِعمة التي خصك الله ﷻ بها وهو توحيده سبحانه وبحمده.

قال النبي ﷺ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ»، ما هو الإيمان بس، حلاوة الإيمان -لذَّته-.

وحلاوة الإيمان باعثة -يا إخواني- على الاستمرار عليه والثبات عليه، مثل ما يجد الإنسان -وهذا تقريبٌ للمثال- طِيْب الطعام من أول لُقمة تدفعه إلى اللقمة الثانية والثالثة حتى يستكثر من ذلك، كذلك الحلاوة -حلاوة الإيمان-؛ إذا قذف الله ﷻ في قلبك التلذُّذ بطاعة الله وحلاوة الإيمان، هذا يحملك على الثبات عليه وعلى التمسُّك به والتشبُّث به، قال النبي ﷺ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ».

قال النبي ﷺ: («يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ»).

محبة رسول الله ﷺ فرضٌ على كل مسلم؛ لما هداهم الله ﷻ به عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من التوحيد عن الشرك، ومن الهدى عن الضلال، ومن الرَّشد عن الغي، ومن ظلمات الباطل إلى نور الحق، إلى غير ذلك من المعاني.

ولأن النبي ﷺ ما علم خيراً إلا ونصح الناس به، وما علم شراً إلا وحذَّرهم منه؛ فلو نصحك إنسان في شيء يضرُّك فوجدت بعد ذلك أن هذا كان فيه مهلكة لك، لكنك تحمد الله أن سخَّر لك زيداً من الناس فنصحك ألا تسلك هذا الطريق. ألا يقع في قلبك حبٌ له؟ هذا وهو موقفٌ واحد، كيف والنبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ما ترك خيراً لا في مالٍ، ولا في طعامٍ، ولا في شرابٍ، ولا في عبادة، ولا في غير ذلك إلا ودلّ الأمة عليه، وما علِم شراً إلا وحذّرهم منه؛ إذن هو أنصح الناس بالناس، وأصدق الناس قولاً وفعلاً عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

قال الشيخ رحمه الله: قال ﷺ: («**يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ**») يعني أن الله ﷻ يحبه، وأن رسوله ﷺ يحبه، وهذا مطمعٌ يتعلق به قلب كل موحِّدٍ؛ أن يكون الله ﷻ محبًا لك، وأن يكون رسول الله ﷺ يحبك.

بمعنى أن النبي ﷺ قال ذلك؛ من حيث أن الإنسان إذا كان محبًا لله ﷻ، ومحبًا لرسوله ﷺ، فبالتبع يكون الله ﷻ محبًا له؛ لأنه أتى بالمحبة التي هي محبة التوحيد ولم يخلطها بشيءٍ من التنديد.

وإذا كان محبًا للنبي ﷺ محبة المتابع والمتأسي به، يحبه النبي ﷺ لذلك، مع أنه لا ينفع النبي ﷺ شيئًا ولا يضرُّه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، والله ﷻ من باب أولى.

لكن هذه المقابلة من حيث محبة الله ورسوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ للعبد المؤمن، ومحبة العبد المؤمن لله ورسوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، لمناسبة المحبة عملاً قلبيًا من المؤمن يحب الله ورسوله، ومكافأة بأن الله ﷻ يحبه، وإذا أحبه الله ﷻ ونال رضا الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ دخل جنته وفاز بالفوز العظيم -جعلنا الله وإياكم من أصحابها-.

قال ﷺ: («يَفْتَحُ اللهُ عَلَى يَدَيْهِ») يعني يفتح الله على يديه خيبر، وهذا فيه عَلَمٌ من أعلام النبوة؛ أن خيبر ما فُتحت إلا على يد علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

كما أن فيها أيضًا إشارة إلى أن هذا فضْلٌ خص الله ﷻ به واحداً من الصحابة، وليس ذلك إلا له؛ لأن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لا ينطق عن الهوى، وما أخبر النبي بأنه كائنٌ هو كائن؛ كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾[النجم:٣].

قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: («يَفْتَحُ اللهُ عَلَى يَدَيْهِ» فَبَاتَ النَّاسُ)، والمقصود بالناس هنا الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؛ لأنهم كانوا أحرص الناس على الخير وتشوُّقًا إليه وحِرصًا عليه، فباتوا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ (يَدُوكُونَ) أيْ يخوضون (لَيْلَتَهُمْ)؛ لأن الراية ستُعطى من الغد من الفجر.

فباتوا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ الليل كله (يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ؛ أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا)، هذا ليس معناه أن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كان نظرهم إلى الراية فحسب، وإن كان هذا بحد ذاته عملٌ صالح، فالجهاد في سبيل الله عملٌ صالح، لكن لأن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال: («يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ»)، فدوكهم في آخر الليل لقوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: («وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ»)، وكلهم يريدون هذا الفضل.

(فَلَمَّا أَصْبَحُوا؛ غَدَوا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ)، يعني جاءوا إلى النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مع أنهم صلوا معه، فيكون معنى غدوِّهم على النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إما غدوهم عليه لما خرج من المسجد حتى يُرتب الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في فتح خيبر، أو غدوهم عليه وهو في محله؛ بمعنى التفافهم عليه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بعد الصلاة.

(فَقال) ﷺ: («أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ؟» فَقِيلَ) أيْ فقال الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: (هُوَ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ. فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ، فَأُتِيَ به، فَبَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ، وَدَعَا لَهُ، فَبَرَأَ حَتَّى كَأَنْ لَمْ يَكُنْ به وَجَعٌ).

والذين قالوا في هذا الحديث ذِكر علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أعطى الراية عليًا مع حضور أشياخ الصحابة؛ أبي بكر وعمر وعثمان وباقي العشرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين،

ومن شهد بدراً ومن شهد بيعة الرضوان، فخصَّ علياً رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بذلك.

من أهل العلم قالوا: أن النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ خصَّ علياً بهذا الفضل؛ لأن علياً تكلم فيه المنافقون لما كان غائباً عن صلاة الفجر، ولم يعلموا أن علياً -أو علموا ذلك وأرادوا الكلام في علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ- ما شهد الصلاة لِعِلَّة الرمد التي كانت في عينه، فلما تكلموا فيه، أراد النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ أنه بريء من هذا الذي قيل فيه، وأنه يحبه الله ورسوله؛ لأنه يحب الله ورسوله.

وهذا بحدَّ ذاته -يا إخواني- فضْلٌ ثابتٌ لعلي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، يُمدَح عليه عليٌ في هذا وفي غيره من الأحاديث؛ بمعنى أن الفضل لعلي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في هذا الحديث وفي غيره، ففضائله كثيرة سواء في الصحيحين أو في غيرهما.

لكن ننتبه إلى أنه إذا ذكر النبي ﷺ صحابياً بفضل، لا يعني ذلك اختصاص الصحابي بهذا الفضل، وأن الصحابة غيره ليس لهم حظٌ من ذلك الفضل.

ولا مانع أن نضرب مثالاً في ذلك؛ لما قال النبي ﷺ في أبي بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ -أبو بكر الصديق خير الأمة بعد نبيها-، قال عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «**ألستم تاركو لي صاحبي**». فالصحبة فضلٌ عظيم، طيب هل الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ لهم حظٌ من هذه الصُّحبة أو لا؟ قال النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «**وددنا أنا قد رأينا إخواننا**»، قالوا: يا رسول الله، أولسنا إخوانك؟ قال: «**أنتم أصحابي، وإخواني قومٌ يؤمنون بي ولم يروني**».

فذكر النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ أبا بكر وذكر الصُّحبة له، ولا يعني ذلك أن الصحبة لم تقع لغيره.

والأمثلة على ذلك كثيرة؛ لما بشَّر النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ ثابت بن قيس بن شماس في اعتزاله الصلاة مع النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ لأنه كان جهوري الصوت، قال: «**ادعوه وبشّره بالجنة**» ثابت بن قيس بن شماس. هل معنى ذلك أنه لم يبشَّر بالجنة أحدٌ غيره؟

لما قال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لبلال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إني سمعت دُفّ نعليك في الجنة»، هل معنى ذلك أن هذا فضلٌ يخص بلالاً دون غيره؟

هنا لما قال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في عليٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: («يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ»)، هل معنى ذلك أن علياً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وحده دون الصحابة الذي يحبه الله ويحبه رسوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؟ الله عَزَّ وَجَلَّ يحب الصحابة كلهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ولهذا أثنى عليهم رب العالمين، أثنى عليهم بالتوبة والرضوان: ﴿لَقَد تَّابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ﴾[التوبة:١١٧]، ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾[الفتح:١٨]، ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾[الفتح:٢٩]، إلى غير ذلك من الآيات.

فليس معنى ذلك أن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يحصُر الفضل المذكور في هذا الحديث لعليٍ دون غيره، بل يذكر النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ للصحابي فضلاً ويكون غيره مشاركاً له في الفضل ذاته؛ كما قال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينٌ وَأَمِينُ هَذِهِ الْأُمَّةِ أبو عبيدة». هل هو فقط الأمين من الصحابة أو كلهم أمنة؟ كلهم أَمَنَة، وهذا في صحيح مسلم قال: «وَأَصْحَابِي أَمَنَةٌ لِأُمَّتِي»؛ يعني أمناء وأمينون، «فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون».

قال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لكل نبي حواري وحواريِّ الزبير بن العوام» يعني صاحبي، هل الزبير بن العوام فقط له هذا الفضل دون غيره؟ فالمقصود أن هذا لا يعني أن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فاتهم الفضل الذي ثبت لعلي في هذا الحديث.

قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: («أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ؟» فَقِيلَ: هُوَ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ. فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ، فَأُتِيَ به، فَبَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ). جاء في بعض ألفاظ الحديث: «أُتِيَ به يُهادى» لا يُبصر طريقه من شدة الرمد في عينيه.

(فَبَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ، وَدَعَا لَهُ، فَبَرَئَ حَتَّى كَأَنْ لَمْ يَكُنْ به وَجَعٌ). بصق النبي ﷺ في عيني عليٍ فبرئ؛ من أهل العلم من قَالَ: أن هذا لأجل بركة ريقه ﷺ، لأن الحديث لم يأتِ فيه أن

النبي قرأ ثم نفث، وإنما ذُكِر في الحديث أن النبي بصق ﷺ، والنبي ﷺ مباركٌ في ريقه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

فبرؤ عليٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ -كما في لفظ هذا الحديث- بعد أن قال سهل بن سعد: (**فَبَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ، وَدَعَا لَهُ، فَبَرَئَ حَتَّى كَأَنْ لَمْ يَكُنْ به وَجَعٌ**)، فاجتمع فيه البصق والدعاء.

قال الشيخ رحمه الله: (**فَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ، وقال: «انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ»**). "على رسلك" يعني على مهلك؛ لأنه سيقود جيشاً جراراً، وإذا كان بطيء المشي أصابهم فتور وخَوَر، وإذا كان سريعاً ستجهدهم السرعة ويكونون وقت الحاجة إلى النشاط غير نشيطين بسبب السرعة التي ساقهم بها.

ولهذا قوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: (**«انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ»**) يعني على هونك من غير تكاسلٍ يثبِّط، ومن غير سرعة تُجهد؛ لأنهم يحتاجون إلى جهدهم في قتال أو في حصار خيبر (**«حَتَّى تنزِلَ بِسَاحَتِهِمْ»**).

وقوله ﷺ: (**«حَتَّى تنزِلَ بِسَاحَتِهِمْ»**) أيضاً وسطٌ بين أن يقرب من حصونهم فيكونوا في مرمى نبلهم ويصيبونهم بنبالهم، ووسطٌ بين أن يكونوا بعيدين عنهم فلا يسمعون كلام عليٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ إذا كلمهم. ففي قوله ﷺ: (**«حَتَّى تنزِلَ بِسَاحَتِهِمْ»**) يعني قريباً منهم؛ قُرباً لا يؤذي الصحابة وقُربٌ أيضاً يسمعون به كلامك إذا دعوتهم إلى التوحيد، (**«ثُمَّ ادْعُهُم إِلَى الْإِسْلَامِ»**).

وشاهدوا هذا الحديث في هذا السياق أن الإسلام هو دعوة شهادة أن "لا إله إلا الله"؛ لأن الإسلام هو توحيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وما من نبي إلا بُعِث بالإسلام؛ فقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الْإِسْلَامُ﴾[آل عمران:١٩]. هذا فيما يتعلق بشريعتنا، لكن لا يعني ذلك أن نوحاً عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أول الأنبياء ومن بعده لا يعني أنهم بُعِثوا بالإسلام؛ لأن الإسلام كما قال ذلك ابن عبد الوهاب رحمه الله في "ثلاثة الأصول": "الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد

له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله". وبهذه الأمور الأربعة بُعِث سائر الأنبياء، ولهذا سموا أنفسهم مسلمين -الأنبياء سموا أنفسهم مسلمين- قبل نبينا عَلَيهِالصَّلَاةُوَالسَّلَامُ.

مما يدلُّ على أن الإسلام المذكور في هذا الحديث («ثُمَّ ادْعُهُم إِلَى الْإِسْلَامِ») المقصود به ترجمة الباب: (شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إلا اللهُ).

في سورة يونس قال نوح عَلَيهِالصَّلَاةُوَالسَّلَامُ: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[يونس:٧٢] وهو نوح وأول الأنبياء والرسل. وفي قصة إبراهيم: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[البقرة:١٣١]. وفي قصة يعقوب مع بنيه: ﴿إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[البقرة:١٣٣].

وفي قصة بلقيس مع سليمان قالت: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[النمل:٤٤].

إذن الإسلام الذي بُعِث به نبينا ﷺ هو الذي بُعِث به سائر الأنبياء، كما في الحديث المشهور في الصحيحين قال عَلَيهِالصَّلَاةُوَالسَّلَامُ: «إنَّا معشر الأنبياء إخوةٌ لعلات، ديننا واحد»؛ يعني الذي هو الإسلام، «وشرائعنا شتى».

قال عَلَيهِالصَّلَاةُوَالسَّلَامُ: («ثُمَّ ادْعُهُم إِلَى الْإِسْلَامِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِم مِنْ حَقِّ اللهِ تعالى فِيهِ») يعني مما يجب عليهم فيما لو أسلموا من باقي شرائع الدين من صلاةٍ وزكاةٍ وحجٍ وصيامٍ وصلةٍ وعفافٍ وتقوى وبرٍّ والدين وغير ذلك؛ هذه كلها من شرائع الإسلام وتشريع الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وحكمه في عباده. لكنهم يُدعون أول ما يُدعون إلى توحيد الله ﷻ الذي هو الإسلام.

قال: («فَوَاللهِ! لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِداً خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ»). وحُمْر النَّعَم أجاويد الإبل في ذلك الوقت، ومعنى ذلك أن الإنسان إذا هُدي على يديه رجلٌ كتب الله ﷻ له من العمل الصالح ما يفعله من هُدي على يديه، مع كتابة عمله الصالح الذي فعله. قال النبي عَلَيهِالصَّلَاةُوَالسَّلَامُ: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من

أجورهم شيئًا».

وعلى كل حال قد أمر الله ﷻ بالدعوة إلى الخير؛ قال الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾[النحل:١٢٥]. فلو لم يكن في دعوة الناس إلى الخير إلا أن الله ﷻ يجعل لك صحيفتين: صحيفة عملك لنفسك، وصحيفة غيرك لنفسه ويكون ثوابها مثله لك، «من دل على هدى فله مثل أجر فاعله».

ولهذا لما قال النبي عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: («خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ»)؛ هذا مثال يُضرَب على أن الناس يرون من أنْفَس أموالهم الإبل الحُمر لندرتها، أو عِظَم سنامها، أو غير ذلك. لكن وإن بلغت من الغنى مبلغًا إلا أن مآلها إلى فناء؛ الدنيا كلها تفنى إبلها وغير إبلها، لكن العمل الصالح لا يفنى، يُدَّخر.

وثوابه أيضًا في الآخرة ليس كالثواب على العطاء في الدنيا؛ ثوابه في الآخرة أعظم مما يتخيله أهل الدنيا من عطاء الدنيا. قال الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ﴾، ثم قال بعد ذلك: ﴿وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾[البقرة:٢٦١]. فالثواب في الآخرة أعظم مما يتعلق بثواب الدنيا؛ ولهذا ناسب أن يذكر النبي عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ من الأموال ما يستنفسها الصحابة أو الناس في زمن الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

بَابُ تَفْسيرِ التَّوْحِيدِ وَشَهادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ

وَقَوْلُ الله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾[الإسراء:٥٧].

وقَوْلُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ قال إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[الزخرف:٢٦-٢٨].

وقَوْلُهُ تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُم وَرُهْبَانَهُم أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ﴾[التوبة:٣١] الْآيَةُ.

وقَوْلُهُ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُم كَحُبِّ اللهِ﴾[البقرة:١٦٥] الْآيَةَ.

وفي الصحيح: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ؛ أَنَّهُ قال: «مَنْ قال: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ، حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ، وَحِسَابُهُ عَلَى اللهِ».

وَشَرْحُ هَذِهِ التَّرْجُمَةِ مَا بَعْدَها مِنَ الْأَبْوابِ.



قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللّه:

ثم ذكر الشيخ رحمه الله بعد ذلك (بَابُ تَفْسيرِ التَّوْحِيدِ)؛ وهذا الباب والذي بعده بينهما علاقةٌ من حيث أن البابين كلاهما يتعلقان بمعنى "لا إله إلا الله". ومعنى "لا إله إلا الله" أنه: لا معبود بحقٍ إلا الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ويتعلقان بتفسير التوحيد.

أن تفسير التوحيد لما قال الشيخ رحمه الله في الباب الأول: (بَابُ الدُّعَاءِ) يعني الدعوة إلى شهادة أن "لا إله إلا الله"، ناسب أن يذكر بعد ذلك ما هو التوحيد، وما هي شهادة أن "لا إله إلا الله".

ومعنى شهادة أن "لا إله إلا الله": عبادة الله ﷻ على الانقطاع له سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وألا يشرك معه غيره سبحانه وبحمده؛ لا مَلَكٌ مُقرَّبٌ، ولا نبي مرسل، ولا من دونهم من باب أولى.

قال الشيخ رحمه الله: (بَابُ تَفْسيرِ التَّوْحِيدِ وَشَهادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ).

حل الترجمة أن يقال: باب تفسير التوحيد وباب تفسير شهادة أن "لا إله إلا الله"؛ يعني أن التفسير متعلق بالأول ومتعلقٌ بالثاني، بمعنى أن الأول والثاني كلاهما واحد؛ يعني أن التوحيد هو شهادة أن "لا إله إلا الله".

ثم ذكر أدلةً على هذه الترجمة؛ قَالَ: (**وَقَوْلُ الله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾**[الإسراء:٥٧]). يعني هؤلاء الذين يدعوهم المشركون من الملائكة والصالحين والأولياء وغيرهم، هم أنفسهم يبتغون إلى الله ﷻ وسيلةً طلباً لرضاه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وأمناً من عقوبته؛ بمعنى أنهم مفتقرون إلى الله ﷻ، فكيف ينفعون غيرهم؟ قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾؛ يعني أولئك الذين يُدْعَون مع الله من أولياءٍ وصالحين وأنبياء وملائكة، هم أنفسهم مُفتقرون إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، والمفتقر لا يكون غنياً وإنما يكون مفتقراً إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ولهذا يتبرؤون منهم يوم القيامة.

قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عمن عيسى: **﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾**[المائدة:١١٦-١١٧].

ولهذا هذا الانحراف في التوحيد يقع في كل من خلف أنبياء الله ﷻ ورسله، ولو كذب في انتسابه إلى أنبياء الله؛ بعض المشركين يقع في الانحراف عن التوحيد ويعبد غير الله ﷻ، ومع ذلك يدّعي أنه تابعٌ للنبي الذي بُعِث إليه؛ كما وقع للنصارى، يزعمون أنهم مسيحيون وعيسى بريءٌ منهم، وهم مع ذلك يُشركون بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

بعض الناس -يا إخواني- في زماننا يقول: أن النصارى واليهود ليسوا مشركين، وهذا

خطأ بيّن يدلُّ عليه كلام الله وكلام رسوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ. أولاً من الأدلة هذه الآية: قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في خبر عيسى: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾[المائدة: ١١٧]، يعني أن عيسى دعاهم إلى عبادة الله ﷻ.

طيب. هل عبدوا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أو عبدوا معه غيره؟ اليهود ظاهر أنهم عبدوا العجل، وظاهر أنهم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، لكن النصارى وقع الشرك فيهم كما وقع في غيرهم من الأمم، والذي يدلُّ على ذلك كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ منها هذه الآية، ومنها قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾[المائدة:٧٢].

قال الشيخ رحمه الله: (**وقَوْلُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ قال إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾**[الزخرف:٢٦-٢٨]).

هاتان مقترنتان -يا إخواني-: أن يوحِّد الإنسان الله ﷻ، وأن يتبرأ ممن أشرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ بمعنى أن التوحيد لا يستقيم إلا على قدم الكفر بكل ما سوى الله، والبراءة ممن عبد غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ولهذا في شروط "لا إله إلا الله" التي تعرفون: العلم واليقين والإخلاص والانقياد.. وفي آخرها الشرط الثامن: أن يكفر بكل ما عُبِد من دون الله.

علمٌ يقين وإخلاص وصدقك معْ ... محبةٍ وانقياد والقبول لها
وزيد ثامنها الكفران منك بما ... سوى الإله من الأنداد قد أُلِها

يعني أنه لا يستقيم التوحيد حتى يكفر بالطاغوت؛ كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾[البقرة:٢٥٦]. فلما ذكر الإمام إبراهيم، دل

على أن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ الذي هو أبو الأنبياء وإمام الحنفاء، والذي أمر الله ﷻ نبيه ﷺ بأن يتَّبع مِلَّة إبراهيم، كان على هذا من حيث أنه لا يجتمع التوحيد مع الرضا بالشرك، وإنما يكون التوحيد مع البراءة من الشرك وأهله. قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾[الزخرف:٢٨]؛ يعني في كل من جاء من بعده على دعوته، سواء كانوا من عقبه الذين هم لصلبه أو أتباعه من الأمم بعد ذلك، إلى أن يرث الله ﷻ الأرض ومن عليها.

قال الشيخ رحمه الله: (وقَوْلُهُ تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ﴾[التوبة:٣١]). هذا في سياق ما كان عليه اليهود والنصارى؛ ﴿اتَّخَذُوا﴾ أيْ اليهود والنصارى، ومعنى الآية: اتخذوا اليهود أحبارهم واتخذ النصارى رهبانهم أرباباً من دون الله. يعني في مقام الرب الذي يُشرِّع للناس حلالاً وحراماً.

"الأحبار" جمع حَبْر وهو العالم من اليهود، و"الرهبان" جمع راهب وهو العابد من النصارى.

واتخاذهم إياهم أرباباً من حيث أنهم يقلبون الحلال حراماً فيطاوعونهم في ذلك، ويقلبون الحرام حلالاً ويطاوعونهم في ذلك؛ هذا مع علمهم أنهم يكذبون على الله ورسوله. أما إذا كانوا مغشوشين فهذا أمرٌ آخر، لكن الخطاب في هذه الآية فيمن اتخذ هؤلاء الأحبار أرباباً لأنهم يعلمون أنهم كذبةٌ على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فلا يرد على هذا من طاوعهم على الحرام وعلى الحلال وهو لا يعلم أن هذا حلالٌ وهذا حرام، لكنها متجهةٌ إلى من يعلم أن الحرام ما حرَّمه الله، ثم قال الرهبان والأحبار أن هذا حلالٌ فطاوعوهم على ذلك؛ ولهذا جعلوهم أرباباً من دون الله، يعني جعلوهم في مقام الرب الذي يُحرِّم ويُحلِّل.

جاء عدي بن حاتم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وقال للنبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لما سمع هذه الآية -وكان عدي قبل الإسلام نصرانياً-: «يا رسول الله، ما كنا نعبدهم». لما سمع قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في سورة التوبة: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم

بِأَفْوَاهِهِمْ ۖ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ ۚ قَاتَلَهُمُ اللهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٣٠) اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾[التوبة:٣٠-٣١]، يعني وجعلوا المسيح ربـاً مع الله -تعالى الله عن قولهم يقولون علواً كبيراً. قال عدي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ -وهذا الحديث وإن تكلم فيه بعض أهل العلم لسبب راوٍ فيه يسمى غطيف بن أعين، لكنه مذكورٌ في كتب الاعتقاد وله أدلة كثيرة من كلام الله وكلام رسوله عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ-: يا رسول الله، ما كنا نعبدهم. قال: «أليسوا يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتحلونه؟» قال: بلى. قال: «فتلك عبادتهم». بمعنى أن هذا من الشرك الذي يتعلق بالطاعة، يسمى "شرك الطاعة"؛ لأن الباب الذي قبله متعلق بـ"شرك المحبة"، محبة غير الله مع الله ﷻ، ومذكورٌ في هذا الباب أيضـًا "شرك المحبة": أن يحب غير الله ﷻ محبة تألُّه وتذلُّل؛ وهذه الآية مليئة بشرك الطاعة، يعني أن يطيع غير الله ﷻ في معصية الله سبحانه وبحمده مع علمه أن الله ﷻ حرَّم هذا وأحل هذا.

ثم ذكر الشيخ رحمه الله دليل شرك المحبة، وهو (قَوْلُهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُم كَحُبِّ اللهِ﴾[البقرة:١٦٥]).

"التنديد" يا إخواني معناه: أن يجعل مع الله ﷻ نداً؛ التنديد ضد التوحيد.

التوحيد: جعْل الشيء المتفرِّق واحداً، العبادة كلها لله. والتنديد تبديد -يعني تفريق-، بمعنى أن يجعل مع الله ﷻ أنداداً. والتنديد قد يكون مُخرجـًا من المِلَّة وقد يكون غير مخرِج، لكنه بكل حالٍ إما أن يكون نقصـًا في التوحيد وإما أن يكون هادمـًا للتوحيد كله.

مما يدلُّ على أن التوحيد قد يقع ولا يكون شركـًا أكبر، قول النبي ﷺ للرجل الذي قال: ما شاء الله وشئت؛ قال: «أجعلتني لله نداً؟ بل ما شاء الله وحده». وفي لفظ: «قل ما شاء الله ثم شئت». فدل على أن التنديد قد يكون شركـًا أكبر مخرجـًا من المِلَّة، وقد يكون شركـًا أصغر غير مخرجٍ من المِلَّة. لكنه في كل حال لا يناسب مقام الرب ﷻ الذي له العبادة سبحانه

وبحمده وليس لأحدٍ حظٌ فيها، قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا﴾.

ولهذا الذي يندِّد مع الله ﷻ يظهر له يوم القيامة بوار فعله، وذهاب أجره -والعياذ بالله- وخسرانه، قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عن المشركين: ﴿تَاللهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُم﴾ يعني نندد بكم ﴿بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[الشعراء: ٩٧-٩٨].

قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُم كَحُبِّ اللهِ﴾[البقرة:١٦٥]؛ يعني يحبون أصنامهم كحب الله، سواء كانت أصنامهم أو أولياءهم.

وهذا فاشٍ -يا إخواني- عند الصوفية بكل طوائفهم؛ يحبون أولياءهم محبة تعظيم وتذلُّلٍ وخضوع، يسمون أنفسهم "مريدين" لكنهم في الحقيقة "مُنددين"، خاصة غلاة الصوفية الذين يعتقدون الأقطاب والأغواث والأوتاد والأبدال وغير ذلك من مسميات الصوفية. هؤلاء وصلوا إلى حد التنديد مع الله ﷻ -ثبتنا الله وإياكم- في تدبير ملكوت السماوات والأرض، في إحياء الموتى، في كشف الضر، في حفظ الغائب، بل وصل الحال إلى أن بعضهم يعتقد أن محبته للولي عاصمةً له من دخول النار ولو فعل ما فعل؛ وهذا فشا أيضًا حتى عند الروافض.

وهنا مقالة حقٍ ظهرت من إنسانٍ منحرف في العقيدة -هذا من باب الفائدة التي جاءت تبعًا- قيل: أن الرفض خرج من عباءة التصوُّف، أول من قال ذلك أبو حامد الغزالي الذي وقع منه التصوف. ناهيك عن الانحراف في ذلك العقيدة والأسماء والصفات وغير ذلك، وهذه كلمة حق، لكنها ليست على إطلاقها.

المقصود بذلك فيما يتعلق بالانحراف في توحيد الألوهية؛ أن الرافضة خرجوا من عباءة التصوف، مما خرجوا به في هذه العباءة من التصوف اعتقاد الرافضة أن محبة آل البيت كافيةٌ للنجاة يوم القيامة، كما هو فاشٍ عند أصحاب الطرق والمنحرفون في توحيد الإلهية، الذين

يرون أن محبتهم للولي فلان -سواء كان الولي صالحاً أو مكذوباً عليه-؛ لأن هناك أولياء يزعمهم الصوفية أولياء ولو كانوا أحياءً لتبرؤوا من انحراف الصوفية؛ كعبدالقادر الجيلاني صاحب كتاب "الغنية"، كأبي عمر الذين يقولون: يا خائفين من التتر ... لوذوا بقبر أبي عمر ... ينجيكم من الضرر.

أبو عمر هذا المقدسي من أجداده موفّق الدين ابن قدامة، من صلحاء المقادسة، ومع ذلك غلوا فيه حتى صار له مقامٌ -والعياذ بالله-، وحتى صاروا يعتقدون أن أبا عمر هذا وغيره ممن يعظمونهم؛ أنهم يكشفون الكروبات، ويحفظون الغائب، ويغيثون اللهفات إلى غير ذلك، وربما اعتقدوا فيهم ما هو أشد من ذلك من حيث تدبير السماوات؛ كما يقول بعضهم: "عبدالقادر يا جيلاني .. يا مصرف الأكواني"، وغير ذلك -والعياذ بالله-.

المقصود أن محبة غير الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ -محبة التذلُّل والتألُّه- وقعت عند المشركين، كما قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في هذه الآية الذين أحبوا الأصنام كمحبتهم لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، محبة تعظيمٍ وتذلل وانقطاعٍ وعبادة، ووقعت عند بعض من ينتسب للإسلام حتى أحبوا من يرون أنهم من أولياء الله.

قال الشيخ رحمه الله: (**وفي الصحيح: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ؛ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ»**)، بمعنى أن الإنسان لا ينفع بأن يقول "لا إله إلا الله" ولم يكفر بما سوى الله، بل لا بد أن يكفر بما سوى الله.

ولهذا هذا الشرط الثامن الذي ذكره بعض أئمة الدعوة في شروط "لا إله إلا الله"، أخذوه من كلام الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ من آية سورة البقرة، وأخذوه من هذا الحديث؛ آية سورة البقرة التي قلناها قبل قليل: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ﴾[البقرة:٢٥٦]، وهنا قال النبي ﷺ: (**«مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ»**).

ولهذا لا يجتمع التوحيد مع الشرك الأكبر -لا يجتمعان-، إلا إذا اجتمع الموت

والحياة، والعمى والبصر؛ لا يجتمع هذا مع هذا. فإما أن يكون الإنسان مشركًا شركًا أكبر ويذهب عنه التوحيد -يراجع نفسه-، وإما أن يكون موحِّداً ينفي الشرك بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بكل صوره. والكلام هنا عما يتعلق بالشرك الأكبر؛ فمن عبد الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وأخلص لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لا يكون توحيده مخالطًا للشرك الأكبر؛ لقوله ﷺ في هذا الحديث: («مَنْ قال: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ»).

سواء كان المعبود من دون الله ﷻ له مقامٌ عند الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أو لا؛ له مقام عند الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ كأنبياء الله وملائكته وعيسى والنبي ﷺ، هناك من يعبدهم مع الله ﷻ غيرهم ممن جعلهم الله ﷻ قدوة لأمامهم، أو ممن أثنى الله ﷻ عليهم في كتابه.

فالذين عبدوا الملائكة والله ﷻ يقول: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾[الأنبياء:٢٦]، قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾[آل عمران:٨٠]. قال الله ﷻ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾[الأنبياء:٩٨] يعني ما تعبدون من دون الله من أصنامٍ وأوثان، ومن دعاكم إلى عبادة نفسه ورضي بذلك، أو عبدتموه من دون الله ورضي بذلك.

قال رحمه الله: قال ﷺ: («وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ، حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ») يعني إذا أظهر ذلك فيعامل معاملة المسلم، ومن معاملة المسلم للمسلم أن يحرم عليه ماله ودمه وعرضه، كما قال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «كل المسلم على المسلم حرام؛ دمه وماله وعرضه». وفي الحديث المشهور حديث جابر في حجة الوداع أن النبي ﷺ قال: «فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا».

(«وَحِسَابُهُ عَلَى اللهِ»)؛ لأنه يرد أن بعض الناس يظهرون الإسلام لكنهم يبطنون الكفر، كما هو الحال في المنافقين في زمنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

والنفاق يا إخواني يبقى ما بقيت المغالبة ما بين الحق والباطل، النفاق باقٍ في الأرض ما

بقي الباطل وما بقي الحق؛ «حتى يبعث الله ﷻ ريحًا تقبض أرواح المؤمنين فلا يبقى إلا شرار الخلْق وعليهم تقوم الساعة». فالمنافق قد يُظهر إيمانًا ويُبطن كفراً، فإذا أظهر ذلك نكل سرائره إلى الله، كما قال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «أُمرت أن أحكم بالظاهر والله يتولى السرائر»؛ توكل سرائرهم إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لكنهم يعاملون معاملة المسلمين.

ومعاملة المسلم فيما يتعلق.. وهذا لا يعني أن معاملة المسلمين تكون على حد سواء؛ فليس أولياء الله والأتقياء والصالحون والمتمسكون بالسنة والمتبعون كمن عندهم نوعٌ من المخالفة في ذلك، كما قالت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: «أنزلوا الناس منازلهم»، بمعنى أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنزل الناس منازلهم ودرجاتهم بحسب ما عندهم من مطاوعةٍ لأمره ومطاوعةٍ لأمر الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فهم درجاتٌ عند الله كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللهِ﴾[آل عمران:١٦٣]، لكنهم كلهم يتفقون في درجةٍ واحدة من حيث حفظ المال وحفظ الدم وحفظ العرض؛ إذا أظهروا الإسلام يُحفظ ماله ودمه وعرضه، حتى وإن غلب الظن على أنه على خلاف ما يظن المسلم بإخوانه؛ لأن الظن أكذب الحديث، ولأن الحق لا يُدفع بالظن.

ولهذا أنكر النبي ﷺ على أسامة الذي قتل الرجل بعدما قال "لا إله إلا الله"؛ لأن كلمة "لا إله إلا الله" عصمت دمه، تأوَّل أسامة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لكن لم يكن تأوله سائغًا عند النبي ﷺ لأنه تضييعٌ لحق "لا إله إلا الله"، بل قال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «أقتلته بعد أن قالها؟ أقتلته بعد أن قالها؟» فما زال يكررها، حتى قال أسامة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: "تمنيت أنني لم أُسلم إلا يومئذ". وفي لفظٍ آخر أن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال: «كيف تفعل بـ"لا إله إلا الله"؟». فكلمة "لا إله إلا الله" كلمةٌ عظيمة تحفظ الحقوق في الدنيا ولها منزلةٌ عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الآخرة.

قال ﷺ: («وَحِسَابُهُ عَلَى اللهِ»).

ثم قال الشيخ رحمه الله في خاتمة هذا الباب: (وَشَرْحُ هَذِهِ التَّرْجُمَةِ مَا بَعْدَها مِنَ الْأَبْوابِ).

يعني أن كل الأبواب المتقدمة تُنزَّل منزلة المقدمة للكتاب، وما بعد ذلك من أبواب إما أن يكون تقرير توحيد، وإما أن يكون بيان بدعةٍ تُنْقص التوحيد أو تزيله بالكُلّيَّة.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بَابٌ مِنَ الشِّرْكِ لُبْسُ الْحَلْقَةِ وَالْخَيْطِ وَنَحْوِهِمَا؛ لِرَفْعِ الْبَلاءِ أَوْ دَفْعِهِ

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾[الزمر:٣٨].

وَعَنْ عِمْرانَ بنِ حُصينٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى رَجُلاً فِي يَدِهِ حَلْقَةٌ مِنْ صُفْرٍ، فَقال: «مَا هَذِهِ؟!» قال: مِنَ الْواهِنَةِ. قال: «انْزِعْها؛ فَإِنَّهَا لا تَزِيدُكَ إِلَّا وَهَنًا، فَإِنَّكَ لَوْ مِتَّ وَهِيَ عَلَيْكَ؛ مَا أَفْلَحْتَ أَبَداً» رَوَاهُ أَحْمَدُ بِسَنَدٍ لا بَأْسَ بِهِ.

وَلَهُ عَنْ عُقْبَةَ بنِ عَامرٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مَرْفوعـًا: «مَنْ تَعَلَّقَ تَميمَةً فَلَا أَتَمَّ اللهُ لَهُ، وَمَنْ تَعَلَّقَ وَدْعَةً فَلَا وَدَعَ اللهُ لَهُ».

وَفِي لَفْظٍ: «مَنْ تَعَلَّقَ تَميمَةً فَقَدْ أَشْرَكَ».

وَلِابْنِ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أَنَّهُ رَأَى رَجُلاً فِي يَدِهِ خَيْطٌ مِنَ الْحُمَّى، فَقَطَعَهُ، وَتَلَا قَوْلَهُ تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللهِ إِلَّا وَهُم مُشْرِكُونَ﴾[يوسف:١٠٦]».



قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللّه:

انتهى الكلام فيما سبق في التعلُّق على كتاب التوحيد للإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى عند قوله رحمه الله في الباب السادس: (بَابٌ مِنَ الشِّرْكِ لِبْسُ الْحَلْقَةِ وَالْخَيْطِ وَنَحْوِهِمَا؛ لِرَفْعِ الْبَلاءِ أَوْ دَفْعِهِ).

وهذا العنوان فيه مسألتان:

المسألة الأولى: أن لُبس الحلْقة والخيط ونحوهما محدَثٌ في الإسلام من أهل الإسلام، وإن كان أصله مِن فعل المشركين، وأن هذا نوعٌ من الشرك؛ قد يكون أكبر باعتبار، وقد يكون

أصغر باعتبار، قد يكون ناقلاً عن الإسلام، وقد يكون شركـًا أصغر.

وقلنا إنه حادثٌ في الإسلام من أهل الإسلام لكنه من أفعال الجاهلية قبل الإسلام.

وهنا مسألة متعلقة بهذه المسألة: وهي أن كل ما طرأ على أهل الإسلام من بِدعٍ له أصولٌ في النِّحَل المخالفين في أصل المِلَّة؛ فكل بدعة طرأت في الإسلام إما أن تكون أحدثها أهل البدعة المنتسبين إلى الإسلام وتكون دون الشرك ودون الكفر، وإما أن تكون بدعةً مأخوذة من مفارقٍ ومفاصلٍ ومخالفٍ في أصل المِلَّة.

وهذا التقرير مذكورٌ في كتب السنة من حيث أن أهل العلم يضربون على ذلك مثالاً؛ فإنكار القَدَر إنما جاء في الإسلام عن معبد الجهني -هذا على سبيل المثال-، ومعبد الجهني وإن كان ظاهره الإسلام إلا أنه قُتِل على إنكاره القَدَر، وبدعة نفي القَدَر إنما أخذها عن النصارى.

وكذلك فيما يتعلق بتعطيل الصفات؛ أخذها الجهم بن صفوان عن الجعد بن درهم وسلسلتها تنتهي إلى لبيد بن الأعصم اليهودي من يهود بني زريق.

وغير ذلك من البدع الكبار التي ليست من الإسلام، كبدعة الحلول، وبدعة الاتحاد، وبدعة إنكار الملائكة.. إنكار المغيّبات؛ كلها إنما طرأت على الإسلام من أناسٍ ليسوا من الإسلام في الأصل وأدخلها من يدّعي الإسلام على أهل الإسلام.

وكذلك فيما يتعلَّق بلبس الحلْقة والخيط وغيرها؛ هذه إنما أخذها أهل البدع المنتسبين إلى الإسلام من المشركين، والمشركون أيضـًا عُبَّاد الأصنام المنحرفون في توحيد الألوهية أخذوها أيضـًا عن أممٍ سابقة موغلة في الكفر، فصار لها بُعدٌ متعلق بأنها ليست من سنن الأنبياء ولا من أتباعهم، وإنما من أممٍ مكذِّبة للنبوات ومكذبة للرسالات.

فعلى سبيل المثال؛ تعليق العظام وريش النسور، وجلد الذئب وغير ذلك هذا إنما طرأ عند الوثنيين من غير العرب، كالهنود والفُرس وغيرهم الذين لا يُقِرُّون بالنبوات ولا بالبعث

ولا بالمعاد، ثم ما زالت تتناقلها الأمم حتى وقعت عند المشركين قبل بعثته ﷺ، ثم نهى عنها ﷺ، وما زالت تتسلل عند بعض من انتسب إلى الإسلام حتى صاروا يعلقونها. هذا حتى يُعلم أن الله ﷻ بعث أنبياءه قبل نبينا ﷺ -بعثهم بالتوحيد والبراءة من الشرك وأهله وصوره-.

فليس لُبس الحلْقة مما أحدثه المبتدعة في هذه الأمة، وإنما هو مما أخذه المبتدعة عن المخالفين في أصل المِلَّة من المشركين في توحيد الألوهية، وهم أخذوه من الأمم السابقة الذين لا يُقِرُّون لا بالنبوات ولا بالبعث ولا بالمعاد، يتّفقون معهم في صور الكفر المخالف لدين الأنبياء والمرسلين، ثم لا تزال تتسلل حتى صار يقلدهم فيها بعض من ينتسب إلى الإسلام.

وخلاصة الأمر أن الشيخ رحمه الله لما قال (مِنَ الشِّرْكِ) يعني أن هذه بعض صور الشرك، ثم هي قد تكون شركًا أكبر وقد تكون شركًا أصغر، والفرق بينهما أن الشرك الأكبر ناقضٌ للدين من أصله، محبطٌ للعمل، موجبٌ للخلود في النار، مانعٌ من الشفاعة، لا تجري عليه أحكام أهل الإسلام لا في الدنيا ولا في الآخرة. وأما الشرك الأصغر فدون ذلك.

وتقسيمه أيضًا -تقسيم الشرك ما بين شركٍ أكبر وشركٍ أصغر- هو ثابتٌ عن النبي ﷺ لما قال: «أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر»، فدلَّ على أن الشرك الأصغر أنواعٌ وأن الشرك الأكبر أنواع.

وهذه المسألة ذكرها ابن تيمية رحمه الله من حيث تقسيم أسماء الدين؛ الشرك والكفر والنفاق والظلم والفسق. ذكر ابن تيمية رحمه الله بالنظر وسَبْر الأدلة من كلام الله وكلام رسوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنها تنقسم إلى ناقل وإلى غير ناقل؛ بناءً على النظر في كلام الله وكلام رسوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وكذلك لُبس الحلْقة، سواء كانت الحلْقة من معدن، أو من خيط مغزول، أو من شعر، أو

من غير ذلك بقصد رفع البلاء أو دفعه، وهذان القصدان من المقاصد التي يعلقها لأجلها المشركون، وإلا فالمشركون يعلِّقون مثل هذه لمقاصد؛ منها دفع البلاء قبل وقوعه، أو تخفيفه قبل وقوعه، أو رفعه بعد أن وقع، أو جلْب ما يريدون من مرغوب، فصار فيما يتعلق بالبلاء يعلِّقونها لدفع البلاء قبل أن يقع، أو لتخفيفه بعد أن يقع، أو لرفعه بعد وقوعه، وفيما يتعلق بمرغوباتهم يعلقونها أيضاً لجلب المرغوب، وربما يعلقونها لحفظ غائبٍ أو لغير ذلك من المقاصد التي يُعلِّقها لها المشركون.

وإنما ذكر الشيخ رحمه الله مثالان وذكر قصدين للمشركين؛ ذكر مثالين -لُبْسُ الْحَلْقَةِ وَالْخَيْطِ-، وذكر قصدين من مقاصدهم، وإلا مقاصدهم كلها بابها واحد، من حيث أنها منافية للتوكُّل والتعلُّق بالله الذي بيده مقاليد الأمور سبحانه وبحمده، بيده مقاليد السماوات والأرض. قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ﴾[يونس:٣]، في الآية الثانية قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾[السجدة:٥]. قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾[الأنعام:٥٩].

فالذي خلق ملكوت السماوات والأرض وما فيهما من خيرٍ وشرٍ، وضُرٍّ ونفعٍ هو الرب سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ فلا يُطلَب دفع مرهوبٍ أو رفعه أو تخفيف وطأته، أو جلب مرغوب إلا من الرب سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بصدق التوكُّل عليه والثقة به سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ والركون إليه. وإنما ذكر الشيخ رحمه الله بعض الأمثلة التي تندرج عليها أمثلةٌ غيرها.

قال الشيخ رحمه الله: (وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ﴾[الزمر:٣٨]).

إذا كان كل ما في الملكوت هو خلْقٌ لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، خلقه الرب سبحانه وبحمده، وأراد

الله ﷻ وقوعه إما إرادةً شرعية دينية أو إرادة كونية قَدَرِيَّة؛ فإذا كان الخلْق خلقه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، والقَدَر قدره، والتدبير تدبيره، والأمر أمره، والاختيار اختياره، كما قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾[القصص:٦٨]؛ فالركون إلى غيره قدْحٌ في التوحيد.

ولهذا دلَّل الشيخ رحمه الله بهذه الآية من حيث أن الضُرَّ والنفع كلها بيده، كلها بعلمه السابق وكلها بكتابته سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وكلها تقع بمشيئته، وكلها من خلقه سبحانه وبحمده. قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ﴾[الزمر:٣٨] أيًّا كان ذلك المدعو من دون الله، سواء كان وليًا كما يزعم المتصوِّفة والضُلَّال، أو كان نبيًا، أو كان حجراً أو شجراً أو غير ذلك؛ ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ﴾[الزمر:٣٨]؛ لأن الله ﷻ لا رادَّ لأمره ولا معقب لحكمه، وإذا أراد شيئًا سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في ملكوته فهو نافذٌ لا محالة، إذا أراد الله ﷻ قضاءً وكتب وقوعه فهو نافذٌ، لا يدفعه عن الوقوع حيلة محتال، ولا يدفعه إحداث المشركين أسبابًا منافية للشرع ومنافية للقَدَر، كما هو الحال في من لبس خيطًا أو حلقةً أو غير ذلك.

ثم ذكر الشيخ رحمه الله حديث عمران بن الحصين، وعمران بن الحصين رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ صحابيٌ وابن صحابي الخزاعي أبو نجيد، قال رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: («أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى رَجُلاً فِي يَدِهِ حَلْقَةٌ مِنْ صُفْرٍ») والصُفر من أسماء النحاس، سواء كان النحاس المعروف الآن أو شيءٌ من المعادن كان يعتقد المشركون فيه نفعًا، (فَقَال: «مَا هَذِهِ؟!» قال: مِنَ الْوَاهِنَةِ).

قبل أن نُكمل هذا الحديث، هذا -يا إخواني- وقع من صحابيٍ في زمن النبي ﷺ؛ حتى يُعلَم أن الشرك قريبٌ من الإنسان إذا لم يتحصَّن بالعلم الشرعي، وأن دعاة الباطل ينشطون حتى وإن كان العلم كثير وأهله كثير؛ فلن تبلغ الأمة -من بعثته ﷺ إلى أن تقوم الساعة- زمنًا انتشر فيه العلم والدعوة إلى التوحيد وصيانته، والتحذير من الشرك المبلغ الذي بلغه زمنه ﷺ، ولا يزال العلم ينقص في الناس ويزيد، لكنه لن يكون بالزيادة التي كانت زمنه ﷺ؛ لأنه ما ترك خيراً إلا دل عليه، وما علِم شرًّا إلا حذَّر منه.

لماذا هذا الاستطراد؟ نقول: أن هذا وقع في زمنٍ كان النبي حاضراً ﷺ وكان الجيل خير جيل وخير رعيل، وكان القرآن يتنزَّل بينهم، وكان النبي ﷺ يدعو إلى التوحيد ليس في مكة فقط، ما زال يدعو إلى التوحيد منذ بُعِث حتى فارق الدنيا ﷺ، ومع ذلك وقعت هذه الصور، وأيضًا في مجتمع الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؛ ليعلم الإنسان أنه ليس في مأمنٍ من دعاة الشرك ومن دعاة الباطل.

فيُتَّخذ لهذا الخطر الداهم ولهذا الشرِّ مأخذه بالتسلُّح بالعلم الشرعي والتفطُّن للتوحيد؛ صيانة التوحيد، إذا ما صنت التوحيد دخل عليك الشرك، كما أن الإنسان يصون صحته من المرض، يصون ماله من اللصوص، يصون أبناءه من رفقاء السوء؛ فأحرى من ذلك كله التوحيد -يصون التوحيد-، خاصة إذا كان هناك من ينازع في صحة التوحيد، ينازعك في صفاء التوحيد الذي أنت عليه.

فإذا كان هذا في زمن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فأن يكون انتشاره بعد ذلك من باب أولى.

يا إخواني! في صحيح البخاري عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «**ما ترك النبي ﷺ في بيتٍ من بيوته تصاليب إلا نقضه**»؛ يعني أن الصُلْبان فشت حتى دخلت بيوت النبي ﷺ، بمعنى أن الشرَّ ينشط، وأنه لا يحُدُّ عن الشرِّ إلا معرفته والرد على شُبَه أهل الباطل بكلام الله وكلام رسوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

فإذا كان هذا في زمن النبوة، فأن يكون أنشط من ذلك في آخر الزمان من باب أولى؛ فيحتاط الإنسان لذلك ولا يحتال عليه صاحب الباطل بتسويغ الباطل بشُبَهٍ باطلة، كالذي يقول أن هذا ليس المقصود بذلك الشرك الأكبر، أو ليس هذا مما يسمى تعلُّقًا بغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى..! هذا من حيل أهل الباطل، ولا يزال أهل الباطل لهم حيل ويتلونون.

قال الشيخ رحمه الله: (**وَعَنْ عِمْرَانَ بنِ حُصينٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى رَجُلاً فِي يَدِهِ حَلْقَةٌ مِنْ صُفْرٍ، فَقَال: مَا هَذِهِ؟! قال: مِنَ الْوَاهِنَةِ»**). والواهنة يعني مرضٌ يعتري البدن

ويصيبه بالهزال والضعف والوهن، (قال: «انْزِعْها -يعني ألقها عنك-؛ فَإِنَّهُا لا تَزيدُكَ إِلَّا وَهَنًا») يعني ضعْفًا في توكلك واعتمادك على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهذا هو الأصل، حتى لا يأتي إنسان ويقول أن هذه لا تزيد وهنًا بل وجدت نفعها في بدني؛ فيقال: أن الوهن الذي أراده النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لا يجوز حصْرُه في وهن البدن فقط، بل الوهن الأعظم من ذلك وهن التوحيد وضعف التوحيد وضعف التعلُّق بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

بل أحيانًا يكون الشيطان محتالاً على ابن آدم فيوهِنُ بدنه، ثم إذا لبس شيئًا من هذه أظهر في بدنه نشاطًا وقوة وغير ذلك مما كان يفقده من الصحة، فيسوِّغ له ركوب الشرك ويسوِّغ له اعتقاد ذلك، والشيطان يحتال على ابن آدم بمثل هذه الصور.

ولهذا الأولى بأن يقال أن المعنى الأول -ولا نقول هو المعنى الأوحد- في قوله ﷺ: («فَأَنَّهُا لا تَزيدُكَ إِلَّا وَهَنًا») يعني ضعفًا في التوحيد وضعفًا في التوكُّل والاعتماد على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والتعلُّق بالأسباب الغير شرعية والقَدَرِيَّة.

ثم قد يصحب ذلك وهْنَ البدن أيضًا وقد لا يصحب ذلك، ليس بالضرورة أن يصحب ذلك وهْنُ البدن، وإنما المقصود بذلك أن الوهن المتعلق بضعف التوحيد واقعٌ لا محالة لأنه تعلق بغير الله. وقد قال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كما سيأتي في حديثٍ آخر: («مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وُكِلَ إِلَيْهِ»). إذا تعلق الإنسان بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كفاه الله عَزَّ وَجَلَّ هم الدنيا والآخرة، وإذا تعلَّق بغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خلّى الله عَزَّ وَجَلَّ بينه وبين ما تعلَّق به؛ كما في قوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه». والله عَزَّ وَجَلَّ إنما خلق العبد ليكون عبداً لله -على وجه الكمال-، متذللاً لله مفتقراً إلى الله، يطلب الرغب والرهب من الله عَزَّ وَجَلَّ.

قال الشيخ رحمه الله: قال ﷺ: («فَأَنَّهُا لا تَزيدُكَ إِلَّا وَهَنًا، فَإِنَّكَ لَوْ مِتَّ وَهِيَ عَلَيْكَ؛ مَا أَفْلَحْتَ أَبَداً»)؛ لأنه إذا قابل الله عَزَّ وَجَلَّ وقد تعلَّق بغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، قابل الله عَزَّ وَجَلَّ بالفلاح أو

ببوار العمل؟ قابل الله ﷻ بنقص العمل بنقص قبوله، سواء كان شركًا أكبر أو شركًا أصغر، فإذا كان شركًا أكبر فهو فاسدٌ -والعياذ بالله- وخارجٌ عن الإسلام، لكن لا يقال هذا في الصحابي لأن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لا يُتصوَّر منهم ذلك، لكن نفي الفلاح من حيث أن الفلاح التامّ لا يكون إلا بالتوحيد التام الخالص لله، فما نقص من التوحيد ينقص بمقابله الفلاح في الآخرة، أما إذا زال التوحيد كله بالشرك -والعياذ بالله- فقد حصل الضلال المبين.

قال الشيخ رحمه الله: (**رَوَاهُ أَحْمَدُ بِسَنَدٍ لَا بَأْسَ بِهِ**)، وهذا في هذا الموضع مما يُردُّ بها على الذين قالوا بأن الشيخ رحمه الله ابن عبد الوهاب ليس له عِلْمٌ بأسانيد الحديث والحُكم عليها.

ومن نافلة القول أن يقال أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله له أسانيد تتصل إلى أصحاب الكتب الستة، وأخذها عنه حفيده عبد الرحمن بن حسن -وهذه جاءت في حاشية الحديث-، وأخذها عن عبد الرحمن بن حسن ابنه عبد اللطيف.. إلى أن وصلت إلى هذا الزمان من بعض المسنِدين.

فالمقصود: أن الشيخ رحمه الله له بصرٌ بالأحاديث روايةً وإسناداً وحُكماً.

قال الشيخ رحمه الله: (**وَلَهُ**) يعني وللإمام أحمد (**عَنْ عُقْبَةَ بنِ عَامرٍ**) يعني الفهري (**مَرْفوعًا**) إلى النبي ﷺ، والمرفوع هو الذي رُفِع إلى النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من قوله أو فعله، والموقوف ما كان موقوفًا على الصحابي من قوله أو فعله إلا أن يكون مما لا يقال إلا من جهة الوحي.

قال ﷺ: («**مَنْ تَعَلَّقَ تَميمَةً**») أيْ من لبس تميمةً، سماها المشركون تميمةً باعتبار أنهم يظنون أنه يحصل بها تمام النِعمة، سواء بجلب مرغوبٍ أو دفع مرهوب.

(«**فَلَا أَتَمَّ اللهُ لَهُ**») دعاءُ النبي ﷺ دالٌ على كراهيته لهذا الفعل، بل على شدة كراهيته له؛ لأن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ رؤوفٌ رحيم، والنبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يدعو لأمته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في

كثيرٍ من الأحاديث إلا إذا كان فيما يتعلّق بمخالفةٍ ظاهرة، أو فيما يتعلّق بانحرافٍ عن التوحيد، أو صورةٍ من صور الشرك التي كان عليها المشركون. ومن ذلك قوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: («مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً؛ فَلَا أَتَمَّ اللهُ لَهُ»)، يعني فلا أتم الله له مراده في الدنيا، أو فلا أتم الله ﷻ له الخير في الآخرة -والعياذ بالله-، وعلى كل حال دعاء النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بحدّ ذاته أعظم زاجر عن الفعل.

قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: («وَمَنْ تَعَلَّقَ وَدْعَةً») والودعة: الصدفة، كان المشركون يعتقدون فيها أنها سبب لجلب النفع لاعتقادهم أن البحار زاخرةٌ بالخيرات، ولما كان المشركون أغلبهم لم يكونوا على سيف البحر، وإن كان هناك من سكن البحر من المشركون في زمنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، لكن أكثرهم كانوا يستغربون من الصدفات، وإذا علموا أنه مما يلقيه البحر اعتقدوا أنها سببٌ لجلب المرغوب وكثرة الرزق وحفظ الغائب وغير ذلك؛ فتعلقوا بالودعات والصدفات وغيرها، وهذا من ظنونهم وتعلُّقهم بغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

(وَفِي رِوَايَة قَالَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً فَقَدْ أَشْرَكَ»).

هذا الحديث («مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً فَقَدْ أَشْرَكَ») هو كقوله ﷺ: «الطِّيَرَةُ شرك». وجه التشابه ما بين الطِّيَرة وما بين التمائم في هذا الباب؛ من حيث أنهما لا يكونان جائزتين بحالٍ من الأحوال، إما أن تكون شركًا أكبر وإما أن تكون شركًا أصغر. فلما قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: («مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً فَقَدْ أَشْرَكَ») عُلِم أنها لا تكون إلا بابًا من أبواب الشرك، وأنها لا تكون جائزةً بحال؛ فإما أن تكون شركًا أصغر إذا جعلها سببًا لجلْب نفع أو دفع ضُرّ، أو للأسباب التي قلناها قبل قليل، وإما أن تكون شركًا أكبر إذا اعتقد أنها مسببةٌ لما يريد، وما تعلقت به نفسه من خيرٍ وشر.

والمشركون كانوا يعلقونها على صبيانهم، ويعلّقونها على دوابهم، ويعلقونها على دورهم وعلى متاجرهم وعلى أموالهم وعلى غير ذلك؛ رجاء النفع ورجاء دفع الضر، ومع ذلك لم

يفلحوا

وإذا المنيــــة أنشـــبت أظفارهـــا ألفيــت كـــل تميمـــةٍ لا تنفـــعُ

بمعنى أنهم يعلقونها باعتقاد الدفع والضُرّ ومع ذلك لا يرون نفعها، ولا يزالون مرتكسين في ضلالهم ويتعلقون بها حتى بعد ظهور عدم نفعها، وهذا من تزيين الشيطان وإضراره لابن آدم.

بـــلادٌ بهـــا نيطـــت علـــيَّ تمـــائمٌ وأولُ أرضٍ مسَّ ظهري تُرابُها

"بلادٌ بها نيطت عليَّ تمائمٌ": بمعنى أنهم ينوطون -يعني يعلقون- التمائم على الطفل الوليد منذ ولادته، بمعنى أنهم متعلقون بالشرك منذ أن يلد الولد وهو يرى التميمة معلقة إما في عضده أو في خصره أو في رقبته، أو أن يعلِّقها والده في دابته، أو أن يعلقها في الدُّور أو غير ذلك.

هذه -يا إخواني- تعليق التمائم أيضًا هي فاشية حتى عند اليهود والنصارى؛ نحن قلنا قبل قليل أنها فاشية عند المشركين من حيث أنها منتشرة عند الذين ليسوا ممن يقرُّ بالنبوات ولا يقرُّ بالبعث والمعاد. اليهود والنصارى يقرُّون بالنبوات ويقرُّون بالبعث والمعاد على اعتقادهم لا على اعتقادنا، لكنهم يخالفون الأميين المشركين من حيث أن المشرك الأميّ عُبَّاد الأوثان لا يُقرُّ بالمعاد ولا يُقِرّ بالنبوات ولا يُقِرّ بعذاب القبر ونعيمه إلى غير ذلك هؤلاء المشركون، اليهود والنصارى يقرون بذلك على انحرافهم في عقائدهم في كل هذه المسائل، لكنهم يتفقون مع المشركين في تعليق ما يظنون أنه جالبٌ للنفع ودافعٌ للضرّ.

أليس النصارى يعلقون الصلبان على صدورهم؟ هذا من جنس تعليق التمائم الذي كان عليه المشركون، يعلقون الصلبان على صدورهم وعلى دورهم وعلى سياراتهم إلى غير ذلك، فهو شِرْكٌ فشا في الأمم السابقة سواء كانت ممن يقر بالنبوات أو ممن لم يقر بذلك، وإنما خص الله ﷻ هذه الأمة بالسلامة من هذا الباطل، وهذا من فضل الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، ومن

صيانة الله ﷻ لهذه الشريعة الخاتمة؛ لأنه لا نبي بعد نبينا ﷺ، ولا شريعة بعد شريعته، ولا كتاب بعد القرآن المجيد.

قال الشيخ رحمه الله: (**وَلِابْنِ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**) حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صحابي وابن صحابي، قُتِل أبوه في يوم أُحد خطأً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين.

(**أَنَّهُ رَأَى رَجُلاً فِي يَدِهِ خَيْطٌ مِنَ الْحُمَّى**) يعني خيطٌ يفتله المشركون ويزعمون أنه إذا وضِع على عضد المحموم أو على يده أنه يخفف الحمى، هذا فيما كانوا يعتقدونه قبل الإسلام.

(**فَقَطَعَهُ، وَتَلَا قَوْلَهُ تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللهِ إِلَّا وَهُم مُشْرِكُونَ﴾**[يوسف:١٠٦]).

هذه الآية نزلت في سورة يوسف كما هو معلوم، وذكر الله ﷻ هذا في سياق ذم المشرك المخالف لأصل المِلَّة -الذي ليس على ما كان عليه الأنبياء من توحيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ونبذ الشرك وصوره-.

وهنا مسألة مهمة حتى تكون متَّزنة؛ لا ينحرف الفهم إلى فهم الخوارج الذين يضعون آيات المشركين على المسلمين، وأيضًا لا تُعطَّل الآيات من حيث أنها تحذيرٌ ألا تنساق إلى مهالك المشركين، فيكون أهل السنة والجماعة لهم سبيلٌ وسط ما بين الوعيدية وما بين من يعطّلون الآيات ويجردون الآيات من معانيها؛ نزَّل حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هذه الآية التي نزلت في سورة يوسف -ويوسف من السور التي نزلت في مكة-، نزَّلها على رجل من المسلمين علَّق خيطًا من الحمى وأخطأ في ذلك؛ من حيث أنه لا يعني ذلك أنه المشرك الشرك الأكبر، وإنما لها توجيهان: إما أن يكون شركًا أصغر وهذا هو الظاهر، أو أن يكون أراد حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن من سلك هذا السبيل ربما يوصله إلى الشرك الأكبر، تفطن لذلك أو لم يتفطن له.

بمعنى أن هذه الآية ليس المقصود بها وصف من فعل هذا الفعل -الذي رآه حذيفة-

كفعل المشركين الشرك الأكبر، وأنه بهذا يكون مشركًا شركًا أكبر؛ لأن الآية نزلت في مشركي الشرك الأكبر، وإنما أراد بذلك أن هذا من جنس الشرك إلا أنه من الشرك الأصغر، أو أن يكون أراد حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ التحذير من هذا الفعل؛ لأنه ربما يوصله إلى الشرك الأكبر.

هذه -يا إخواني- مثل قول النبي ﷺ في حديث أبي واقد الليثي، لما قال بعض الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: «يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط». ذات أنواط التي طلبها الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، إنما أرادوا بذلك لأجل أن تكون سيوفهم ماضية في العدو؛ يعني أنهم أرادوا بذلك التبرُّك، ومع ذلك نزَّل النبي ﷺ ما طلبوه على ما قاله قوم موسى لموسى؛ قال: **«الله أكبر، إنها السنن»** يعني الطُّرُق، **«قلتم والذي نفسي بيده كما قال بنو إسرائيل لموسى: ﴿اجْعَل لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾»**، ثم قَالَ: **«لتتبعن سنن من كان قبلكم»**.

فنزَّل النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ما ذكره الله عَزَّ وَجَلَّ عن موسى وقومه على ما طلبه الصحابة وهم صحابته خرجوا مجاهدين، خرجوا لمغالبة الكفار، خرجوا ليغامروا بأرواحهم وأنفسهم جهاداً في سبيل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لكن وقع منهم ذلك جهلاً منهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ومع ذلك ما وقع من كلهم وإنما وقع بحدثاء الإسلام أو حدثاء العهد بالجاهلية، كما قال أبو واقد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أما المهاجرون والأنصار فلم يقولوا شيئًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين.

فتنزيل هذه على من أخطأ من المسلمين ليس حُكمًا عليه بأنه مشركٌ شِركًا أكبر وخارجًا عن الإسلام، وإنما أن هذا من صور الشرك التي نهى عنها الله ورسوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، أو أن يُنزَّل ذلك منزلة أن من فعل ذلك ربما يقع فيما هو أعظم من ذلك من الشرك الأكبر. والذي يدلُّ على أنها طريقٌ إلى الشرك الأكبر قول النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في آخر حديث أبي واقد الليثي: **«لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القُذَّة بالقُذَّة، حتى لو دخلوا جُحْر ضبٍّ لدخلتموه»**.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بَابُ مَا جَاءَ فِي الرُّقَى وَالتَّمَائِمِ

وَفِي الصَّحِيْحِ: عَنْ أَبِي بشيرٍ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّهُ كَانَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، فَأَرْسَلَ رَسُولاً: أَنْ لا يَبْقَيَنَّ فِي رَقَبَةِ بَعِيرٍ قِلَادَةٌ مِنْ وَتَرٍ، أَوْ قِلَادَةٌ؛ إِلَّا قُطِعَتْ».

وَعَن عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُول: «إِنَّ الرُّقَى وَالتَّمَائِمَ وَالتِّوَلَةَ؛ شِرْكٌ» رَوَاهُ أَحْمَدُ وأَبو دَاوُدَ.

التَّمَائِمُ: شَيْءٌ يُعَلَّقُ عَلَى الْأَوْلَادِ عَنِ الْعَيْنِ، لَكِنْ إِذَا كَانَ مِنَ الْقُرْآنِ؛ فَرَخَّصَ فِيهِ بَعْضُهُم، وَبَعْضُهُمْ لَمْ يُرَخِّصْ فِيهِ، وَيَجْعَلُهُ مِنَ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ، -مِنْهُمُ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ-.

وَالرُّقَى: هِيَ الَّتِي تُسَمَّى الْعَزَائِمَ، وَخَصَّ مِنْهُ الدَّلِيلُ مَا خَلَا مِنَ الشِّرْكِ؛ فَقَدْ رَخَّصَ فِيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الْعَيْنِ وَالْحُمَةِ.

وَالتِّوَلَةُ: شَيْءٌ يَصْنَعُونَهُ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ يُحَبِّبُ الْمَرْأَةَ إِلَى زَوْجِهَا، وَالرَّجُلَ إِلَى امْرَأَتِهِ.

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُكَيْمٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وُكِلَ إِلَيْهِ» رَوَاهُ أَحْمَدُ والتِّرْمِذِيّ.

وَرَوَى الإِمَامُ أَحْمَدُ: عَنْ رُوَيْفِعٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال: لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يا رُوَيْفِعُ! لَعَلَّ الْحَيَاةَ سَتطُولُ بِكَ، فَأَخْبِرِ النَّاسَ أَنَّ مَنْ عَقَدَ لِحْيَتَهُ، أَوْ تَقَلَّدَ وَتَراً، أَوْ اسْتَنْجَى بِرَجِيعِ دَابَّةٍ أَوْ عَظْمٍ، فَإِنَّ مُحَمَّداً بَرِيءٌ مِنْهُ».

وَعَن سَعِيدِ بنِ جُبَيْرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «مَنْ قَطَعَ تَمِيمَةً مِنْ إِنْسَانٍ؛ كَانَ كَعِدْلِ رَقَبَةٍ» رَوَاهُ وَكِيعُ.

وَعَنْ إِبْرَاهِيمَ قَالَ: «كَانُوا يَكْرَهُونَ التَّمَائِمَ كُلَّهَا، مِنَ القُرْآنِ وَغَيْرِ الْقُرْآنِ».



قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ الله:

قال الشيخ رحمه الله: (**بَابُ مَا جَاءَ فِي الرُّقَى وَالتَّمَائِمِ**).

سيأتي الكلام عن الرقى، لكن سبب الرقى له تعلُّقٌ برفع المرض والداء.

والرقى تنقسم إلى نوعين: قد تكون شرعية، وقد تكون شركية.

أما التمائم فبكل أحوالها شركية للحديث المتقدِّم؛ قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: (**«مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً فَلَا أَتَمَّ اللهُ لَهُ، وَمَنْ تَعَلَّقَ وَدْعَةً فَلَا وَدَعَ اللهُ لَهُ»، وَ«مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً فَقَدْ أَشْرَكَ»**)، وفي لفظ آخر: (**«مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وُكِلَ إِلَيْهِ»**).

فالفرق ما بين الرقى وما بين التمائم: أن التمائم في كل أحوالها شِرْك إما أكبر وإما أصغر، فإذا اعتقد أنها مسببةٌ لما تعلَّقت بها النفس من دفع وجلب فهي شركٌ أكبر، وإذا اعتقد أنها سببٌ فهي شركٌ أصغر؛ لأنه جعل التمائم سببًا، ولم يجعلها الله ﷻ سببًا شرعيًا، ولم يجعلها الله ﷻ سببًا قدريًا حسيًا، فمن جعل سببًا ما لم يجعله الله ﷻ سببًا شرعيًا، وما رآه الناس سببًا قدريًا حسيًا، فقد وقع في الشرك الأصغر.

ولهذا -من باب التقعيد لهذه المسألة- أن كل ما أُحدِث في الإسلام، ومنها الرُّقى، كل ما أُحدِث في الإسلام ..... من أحدثه، كالرقى والتمائم التي تُعلَّق على الصبيان وعلى غيرهم، إما أن تكون طاعة يرجو ثوابها من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وإما أن تكون معصية. ومعلِّق التمائم سيقول: "طاعة".

ثم يقال له بعد ذلك: هذه الطاعة التي تزعم أنها طاعة -وهي ليست طاعة، بل هي تعلُّقٌ بغير الله فكيف تكون طاعة؟!- هل النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ علِمها وعلَّمها أمته ﷺ، أو جهلها النبي ﷺ؟

فإذا قال: "جهلها"، فمعنى ذلك أنه وصف النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بما لا يليق بمقام التبليغ عن الله. فلم يبقَ إلا أن يقول: "علِمها النبي ﷺ".

فإذا علم النبي ﷺ أن التمائم لها أثر في الجلب والنفع، يقال له بعد ذلك: هل النبي ﷺ

دعا إليها، ودلَّ عليها، وأمر بها، وأذِن فيها، أو كانت سنته على خلاف ذلك؟

لابد أن يقول: أن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ علِمها لكنه نهى عنها، علِمها لكنه دعا على من تعلقها، وهذا ليس دليلاً، وإنما من باب إغلاق الباب على أصحاب الباطل، الدليل يكفي فيه كلام الله وكلام رسوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

فالفرق ما بين الرقى وما بين التمائم: أن يقال بأن الرقى قد يكون منها شيء شرعي؛ كقوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «اعرضوا عليَّ رقاكم، لا بأس بالرقى ما لم تكن شركًا».

أما التمائم ففي كل صورها إما أن تكون شركًا أكبر وإما أن تكون شركًا أصغر.

قال رحمه الله: (وَفِي الصَّحِيْحِ: عَنْ أَبِي بشيرٍ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «أَنَّهُ كَانَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، فَأَرْسَلَ رَسُولاً»)، يعني أن النبي ﷺ أرسل رسولاً من الصحابة يبلِّغهم عنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: («أَنْ لا يَبْقَيَنَّ فِي رَقَبَةِ بَعِيرٍ قِلَادَةٌ مِنْ وَتَرٍ») والوتر الذي يُرمى به، («أَوْ قِلَادَةٌ؛ إِلَّا قُطِعَتْ»). لأن المشركين كانوا يعلقونها على الإبل؛ إما لدفع اللصوص، وإما لدفع القوارص من الثعابين وغيرها، وإما لدفع الذئاب والسباع وغير ذلك، وإما لهزالٍ فيها يريدون أن يُرفع عنها، أو لغير ذلك من الأسباب التي قلناها قبل قليل؛ من جلب نفعٍ، أو دفع ضرٍّ، أو تخفيفه، أو رفعه أو غير ذلك من الأسباب التي كانت عند المشركين.

(«أَنْ لا يَبْقَيَنَّ فِي رَقَبَةِ بَعِيرٍ قِلَادَةً مِنْ وَتَرٍ، أَوْ قِلَادَةٌ؛ إِلَّا قُطِعَتْ») إذا كانت لهذا المقصد، أما إذا كانت لأجل الزينة أو لأسبابٍ أخرى، كأن تكون قلادة اللجام أو غير ذلك، فهذه أسبابٌ لا علاقة لها بباب التوحيد.

قال الشيخ رحمه الله: إلا أن تكون -يا إخواني- القلادة منسوجة على ما كانت عليه قلائد المشركين، بمعنى أنها إذا وصلت إلى هذا الوصف، كأن تكون القلادة على وصف قلائد المشركين، كأن يكون عليها جماجم أو عظام أو غير ذلك، هنا نقول قال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «من تشبَّه بقومٍ فهو منهم»، وسدُّ باب الذريعة هنا متعيِّن حتى لا يتذرَّع الإنسان

بجواز ذلك أو غيره.

قال رحمه الله: (**وَعَن عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُول: «إِنَّ الرُّقَى وَالتَّمَائِمَ وَالتِّوَلَةَ؛ شِرْكٌ»**).

الرقى يعني الرقى الشركية، والتمائم بكل أنواعها، والتولة بكل أنواعها؛ لأن من معاني التولة هو السحر الذي يسمى سحر العطف والصرف، بمعنى أن السحر بكل أحواله شِرْك، وسيأتي الكلام فيما يتعلق بالسحر. أما الرقى فقد تكون رقىً شرعية وقد تكون رقى بدعية شركية.

قال الإمام ابن عبد الوهاب رحمه الله: (**رَوَاهُ أَحْمَدُ وأَبُو دَاوُدَ، التَّمَائِمُ: شَيْءٌ يُعَلَّقُ عَلَى الْأَوْلَادِ عَنِ الْعَيْنِ**) يعني يعلِّقونه على الصغار لدفع العين، لكن إذا كان المعلَّق من القرآن، فقد رخَّص فيه بعض السلف وبعضهم لم يرخِّص، وهم الأكثر إنما ذُكِر ذلك عن اثنين من الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُم، وإلا فجمهور الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُم، والتابعين من بعدهم رحمهم الله إلا ما ذُكِر عن المسيِّب وغيره، كلهم على أن تعليق التمائم -ولو كانت من القرآن- لا تجوز لأسبابٍ أخرى؛ أولها -وهو مما يُذكر في هذا السياق-: أن تعليق التمائم من القرآن، سواء كان القرآن منشوراً كالذي يعلق آية الكرسي منشورة، أو كان مطوياً مُحكماً في جلد؛ لأن بعض الناس يعلِّق المنع من ذلك إذا كان مطوياً لأنه ربما يكون سداً للذريعة حتى لا يكون المعلَّق غير القرآن.

فنقول: حتى وإن كان منشوراً، حتى وإن كانت ورقة عليها آية الكرسي وأنت ترى أنها آية الكرسي؛ فتعليقها محدَثٌ، لأن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ما فعله، ولم يفعله أحدٌ من الصحابة، وإنما فعله صحابيٌ واحد عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا للصبيان الذين لا يُحسنون الذكر والدعاء، فإذا بلغوا حد الإحسان وحد القُدْرة على تحفُّظ القرآن رفعه عنهم، أو بمعنى آخر لم يعلِّقه على نسائه ولا على نفسه ولا على دابته، وما دعا إلى ذلك، وإنما اجتهد

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه فكان يعلِّقه على الصبيان الذين لا يحسنون الذكر ولا يحسنون قراءة القرآن. ومع ذلك خالفه -كما قلنا- كل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كبارٌ وأجلاء، خالفه المهاجرون كلهم، وخالفه الأنصار كلهم، وخالفه كل الصحابة ولم يوافقه أحد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلا القليل من الصحابة.

وإلا فالأصل أن أهل السنة وأهل العلم يقولون أن التمائم من القرآن، بابها بابٌ واحد، من حيث أن التمائم لم يقسِّم النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ النهي فيها عمَّا كان من القرآن وعمّا كان من غيره.

وهنا يُذكر أن تقسيم مسائل التوحيد يوهِن المسألة ويضعف المسألة؛ بمعنى أنه يقلل في بعض قلوب الناس، يقلّ عند بعض الناس التهيُب من الاجتهاد فيها، لأن الاجتهاد في مسائل التوحيد ليس اجتهاداً إما أن يكون مصيباً فله أجران، وإما أن يكون مخطأً وله أجر. بل هي ما بين سنة وما بين بدعة.

فتقسيم المسألة التي ما قسَّمها النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لم يكن عليه الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؛ فإذا كان النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال: «**من تعلَّق تميمة فقد أشرك**» ولم يقسِّم النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ما بين التمائم التي من القرآن والتمائم التي من غيرها؛ فلماذا يُقسَّم بعد ذلك؟ ولماذا لا يقال أن التمائم كلها بابها واحد؟ وهذا هو الأصل.

كما أن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لما قال: «**اجتنبوا السبع الموبقات**»، قيل: وما هن يا رسول الله؟ قال: «**الشرك بالله**»، ثم قَالَ: «**والسحر**»، هل النبي ﷺ قسَّم ما بين السحر الذي يتعلق بإضرار الناس في أرواحهم وأبدانهم وغير ذلك، وما بين السحر الذي لا يتعلق إلا بأخذ الأموال بالباطل؟ بل جعل السحر بابه واحداً، فجعْلُ الشيء واحداً هو الذي يحمل الناس على التهيُّب من الوقوع فيه.

كذلك يقال في التمائم؛ إذا كان النبي ما قسَّم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ما بين التمائم التي تكون بالقرآن والأذكار الشرعية، وما بين التمائم التي تكون بغيرها، بل وحتى ما بين التمائم التي

تكون رموزاً ليست مفهومة كالخطوط والدوائر والمربعات وغير ذلك؛ فكلها بابها واحد. بمعنى أن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إذا لم يقسّم، لا يجوز لأحد أن يقسّم بعد ذلك، ولو اجتهد أحد من المسلمين فهو اجتهادٌ معذور باجتهاده، لكن الصواب أن يبقى الإنسان على ما كان عليه النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

قال الشيخ رحمه الله: (**شَيْءٌ يُعَلَّقُ عَلَى الْأَوْلَادِ عَنِ الْعَيْنِ، لَكِنْ إِذَا كَانَ مِنَ الْقُرْآنِ؛ فَرَخَّصَ فِيهِ بَعْضُهُم، وَبَعْضُهُمْ لَمْ يُرَخِّصْ فِيهِ**). لم يرخِّصوا فيه لأن تعليق التمائم من القرآن، أو حتى من الأذكار الثابتة عن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، أو حتى من الذكر الذي يكتبه حتى يُعيذ به ابناءه: "أعيذك من شر كل ذي شر" على سبيل المثال يكتبها في ورقة أو يجعلها حرزاً ويعلقها عليه، أليس هذا سبباً لوقوعها في الأرض وامتهانها؟ إذا عُلِّقت أليس من المتصور أو من المتيقن أن ينام وينقلب عليها وتكون تحته؟ ألا يدخل دورات المياه -أجلَّكم الله ومحل الخلاء-، فيدخل بها وفيها ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟

إذا رآها من يرى جواز تعليق التمائم من غير ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ألا يكون ذلك مسوِّغاً له بأن يعلِّق التمائم من غير ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟ ولهذا يُسَدُّ باب الذريعة حمايةً للتوحيد وصيانة له، وحتى لا يحتال أهل الباطل على أهل الحق. بمعنى أن الإنسان لا يؤتى الإسلام من قِبَلِه، ولا تؤتى السنة من قِبَلِه، ولا يُرقَّق الموقف من الشرك من جهته؛ وإنما يكون حداً فاصلاً ما بين مخالطة الشرك للتوحيد، وأن يكون حامياً للتوحيد.

وقد مرض النبي ﷺ، ومرضت عائشة، ومرض المهاجرون لما جاءوا إلى المدينة بعد هجرتهم كبلال وأبي بكر وغيرهم، ومرض الحسن والحسين وغير ذلك؛ فهل علَّق النبي ﷺ أو أذِن بذلك؟ لم يعلق النبي ﷺ التمائم من القرآن لا على نفسه، ولا على أهل بيته، ولا على أسباطه، ولا علَّقها الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وإنما علَّم أمته ﷺ أن يرفعوا البلاء بذكر الله عَزَّ وَجَلَّ، وقرأ فيهم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ﴾[الإسراء:٨٢].

مرض جابر فنفث عليه النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ورشَّ عليه ماءً قرأ فيه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، إلى غير ذلك من أنواع الرقى الشرعية الثابتة عن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كقوله ﷺ: «**بسم الله، تربة أرضنا، بريقة بعضنا، يشفى سقيمنا، بإذن ربنا**»؛ يبلُّ إصبعه ويضعه على التراب ثم يضعه على يده. وكقوله ﷺ: «**فمن تألم شيئًا من بدنه فليضع يده ويقول: بسم الله ثلاثًا، ويقول سبع مرات: أعوذ بالله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر**». وكقوله ﷺ: «**اللهم اشفِ عبدك سعداً، ينكأ لك عدواً، ويمشي لك إلى صلاة**»؛ وكقوله ﷺ: «**اللهم رب الناس مذهب البأس، اشف أنت الشافي، لا شافي إلا أنت، شفاء لا يغادر سقما**» إلى غير ذلك من أنواع الرُّقى، رقى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بهذه الرُّقى فيوقف على ما كان عليه ﷺ، ولا يُحدث في دين الله بما ليس منه.

قال الشيخ رحمه الله: (**وَيَجْعَلُهُ**) يعني بعض أهل العلم (**مِنَ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ، -مِنْهُمُ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ-**).

قال رحمه الله: (**وَالرُّقَى: هِيَ الَّتِي تُسَمَّى الْعَزَائِمَ، وَخَصَّ مِنْهُ الدَّلِيلُ مَا خَلَا مِنَ الشِّرْكِ؛ فَقَدْ رَخَّصَ فِيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الْعَيْنِ وَالْحُمَةِ**).

ما خصه الدليل من الشرك قصد بذلك قوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**اعرضوا علي رقاكم، لا بأس بالرقى ما لم تكن شركًا**»، هذا مما يدلُّ -يا إخواني، وهذه فائدة متعلقة بهذا الباب- أن بعض المشركين -وهذا ليس مدحًا لهم لكنه حُجَّةٌ عليهم- يُقرُّون في قرارة أنفسهم بأن الذي بيده النفع والضُرُّ هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ففي قوله ﷺ لما جاء بعض الصحابة إلى النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وقالوا: «يا رسول الله إنا كنا نرقي بأشياء في الجاهلية»، قال: «**اعرضوا عليَّ رُقاكم، لا بأس بالرقى ما لم تكن شركًا**».

مفهومه: أن بعض رقاهم التي كانت في الجاهلية كانت خالية من الشرك، هذا يصدِّقه قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿**فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**﴾[العنكبوت:٦٥]. هذا ليس ثناءً عليهم؛ لأن الله ﷻ قال بعد ذلك: ﴿**فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ**﴾[العنكبوت:٦٥]،

لكن هذا حُجَّةٌ عليهم أن قلوبكم مُقِرَّة ومنعقدة على أن الذي بيده النفع والضر هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فصار قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لا بأس بالرقى ما لم تكن شركًا» يكشف حتى وَهَن الشرك عند المشركين، وأنهم في شركهم ضعيفٌ تعلقهم بأصنامهم؛ فإذا حزبهم أمرٌ تعلقوا بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لينجيهم من الغرق، تعلقوا بالله ليرفع عنهم البلاء.

قال الشيخ رحمه الله: (وَالرُّقَى: هِيَ الَّتِي تُسَمَّى الْعَزَائِمَ، وَخَصَّ مِنْهُ الدَّلِيلُ مَا خَلَا مِنَ الشِّرْكِ؛ فَقَدْ رَخَّصَ فِيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الْعَيْنِ وَالْحُمَةِ).

وحديث بريدة بن الحصيب المتقدم أَنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال: «لَا رُقْيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ»؛ يعني أن الرُّقى يُجري الله ﷻ نفعها -إذا كانت شرعية- من العين التي يصيب العائن بها غيره. وقد يكون الباعث عليها حسداً، وقد يكون الباعث عليها عدم التبريك؛ بمعنى أنه ليست إصابة العين دائماً مقرونة بالحسد، وإنما قد تكون بسبب عدم الدعاء له بالبركة.

وذكر ابن القيم رحمه الله أن العين يصحبها نظرةٌ من الجن، وهذا مذكورٌ في "زاد المعاد" من حيث أن العائن قد يصيب نفسه في بعض الأحوال، وقد يصيب خصمه، وقد يصيب بغير اختياره، وهي كلها في قَدَر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كما قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «العين حقٌ -يعني بقَدَر الله-، ولو كان شيء سابق القَدَر لسبقته العين». هل العين تسبق القَدَر؟ ليست سابقة، بدلالة قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لو كان شيءٌ سابق القَدَر لسبقته العين»، فكل ما يقع في ملكوته هو بقضاءٍ وقدر؛ كما في حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «كل شيء بقضاء وقدر، حتى العجز والكيس».

والحُمَة: اللدغة من الدواب ذوات السموم كالعقرب وبعض الدواب وغيرها.

قال الشيخ رحمه الله: (وَالتِّوَلَةُ: شَيْءٌ يَصْنَعُونَهُ)؛ يعني يصنعه المشعوذون والكُهَّان وأضرابهم، وهذا يقع كثيراً عند النساء. التولة: العقد ما بين رجل وزوجته، أو حتى رجل وولده، أو بنت وأمها، أو حتى تاجر ومتجره، أو إنسان ودابته؛ يعقدون بين هذين إما عقد

عطف أو عقد صرْف، وهذا الذي يسميه المتأخرون "سحر العاطفة".

قال: (شَيْءٌ يَصْنَعُونَهُ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ يُحَبِّبُ الْمَرْأَةَ إِلَى زَوْجِهَا، وَالرَّجُلَ إِلَى امْرَأَتِهِ).

"يزعمون" بمعنى أن هذا زعم، لكنه في الحقيقة ليس صحيحاً، وقد يصل ما يعقدونه ما بين الرجل وزوجته لتحبيبهما إلى بعض قد يصل إلى حد الجنون -والعياذ بالله- والهيام والتعلُّق والوجْد وغير ذلك، قد يصل إلى زهوق الروح.

وبالمقابل "الصرف" قد يعقد الساحر -عافانا الله وإياكم- صرْفاً ما بين الرجل وزوجته، وما بين الرجل ووالده إلى غير ذلك حتى يصل إلى الهمّ بقتله، وهو لا خير فيه كما قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[البقرة:١٠٢].

هنا يا إخواني السحر بكل صوره شرك، ولا يخلو من استعانةٍ بغير الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وقد يدخل فيه نوعٌ من ادعاء علم الغيب.

وتقسيم السحر إلى أنواع ليس عليه دليل، لكن السحر بكل صوره غالباً لا يخرج عن خمسة أنواع باعتبار أثر وقعه على المسحور، ومن أصول أهل الإسلام وأهل التوحيد أن السحر لا ينعقد إلا بطرفٍ جني، والجن لا يخدم الإنسي -سواء كان كاهناً أو ذهب إلى كاهنٍ ليخدمه- إلا بمقابل، والمقابل الذي لا يرضى بغيره الجني هو الخروج من الإسلام؛ إما بفعل عبادةٍ لغير الله كأن يذبح لغير الله، أو بفعل ما يخرج به عن الإسلام كأن يدنِّس المصحف أو يسب الله أو غير ذلك -تعالى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وبحمده-.

فهو مشروطٌ بطرفٍ آخر من الجن، وخدمة الجن للكاهن أو للساحر حتى يعقد السحر مشروطةٌ بأن يكون خارجاً عن الإسلام بهذا الفعل؛ إما لفعلٍ يفعله، أو لعبادةٍ يقرِّبها للجن، أو لفعلٍ يخرج به من الإسلام؛ فهو بهذا التقعيد السحر نوعٌ واحد.

وبهذا يقرِّر بعض أهل العلم على أن القول بأن من السحر ما لا يكون شركاً وكفراً -

كسحر التدخينات وغير ذلك-، يقال: أن هذا نُسِب إلى الشافعي في أول الأمر في كتاب "الأم"، ثم أخذه بعد ذلك بعض الشافعية كابن حجر، ثم أخذه بعض أئمة الدعوة في بعض شروح كتاب التوحيد. لكن الصواب في ذلك أن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لما لم يفرِّق ما بين أنواع السحر أو جعل السحر شيئًا واحداً، ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ السحر نوعًا واحداً، وذكره النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ موبقةً واحدة، وذكر النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عقوبته عقوبة واحدة؛ فلماذا يُقسَّم؟ لم يُقسَّم من حيث الحكم عليه، ولم يُقسَّم من حيث عده موبقة، ولم يُقسَّم من حيث العقوبة عليه؛ فأيّ وجهٍ للتقسيم بعد ذلك؟

ناهيك أن التقسيم يُضعِف جانب التهيُّب من السحر؛ فإذا علم الناس أن من السحر ما لا يكون كفراً ألا يتوجهون إليه بعض ضعاف الدين؟ ولهذا يُقال هو واحدٌ من حيث حكمه، وواحد من حيث عقوبة الذنب، وواحدٌ من حيث الحد عليه.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾[البقرة:١٠٢]، فسماه الله ﷻ كفراً، قال ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات»، قيل: وما هن يا رسول الله؟ قال: «الشرك بالله... والسحر»؛ فجعله قرينًا للشرك ولم يفرِّق النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وعند الترمذي في حديث جابر بن سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال النبي ﷺ: «حد الساحر ضربةٌ بالسيف»، وفي ضبطٍ لأهل العلم: «حد الساحر ضرْبُهُ بالسيف» يعني قتله وإزهاق روحه.

فلما قال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هذا الحديث الذي يتعلق بإزهاق الروح، ولم يقسِّم فيما بين سحرٍ وسحر، دل على أنه نوعًا واحداً.

وأن تقسيم مسائل التوحيد يوهن المسألة ويجعلها هيِّنة، فجعْلُه على ما كان في الكتاب والسنة هو الأولى؛ لا من حيث تعظيم التوحيد ولا من حيث تقبيح الشرك.

أما فيما يتعلق بأنواعه من حيث وقوعه، فأهل العلم يقولون أنه خمسة أنواع؛ السحر وإن

قلنا أنه كفر بجميع صوره وأنه يُقتل الساحر -والذي يقيم حد الساحر ولي الأمر أو من ينيبه- ، إلا أنه باعتبار وقوعه: إما أن يكون سحراً متعلقاً بالنفس فيزهقها ويقتلها، وإما أن يكون سحراً متعلقاً بالبدن فيُضْعف البدن إما بالهزال أو بالاصفرار أو بالقُروح أو بغير ذلك، وإما أن يكون متعلقاً بالعقل -أو بالذاكرة كما يقال-، فيكون إما نسياناً وإما أن يصل إلى حد الجنون، وإما أن يكون متعلقاً بالعاطفة كالصرف والعطف الذي ذكر الله ﷻ في كلامه، وإما أن يكون سحراً متعلقاً بالنظر وهذا أشدها.

أهل العلم قالوا أن هذا أشدها؛ لا من حيث أن صاحبه أكفر من غيره، وإنما من حيث تساهل الناس فيه؛ يتساهل الناس في هذا النوع من السحر وهو أشدها لأن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قال: ﴿وَسَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾[الأعراف:١١٦]، ولأن الله ﷻ قال عن موسى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾[طه:٦٧]. مع أنه من أولي العزم -أيْ الأقوياء- من الرسل، مع أنه وقف أمام فرعون الذي ذكر الله ﷻ جبروته وكفره وقال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾[النازعات:٢٤]، وقال له موسى: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾[الإسراء:١٠٢]، لكن لما رأى موسى حبالهم وعصيهم ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾[طه:٦٦-٦٧].

لأجل هذا قال أهل العلم: إن هذا من أخطر أنواع السحر، مع أن الناس يتساهلون فيه؛ لأنه لا يضرهم لا في عقولهم ولا في أبدانهم ولا في عواطفهم، وإنما أحياناً يصل الحد إلى الاستمتاع، يستمتعون ويبذلون الأموال لمشاهدة مثل هذه الأمور. ولهذا الاعتبار قال أهل العلم إن هذا من أخطر أنواع السحر؛ لأن الناس -عموم الناس حتى الذين ليسوا على صلاح- يخافون من الأمور الأربعة، لا يطلبونها لأنها تُلْحق الضرر بالبدن أو بالعقل أو بالعاطفة أو بزهوق الروح، لا يطلبونها إلا إذا كان المسحور يرتكس في ضلاله.

لكن سحر التخييل يطلبه كل الناس ويتساهلون فيه، وربما يتناقلون بعض المقاطع في

جوالاتهم، وربما يرون أن هذا خِفَّة يد، وهي لا تكون خفة يد إلى درجة أن الإنسان يأكل الحديد.

وشيخ الإسلام رحمه الله لما رد على طائفة الرفاعية البطائحية ذكر في سياق رده أن الله ﷻ أجرى ملكوت السماوات والأرض على ما خلق الله ﷻ لطبيعةٍ من طبائع؛ أجرى الله ﷻ سبحانه وبحمده في ملكوته أن الحديد يغمره الماء، وأن الخشبة تطفو، وأن الأبدان تعود إلى الأرض، وأن النار تأكل الخشب، وأن الحديد يؤثِّر في البدن ويقطع اللحم.. إلى غير ذلك، فإذا جرى خلاف ذلك في ملكوت الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فلا يجري إلا لأحد ثلاثة أسباب:

إما أن تكون آية لنبيٍ من أنبياء الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، كما أن النار صارت برداً وسلاماً على إبراهيم.

وإما أن تكون كرامةٍ أجراها الله ﷻ على رجلٍ من أهل السنة تثبيتاً له وتأييداً له، وهذه كرامة بمعنى أنه لا يطلبها، لا يتمرَّن عليها، لا تسبقها دُربة، لا ينتظرها، وإنما كرامة تأتيه تثبيتاً له؛ وهذه ذكر الله ﷻ صوراً منها: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾[آل عمران:٣٧]؛ هل مريم نبية أو رسولة، أو امرأة صالحة صدِّيقة؟ كما قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في أصحاب الكهف: ﴿فَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾[الكهف:٢٥]، فهذه كرامة.

وشرطها أيضاً -شرط الكرامة-: ألا يطلبها الولي لنفسه، وإذا وقعت له لا يُخبِر الناس بها، بل من طبيعة الصالح أن يطوي عمله وألا يظهره للناس.

قال ابن تيمية رحمه الله: وما سوى ذلك فإنما هو من تلاعب الشياطين؛ قد يستدعي الساحر الشيطان ويجري له ما أراد على شرطٍ بينهما، وقد تضلُّ الشياطين الناس عن طريق إنسانٍ آخر بأن تجري على يديه شيءٌ من الخوارق وهو لا يرى أن الشياطين تتلاعب به.

بهذا التقعيد الذي ذكره ابن تيمية رحمه الله يعلم الإنسان أن ما خالف قانون الطبيعة، ما

خالف ناموس الطبيعة، ما خالف ما أجرى الله ﷻ عليه ملكوته؛ إما أن يكون آية وانتهت بموته ﷺ -إلا أن يكون لها أثر بعد موته كالقرآن المجيد أو كما أخبر بما يقع في آخر الزمان-، وإما أن تكون كرامة لوليٍ على السنة لا يطلبها لنفسه، وإذا وقعت الأصل أنه يسترها ولا يحدِّث بها، وما سوى ذلك فهي من تلاعب الشياطين: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾[مريم:٨٣]، بمعنى لا تزال تغويهم وتضل الناس عن طريقهم.

ثم قال رحمه الله: (وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُكَيْمٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وُكِلَ إِلَيْهِ»). أيْ وكله الله ﷻ إلى التميمة، بمعنى أن الله وكله إلى عجْزٍ وضعف وقِلَّة حيلة، وأنه لن يجد من وراء التميمة إلا البوار والخسران.

(وَرَوَى الإِمَامُ أَحْمَدُ: عَنْ رُوَيْفِعٍ) أيْ ابن ثابت (قال: قال: لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يا رُوَيْفِعُ! لَعَلَّ الْحَيَاةَ سَتَطُولُ بِكَ»)، وطالت به الحياة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ حتى رأى ما أخبر به النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ؛ («فَأَخْبِرِ النَّاسَ أَنَّ مَنْ عَقَدَ لِحْيَتَهُ، أَوْ تَقَلَّدَ وَتَراً، أَوْ اسْتَنْجَى بِرَجِيعِ دَابَّةٍ أَوْ عَظْمٍ، فَإِنَّ مُحَمَّداً بَرِيءٌ مِنْهُ»). هذه الأمور الثلاثة تختلف باختلاف حكمها من حيث أنه قد يكون بعضها متعلقًا بالشرك، وقد يكون بعضها متعلقًا بما هو دون ذلك.

فعقْد اللحية: كان المشركون يعقدون لحاهم، يعني يفتلونها أو يضعون لها ضفائر، أو يضعون لها رباطًا وغير ذلك؛ من باب الخيلاء ومن باب غمط الناس ومن باب التعالي عليهم.

وقد يكون من معانيها أيضًا أنه من باب التخنُّث ومن باب التشبُّه بالنساء بتضفير شعورهن وغير ذلك، وهي محرَّمة لا شك في ذلك بدلالة قوله عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «فإن محمداً بريءٌ منه».

وفي قوله عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: («أَوْ تَقَلَّدَ وَتَراً») هذا متعلِّقٌ بما تقدَّم من حديث أبي بشير

رَضِيَٱللَّهُعَنهُ أنهم كانوا يعلقون الأوتار إما عليهم وإما على دوابهم بقصد الدفع وبقصد الرفع؛ دفْع الضُرِّ أو رفعه، أو بقصد الجلب أو غير ذلك.

(«أَوْ اسْتَنْجَى بِرَجِيعِ دَابَّةٍ أَوْ عَظْمٍ، فَإِنَّ مُحَمَّداً بَرِيءٌ مِنْهُ»)، هذا لا يتعلق بالشرك والتوحيد، وإنما يتعلق بأذى الجن، كما قال النبي عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «طعام إخوانكم من الجن» في حديث عبد الله بن مسعود وفي حديثٍ آخر، لما نهى النبي عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ عن الاستنجاء بالعظم، أخبر النبي عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ أن إخواننا من الجن يجدون العظم الذي ذُكِر اسم الله عليه أوفر ما يكون لحماً، وأن الروث روث دوابنا علفٌ دوابهم. كيف يأكلونه؟ كيف يجدونه؟ هذا عالم خاص بهم، السؤال عنه لا يعنينا، وقد قال النبي عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «من حُسْن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه».

ما هي دوابهم؟ قال بعض أهل العلم: "الضباء"، وقال بعضهم: "لا نعلمه"، والأصل في ذلك ألا يُخاض في ذلك؛ لأن الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنهُمۡ أحرص الناس على الخير وأكثر الناس اهتبالاً للفرصة في السؤال إذا ورد سببه -يعني اغتنام الفرصة-، فلما قال النبي عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «عَلَفٌ لدوابِّهم» ما سأل الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنهُمۡ: "يا رسول الله ما هي دوابهم؟"، ما سألوا: "كيف يجدون العظم ممتلئاً لحماً وقد بلى ويبس؟"؛ لأنهم يعلمون أن النبي عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ قال: «من حُسْن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»، وعالم الغيب مطويٌّ على التسليم لكلام الله وكلام رسوله، ما أخبر الله عَزَّوَجَلَّ به من عالم الغيب الذي لا نشاهده -الذي ليس من عالم الشهادة- فهو حقٌّ، لكن ما هي كيفيته؟ نكل علمه إلى الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

قال رحمه الله: («فَإِنَّ مُحَمَّداً بَرِيءٌ مِنْهُ»)، هو مثل قول النبي عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «من أتى كاهنًا أو عرافًا فقد برئت منه الذِّمَّة»، وفي قوله عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «من بات بين ظهراني المشركين فقد برئت منه الذِّمَّة». ذِكْر البراءة ممن فعل فعلاً، قال أهل العلم: "أن من الكبائر ما رتب الله عَزَّوَجَلَّ عليه لعنةً أو غضباً، أو وعيداً مخصوصاً بالنار، أو نفي إيمان أو غير ذلك، أو براءة من

صاحبه".

والبراءة من الإنسان قد تكون براءة باعتبار أن ما وقع فيه كبيرة، أو قد تكون براءة لأن ما وقع فيه شركٌ مخالفٌ للتوحيد. وهذا الحديث جمع ما بينهما؛ جمع ما بين الكبيرة من حيث أن عقد اللحية، إذا قلنا أن المقصود بذلك التفاخر والخيلاء أو التشبُّه، أو أن الاستنجاء برجيع الدابة أو بالعظم، فإذا قلنا أن النبي بريء من صاحب هذين الفعلين نقول: هي براءةٌ من كبيرة. وإذا قلنا أن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تبرأ ممن تقلَّد وتراً، نقول: هي براءة ممن فعل ما يقدح في التوحيد إما بالشرك الأكبر وإما بالشرك الأصغر؛ لأن من تعلق وتراً معتقداً أنه سببٌ للدفع والرفع والجلْب فهو مشركٌ شركٌ أكبر -والعياذ بالله- لأنه أشرك في الربوبية، والشرك في الربوبية يعني أن يجعل مع الله ﷻ مشاركٌ في تدبير شيءٍ من أفعال الرب وملكوته الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال الشيخ رحمه الله: (وَعَن سَعِيدِ بنِ جُبَيْر قال: «مَنْ قَطَعَ تَمِيمَةً مِنْ إِنْسَانٍ؛ كَانَ كَعِدْلِ رَقَبَةٍ» رَوَاهُ وَكِيعُ) وكيع القاضي، وسعيد بن جبير من التابعين كما هو معروف.

وفي هذا -إن صح الحديث موصولاً- عِظَم شأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقوله رحمه الله -سواء كان من قوله أو من قول بعض الصحابة-: («مَنْ قَطَعَ تَمِيمَةً مِنْ إِنْسَانٍ؛ كَانَ كَعِدْلِ رَقَبَةٍ»)؛ لأن العتق من الشرك شيء يُقابل العتق من النار؛ لما قطع التميمة منه فكأنما أعتقه من النار لأن الشرك سببٌ لدخول النار.

قال رحمه الله: (وَعَنْ إِبْرَاهِيمَ) وهو النخعي رحمه الله (قَالَ: «كَانُوا يَكْرَهُونَ التَّمَائِمَ كُلَّهَا»). إذا قال التابعي: "كانوا يكرهون"، فالأصل أنه أراد بذلك الصحابة لأنه لا يحيل إلى التابعين وقد أدرك الصحابة، فيكون خبره يُنزَّل على ما أدركه من فعل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

فقوله رحمه الله: («كَانُوا يَكْرَهُونَ التَّمَائِمَ كُلَّهَا، مِنَ الْقُرْآنِ وَغَيْرِ الْقُرْآنِ») يُنزَّل على أن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ والذين أدركهم إبراهيم النخعي، كلهم مجمعون على كراهية التمائم،

سواء كانت من القرآن أو من غير القرآن؛ صيانة للتوحيد، وسداً لباب الذريعة، وعملاً بسنته عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

ولأن تعليق التمائم من القرآن أو من الذكر تجعل الإنسان على المحك من حيث أن الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لم يفرِّق ما بين التمائم، بل قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**من تعلق تميمة فقد أشرك**»، و«**من تعلق تميمة فلا أتم الله له**».

والإنسان في مثل هذه المسائل يكون على حيطة، من حيث أنه يتفطن لبعض الأمور التي قد يكون فعله لها سبباً لمجاراة الناس عليها بقصد الباطل وهو ما أراد إلا حقاً؛ فلا يؤتى الإسلام من قِبَلِك، ولا تؤتى السنة من قِبَلك، ولا يضعف شأن التوحيد من جهتك، بل يكون ردءاً للتوحيد وحامياً له وداعية إليه.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بَابٌ مَنْ تَبَرَّكَ بِشَجَرَةٍ أَوْ حَجَرٍ وَنَحْوِهِمَا

وَقَوْلُ الله تَعَالَى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى﴾[النجم:١٩-٢٠].

وَعَنْ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَى حُنَيْنٍ، وَنَحْنُ حُدَثَاءُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ، وَلِلْمُشْرِكِينَ سِدْرَةٌ يَعْكُفُونَ عِنْدَهَا وَيَنُوطُونَ بِهَا أَسْلِحَتَهُمْ، يقال لَهَا: ذَاتُ أَنْوَاطٍ. فَمَرَرْنَا بِسِدْرَةٍ، فَقُلْنَا: يا رَسُولَ اللهِ! اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ، فَقال رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اللهُ أَكْبَرُ! إِنَّهَا السُّنَنُ، قلتمْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، كَمَا قالتْ: بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قال إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾[الأعراف:١٣٨] لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ» رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ وَصَحَّحَهُ.



قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ الله:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه.

قال الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى: (بَابٌ مَنْ تَبَرَّكَ بِشَجَرَةٍ أَوْ حَجَرٍ وَنَحْوِهِمَا).

والتبرُّك -كما هو معلوم- بابٌ من أبواب الاعتقاد، والمقصود به التماس البركة، وله أصول عند أهل السنة والجماعة؛ أن البركة متعلقة بما نص الدليل من الكتاب والسنة على أنه مبارك، وأن ما جعل الله ﷻ فيه بركة فإنما تُطلب البركة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأنه هو الذي يبارك ﷻ، فقد يكون الشيء مباركًا بدليلٍ من كلام الله وكلام رسوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، لكن الله ﷻ يُجري بركته لأناس ويحبسها عن غيرهم.

وأظهر دليلٌ أو مثال على ذلك قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا

آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[ص:٢٩]. فكلام الله مبارك من حيث أن الله ﷻ جعل فيه بركة بتدبُّره وتلاوته، والثواب عليه، والاستشفاء به، والعمل به، والاحتجاج به، والشفاعة لأصحابه يوم القيامة إلى غير ذلك؛ ومع ذلك يُجري الله ﷻ بركة كلامه على من شاء من عباده ويحرمها من شاء، كما ثبت عن النبي ﷺ لما ذكر الخوارج قال: «يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية».

فالتبرُّك في أصله مبنيٌ على ما ثبت الدليل بأنه مبارك، والذي يبارك هو الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ لأن البركة مُضيُّها في ملكوت الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ متعلِّقٌ بتدبير الله الذي هو فعله سبحانه وبحمده.

وقد يكون الانحراف في طلب البركة -بل يكون الانحراف في طلب البركة على غير الوجه الشرعي- انحرافًا في توحيد الربوبية وانحرافًا في توحيد الألوهية؛ انحرافًا في توحيد الألوهية لأنه طلب البركة من غير الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وانحرافًا في توحيد الربوبية لأنه ربما اعتقد بعض الناس أن الشيء يبارك من دون الله -والعياذ بالله-.

قول الشيخ رحمه الله: (وَقَوْلُ الله تَعَالَى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى﴾[النجم:١٩-٢٠]). لأن المشركين كانوا يُعظِّمون هذه الأصنام وغيرها؛ إما بتعظيم التوجُّه إليها في حفظ غائب، أو جلب مرغوبٍ، أو دفع مرهوب، أو صرف العبادة لها من دون الله، أو اتخاذها واسطة بينهم وبين الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، أو التماس البركة منها.

فالتماس البركة من الأصنام هو وجهٌ من أوجه الانحراف، وإلا فانحرافهم أبعد من ذلك؛ انحرافٌ كاعتقادهم أنها تنفع وتضر من دون الله، واعتقادهم أنها وسائط بين الله ﷻ وبين خلْقه، واعتقادهم بأنواع الشرك الذي كان يُصرف لها من دون الله -سواء كان دعاءً أو ذبحًا أو نذراً أو غير ذلك-.

واللات والعزى ذكرهما الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لأنهما من أعظم ما كان يعظِّمه المشركون في الجاهلية، وإلا فأصنامهم كثيرة؛ كما ثبت أنه لما بُعِث ﷺ كانت الكعبة حولها ثلاثمائة

وستون صنماً، غير الذي كان في سقفها، وغير الذي كان في وسطها، وغير الذي اتخذه بعض المشركين في بيوتهم، وغير الأصنام التي كان المشركون يحملونها معهم في أسفارهم وفي بيعهم وشرائهم؛ بمعنى أن الشرك كان فاشياً زمن بعثته ﷺ، لكن اللات والعزى ومناة وهُبَل وإساف ونائلة هي من أعظم ما يعظمه المشركون.

ولهذا لما ذكر النبي ﷺ في الحديث الذي أصله في الصحيح، لما قال النبي ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى يلحق حيٌ من أمتي بالمشركين، وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان**». وجاء في بعض ألفاظ الحديث -وهو في الصحيح- قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**لا تقوم الساعة حتى تُعبَد اللات والعزى**»؛ لأن لها وقْعٌ في نفوس المشركين، ولهذا ذكرهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في أول ما ذكر مما يتعلق به المشركون من أصنامهم. ولأجل تعلقهم بها اشتقوا لها أسماءً، ألحدوا في أسماء الله ﷻ حتى اشتقوا من أسماء الله ﷻ أسماءً أطلقوها على أصنامهم؛ فمما قيل أنهم اشتقوا "اللات" من اسم "الله" سبحانه وبحمده، فسموا به الصخرة البيضاء التي كانت على الرجل الذي كان يلتُّ السويق.

فاجتمع فيه سببان: كونه يلت السويق للحاج في الجاهلية، وأيضاً اشتقوا له اسماً من أسماء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهذا من الإلحاد -كما هو معلوم- الذي ذكره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿**وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ**﴾[الأعراف:١٨٠].

واشتقوا من اسم "العزيز" لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ اسم "العُزَّى" وهي شجرةٌ كان يتعلق بها المشركون، واشتقوا من "المنان" "مناة".

والإلحاد في أسماء الله ليست هذه صورته فقط، ولكن الإلحاد في أسماء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنواعه كثيرة:

- إما أن يكون إلحاداً بأن يسمى الله ﷻ بما لم يسمِّ به نفسه كما يقع من النصارى.
- أو أن ينكر اسماً من أسماء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كما وقع ذلك من المشركين؛ كما قال الله

سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ﴾[الفرقان:٦٠]، وكما في قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾[الرعد:٣٠].

- وإما أن يكون الإلحاد أن يثبتوا الأسماء وأن يُجرِّدوها من معانيها كما هو إلحاد المعتزلة -فالمعتزلة لا ينكرون الأسماء وإنما يجردونها من المعاني-.
- وإما أن يكون الإلحاد أيضاً أن يشتق من أسماء الله ﷻ أسماءً لمعبوداتهم.
- أو أن يكون الإلحاد أبعد من هذا، لأنه كلما بعُدَ الناس عن القرون المفضَّلة وعن أنواع الرسالة، وكلما طرأ الجهل وقلَّ العلم وكثُرَ دُعاة الباطل؛ كلما زاد إلحاد الناس في أسماء الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

وأسماء الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ توظِّف القلب على مراقبة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وخشيته ورهبته، والإقبال عليه ومحبته والتعرض لرحماته ونفحاته.

فالذي يُصدِّق بأسماء الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ تصديقاً يتواطأ عليه القلب واللسان يكون عبداً صالحاً؛ خلا بالمعصية أو كانت في محضر الناس، خلا بالطاعة أو كان بين الناس؛ بمعنى أنه يشهد أسماء الله ﷻ في فعله وتركه، فإذا علِم أن الله ﷻ سميع وبصير سبحانه وبحمده، مُحيطٌ سبحانه وبحمده، وأن الله ﷻ علَّام الغيوب، وأن الله ﷻ لا يخفى عليه شيء راقب الله، وصلُحَ قلبه على تقوى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

وإذا علم أن الله ﷻ لطيفٌ وبرٌ وسلامٌ ورحيمٌ، وأن الله ﷻ يمهل المذنب لعله أن يتوب، وأن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يُعطي الإنسان على ما هو عليه من تلبسه بالمعصية؛ تعلق قلبه بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وأحبه وأقبل إليه وتزود من الطاعات.

وإذا علِم أن الله ﷻ جبار وقوي سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وعزيز، وأن الله -كما قال سبحانه وبحمده-: ﴿مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ﴾[النساء:١٤٧]؛ بمعنى أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قدير، قديرٌ على عباده لا يخرج عن قدرته أحد، فتوظَّف قلبه على خوف الله وألا يتعرَّض لسخطه

وعقوبته.

فالشاهد أن أسماء الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وصفاته توظِّف قلب العبد حتى يكون عبداً لله على وجه التمام، وتكون عبوديته لله عبودية تامة.

قال الشيخ رحمه الله: (**وَعَنْ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: «خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَى حُنَيْنٍ»**) يعني غزوة حنين، (**«وَنَحْنُ حُدَثَاءُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ»**). وفي بعض ألفاظ الحديث: «ونحن حدثاء عهدٍ بإسلام»، ولا تعارض بينهما؛ لأن قوله: (**«وَنَحْنُ حُدَثَاءُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ»**) يعني عهدنا بالكفر قريب، وقوله: «ونحن حدثاء عهد بإسلام» يعني عهدنا بالإسلام قريب.

وهذا يدل على أن ما وقع في آخر الحديث إنما وقع من هؤلاء الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ أجمعين؛ لم يقع من المهاجرين السابقين للإسلام ولم يقع من الأنصار، وإنما ما وقع من الذين ربما يخفى عليهم شيءٌ ما خفي على المهاجرين ولا على الأنصار، وهذا يدلُّ على أن الإنسان إذا طالت صحبته لأهل العلم وأدام النظر في كلام الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وفي سنة النبي ﷺ، وشروح أهل العلم لكلام الله وكلام رسوله عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، كان أبصر بالحق والباطل من غيره، وكان أعرف بالسنة والبدعة من غيره، وأعرف بالشرك والتوحيد من غيره، ولم تلتبس عليه الأمور.

والصحابة معذورون في ذلك -الذين قالوا "اجعل لنا ذات أنواط"-؛ لأنهم اعتذروا لأنفسهم من الخطأ الذي وقعوا فيه لما قالوا: «كنا حدثاء عهد بجاهلية» أو "حدثاء عهد بإسلام". أما الصحابة المهاجرون والأنصار رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ فلم يقع منهم شيء من ذلك.

وهذا من أعظم ثمرات العلم؛ أن الإنسان يريه الله ﷻ- بركة العلم في المواقف التي ربما يضطرب فهم الناس فيها، فيحميه الله ﷻ من الانحراف بسبب ما عنده من سابقة علم.

قال رحمه الله: (**وَلِلْمُشْرِكِينَ سِدْرَةٌ يَعْكُفُونَ عِنْدَهَا»**)، يعكفون عندها يعني يقيمون عندها إقامة الملتمس بركتها، لأن العكوف عند المشركين إنما هو عكوف عبادة: ﴿**مَا هَٰذِهِ**

﴿التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾[الأنبياء:٥٢]؛ بمعنى أنهم يعكفون عندها لقصد عبادتها، سواء بالتماس البركة كما في هذا الحديث، أو العكوف عندها لدعائها من دون الله أو لغير ذلك من الأسباب التي كان يفعلها المشركون.

قال رحمه الله: (وَيَنُوطُونَ بِهَا أَسْلِحَتَهُمْ) يعني يعلقون بها أسلحتهم، وهذا كان فعلهم في الجاهلية؛ من حيث أنهم يعتقدون أن هذه الشجرة التي هي ذات أنواط، سُمّيت ذات أنواط لكثرة ما يُناط فيها من الأسلحة والمتاع، يُناط يعني يُعلّق بها السلاح والمتاع وغير ذلك رجاء أن تبارك ما علّقوا بها من أشيائهم.

(يقال لَهَا: ذَاتُ أَنْوَاطٍ. فَمَرَرْنَا بِسِدْرَةٍ) يعني غير السدرة التي رآها الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ للمشركين، بمعنى أن هؤلاء وإن كانوا حدثاء عهدٍ بإسلام إلا أنه ما زالت عندهم أثارةٌ من علم؛ من حيث أنهم لا يحبون رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ وأرضاهم أن يكونوا متشبهين بالمشركين ولو في السدرة، مع كونهم طلبوا طلبًا منكراً رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ لخفاء الأمر عليهم، لكنهم مع ذلك ما قالوا: "يا رسول الله ائذن لنا بأن ننوط أسلحتنا بالسِدْرة التي ينوط بها المشركون أسلحتهم"؛ بمعنى أنه ما زال عندهم آثارةٌ من علمٍ من حيث أنهم لم يحبوا أن يتشبهوا بالمشركين، وهذا بحدِّ ذاته للذي هو حديث عهدٍ بإسلام أن يُحمد له؛ أن يربأ الإنسان بنفسه وألا يتشبَّه بأهل الضلال، ولو كان عنده شيءٌ من الجهل، هذا بحد ذاته يُحمد له، لكن هذا لا يعني أن ما وقع منهم يصح طلبه أو أنه جائز، ولهذا نهى النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ عن ذلك نهيًا شديداً.

والنبي ﷺ ربما خفض جناحه وهضم حقه لبعض الصحابة، إلا إذا كان الأمر يتعلق بحق الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ فإذا كان الأمر يتعلق بحق الله غضب ﷺ لذلك، ورأى منه الصحابة وسمعوا من الكلام ما لم يعهدوه منه.

فعلى سبيل المثال؛ لما قال الرجل للنبي ﷺ: "ما شاء الله وشئت"، قال: «بئس ما قلت، أجعلتني لله نداً؟! بل ما شاء الله وحده». وقال في حديثٍ آخر للرجل الذي قال: "من يطع الله

ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى"، قال: «**اجلس، فبئس خطيب القوم أنت**». في حين أن النبي ﷺ يطلبه جفاة الأعراب من الأموال ويغلظون في خطابه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ومع ذلك يهضم حقه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ. وليس لأحد من الناس أن يهضم حق أحد لأحد، لكن هذا من تودُّدِه ﷺ وتلطُّفه مع حدثاء العهد بالإسلام أو الأعراب أو غيرهم؛ يصدِّق ذلك قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿**بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾[التوبة:١٢٨].

أما إذا كان الأمر يتعلق بحق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيغضب لذلك، لأن هذا هو الذي لا يجوز غيره أن يغضب الإنسان لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولأن هذا فيه نُصْحٌ للمسلمين، ولأن حماية التوحيد أعظم من حماية الإنسان حظه من أذى الناس، حماية التوحيد وجناب ما يجب لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من إخلاص العبادة وتوقيره وتقديسه وتعظيمه؛ هذا واجب على كل مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر.

قال: (**فَمَرَرْنَا بِسِدْرَةٍ، فَقُلْنَا: يا رَسُولَ اللهِ! اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ، فَقَال رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اللهُ أَكْبَرُ!»**). والنبي يقول: «الله أكبر» عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في أحوال؛ قد يقولها عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لِعظم ما سمع من الشناعة المتعلقة بالشرك أو ما ينافي كمال التوحيد، أو لأنه سمع قالةً لا تليق بأنبياء الله ورسله. وقد يكبِّر الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ استبشاراً ببشارة سمعوها من النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ناهيك أن التكبير بحد ذاته من أعظم القربات والعبادات؛ يقول النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**أحبُّ الكلام إلى الله أربع**» وذكر منها التكبير، ولهذا أمر الله ﷻ به أمراً مؤكداً: ﴿**وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا**﴾[الإسراء:١١١]، ومن أوائل ما أمر به الله ﷻ نبيه ﷺ تكبيره كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿**يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ**﴾[المدثر:١-٣].

لكن في هذا الحديث كبَّر النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ لأن ذلك متعلِّقٌ بشناعة تتعلَّق بحق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويُشبه هذا لما دخل النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ الكعبة فاتحًا، ورأى فيها النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أن المشركين صوَّروا إسماعيل وإبراهيم عليهما السلام في جدران الكعبة من

جوفها وهم يستقسمون بالأزلام -والاستقسام بالأزلام نوعٌ من عادات المشركين التي يزعمون بها أنهم يدعون علم الغيب-، فكبَّر النبي ﷺ في جوانب الكعبة، وأمر بطست فيه ماء ومحا تلك التصاوير وقال: «قاتلهم الله! والله ما استقسما بها قط»، وحاشاهما عليهما الصلاة والسلام.

فكبَّر هنا ﷺ لأن ما طلبه الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ -حدثاء العهد بالإسلام- طلبٌ منكر، لأن فيه التماس البركة من غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ناهيك أن في ذلك مشابهةً للمشركين.

قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: («إِنَّهَا السُّنَنُ») أو السَّنَن، يعني إنها الطرق التي سلكها اليهود والنصارى حتى انحرفوا عن دعوات أنبيائهم إلى القول على الله ﷻ ما لم يقل والكذب على أنبيائه ورسله، فانحرفوا عن أصل التوحيد الذي بُعِث به موسى وعيسى.

قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: («قُلْتُمْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، كَمَا قالتْ: بَنُو إِسْرَائيلَ لِمُوسَى: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قال إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾[الأعراف:١٣٨] لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ»)؛ يعني طرقهم، حتى ينحرف الإنسان من سبيل أنبياء الله ورسله إلى سبيل الشياطين وإخوانهم.

وهذا حقٌّ واقع في الأمم السابقة، وهو سيقع في هذه الأمة، كما قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لا تقوم الساعة حتى يلحق حيٌّ من أمتي بالمشركين، وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان»، وكما في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال: «لا تقوم الساعة حتى تضطرب إليات نساء دوس حول ذي الخلصة».

وجناب التوحيد مأمورٌ بحمايته وصيانته وحياطته؛ لأن الإنسان إذا انحرف في التوحيد -ولو كان الانحراف بسيطاً أو يسيراً فيما يزعم- لابد أن يوصله إلى ما يخرج به من الدين جُمْلة وتفصيلاً، ما لم يتفقد نفسه ويراجع توحيده وينبذ البدعة ويتمسك بالسنة.

وأمثلة ذلك وأدلته وشواهده كثيرة في هذه الأمة وفي غيرها؛ فمن هذه الأمة من كان انحرافه في باب الأسماء والصفات، أو كان فيما هو دون مسائل الأسماء والصفات لكنه لا

يزال منحرفاً عن السنة، حتى يكون في آخر الزمان يقاتل هذه الأمة مع المسيح الدجال. وهذا من الضلال -والعياذ بالله- وليس وراء ذلك ضلال؛ أن يقاتل في جيش رجلٍ ضالٍّ حذَّر منه سائر الأنبياء ويزعم أنه رب العالمين، ثم يقاتل له ويغامر بنفسه على هذا الكفر؛ ليس وراء هذا الانحراف انحراف -والعياذ بالله-.

والذي نقصده بهذا قول النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**يخرج عليكم رجال من قِبَل المشرق، يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، ثم لا يعودون إليه -ووضع يده على صدره- سيماهم التخلق، لا يزالون يخرجون حتى يخرج آخرهم مع المسيح الدجال**». وهذه أول بدعةٍ ظهرت في الإسلام وآخر بدعةٍ تبقى في المسلمين وهي بدعة "الخروج". بدعة الوعيدية، مع أن بدعتهم في أول أمرها -على شناعتها- كانت تكفير الفاسق الملي، لكن لما انقبضت قلوبهم عن الصحابة وكرهوا الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ وكفَّروهم رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ وأرضاهم، وحُرِموا العلم الذي علمه الصحابة -والصحابة كلهم أوعية العلم-، بسبب موقفهم من الصحابة؛ فما زالوا يتخبطون في الضلال -والعياذ بالله- حتى يكون في آخر أحوالهم أن يكون ضلالهم كما قال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**حتى يخرج آخرهم مع المسيح الدجال**».

ومن الفوائد المتعلقة بالخوارج: أنهم في أول الأمر كانوا يقرؤون القرآن، إلا أن ضلالهم يصل في بعض الأحوال إلى أن يُنكروا شيئاً من كلام الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ وقد ذكر أبو الحسن الأشعري في "مقالات الإسلاميين" هذا من باب الاستطراد بآثار الانحراف؛ فإذا انحرف الإنسان عن السنة ولم يأخذ العلم من أهله لابد أن يقع في الضلال، ولابد أن يزداد انحرافه بُعداً عن السنة شيئاً فشيئاً حتى يخرج من الدين جملة وتفصيلاً.

حصل من واقع بدعتهم أنهم أنكروا سورة يوسف، فبعض الخوارج -وتخيل هذا الضلال- الذين قال فيهم النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، تحقرون**

صلاتكم مع صلاتهم، وقراءتكم مع قراءتهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية»، تخيل أن بعض طوائف الخوارج أنكروا أن تكون سورة يوسف من القرآن! والسبب في ذلك: استحكام الجهل، واستحكام النَّفَس الوعيدية، وتضييق رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. ولا يزال بهم ذلك حتى يُعجبوا برأيهم ويقعوا فيما هو أبعد من ذلك من الضلال.

ولهذا مما يدلُّ على ذلك أن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ نزَّل الآية التي نزلت في موسى وقومه على الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ الذين طلبوا هذا الطلب، مع البون الشاسع ما بين ما وقع من الصحابة وما وقع من بني إسرائيل مع موسى؛ فالصحابة في حديث أبي واقد ما قالوا: "اجعل لنا شجرة نعبدها من دون الله"، في حين أن أصحاب موسى قالوا: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا﴾. والصحابة ما خرجوا فارِّين كما فرَّ بنو إسرائيل من فرعون، بل خرجوا طالبين للعدو ليقاتلوهم في غزوة حنين، وبنو إسرائيل خرجوا هاربين.

والصحابة ما رأوا من الآيات كما رأى بنو إسرائيل؛ بنو إسرائيل رأوا البحر فانفلق فكان كل فرق كالطوْد العظيم، والصحابة ما رأوا ذلك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

ومع هذا كله يذكِّر النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بهذه الآية؛ من حيث أن الإنسان إذا تساهل في مثل هذا الأمر الذي يصادم دعوات الأنبياء والمرسلين، لا بد أن يصل به الحال إلى ما وصل به حال بني إسرائيل لما قالوا لموسى: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾[الأعراف:١٣٨].

هذا لا يعني يا إخواني أن أهل السنة والجماعة ينزِّلون الآيات التي نزلت في المشركين على المسلمين؛ هذه طريقة الخوارج، وإنما ينزِّلون الآيات التي ذكر الله فيها المشركين على من استهان البدعة؛ لأنها ربما توصله إلى بدعةٍ أعظم من ذلك، وربما توصله إلى الكفر، لكن ليس من طريقة أهل السنة والجماعة أن ينزِّلوا آيات كلام الله في المشركين على المسلمين؛ هذا عند الخوارج كما قالوا لابن عباس في قصة مناظرته إياهم بعد مقتل عبد الله بن خباب بن الأرت، لما قال بعض الخوارج لابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: "دعوكم منه -يعني من عبد الله بن

عباس-؛ فإنه من قوم نزل فيهم قول الله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾[الزخرف:٥٨]". هذه الآيات نزلت في كفار مكة، لكن الوعيدية الخوارج نزَّلوها على عبد الله بن عباس حَبْر الأمة وترجمان القرآن؛ هذه طريقة الخوارج.

أما أهل السنة والجماعة فيستدلون -وهذا مزلقٌ خاصة في الآونة الأخيرة- ينزِّلون الآيات التي ذكرها الله ﷻ عن المشركين في مثل هذه المسائل للتحذير من أن يستجري بالإنسان الباطل حتى يقع فيما وقع فيه المشركين، لا من حيث الحُكم عليه بالشرك. كما قال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في الأهواء قال: «تتجارى بأصحابها كما يتجارى الكلَب بصاحبه»؛ لأن الهوى لا حد له -والعياذ بالله-، لا يحكمه كتاب ولا سنة ولا تقوى ولا غير ذلك، فلا بد أن يذهب بصاحبه إلى غير سبيل أنبياء الله والمرسلين.

من مثل هذا قول حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما رأى في يد رجل خيطًا، فقطعه حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقرأ قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[يوسف:١٠٦].

هناك وجهٌ -كما هو معلوم- أن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قصد بذلك الشرك الأصغر، لكن من الأوجه المذكورة في هذا الحديث: أن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أراد بذلك أنه إذا انحرف الإنسان ولم يتفطّن للانحراف عن التوحيد واستلذّ بذلك، أو رأى أن ذلك سائغًا وعارض الكتاب والسنة وفَهْم سلف الأمة، لا بد أن يوصله إلى ما هو أبعد من ذلك من الضلال والانحراف.

قال ﷺ: («لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ» رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ وَصَحَّحَهُ)، «حذو القذة بالقذة، والنعل بالنعل، حتى لو دخلوا جُحْر ضبٍّ لدخلتموه». بل في بعض الأحاديث في غير هذا السياق قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «حتى لو كان فيهم من ينكح أمه علانية لكان فيكم من يفعل ذلك». ثبتنا الله وإياكم.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بَابُ مَا جاءَ فِي الذَّبْحِ لِغَيْرِ اللهِ

وَقَوْلُ الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ﴾[الأنعام:١٦٢-١٦٣] الْآيَةَ.

وَعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: حَدَّثَنِي رَسُولُ الله ﷺ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: «لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ، لَعَنَ اللهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ، لَعَنَ اللهُ مَنْ آوى مُحْدِثًا، لَعَنَ اللهُ مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الْأَرْضِ» رَوَاهُ مُسْلِمُ.

وَعَنْ طَارِق بنِ شِهَابٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قال: «دَخَلَ الْجَنَّةَ رَجُلٌ فِي ذُبَابٍ، ودَخَلَ النَّارَ رَجُلٌ فِي ذُبَابٍ»، قالوا: وَكَيْفَ ذَلِكَ يا رَسُولَ اللهِ؟ قال: «مَرَّ رَجُلَانِ عَلَى قَوْمٍ لَهُمْ صَنَمٌ لَا يَجُوزُهُ أَحَدٌ حَتَّى يُقَرِّبَ لَهُ شَيْئًا. فقالوا لِأَحَدِهِمَا: قَرِّبْ، قال: لَيْسَ عِنْدِي شَيْءٌ أُقَرِّبُ، قالوا لَهُ: قَرِّبْ وَلَوْ ذُبَابًا، فَقَرَّبَ ذُبَابًا، فَخَلُّوا سَبِيلَهُ؛ فَدَخَلَ النَّارَ. وَقالوا لِلْآخَرِ: قَرِّبْ، فقال: مَا كُنْتُ لِأُقَرِّبَ لِأَحَدٍ شَيْئًا دُونَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَضَرَبُوا عُنُقَهُ؛ فَدَخَلَ الْجَنَّةَ» رَوَاهُ أَحْمَدُ.



قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

قال الشيخ رحمه الله: (بَابُ مَا جاءَ فِي الذَّبْحِ لِغَيْرِ اللهِ)؛ يعني حُكْم الذبح لغير الله.

والأصل في الذبح لغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنه شركٌ أكبر؛ الذبح لغير الله، والنذر لغير الله، ودعاء غير الله لا يكون إلا شركًا أكبر؛ لأنه تقرُّبٌ لغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بما لا يجوز إلا لله.

ولهذا أول ما أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ به نبيه ﷺ -كما قلنا بالباب السابق- أمره بالتكبير. قال أهل العلم: أن الله عَزَّ وَجَلَّ قرن ما بين التكبير وما بين النحر من حيث أنهما عبادتان مشروعتان مأمورٌ بهما في أول الإسلام: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (٢) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾[الكوثر:١-٣]. وسورة المدثر نزلت أيضًا في أوائل ما نزل: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾[المدثر:٣].

بل حتى سورة الأنعام نزلت دفعة واحدة معها سبعون ألف ملك لهم زجل بالتسبيح،

وفيها أمر النبي ﷺ بأن يكون النُسُك والذبح لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[الأنعام:١٦٢].

مع كون الربِّ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وهو الغني الحميد غنيٌ عن الذابح وغنياً عن ذبيحته، لكنها عبادة يخالف بها أهل التوحيد أهل الشرك.

وهي -يا إخواني- عبادة مشروعة في كل وقت، الذبح لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قُربة يتقرَّب بها العبد لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، قد يكون لها سببٌ، وقد يكون لها زمانٌ مشروع، وقد تكون قُرْبةٌ يتقرَّب بها الإنسان لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ كما يتنفل لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بصدقة السر، وأن يكون بينه وبين الله ﷻ خبيئة لا يطَّلِع عليها إلا الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، أو أن يفعل شيئاً من القربات الثابتة في الكتاب والسنة، كذلك الذبح بحدِّ ذاته قُربةٌ ليست مشروطة بزمن كالأضاحي، وليست مشروطة بسببٍ كالعقائر، وليست مشروطة بشيءٍ يُلزم الإنسان به نفسه من غير أن يُلزمه الله ورسوله كالنذر، لكن الأصل في ذلك أنها قربةٌ يُتقرَّب بها إلى الله ﷻ. ومع ذلك الله ﷻ غنيٌ عنها: ﴿لَن يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا﴾[الحج:٣٧].

قال الشيخ رحمه الله: (بَابُ مَا جَاءَ فِي الذَّبْحِ لِغَيْرِ اللهِ وَقَوْلُ الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي﴾) يعني كل صلاتي، (﴿وَنُسُكِي﴾) كل نُسُكي، (﴿وَمَحْيَايَ﴾) كل محياي، (﴿وَمَمَاتِي﴾) كل مماتي (﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾)؛ لأن العبد لا يجوز له إلا أن يكون عبداً لله على وجه الدوام، أن يكون متذللاً لله بالعبادة في كل أحواله؛ في منشطه ومكرهه، في سعته وتقتيره، في قدرته وفي عُسره، أن يعبد الله ﷻ بقدر استطاعته ولا يكون منه شيءٌ من العبادة لغير الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

قال الشيخ رحمه الله: (وَعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: حَدَّثَنِي رَسُولُ الله ﷺ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: «لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ، لَعَنَ اللهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ، لَعَنَ اللهُ مَنْ آوى مُحْدِثًا، لَعَنَ اللهُ مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الْأَرْضِ»).

اللعن -كما هو معلوم-: الطرد والإبعاد من رحمة الله. ولا يلعن الرب ﷻ في كتابه أو نبيه ﷺ فعلاً أو فاعلاً إلا أن يكون ذلك الفعل من كبائر الذنوب، وقد يكون شركًا وكفراً ناقضًا للتوحيد من أصله.

وأهل العلم قالوا في تعريف الكبائر والموبقات: "كل ذنبٍ توعَّد الله ﷻ عليه بلعنٍ في الدنيا، أو غضبٍ في الآخرة، أو عقوبة أو وعيدٍ، أو حدٍ من حدود الإسلام". الحدود في الإسلام خمسة حدود: حد الحرابة -أشدها-، وحد المسكر -أقلها-، وحد القذف، وحد قطع السارق، وحد الزنا -سواء كان محصنًا أو ثيبًا-. هذه الحدود الخمسة في الإسلام، سُمّيت حدوداً لأن الله ﷻ حدَّ فيها العقوبة ولأنها تحد من الوقوع فيها.

فالمقصود أن تعريف الكبائر الأرجح -وهو الذي اختاره مشايخنا-، ومن أوائل من عرَّف الكبائر بهذا التعريف الكلاباذي، ثم العز بن عبد السلام، ثم ابن تيمية رحمه الله -وإن كانا متقاربين العز بن عبد السلام وابن تيمية-، لكن هو الذي استقر عليه جمهور العلماء: أن كبائر الذنوب ما توعَّد الله ﷻ عليه بلعنٍ، أو غضبٍ، أو حدٍ من حدود الإسلام الخمسة المعروفة، أو نفي إيمان عن صاحبه، أو البراءة ممن فعله، أو قول أنه "ليس منا".

- نفي الإيمان عن من فعله كقول النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن**»، قالوا: من يا رسول الله؟ قال: «**من لا يأمن جاره بوائقه**».

- أو البراءة من صاحبه كقول النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**من بات بين ظهراني المشركين فقد برئت منه الذِّمَّة**».

- أو قول "ليس منا" كقول النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**من غشنا فليس منا**»، و«**من حمل علينا السلاح فليس منا**». وكقوله ﷺ في البراءة من النائحة: «**إن الله بريء من النائحة والصالقة والشاقة**»، والصالقة: هي التي ترفع صوتها بالنياحة وبالبكاء.

فهذا هو الذي ذكره أهل العلم في تعريف الكبائر.

لكن أيضاً أضاف بعض أهل العلم إلى ذلك أن الكبائر ليست محصورة بعدد، وإن ثبت عن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كما في البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أن النبي ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات» قيل: وما هن يا رسول الله؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتْل النفس التي حرَّم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات». هذا العدُّ ليس المقصود به الحصر، وإنما المقصود به ضرب المثال -كما قال أهل العلم-، فهي أصولٌ لفروعٍ وأسس، وإنما العلم ضياء وغبس، أو أن يكون غيرها عائدٌ إليها، إما أن يكون النبي أراد بذلك ذكر بعض الموبقات، أو أن يكون غيرها مما لم يُذكَر داخلٌ فيها.

وإلا فالكبائر أكثر من ذلك، ولهذا جاء عن عبد الله بن عباس -وإن كان في سنده ضعف؛ لأنه من رواية ليث بن أبي سليم عن طاووس عن عبد الله بن عباس- أنه سئل عن الكبائر فقيل: "الكبائر سبع؟" قال: «بل هي إلى السبعين أقرب». وفي لفظٍ آخر قال: «هي إلى السبعمائة أقرب». وفي لفظٍ ثالث قال: «بل هي سبع وسبع وسبع وسبع».

وكذلك جاء عن ابن عباس -وإن كان في سنده كلام- أنه قال: «لا كبيرة مع الاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار»؛ بمعنى أن الكبائر قد تكون في أصلها صغائر، لكن لاستخفاف المذنب وإصراره عليها صارت في حقه كبيرة، وقد تكون صغيرة لكن تعظُم بحسب الزمان وبحسب المكان، كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[الحج:٢٥].

لكن يبقى أن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في هذا الحديث يذكر بعض الكبائر مقرونة بالشرك؛ لا من حيث اتفاقهما في المنزلة، لكن من حيث أنهما كلاهما مخالفة لأمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، يعني اتفاقهما في كونها معصية، لأن الشرك أعظم ما عُصي الله عَزَّ وَجَلَّ به، ومع ذلك يجعله النبي ﷺ قريناً لغيره من الذنوب مما هو دون الشرك كما في حديث الموبقات، وكما في حديث علي

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ لكنه يقدِّم ما هو أقبح فيما يتعلق بالتعدي على حق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى والظُّلْم في حق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فقدَّم النبي ﷺ في الموبقات أقبحها: «الشرك بالله والسحر»، وقدَّم النبي ﷺ في حديث علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هذا: الذبح لغير الله؛ قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لعن الله من ذبح لغير الله»، سواء كان الذبح مما يتقالُّ الناس شأنه، أو كان الذبح مما ينفس ماله ويكون عزيزاً عند الناس، لأن الذبح في حد ذاته إذا صُرِف لغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى صارت عبادة لغير الله؛ سواء ذبح بدنة وناقة، أو ذبح ما هو أقل من ذلك.

قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: («لَعَنَ اللهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ»)، سواء لعنهما لعنًا مباشراً أو تسبَّب في لعنهما؛ لأنه جاء في الحديث الصحيح عن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ قال: «من الكبائر شتم الرجل والديه». سمّاها كبيرة عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وهذا يصدِّق ما قلناه قبل قليل أن من وصف الكبيرة أن تكون مقرونة باللعن؛ فهنا قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: («لَعَنَ اللهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ»)، وفي حديث عبد الله بن عمرو بن العاص في البخاري ومسلم قال: «من الكبائر شتم الرجل والديه»، قالوا: يا رسول الله أيسب الرجل أباه؟ قال: «نعم، يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه»؛ يعني يتسبب. فإذا كان هذا من الكبائر، فأقبح من ذلك أن يسب أباه مباشرة -والعياذ بالله-.

وقال ﷺ: («لَعَنَ اللهُ مَنْ آوى مُحْدِثًا») يعني: لعن الله من حمى محدثًا حتى لا يُقام عليه الحد؛ سواء كان إحداثه متعلقًا بحقوق الآدميين، أو ما هو أعظم من ذلك كأن يكون المحدث ممن أحدث بدعة في الإسلام وفرَّق الناس، أو أشاع بدعة تتعلق بالأسماء والصفات والقضاء والقَدَر، وعقائد الوعيدية والمرجئة وغير ذلك.

فإذا حماه -مع أن ولي الأمر أراد أن ينفذ حكم الله ﷻ فيه، سواء قتلاً أو تعزيراً أو حبسًا أو غير ذلك- فقد عطَّل حد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، بمعنى أنه أعان على المنكر ولم يعن على

المعروف، وقد قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾[المائدة:٢]، وهذا أعظم جناية أن يكون الإنسان خصمه رب العالمين سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ هذه خصومة منه لرب العالمين، من كان الله ﷻ خصمه خُصِم.

فمن معاني إيواء المحدث: إيواء محدثٍ وجب إقامة الحد عليه، كأن يكون سرق ولم تظهر له توبة، واستأثر بالمال المسروق، أو أن يكون قذف عرضاً ووجب عليه حد الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فأوى إلى إنسان حتى يمنع من إقامة الحد عليه. وأعظم من ذلك أن يكون أحدث في دين الله ﷻ حدثاً، ثم أوى إلى أناس يحمونه من إقامة حدّ الله ﷻ عليه.

قال ﷺ: («لَعَنَ اللهُ مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الْأَرْضِ»). وتغيير منار الأرض ذكر أهل العلم أن له معنيين:

١- أن يغيِّر منار الأرض بقصد إضلال المسافر؛ كأن يتعاهد الناس علامة يعرفون بها الطريق فيضيِّع علامتهم أو يزيلها حتى يضيع الناس فتتلف أموالهم وأنفسهم بسببه.

٢- أن يغير منار الأرض تغييراً يترتب عليه أن يأكل أموال الناس بالباطل، وأن يضيف أرضهم إلى أرضه؛ كالذي يغيِّر علامات أرضٍ أو مزرعة أو مُلكاً فيأخذ من مُلك جاره بتغيير العلامات التي تحدُّ ما بين ملكه وما بين ملك جاره.

وهذا مع كونه أكلٌ للمال بالباطل، هو أيضاً غشٌ للمسلمين؛ قد قال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «من غشنا فليس منا». وفي الحديث الصحيح قال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «من ظلم قيد شبر من الأرض طوِّقه من سبع أرضين»، فسماه النبي ظلماً عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

ثم ذكر الشيخ رحمه الله حديث طارق بن شهاب وفيه: (أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «دَخَلَ الْجَنَّةَ رَجُلٌ فِي ذُبَابٍ») أيْ بسبب ذباب، («ودَخَلَ النَّارَ رَجُلٌ فِي ذُبَابٍ») أيْ بسبب ذباب، (قالوا: وَكَيْفَ ذَلِكَ يا رَسُولَ اللهِ؟ قال: «مَرَّ رَجُلَانِ عَلَى قَوْمٍ لَهُمْ صَنَمٌ»). الفرق بين الصنم والوثن: أنهما يتفقان في كونهما محلاً لعبادة غير الله، وتُصرف لها العبادات على أنواعها لغير الله

سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، لكن الفرق بينهما عند أهل العلم: أن الصنم ما نُحت على شكل صورة -سواء صورة إنسان أو حيوان أو غير ذلك-، والوثن ما عُبد على هيئته كالقبر والشجر وغير ذلك.

(«لَا يَجُوزُهُ أَحَدٌ حَتَّى يُقَرِّبَ لَهُ شَيْئًا. فقالوا لِأَحَدِهِمَا: قَرِّبْ، قال: لَيْسَ عِنْدِي شَيْءٌ أُقَرِّبُ، قالوا لَهُ: قَرِّبْ وَلَوْ ذُبَابًا، فَقَرَّبَ ذُبَابًا، فَخَلُّوا سَبِيلَهُ؛ فَدَخَلَ النَّارَ»)؛ يعني دخل النار بسبب أنه قرَّب لغير الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ شيئًا ولو كان ذبابًا.

(«وَقالوا لِلْآخَرِ: قَرِّبْ، فقال: مَا كُنْتُ لِأُقَرِّبَ لِأَحَدٍ شَيْئًا دُونَ اللهِ عَجَّلَ، فَضَرَبُوا عُنُقَهُ؛ فَدَخَلَ الْجَنَّةَ» رَوَاهُ أَحْمَدُ) هذا الحديث جوَّد إسناده الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله وكثيرٌ من أهل العلم، لكن من أهل العلم من يقول بأن هذا الحديث سنده ضعيفٌ مرفوعًا إلى النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ومنهم من يقول: إنه موقوفٌ على سلمان الفارسي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وأن سلمان ربما حدَّث به عن بعض أخبار بني إسرائيل لأنه كان أجيراً عندهم قبل الإسلام.

وسواء كان مرفوعًا أو موقوفًا؛ فالصواب أن مثل هذا لا يخالف ما عندنا من حيث أن الذبح لا يكون إلا لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فهو موافقٌ لأصول الشريعة ودعائم التوحيد التي بُعِث بها النبي ﷺ بل بُعِث بها سائر الأنبياء.

وفي قوله ﷺ: («دَخَلَ الْجَنَّةَ رَجُلٌ فِي ذُبَابٍ، ودَخَلَ النَّارَ رَجُلٌ فِي ذُبَابٍ»)؛ الأصل في ذلك أنهما مرّا بقومٍ لا يأذنون لأحدٍ أن يجوز واديهم حتى يقرِّب لصنمٍ عندهم يعظّمونه، فلما جاء الأول طلبوا منه أن يقرِّب فلم يعتذر عن التقريب من حيث أنه شرك، وإنما اعتذر بأنه لا يملك شيئًا يقربه؛ بمعنى أن الذي منعه من التقريب ليس كونه شركًا ولا كونه على التوحيد، وإنما عجزه عن الشرك أو عجزه عن إظهار ما يوافقونه عليه أو يوافقهم عليه من أنه مشركٌ وعلى ملتهم، ولهذا لما أرادوا أن يستثبتوا مما هو عليه من موافقتهم للشرك قالوا: قرِّب ولو ذبابة، مع أنهم لا يرون أن ذبابة يُقرَّب لها من دون الله، لكن حتى يعلمون أنه على ما هم عليه من الشرك بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

(«فَقَرَّبَ ذُبَابًا، فَخَلُّوا سَبِيلَهُ»)، بمعنى أنه سلِمت له نفسه لما قرَّب لغير الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لكن لم يسلم له توحيده -والعياذ بالله-، وصار حاله في مآله النار كما قال النبي ﷺ: («فَخَلُّوا سَبِيلَهُ؛ فَدَخَلَ النَّارَ»).

(«وَقالوا لِلْآخَرِ: قَرِّبْ، فقال: مَا كُنْتُ لِأُقَرِّبَ») بمعنى أنه قد يكون بالإمكان أن يُقرِّب أناقته التي تحته، قد يكون بالإمكان أن يُقرِّب ولو ذبابًا مثلما فعل الذي قبله، لكنه أبى ذلك صيانةً للتوحيد بقوله: («مَا كُنْتُ لِأُقَرِّبَ لِأَحَدٍ شَيْئًا دُونَ اللهِ ﷻ») فدل على أنه موحِّد يرى أن القربان لا يجوز إلا لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وبقي على ذلك حتى قُتِل على ذلك فدخل الجنة.

فحماية التوحيد وصيانته والتمسُّك به مما يُمدح عليه الإنسان ولو تعرض إلى التلف.

وهنا مسألة متعلقة بالعذر بالإكراه والعذر بالجهل وغير ذلك؛ لكن حتى لو رخصت نفس الإنسان عنده مقابل صيانته لتوحيد الله ﷻ؛ فإنه لا يُعاب عليه ذلك ولا يسمى قاتل نفسه.

بمعنى أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ جعل العُذْر بالإكراه رخصة، لكن نبينا ﷺ وسائر الأنبياء ألم يُكرهوا في الدعوة إلى التوحيد؟ أما قُتل زكريا؟ أما قُتل يحيى؟ سُمّي أولو العزم أولو العزم لكثرة ما نالهم من أممهم؟ ومع ذلك ما اعتذروا عما يقع منهم من بلاء بكونه إكراهًا. نعم، يجعل الله ﷻ لعباده رُخصة يحفظون بها أنفسهم من التلف ويعذرهم في ذلك سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وهذا أمرٌ مهم -يا إخواني-، لكن لو ثبت إنسان على التوحيد وعلى السنة ولو كان في ذلك تلفًا له؛ هل يُعاب عليه ذلك؟ ما يُعاب عليه ذلك، هذا أرخص نفسه لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

لكن أيضًا بالمقابل لا يقال لأحد: "لا يجوز لك أن تترخص بالإكراه"، فالعلم وسطٌ ما بين ذلك. ألم يُعرض الإمام أحمد رحمه الله في بدعة الخلْق على القرآن على السياط؟ أما جُلد رحمه الله وحُمل مجلوداً المأمون في طرسوس هلك قبل أن يصل إليه الإمام، ثم عاد وعُيد عليه العذاب لأنه ظن أن الفرج أتى لما بلغه أن المأمون مات، وكان مرابطًا في

طرسوس ومع ذلك لما عاد إلى السجن، عاد الأمر أشد مما كان عليه. ومات القواريري وهو يرى الإمام أحمد وما فتّ ذلك في عضده: ومات ابن نوح وهو يرى، وما فتّ في عضده، ومات نعيم بن حماد في السجن وجُر بالسلاسل حتى كُردس في حفرة، ومع ذلك ما وافقوهم على ما يقولون.

بل قال المعتصم -وهو من أشد من آذى الإمام أحمد-: "قل كلمة أحل عنك القيد بيدي، قل القرآن مخلوق"، قال: "لا أجد ذلك في كلام الله ولا كلام رسوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ"، فأُعيدت السياط عليه حتى يغشى عليه، ثم يُحمل، ثم يؤتى به ويُجلد من الغد.

فالإنسان إذا رخصت نفسه لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وحصل له من ذلك ما حصل من الأذى لا يُعاب عليه ذلك؛ كما أن الإنسان قد يطيل الصلاة فتتفطر قدماه كما كان النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ على ذلك، وأمته من بعده يطيلون القيام، ويكثرون الصيام حتى يظهر ذلك في وهن أبدانهم، ولا يُعاب عليهم ذلك. بمعنى أن هذا مما لابد أن يُفهم على وجه الصواب؛ من حيث أنه لا يُعطَّل رحمة الله لأمته -الذي هو العذر بالإكراه-، وأيضًا لا يُعاب على من لم يأخذ بهذا العذر.

هذا فيما يتعلق بهذه الأمة، مع أن هذا الحديث -يا إخواني-، قال بعض أهل العلم أنه متعلِّقٌ بما وقع في الأمم قبلنا، ليس متعلقًا بهذه الأمة؛ من حيث أن العُذر بالإكراه رحمة تدارك الله بها هذه الأمة المرحومة لم تكن في الأمم السابقة، فلم يكن في الأمم السابقة أن من العذر في فعل الكفر الإكراه، ودللوا على ذلك بقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾[الكهف:٢٠]؛ بمعنى أنكم لو طاوعتموهم على ذلك وعدتم إلى مِلَّتهم لم يعذركم الله ﷻ بذلك لأنه قال: ﴿وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾.

قال بعض أهل العلم: العُذر بالإكراه إنما خصه الله ﷻ بهذه الأمة لأنها أمة مرحومة.

والأثر المشهور في ذلك أن عمار رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ نزل فيه قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ

﴿وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾[النحل:١٠٦]؛ لهذا أهل السنة والجماعة يعدون الإكراه عُذراً من الأعذار التي دلت عليها النصوص، سواء كان الإكراه، أو التأول السائغ، أو الخطأ، أو الجهل. ومنهم من يصل بالأعذار التي تُدفع التكفير إلى قرابة اثني عشر عذراً.

وقد استدلوا بحديث عمار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما جاء إلى النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يبكي قال: «**ما وراءك؟**» قال: "شر يا رسول الله، ما تُرِكتُ حتى نلتُ منك وذكرتُ آلهتهم بخير"، قال: «**كيف تجد قلبك؟**» قال: "مطمئنًا بالإيمان"، قال: «**فإن عادوا فعُد**».

مثل عمار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لابد أن يُعلم حاله:

١- عمار أُكره على القتل وزهوق نفسه.

٢- أُكره من أُناس قادرين على فعل ذلك به.

٣- رأى عمار ذلك في غيره؛ رأى المشركين يقتلون سمية بنت خياط -والدته-، ويقتلون والده ياسر، ويقتلون أخاه الحارث وهو يرى؛ فتحقق عنده أنهم قادرون.

ناهيك أن عمار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ "عنسيٌ" من قبائل اليمن، لصيقٌ في قريش وليس منهم، فليس له قبيلة تحميه. فمثل هذا رخصةٌ ترخَّص الله عَزَّوَجَلَّ بها على عباده، لكن يبقى أن الإنسان لا يجوز له أن ينكر على من تحمَّل الأذى ولم يجبهم إلى الكفر، ولا بد أن يُعلم هنا أن الإكراه متعلقٌ بزهوق النفس، ليس متعلقاً بالمال وشبه ذلك، ومن أهل العلم من قَالَ: أن الإكراه أيضاً متعلقٌ بالتعدي على العرض، لكن الأصل الذي دل عليه الكتاب والسنة أنه متعلقٌ بالقتل وإزهاق النفس.

وأهل السنة والجماعة في هذه المسألة وسطٌ ما بين المرجئة وما بين الوعيدية - الخوارج- الذين يضيقون رحمة الله ولا يرون عذراً، وما بين المرجئة الذين يقولون:

تزود ما استطعت من المعاصي ... إذا كان القدوم على كريمِ

بل هم يجمعون ما بين النصوص فيضمون بعضها إلى بعض.

والأصل في هذا الباب أنه متعلقٌ بالذبح لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، وأنه قُرْبةٌ لا تجوز لغيره سبحانه وبحمده، وأن من ذبح لغيره مختاراً متقرِّباً أنه مشركٌ شركاً أكبر.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بَابُ لا يُذْبَحُ لِلهِ بِمَكَانَ يُذْبَحُ فِيهِ لِغَيْرِ اللهِ

وَقَوْلُ الله تعالى: ﴿لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾[التوبة:١٠٨].

وَعَنْ ثَابِتِ بْنِ الضَّحَّاكِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: نَذَرَ رَجُلٌ أَنْ يَنْحَرَ إِبِلاً بِبُوَانَةَ، فَسَأَلَ النَّبِيُّ ﷺ؟ فقال: «هَلْ كَانَ فِيها وَثَنٌ مِنْ أَوْثَانِ الْجَاهِلِيَّةِ يُعْبَدُ؟» قالوا: لَا. قال: «هَلْ كَانَ فِيها عِيدٌ مِنْ أَعْيَادِهِمْ؟» قالوا: لَا. فقال رسول الله ﷺ: «أَوْفِ بِنَذْرِكَ؛ فَإِنَّهُ لَا وَفَاءَ لِنَذْرٍ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ، وَلَا فِيمَا لَا يَمْلِكُ ابْنُ آدَمَ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُد، وَإِسْنَادُهُ عَلَى شَرْطِهِمَا.



قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللّه:

ثم ذكر الشيخ رحمه الله الباب الذي بعده وهو متعلقٌ بهذا الباب قَالَ: (لا يُذْبَحُ لِلهِ بِمَكَانَ يُذْبَحُ فِيهِ لِغَيْرِ اللهِ)، يعني حتى وإن كان الذبح لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فلا يُذبح في مكانٍ يُذبح فيه لغيره؛ حتى لا يُكثِّر المسلم أهل الإشراك، ولا يُكثِّر أهل السنة أهل البدعة. وهذا أيضاً متعلقٌ أن من أسباب حماية التوحيد: ألا يختلط الموحِّد بمجتمع أهل الشرك، وألا يجالس السلفي السني أهل البدع. ولهذا قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في "مسجد الضرار" الذي بناه المنافقون ليفرِّقوا أصحاب النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾[التوبة:١٠٨].

فتكثير أهل البدع المستفيد من وراء ذلك أهل البدع أنفسهم، بمعنى أنهم يكاثرون المسلمين بدخول المسلمين عليهم في مساجدهم أو محالّ عبادتهم، أو في غير ذلك، حتى أن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ لما فُتحت الشام وكانت فيها كنائس، بلغه أن بعض الناس يدخلون كنائس النصارى -مثلما يفعل بعض "الفارغين" في زماننا ممن لا تمييز عنده بين الحق والباطل-،

هناك من يدخل دير النصراني وكنيسته، ومعابد البوذيين والسيخ وغيرهم، يدخلها بقصد التوثيق ويصور نفسه في وسطها! عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما بلغه أن بعض الناس ربما دخل، وما وقع من الناس في زمن عمر ما نقول معذورون في ذلك، لكن ربما يكون لهم عذرٌ في ذلك من حيث أنهم ما أَلِفوا الكنائس في جزيرة العرب بهذا التزويق وهذا التصوير وهذه التماثيل.

والإنسان بطبيعة الحال يحمله الفضول على أن يرى ما لم يرى من قبل، وهذا يشد الانتباه، كما قالت أم حبيبة وأم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لما عادتا من الحبشة وصفتا للنبي ﷺ كنيسة رأتاها في أرض الحبشة اسمها ماريا، وذكر ما فيها من تصاوير، بمعنى أنها لفتت انتباههما رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بما فيها من تزويق وتصاوير وغير ذلك، ومع ذلك ما التفت النبي إلى ذلك وقال: «أولئك شرار الخلْق عند الله؛ أولئك قومٌ إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا عليه تلك التماثيل واتخذوا تلك الصور».

فالشاهد: أن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما بلغه أن بعض الناس دخل دير النصراني وكنيسة النصراني قَالَ: «لا تدخلوا عليهم أن تصيبكم السخطة وأنتم بينهم»، حتى لو تذرَّع إنسانٌ بأن عمر ذاته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: إنَّا لا ندخل كنائسكم لما فيها من تصاوير، يكون هذا في أول الأمر، لكن بعد ذلك لا يجوز للإنسان أن يدخل لأن الدخول بحد ذاته تكثيرٌ لسوادهم.

قال الشيخ رحمه الله: (وَعَنْ ثَابِتِ بْنِ الضَّحَّاكِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: نَذَرَ رَجُلٌ أَنْ يَنْحَرَ إِبِلاً بِبُوَانَةَ). و"بوانة" اسمٌ يُطلق على هضبة وراء ينبع، وكان المشركون يعبدون فيها وثنًا لهم. وبهذا نجمع بين الروايات في هذا الحديث؛ لأن هذا الحديث فيه روايات كثيرة، ربما يظن بعض الناس أنه لا يمكن الجمع بينها.

فمن قال بأنها هضبة، نقول: أنها هضبةٌ لكن كان عليها صنمٌ اسمه بوانة، فلما ضرب التوحيد بجرانه وانتشر الحق وظهر النبي ﷺ على من حوله من العرب، وأعزّ الله ﷻ الدين، أزال الصحابة بوانة كما أزالوا غيرها من الأصنام.

فيجتمع بهذا أن يقال بأنها هضبةٌ وأن الصنم الذي عليها اسمه "بوانة"، فسُمّيت الهضبة باسم "بوانة".

ولما سأل النبي ﷺ: «هل كان فيها وثنٌ من أوثان الجاهلية يُعبد؟»، يوجَّه على أنه هل فيها وثنٌ يُعبد بعد الوثن الذي أمرنا بإزالته، فيستقيم الحال على ذلك وتجتمع الروايتان؛ من حيث أنها كانت صنم على بوانة، ثم لما سأل الرجل عن نذره، سأله حال كونها هضبة لكن ليس عليها صنمٌ، أزاله الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ والنبي حاضر ﷺ، كما أزالوا ذي الخلصة واللات والعزى وإساف ونائلة وغيرها.

(**قال الضحَّاك: نَذَرَ رَجُلٌ أَنْ يَنْحَرَ إِبِلاً بِبُوَانَةَ، فَسَأَلَ النَّبِيُّ ﷺ؟ فقال: «هَلْ كَانَ فِيها وَثَنٌ مِنْ أَوْثَانِ الْجَاهِلِيَّةِ يُعْبَدُ؟»**)، يعني في هذا الوقت الذي نذر أن ينحر الإبل، وإلا -على القول الذي قلناه قبل قليل- كانت قبل ذلك في ثنيةٍ من ثناياها وثنًا يُعبد من دون الله، لكنه أُزيل كما أزيلت سائر الأصنام.

(**قالوا: لا. قال: «هَلْ كَانَ فِيها عِيدٌ مِنْ أَعْيَادِهِمْ؟»**) يعني في هذا الحال الذي أردت أن توفي بنذرك، (**قالوا: لا. فقال رسول الله ﷺ: «أَوْفِ بِنَذْرِكَ؛ فَإِنَّهُ لا وَفَاءَ لِنَذْرٍ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ، وَلَا فِيمَا لا يَمْلِكُ ابْنُ آدَمَ»**).

هذا الصحابي اسمه كردم بن سفيان الثقفي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وبنو ثقيف مواطنهم ومنازلهم الطائف وما حولها، وينبع التي هي معروفة الآن بهذا الاسم في هذا الزمان بعيدةٌ عن منازل ثقيف التي هي الطائف.

ما فائدة هذا الاستطراد؟

فائدة هذا الاستطراد أنه لماذا نذر الرجل أن يذبح إبلاً في بوانة ولم ينذر أن يذبحها في بلده أو في الحرمين أو في غيرها؟

قال أهل العلم: إنما نذر كردم بن سفيان الثقفي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يذبح إبلاً ببوانة في هذا

المكان البعيد عن قومه؛ لأنه -كما جاء في بعض ألفاظ الحديث- أنه فقد بنتًا له اسمها ميمونة، فنذر إن وجدها أن يذبح إبلاً في المكان الذي يجد بنته فيه، وبنته كانت صغيرة ففقدها في هذا المكان، فلما وجدها في هذا المكان أراد أن يكون النذر في مكان النِعمة التي حصلت له.

وكان هذا في آخر حياته ﷺ في حجة الوداع؛ جاء إلى النبي ﷺ والنبي على ناقته في حجة الوداع وبنته -ميمونة بنت كردم بن سفيان الثقفي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وعن أبيها- معه، وقال: يا رسول الله إنني نذرت أن أذبح إبلاً ببوانة. قالت ميمونة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: "وكان أبي قد فقدني فوجدني فيها"، حتى إن ميمونة بنت الحارث كانت صغيرة وقالت: "استوقف أبي النبي ﷺ ودنت ناقته من ناقته"، قالت ميمونة: "فلا أنسى طول سبابة رِجْل رسول الله ﷺ"؛ وغالبًا الصغار ينتبهون لدقائق الأمور، فهي انتبهت لطول سبابة رِجْلِهِ ﷺ وأبوها يسأل عن أمرٍ آخر.

فالشاهد؛ هذا في بعض روايات الحديث أنه نذر لأنه فقد بنته في ذلك المكان.

وفي لفظ أبي داود أن الرجل قال: «يا رسول الله إني نذرت: إن رزقني الله ولداً أن أذبح إبلاً ببوانة». وهذا لا تعارض بينه وبين قصة ميمونة؛ لأن قصة ميمونة جاءت تفصيلية في سبب النذر وفي أنها هي التي روت الحديث عن أبيها في بعض ألفاظ الحديث، وذكر ابن حجر في "الإصابة"، وأيضًا جاءت تفصيلية من حيث زمن سؤاله للنبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وهيئته لما سأل النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وهو على ناقته؛ فلا تُرد هذه الرواية بتفصيلها لوجود رواية أخرى عند أبي داود، ومع ذلك ما في أبي داود حديثٌ صحيح.

فيُجمع بينهما بأنه حصلت له النعمتان: فَقَدَ ابنته ووجدها في بوانة، وأتته البشارة بأنه رُزِق ولداً وهو في بوانة، فاجتمعت له النعمتان في بوانة، فأراد أن يكون النذر في هذا المكان الذي حصلت له النعمتان فيه.

ومن أهل العلم من قال يا إخواني: إنه إنما نذر أن يذبح إبلاً ببوانة -وهذا أيضًا قولٌ

لبعض أهل العلم وهو متجه-؛ أن بوانة كانت على طريق المسافرين وأراد أن يتصدق باللحم للمسافرين، وحتى تكون الصدقة في وجهها أراد أن يكون التصدُّق باللحم في طريقٍ يمرُّه المسافرون فيأخذون زادهم على طريقهم.

ومن التوجيه أيضاً لهذا الحديث: أنه أراد أن يذبح الإبل ببوانة لأن بوانة كان يحيط بها بعض الأعراب من الفقراء فأراد أن يقرِّب لهم الصدقة من حيث أن هذا أيسر لهم.

وعلى كل حال؛ سواء كان ذلك لأنه ولد له ولد، أو حصل له أن حفظ الله له بنته، أو أراد بذلك أن تكون على طريق المسافرين، أو أراد بذلك أن تكون قريبة من الفقراء؛ في كل أحوالها سأله النبي ﷺ: «**هل فيها من وثن؟ وهل فيها من عيدٍ من أعياد الجاهلية؟**» فلما كانت خالية من الأوثان وخالية من أعياد الجاهلية، ناسب أن تكون عبادةً لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ خالصة من أن يتكثر بها المشركون ولو كانت عبادةً لله، وأن تكون صائنةً للتوحيد أو للعبادة ألا تختلط بمكانٍ يُعبد فيه غير الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

وهذا يا إخواني حتى ولو تساهل فيه المشركون لا يجوز للمسلم أن يتساهل فيه؛ يعني في زماننا لا حرج عند النصراني أو عند البوذي -كما يروّجون لذلك- أن يدخل المسلم وأن يصلي ركعتين في معابدهم، ربما يسوِّغون ويأذنون بذلك، إذْنهم بذلك لا يدلُّ على جوازه، كما أن إذنهم بذلك لا يدلُّ على أنه يجوز لنا أن يدخل النصراني مساجدنا من باب أولى؛ بمعنى أن الإنسان يحمي التوحيد ولو تراخى صاحب الشرك عن شركه، فصيانة التوحيد من باب أولى.

ومن المسائل المتعلقة بهذا الباب ونختم بها؛ أن النذر في أصله لا يجوز، وإن كان الإنسان إنما نذر لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وإلا فالأصل أن النذر إلزام الإنسان نفسه شيئاً لا يلزمه، وقد نهى النبي ﷺ عن النذر وقال: «**إنما يُستخرج به من البخيل**»؛ الذي لا يتصدق حتى ينذر، ولا يصوم حتى ينذر، ولا يُطعم حتى ينذر، هذا جعل العبادة واجبة عليه، وإلا فالأصل

المسابقة والمسارعة لأن هذا هو الذي أمر الله به سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

الله ﷻ ما أمر بالنذر وإنما أمر بضده، أن يبادر بالطاعات: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾[الحديد:٢١]، ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾[آل عمران:١٣٣]، ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾[البقرة:١٩٧] إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث.

أما النذر في حد ذاته ولو كان في طاعة فإنه في أصله منهيٌ عنه لقول النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إن النذر لا يأتي بخير، وإنما يُستخرج به من البخيل».

فإن قال إنسان: أثنى الله ﷻ على الذين يوفون بالنذر.

نقول: إنما أثنى الله ﷻ عليهم لا لنذرهم وإنما لوفائهم بالنذر، قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾[الإنسان:٧].

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بَابٌ مِنَ الشِّرْكِ النَّذْرُ لِغَيْرِ اللهِ

لِقَوْلِهِ: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾[الإنسان:٧].

وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللهَ يَعْلَمُهُ﴾[البقرة:٢٧٠].

وفي الصحيح: عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قال: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللهَ فَلْيُطِعْهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللهَ فَلَا يَعْصِهِ».



قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ الله:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه.

انتهى الكلام عند قول المؤلف الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى: (بَابٌ مِنَ الشِّرْكِ النَّذْرُ لِغَيْرِ اللهِ)، يعني من الشرك الأكبر الناقل عن الإسلام لمن علِم حكمه ثم فعله؛ لأن النذر في أصله عبادة، والله ﷻ إنما خلَق العباد لعبادته، ومن صرَفَ شيئًا منها لغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خرج عن اسم الإسلام والإيمان.

والنذر في أصله اشتقاقه من كلمة "نذر ينذر نذراً"، ومنه "النذارة"، وعلاقته بالنذارة من حيث أن باذل المال -سواء كان مالاً، أو مطعومـًا أو مشروبـًا، أو قطائف حرير، أو عسلاً أو طِيبًا أو غير ذلك- يُنذر الناس بأن هذا مرفوعٌ عنه المُلْك لمن نُذِر له، فصارت صورة الذي أوقف مالاً حتى تُرفع الأيدي عنه ولا يُستفاد منه ولا يُتناول منه.

فاشتقاقه من مادة الإنذار، يعني الإخبار بأن هذا خرج من مُلْك صاحبه إلى مُلك من نَذَر له، هذا من حيث اشتقاق أصل الكلمة وجذرها على قولٍ لبعض العلماء.

لكن من حيث حُكمه؛ الأصل في النذر أنه عبادة، وأن العبادة تُبنى على النص -ما جاء

من كلام الله وكلام رسوله ﷺ-، سواء حظْراً أو إذنـًا، والذي جاء من النبي ﷺ التحريم، كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة ومن حديث عبد الله بن عمر أن النبي ﷺ: «نهى عن النذر»؛ يعني إلزامُ الإنسان نفسه شيئًا غير لازم لـه، بمعنى أنـه أوجب على نفسه ما لـم يوجبه الله ﷻ عليه. والله ﷻ يقول في محكم كتابه عن نفسه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا﴾[الطلاق:٧]، والناذر كلَّف نفسه شيئًا غير ما أمره الله ﷻ به، ومن هذه الحيثية ضيَّق رحمة الله ﷻ عليه، لما جعله الله ﷻ في سَعَةٍ وأوجب على نفسه شيئًا غير لازمٍ له.

والله ﷻ من أسمائه اللطيف والرحيم والبَرّ والسلام، ولذلك لم يكلِّف عباده إلا ما يطيقون، بل حتى ما يطيقون ما أوجب الله ﷻ عليهم كله، وإنما أوجب الله ﷻ عليهم ما اختاره سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ دينًا له، قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾[البقرة:٢٨٦]، قال الله ﷻ كما قال النبي ﷺ في الصحيح: «قد فعلت»؛ بمعنى أن الله ﷻ ما كلَّف عباده إلا ما يطيقون، ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[البقرة:٢٨٦]، ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾[النساء:٨٤]، ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا﴾[الطلاق:٧]، ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ﴾[النساء:١٤٧].

فخطاب الله لعباده سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ خطاب الرحمة والتخفيف والتيسير: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾[التوبة:١٢٨]، ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ﴾[البقرة:١٨٥] إلى غير ذلك من الآيات التي تدلُّ على أن الله ﷻ يسَّر على عباده ورفع الحرج عنهم، فالناذر عسَّر على نفسه وأحرج نفسه لما ألزمها ما ليس بلازم.

هذا فيما يتعلق بسبب التحريم لما قال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «إن النذر لا يأتي بخير». وكلمة "لا يأتي بخير" من حيث أن النذر حتى وإن وفى به الإنسان فوفاؤه به من حيث التخلُّص من السؤال عنه يوم القيامة، نعم يُثنى عليه بوفائه للنذر من حيث توقيره وتعظيمه لله

سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾[الإنسان:٧].

ولهذا لما ذكر الله ﷻ النذر مقرونـًا بالنفقة كان في كلامه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ إشارةً إلى كراهيته للنذر كما قال بعض العلماء؛ قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللهَ يَعْلَمُهُ﴾[البقرة:٢٧٠]؛ هذا من حيث إخبار الله ﷻ بعلمه وإحاطته، لكنه بعد ذلك قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾[البقرة:٢٧٠]. قال أهل العلم في هذه الآية لمن استدل بأن النذر جائز: بل في الآية ما يدلُّ على أن الله ﷻ توعَّد من نذر ولم يفِ، أو توعَّد من نذر لغيره.

وإن كان الله ﷻ أثنى على من وفى بالنذر في سورة الدهر التي هي سورة الإنسان: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾، لكن الأصل في ذلك أن النذر منهيٌّ عنه؛ قال النبي ﷺ: «فإنه لا يأتي بخير».

وكان أهل الإسلام في أول الإسلام ينذرون لسببين، لا يصلان إلى الكفر الأكبر إلا أنهما محرمان:

السبب الأول: ينذرون نذراً ليس من ورائه إلا قصد العبادة والقُرْبة لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، كأن يقول ابتداءً من نفسه: "نذرٌ عليَّ أن أُطعم الفقراء غداً"، "نذرٌ عليَّ أن أصوم غداً"، من غير أن يكون هناك شيءٌ متعلِّقٌ بما نذر فيه، وهذا من المحرَّم الذي لا يصل إلى الكفر.

السبب الثاني: أن ينذروا نذراً يتعلَّق بحصول نِعمَة، كأن يقول: "إن رزقني الله ولداً لأفعلن كذا وكذا"، لا على سبيل اليمين والقسم وإنما على سبيل النذر وإلزام نفسه بذلك، ويظنون أن هذا في سياق الشرط والمشروط، وفي سياق أنهم يستجلبون قدر الله ﷻ الذي يحبونه إن نذروا لله: "نذرٌ لك يا رب أن أتصدق إن أنجيتني من هذه المهلكة"، "نذْر لك يا رب أن أتصدق إن رزقتني ولداً"؛ فيجعلون النذر لله مشروطـًا بنعمةٍ تحصل لهم، أو بلاء يُدفع عنهم، وهذا كان رائجـًا في أول الإسلام، وهو من أسباب النهي الذي نهى عنه النبي ﷺ بسببه عن النذر. يدلُّ على ذلك رواية الإمام مسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن النبي ﷺ

قال: «**لا تنذروا؛ فإن النذر لا يُغني من القَدَر شيئًا**»؛ بمعنى أنهم ربما نذروا استجلابًا للقدر أو دفعًا للمقدور المكروه.

وسواء كان هذا قصدهم، أو القصد الأول -وهو النذر ابتداءً من غير أن يكون له سبب؛ فهذا هو الذي نهى عنه النبي ﷺ في حديث عبد الله بن عمر؛ «**نهى النبي ﷺ عن النذر وقال: إنه لا يأتي بخير**»، فصار كبيرة من كبائر الذنوب محرَّمًا في صورتين: أن ينذر ابتداءً، وأن يكون نذره مشروطًا بنعمة تحصل له أو نقمة تُدفع عنه، وفي كلتا الحالتين هو محرَّم.

لكن أعظم من ذلك وأشد خطراً: أن يُنذر لغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قُربة وعبادة.

وخروج الإنسان من ماله لغيره بقصد العبادة بالتي خرج من ماله له.

المشركون أيضًا لهم صورتان فيما يتعلَّق بالنذر لغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ والنذر لغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عبادة وقُربة لا يكون شركًا أصغراً، بل هو في كل أحواله شركٌ أكبر؛ فالنذر لغير الله عبادةٌ لغير الله فأشبه الذبح لغير الله فصار حكمه شركًا أكبراً.

ومن عادة المشركين قبل الإسلام فيما يعبدونه من دون الله -سواء كان جدثًا أو حجراً أو شجراً أو قبراً أو صنمًا أو وثنًا- أنهم ينذرون لمعبوداتهم أو آلهتهم على صورتين أيضًا:

الصورة الأولى: إما أن ينذرون لها ابتداءً تعظيمًا وعبادةً لها؛ كأن ينذروا السدول -قطائف الحرير-، أو السمن يسكبونه على أعتابها أو رؤوسها، أو العسل أو الذبائح، أو المال -يخرجون من مالهم لآلهتهم-، وهذا خروج ابتداءٍ ليس مشروطًا عند المشركين، وهو شركٌ أكبر لأنه عبادةٌ لغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والصورة الثانية: أن يكون نذرهم متعلقًا بشيءٍ يطلبونه من آلهتهم؛ كأن ينذروا لها شيئًا من مالهم بقصد أن تدفع الآلهة عنهم خطراً يخافونه، أو أن تجلب لهم خيراً يرغبون فيه.

فكان الأول نذر ابتداءٍ للآلهة، وكان الثاني نذراً مشروطًا للآلهة، وكلاهما شركٌ أكبر، لكنهما أهون ولا شك من النذر الذي كان قبل ذلك -الذي ينذر لله ابتداءً، والذي ينذر لله

مشروطاً بحصول نِعمَةٍ أو دفع بلاء-.

فالأولان محرَّمان ومن كبائر الذنوب لأن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ علَّق التحريم بقوله: «فإنه لا يأتي بخير، وإنما يُستخرج به من البخيل»؛ الذي لا يتصدق إلا إذا ألزم نفسه بالصدقة، فهذا بخيل. وإنما الكريم هو الذي يخرج من ماله طواعية وقُربة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، التماساً للأجر وتعرّضاً لرحمات الله وطلباً لما عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهو عملاً بقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾[النور:٣٣]. فما في جيوبنا وأموالنا وبيوتنا كله لله، فالذي لا يتصدق إلا إذا ألزم نفسه بذلك صورته صورة البخيل الذي يقسر نفسه قسراً على الصدقة.

وكذلك فيما يتعلق بالمحرَّم من النذر من نذر أن يتصدّق أو أن يذبح أو أن يفعل شيئاً من خروجه من ماله صدقةً لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لكنه شرط بذلك دفع نقمةٍ أو جلْب نِعمَة.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾[الإنسان:٧]؛ هذه الآية -كما هو معلوم- في الثناء على أهل الإيمان، لكن الثناء هنا فيما يتعلَّق بوفائهم بالنذر من حيث تعظيمهم لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، كما أن الإنسان إذا حلف له إنسان فإنه يجب عليه أن يصدِّقه وأن يكل سريرته إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ تعظيماً لليمين لا تعظيماً للحالف، ولا بحثاً عن يمينه هل هو صادقٌ فيه أو غير صادق، لكن من باب توقير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى «من حلف لكم بالله فصدّقوه».

وهذا الأمر متعلِّقٌ بحق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وليس متعلقاً بجواز النذر من عدمه؛ لأن الجواز وعدم الجواز ظاهرٌ في قول النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «فإنه لا يأتي بخير». ولهذا أثنى الله عَزَّوَجَلَّ على المؤمنين الذين ربما تسبق ألسنتهم إلى النذر وهم لا يعرفون حُكمه أو عرفوه فنذروا، فيكون الثناء على الوفاء لا على النذر. ولهذا ما ثبت عن النبي ﷺ أنه نذر، ولا ثبت عن كرام الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أن أحداً منهم نذر بعد أن نهى النبي ﷺ عن ذلك، بل كانت صدقاتهم وقُرُباتهم وطاعاتهم ابتداءً يطلبون الثواب من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّمَا

نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾[الإنسان:٩].

وقد يستدل بعض الناس بقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللهَ يَعْلَمُهُ﴾[البقرة:٢٧٠] على جواز النذر، وهذا الاستدلال مردود، لكن وجه استدلالهم بذلك يقولون: إن الله ﷻ قرن ما بين النفقة التي أمر الله بها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وحببها إلى عباده ووعد عليها مطلق النفقة، وأن الله ﷻ قرنها بالنذر، فدل على أن النذر في الحكم كالنفقة.

وهذا استدلالٌ أو فهمٌ مردود؛ لأنه ليس كل عطفٍ بين أمرين يقتضي تساويهما في الحكم. فقد يعطف الله ﷻ بين حسنةٍ وسيئة، وما بين كفرٍ وإيمان؛ فيكون هذا له حكمٌ وهذا له حُكم، كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللهِ...﴾[البقرة:٢٥٦]، ولا يقول أحدٌ أنهما متساويان في الحكم -والعياذ بالله-.

فالمقصود من هذا الاستدلال: أنه ليس كل عطفٍ يدلُّ على أن المعطوف عليه في منزلة المعطوف به، ناهيك أن أهل العلم قالوا: إن في هذه الآية إشارةٌ إلى أن الله ﷻ لا يحب النذر؛ لأن آخر الآية ألصق بالأخير من الاثنين، وآخر الكلام يعود على أقرب مذكور منه، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللهَ يَعْلَمُهُ﴾ ثم قال: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصارٍ﴾[البقرة:٢٧٠].

فيكون قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصارٍ﴾ وهذا -قولٌ لبعض أهل العلم- يعود على النذر من حيث أنه ألزم نفسه بشيءٍ لا يلزمه.

ثم من ناحية ثانية: هذه الآية فيها إخبارٌ بعلمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ليس فيها إخبارٌ بأن النذر جائزٌ أو غير جائز، وإنما فيها إخبارٌ بعلمه لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَإِنَّ اللهَ يَعْلَمُهُ﴾؛ يعني أن الله ﷻ أحاط بنوايا المنفقين ونوايا الناذرين، وما وقع منهم من نفقة ومن نذر.

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وفي الصحيح: عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنهَا). وهذا الحديث روي عن النبي ﷺ عن جُمْلة من الصحابة؛ ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة، وفي الصحيح أيضًا من

حديث عبد الله بن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا. وهنا من حديث (عَائِشَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللهَ فَلْيُطِعْهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللهَ فَلَا يَعْصِهِ»).

يعني أن الإنسان إذا نذر أن يطيع الله ﷻ وجبت عليه الطاعة؛ وهذا فيما يتعلق بالطاعة التي ليست واجبة في أصلها. أما الطاعة الواجبة في أصلها فلا تفتقر للنذر، بل يجب البدار إليها كما قال سبحانه: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾[الحديد:٢١]. لكن إذا أوجب على نفسه طاعة ليست واجبة صارت واجبة عليه بالنذر، كالذي يحلف على نفسه: "والله لأتصدقن غداً"، فوجبت عليه الصدقة باليمين.

أما إن وقع النذر في معصية -سواء كانت بفعل محرَّم أو ترك واجب-، كأن ينذر أن يحتال على الناس في أموالهم أو أعراضهم، أو ينذر في فعل محرَّمٍ فيما بينه وبين الله، أو أن ينذر في ترك ما أوجب الله ﷻ عليه من صلة رحمه لعمِّه أو أحد قرابته الذي بينه وبينهم قطيعة رحم، أو أن ينذر أن يعقَّ والديه، أو ينذر ألا ينفق على أهله أو على ولده، فيجب عليه أن يتحلل من النذر بالكفارة -كفارة يمين-. وهنا لا يقال -يا إخوان- أنه نذرٌ غير محترم وأنه يمينٌ غير محترمة؛ لأنها ليست يميناً شركية وإنما يمينٌ محرَّمةٌ تحلُّ حراماً أو تحرِّم حلالاً، فيلزمه بذلك الكفارة تعظيماً لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وقوله ﷺ: («وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللهَ فَلَا يَعْصِهِ»)، يلزمه على ذلك ثلاثة أمور:

الأمر الأول: أن يستغفر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ لأن هذا سوء أدب مع الله وعدم التوقير لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، أن يحرِّم الله عليك شيئاً وتنذر أن تفعله؟! أن يوجب الله عليك شيئاً وتنذر ألا تفعله؟! هذه محادّةٌ لله ورسوله، يجب عليه التوبة إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

الأمر الثاني: أن لا يفعل ما نذر من المحرم، أو أن يفعل ما نذر تركه من الواجب.

الأمر الثالث -على القول الصحيح-: أنها في سياق اليمين التي وجبت عليه باليمين، لكنه لا يحرم عليه فعلها لأنها مخالفةٌ لأمر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فيتحلل منها بكفارة يمين،

وكفارته كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾[المائدة:٨٩].

وقوله ﷺ: («مَنْ نَذَرَ») ليس فيها دليلٌ على الإذن بالنذر، وإنما سياقها سياق وجوب الوفاء لمن وقع فيه. ولو قيل بالتعارض -ولا تعارض- فإن القاعدة عند أهل العلم: أنه إذا تعارض حديثان أحدهما "حاظرٌ" والآخر "مبيح" -أو محرِّم والآخر مبيح-؛ قُدِّم الحاظر توقيراً لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فهنا عندنا حديثان: حديثٌ نهى فيه النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عن النذر وعلّل النهي أيضًا؛ لأن هذا ليس حاضراً لوحده بل علَّل مما يدلُّ على أن هذه القرينة تدلُّ على أن النهي ليس نهي تنزيه وإنما نهي تحريم، فالحاظر نهيه ﷺ عن النذر وقال: «إنه لا يأتي بخير»، وهذا الحديث لو قيل أنه مبيح لقيل أن هذا يُرَدُّ على أن الأصل في ذلك التحريم؛ لقوله ﷺ: «فإنه لا يأتي بخيرٍ وإنما يُستخرَج به من البخيل».

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بَابٌ مِنَ الشِّرْكِ الاسْتِعَاذَةُ بِغَيْرِ اللهِ

وَقَوْلُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾[الجن:٦].

وَعَن خَوْلَةَ بِنْتِ حَكِيمٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالتْ: سَمِعْتُ رَسُول الله ﷺ يَقُول: «مَنْ نَزَلَ مَنْزِلاً فَقال: أَعوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ؛ لَمْ يَضُرُّهُ شَيْءٌ حَتى يَرْتَحِلَ مِنْ مَنزِلِهِ ذَلِكَ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.



قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللّه:

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (بَابٌ مِنَ الشِّرْكِ الاسْتِعَاذَةُ بِغَيْرِ اللهِ).

الاستعاذة المقصود بها طلب العوذ والحماية؛ أن يطلب الإنسان الحماية والعوذ ممن هو أقدر منه على دفع الأذى، وأقدر منه على حمايته لنفسه أو أهله أو ماله أو ولده وغير ذلك.

فصارت صورتها صورة الاستجداء والطلب والاحتياج والافتقار. هذا من حيث المعنى، واشتقاق الكلمة من "عَوَذ" أو "عاذ" أو "استعاذ" أو "عوذة". كانوا يسمون الرقى في الجاهلية التي يضعونها على رقاب دوابهم وصبيانهم وأنفسهم يسمونها "عوذة"؛ بمعنى أنها تعوذهم أو تعيذهم من الجن ومن كل ما هو مخوف عندهم.

والاستعاذة بغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ والاستعانة والاستغاثة بابها واحد؛ من حيث أن الاستعاذة والاستعانة والاستغاثة كلها عباداتٌ متعلقة بالدعاء والافتقار إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقد قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[غافر:٦٠]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[البقرة:١٨٦]. وقال ﷺ: «الدعاء هو العبادة». فالمستعيذ والمستعين والمستغيث كلهم يدعون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في طلب

العون وطلب الإغاثة وطلب العِوَذ والحماية.

قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في وصف ما كان عليه المشركون من الاستعاذة بغير الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: (﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾[الجن:٦])؛ من حيث أن الله عَجَلَّ عاملهم بنقيض قصدهم، ومن حيث أن الإنسان إذا تعلَّق بغير الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وكَلَه الله إليه، كما قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «من تعلق شيئًا وُكِل إليه». ومن تعلق بالله عَجَلَّ فالله لا يخيبه، كما قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا استجاب الله له بها إحدى ثلاث...» وذكر الحديث، والحديث عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «إما أن تُعجَّل له دعوته في الدنيا، وإما أن يدِّخرها له في الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها».

بمعنى أن الله عَجَلَّ لا يخيب معه دعاءٌ ولا استعاذة، فإذا دعا غير الله واستعاذ بغير الله وكَلَهُ الله عَجَلَّ إلى من تعلق به. وهذا ظاهرٌ في قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾؛ يعني زاد الرجال من الجن الرجال من الإنس رهقًا وخوفًا ورعبًا واضطرابًا. فطلبوا الأمان من الجن فعوملوا بنقيض قصدهم، ما زادوهم إلا رهقًا وخوفًا وفزعًا، وزاد تعلُّقُهم بغير الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، بما أنهم صاروا يستعيذون من الجن بالجن، ثم صاروا يستعيذون بالأصنام.. إلى غير ذلك.

(وَعَن خَوْلَةَ بِنْتِ حَكِيمٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت: سَمِعَتُ رَسُول الله ﷺ يَقُول: «مَنْ نَزَلَ مَنْزِلاً»)

وهذا الأصل فيه أنه عامٌ في كل منزل، سواء كان في البرية، أو في بيت لا يعرفه، أو في بيته، أو غير ذلك. خاصة إذا وقع في قلبه نوعٌ من الانقباض أو وسوسة الشيطان وتهويله؛ فالشيطان يهوّل لابن آدم وإن كان موحداً، فربما أوقع في قلب الموحِّد تهويلاً إما لأنه وجد ثغرة من عدم محافظة على ذكر، أو تعلُّقًا بأسباب الدنيا الظاهرة أو بغير ذلك.

بمعنى أن النبي ﷺ ذكر أن ما يطرأ للناس في الأحلام من التهويل هي من الشيطان، وهذه تعرض لكل إنسان لكنها تختلف بحسب ما وقر في قلبه من التوحيد. فإذا وجد الإنسان من

نفسه انقباضًا عن العبادة أو عن الناس، أو الحزن الذي لا يعلم له سببًا أو غير ذلك؛ يُشرع له أن يقول هذا الذكر؛ لأن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لما قَالَ: («مَنْ نَزَلَ مَنْزِلاً») يعني مكانًا ينزل فيه، وإن كان إطلاقه في الظاهر على المكان الذي ليس بيتًا له، لكن حمله على عموم المنازل لا يُدفع؛ لأن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ذكر ذلك على سبيل الإطلاق.

قال ﷺ: («فَقال: أَعوذُ بِكُلِّمَاتِ اللهِ التَّامَاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ»). «أعوذ بكلمات الله التامات» يعني التي أتم الله ﷻ النِعمة على عباده بها، والتي أتمها الله من حيث أن كلام الله ﷻ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. والتامات التي إذا لزمها الإنسان استعاذةً وتلاوةً وقراءة وذِكراً وتعلقًا بالله وحُسن ظنٍ به وتوكُّلٌ عليه تمَّت له النِعمة.

وهذا مما يدلُّ على أن كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الذي القرآن بعضه صفة له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأن كلام الله ﷻ ليس مخلوقًا كما يقول أهل الضلال من الجهمية والمعتزلة وغيرهم؛ بل هو صفةٌ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لأنه لا يُستعاذ بمخلوق، وإنما يُستعاذ بالله ﷻ أو بصفاته. كما أنه يُحلَف بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أو بأسمائه وصفاته، فكذلك فيما يتعلَّق بالاستعاذة.

قال ﷺ: («لَمْ يَضُرُّهُ شَيْءٌ حَتّى يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ»)، وفي رواية: «حتى يرحل من منزله ذلك» (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

بمعنى أن الله ﷻ كما لا يخيِّب دعاء من دعاه، ولا يضلّ معه من رجاه، وأن الله ﷻ كما قال عنه نبيه ﷺ: «قال الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، فليظن بي ما شاء». فإذا كان ظنه بالله حسنًا واستعاذ بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أعاذه الله. وهذا ظاهرٌ في قوله سبحانه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[غافر:٦٠]؛ أمرنا بالدعاء ووعدنا بالإجابة، والله ﷻ أصدق قيلاً، ولا يخلف وعده.

فالذي يستعيذ بكلمات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إذا نزل منزلاً أعاذه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويستحيل حتى في الفِطَر التي لم تتأمل مثل هذه الأحاديث أن يعتقد المسلم أن الله ﷻ يأمر بشيءٍ لا

ثمرة من ورائه! الله أجل من ذلك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ناهيك أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وعد بذلك، وأن النبي ﷺ أخبر عن ربه سبحانه وبحمده أن الله ﷻ أصدق قيلاً وأصدق حديثًا.

وتأتي مسألة الاستعاذة بالمخلوق في هذا البحث وما بعده وما بعده، من حيث أن الاستعاذة بالمخلوق وإن كانت جائزة بشروطٍ ذكرها أهل العلم، إلا أن القلب لابد أن يكون منكفئًا منعطفًا واثقًا بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأن يعتبر استغاثته بالمخلوق التي هي الاستغاثة الجائزة إنما هي سببٌ من الأسباب، أما الذي يجلب الخير ويدفع الشر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فإذا قلنا: أن الاستعادة بالمخلوق جائزة إذا كان حيًا وحاضراً وقادراً، نقول: الاستعادة بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أكمل وأتم، ونقول أنه حتى ولو استعاذ بمخلوقٍ حاضر قادرٍ حيٍ فإن استعادته بالمخلوق إنما هي من باب عمل السبب والأخذ بالسبب، مع انعقاد القلب على التوكُّل على الله ﷻ، وأن العوذ منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولا يميل قلبه إلى ذلك وإن كانت جائزة بالمخلوق بهذه الشروط التي ذُكِرت وإن كانت جائزة لكن الأكمل أن يستغيث بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وأن يستعيذ بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال النبي ﷺ لما ذكر المسيح الدجال، قال الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ: يا رسول الله أفلا نقاتله؟ قَالَ: «**من وجد ملجأ أو معاذاً فليعذ به**»؛ يعني من وجد مكانًا يحمي فيه نفسه من الدجال فليفعل، بأن يبقى في بيته أو يشتغل بطاعة الله، أن يمنع أهله من تتبُّع الأخبار إلى غير ذلك، كما قال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**ليفرّن الرجال إلى رؤوس الجبال من الدجال**».

فالمقصود أن الاستعاذة بالمخلوق بهذه الشروط جائزة، لكن الأكمل الاستعاذة بالله، ومع ذلك لا يعاب الإنسان إذا فعلها بقلب متعلّق بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ومعتقداً أن النفع والضر بيده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بَابٌ مِنَ الشِّرْكِ أَنْ يَسْتغيثَ بِغَيْرِ اللهِ أَوْ يَدْعُوَ غَيْرهُ

وَقَوْلُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٦) وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[الأنعام:١٦-١٧].

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[العنكبوت:١٧].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾[الأحقاف:٥] الْآيَتَينِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾[النمل:٦٢] الْآيَةَ.

رَوَى الطَّبَرانِيُّ بِإِسْنَادِهِ: أَنَّهُ كَانَ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ مُنافِقٌ يُؤْذِي الْمُؤْمِنينَ، فقال بَعْضُهُم: قُومُوا بِنا نَسْتَغيثُ بِرَسُول الله ﷺ مِنْ هَذَا الْمُنَافِقِ؛ فَقال النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّهُ لا يُسْتَغاثُ بِي، وَإِنَّمَا يُسْتَغاثُ بِاللهِ».



قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللّه:

ثم قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (بَابٌ مِنَ الشِّرْكِ أَنْ يَسْتغيثَ بِغَيْرِ اللهِ أَوْ يَدْعُوَ غَيْرهُ).

والاستعاذة بغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ شركٌ أكبر إذا استعاذ الإنسان بغير الله -حتى وإن كان حيـًا حاضراً- في شيءٍ لا يقدر عليه إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فهي شركٌ أكبر، وإلا فالأصل أن المشركين كانوا يستعيذون بغير الله عبادةً، سواء كانوا أحياءً أو أمواتـًا، عاجزين أو قادرين. حاضرين أو غائبين؛ في استعاذة العبادة، أما إذا استعاذ الإنسان ولو زعم أنه مسلم.

استعاذ بغيره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في شيءٍ لا يقدر عليه إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فقد وقع في الشرك

الأكبر -في توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية-، لا من حيث أنه عبادة صُرِفت لغير الله فأضرّ بتوحيد الألوهية عنده، ولا من حيث اعتقاده أنه يجري في ملكوت الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ شيءٌ بغير اختياره، فتعلَّق بغير الله في دافع شيءٍ قضى الله ﷻ فقوعه في ملكوته سبحانه وبحمده.

كان المشركون على كل حال يستعيذون بغير الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، سواء كانوا أحجار أو أشجار أو ترب أو غير ذلك؛ حتى أن بعضهم كان عند الشدة والبلاء يتعلَّق قلبه بغير الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أشد من تعلقه بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

ولهذا قال الإمام المجدد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في معرض كلامه على هذه المسألة: أن مشرك في زماننا أعظم شركًا من مشركي أهل مكة زمن البعثة، من حيث أن المشركين في زمن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كانت قلوبهم تنصرف إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ إذا نزل بهم الضرر، وعلموا أنه لا مخلص ولا منجى إلا منه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، أيْ في شدة الحاجة والاضطرار تنصرف قلوبهم إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وهذا لا يُمدحون به وإنما يكون حُجَّةً عليهم؛ لأن بعض الناس يظنُّ أن قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[العنكبوت:٦٥] يظن أن هذا مدحًا لهم، بل هذا من باب إقامة الحُجَّة عليهم؛ لأن الله ﷻ قَالَ: ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾[العنكبوت:٦٥]، فهذا كان شركٌ في زمن التنزيل وقرن الرسول ﷺ.

أما في زماننا فهم مشركون على كل حال في الضراء وفي السراء، وأيضًا حتى ابتداءً يُشركون بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ من حيث اعتقادهم أن النفع والضُر بيد غير الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، سواء من الأولياء الذين يزعمونهم أولياء، أو حتى من الأولياء والصالحين والأنبياء؛ هذا حقٌ لله لا يُصرف لأحدٍ دونه، حتى ولو كان نبيًا مرسلاً ووليًا صالحًا، هذا حقٌّ لله لا يجوز صرفه لغيره.

أبو عمر ابن قدامة المقدسي -وهو الأخ الأكبر لموفق الدين- كان رجلاً صالحًا، وهذا يا إخوان ينبِّه على أن بعض الصوفية يحتالون حتى يضيفون صُلَحاء أهل السنة والجماعة

إليهم حتى يكون ذلك ذريعةً للتقرُّب إليهم أو دعائهم وغير ذلك، مما يمثَّل به على ذلك: كتب الطبقات التي أُلِّفت في طبقات الأولياء التي يسمونها أولياء وهم طبقات الصوفية.

عبد الوهاب الشعراني له كتاب يسمى طبقات الصوفية أو طبقات الأولياء، وهو كتابٌ ذكر فيه أنواع الكفر كلها -والعياذ بالله-، حتى بالربوبية وأن الأولياء يحيون من بعد الموت وأن الأولياء يعلمون الغيب، وأن الأولياء يمسحون صحائف السيئات ويبدِّلون الحسنات.. ما ترك شيئًا لله -والعياذ بالله-، ومع ذلك يعدُّه بعض الناس أنه من فقهاء الشافعية.

الشاهد أنه ذكر في أول كتابه -الذي ذكر فيه هذا الضلال المبين- بعض الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ وعدّهم من الأولياء -وهم أولياء قبل أن يُخلَق- رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ وأرضاهم، لا شك أنهم أعرف الناس بالله بعد أنبيائه عليهم الصلاة والسلام.

وذكر من أولياء الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ الأئمة الأربعة: أبا حنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمد، وذكر بعدهم كبار أهل العلم وأهل السنة والجماعة كالطبري والأوزاعي والليث بن سعد وغير ذلك، ثم ذكر بعض من يزعم الصوفية أنهم من أقطابهم وأوليائهم كعبد القادر الجيلاني، عبد القادر الجيلاني من أئمة أهل السنة والجماعة، له كتاب "الغُنية" في التوحيد يُثني عليه ابن تيمة وينقل عنه رَحِمَهُٱللَّهُ، وعبد القادر الجيلاني كان معاصر لموفق الدين وإن كان أدركه أيامًا، لكنه كان على طريقة أهل السنة والجماعة -أبو محمد عبد القادر الجيلاني رَحِمَهُٱللَّهُ-.

فنسبه الصوفية إلى أنفسهم حتى يتضرّعون في ذلك بدعائه من دون الله، حتى قال بعض زنادقتهم -والعياذ بالله-: "عبد القادر يا جيلاني يا مصرِّف الأكواني" وغير ذلك، كما أنهم أضافوا إلى طبقات الأولياء والصوفية المعاتيه والمجانين والمجاذيب، ومن لا يُعلَم له عقلٌ ولا أثارةُ علمٍ ولا سابقة فضل ولا غير ذلك، ممن هم نكِرات لا يعرفهم إلا هم.. إلى غير ذلك.

فجمعوا هذا اللفيف من الأسماء من الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ، ومن التابعين رحمهم الله، ومن

أئمة الإسلام رحمهم الله، ومن زنادقة الأولياء الذين يزعمونهم أولياء كابن عربي وغيرهم، ومن المعاتيه والمجانين والمجاذيب الذين كانوا يُعدُّون مجانين يمشون عراةً في الشوارع ويتركون الصلوات، ولا يتنزّهون من النجاسات ولا يغتسلون من الجنابات.. إلى غير ذلك، عدّوهم أولياء.

بل ذكروا نكراتٍ لا يعرفهم إلا هم، قد يكون بعضهم موهومًا؛ كل ذلك حتى يُدخلون فيهم أئمة أهل الإسلام حتى يغشُّون الناس في أن هذا أمرٌ متفقٌ عليه ما بين الصوفية وما بين أهل السنة والاتباع وكذبوا في ذلك.

من ذلك ما قلنا قبل قليل: أن أبا عمر رَحِمَهُ ٱللَّهُ -وهو الأخ الأكبر لابن قدامة موفق الدين- كان رجلاً صالحًا وناسكًا مكثراً من العبادة، ما خرج من بيته إلا تصدَّق، وما علِم بمريضٍ إلا عاده، وما علِم بجنازةٍ إلا شهدها، وكان مهتمًا بسنة النبي عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ درسًا وتدريسًا علمًا وتعليمًا، بل مما ذُكِر عنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه كان يكتب المصاحف بخطه الجميل ويوزِّعه على أقاربه وأهل بيته ومن سأل ذلك قُرْبةً وحُسْبةً لله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، وكتب قرابة مائة نسخةٍ من مختصره لأبي عبد الله الخرقي ووزعها على طلاب العلم... بمعنى أنه كان صالحًا ناسكًا.

نسبه المتصوِّفة في زمانه إلى من يزعمون أنهم أولياء، فلما وقع البلاء بالمسلمين بعد زمنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقليل وقع البلاء بالمسلمين في دمشق وغزا التتر -المشركون- بلاد المسلمين، صار بعض الصوفية الضُلَّال وهم مشركون يذهبون إلى قبر أبي عمر ويقولون: "يا خائفين من التتر .. عوذوا بقبر أبي عمر .. ينجيكموا من الضرر"، فصارت الاستعاذة بغير الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ مغروسة في قلوب الصوفية والمتنسكة؛ لأنه ما عرفوا من التوحيد كما عرف أهل السنة والاتباع، فحفظ الله قلوبهم بالتوجُّه إليه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ والافتقار إليه، واعتقاد أن الله ﷻ بيده النفع والضر، وأنه لا يُدعى غيره ولا يُستعاذ بغيره سبحانه وبحمده.

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**بَابٌ مِنَ الشِّرْكِ أَنْ يَسْتَغِيثَ بِغَيْرِ اللهِ أَوْ يَدْعُوَ غَيْرَهُ**

وَقَوْلُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[الأنعام:١٦]) إذا كان الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قد قال هذا لنبيه -وهو أبعد الناس عن ذلك ﷺ- فغيره من باب أولى، بأن يقال له: إنك إذا دعوت غير الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فهو لا ينفعك ولا يضرُّك. وخصمك بعد ذلك رب العالمين؛ الذي خلقك وغذاك ورعاك وكفاك وآواك وأعطاك وحماك، ثم تدعو غيره! هذا مقابلة الإحسان بالإساءة، مقابلة الأمر الذي خُلِقت له بالانصراف عنه، فالإنسان خُلِق للتوحيد، فإذا قابله بالانصراف عنه إلى غير الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فمعنى ذلك أنه وقع في الظلم الأكبر. والظلم: هو وضع الشيء في غير موضعه.

فإذا استعاذ بغير الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، واستغاث بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله؛ فقد وضع الاستغاثة في غير موضعها فوقع في الظلم الأكبر، والظلم الأكبر مخرجٌ من الإسلام؛ قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللهِ ۖ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[لقمان:١٣].

ثم قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: (﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾[الأنعام:١٧])؛ يعني إن نزل بالإنسان ضرٌ في نفسه أو أهله أو ماله فلا يكشفه إلا الذي قدَّر وقوعه سبحانه وبحمده، فالذي قدَّر وقوعه هو القادر سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ على أن يكشفه ويرفعه. قال سبحانه: ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾[يونس:١٠٧]، هذا مثل قول النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا في الترمذي وغيره: «واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك»؛ بمعنى أن هذا متعلِّقٌ بالمكتوب، ولا يملك كتابة الأقدار دفعًا وجلبًا ورزقًا وخيراً وضُراً إلا الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ فمن كتبها سبحانه قبل أن يخلق السماوات والأرض هو القادر على وقوعها وعلى رفعها.

وهذا -يا إخواني- إذا وقع في القلب وتعاهده الإنسان دائمًا، لابد أن يكون حاضراً معك دائمًا؛ ففي اليوم الواحد يحصل لك أكثر من مشكلة مع أهلك، مع ولدك، مع الموظف

الذي أنت وإياه في دائرةٍ واحدة، مع البائع والمشتري، في صحتك في نفسك.. إلى غير ذلك؛ بمعنى أن الإنسان معرَّضٌ لهذه الابتلاءات، كما أن النِعمة أيضًا تحصل لك فيما يحصيه إلا الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا﴾[إبراهيم:٣٤].

إذا كان القلب حاضراً بأن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ هو الذي قدَّر هذا وهو الذي يرفعه، وهو الذي قدَّر هذا الخير وجعله لي ولم يُرزَقه فلان؛ إذا استشعر الإنسان ذلك وشهد أنه يجري في قَدَر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ فوالله -يا إخواني- إن أعظم أثرٍ على ذلك هو عِظم الثقة بالله، أعظم أثرٍ أن تعرف أن ما حصل لك من خير قسمه الله لك ولم يقسمه لغيرك، وقد كان قادراً سبحانه وبحمده -وكان الله على كل شيء مقتدراً- أن يقسمه لغيرك ويحرمك إياه، لكن من لطفه جعله لك وليس لغيرك.

والناس أرزاقهم مقسومة؛ فإذا قسم الله لك بلاءً وصرفه عنك، أو قسمه لك وخففه عنك، أو وقع عليك وتأذيت منه وانكسر قلبك وبكت عينك وتوجَّع لك الناس وأنت وجدت في نفسك انكساراً؛ فإذا كان قلبك منطويًا على أن هذا كتبه الله قبل أن يخلقني، وأن الله ﷻ أعرف مني بما يضرني وما يسرني، انعقد قلبه على عظيم الثقة بالله وحُسْن الظن به، وما عُبد الله سبحانه بشيء أعظم من حُسْن الظن به؛ وحسن الظن بالله صار فيه اقتران ذهني عند الناس بأنه متعلِّقٌ بالمصائب فقط، بل أحسن الظن بالله في كل شيء: في المصائب والمعائب، وفي الأرزاق وفي النِّعم، فيما وقع لك وتأذيت منه، فيما كاد أن يقع ودفعه الله عنك، في الأرزاق بسطًا ومنعًا؛ لأن الله ﷻ يستحيل أن يقسم للنملة في جُحرها بذْرة وينساك الرب سبحانه، فقد قسم الآجال والأرزاق. فإذا انعقد القلب على ذلك عظُمت الثقة بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وصار الإنسان يجري في نور الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

بكى ﷺ وضحك؛ فكان بكاؤه بقَدَر الله على بلاءٍ وقع في الصحابة وفي نفسه، وضحك لنعمةٍ حصلت له ﷺ في نفسه وفي الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ؛ فنحن سائرون في قدر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ،

نحن خلْقٌ من خلقه سبحانه وبحمده، لا نملك لأنفسنا نفعـًا ولا ضراً.

لو وكلك الله إلى نفسك أيها المسكين، لو وكلك إلى عجزك وقِلَّة حيلتك ما استطعت أن تدبر أمورك؛ ولهذا يدعو الإنسان ربه أن يتولاه في السرِّ والعلن، ومن دعاء النبي ﷺ الذي علَّمه فاطمة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا: «**يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني كله ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين**». طرفة عين: إغماضة عين، لو وكلك الله إلى نفسك طرفة عين ما استطعت أن تدبِّر أمرك، وإنما يتولاك الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

قال الله سبحانه: (﴿**وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**﴾[الأنعام:١٧]).

وقال سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: (﴿**إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾[العنكبوت:١٧]). وهذا من سفاهة عقول المشركين وما دلَّتهم عليه ضلالتهم؛ أنهم ينحتون صخراً هو مفتقرٌ إلى معاولهم وأزاميلهم وأيديهم حتى يقيموا صورته، ثم يطلبون منه الرزق! فأيهما المفتقر للثاني: الصانع أم المصنوع؟ المصنوع مفتقرٌ إلى صانعه من حيث أنه ينحته النهار كله، ثم إذا جاء من الغد عبده من دون الله! وهذا يدلُّ على سفاهة الشرك والضلال، وتلاعب الشيطان بابن آدم، وإنما الرزق بيد الله وحده. وإذا أُطلِق الرزق فليس متعلِّقـًا فقط بما تأخذه وتناله، بل قد يكون الرزق في دفع البلاء، وكلها إلى الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

قال الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: (﴿**وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**﴾[الأحقاف:٥])؛ لا أحد أضل من هذا، لا أحد أضلّ ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة، ثم هو بعد ذلك يوم القيامة يجحده ولا يرضى بدعائه له في الدنيا. وقوله سبحانه: ﴿**وَمَنْ أَضَلُّ**﴾ يعني لا أحد أضل ممن يدعو من دون الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ من لا يستجيب له.

ومن باب تقريب الصورة: كما أنه لا أضل من إنسان قادرٍ أن يمشي على قدميه أن يطلب من عاجزٍ مشلولٍ أن يرفع متاعه إلى السطح، كما أنه لا أضلَّ ممن يطلب من إنسانٍ كفيفٍ أن يقوده إلى الطريق؛ فهذا في أمور الحياة، فأن يكون هذا فيما يتعلَّق بدعاء غير الله من باب أولى؟ لأن النفع والضر بيده سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، الذي قدَّر المقادير وكتب وقوعها الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ. تفرّ من الله إلى من؟ هذا يفر من الله سبحانه إلى الضلال المبين!

قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: (﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾[الأحقاف:٦]). وهذا مثل قوله سبحانه: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾[البقرة:١٦٦]؛ بمعنى أن المتبرئين يوم القيامة يتبرؤون ممن عبدوهم تبكيتاً لعابديهم، وحتى يزدادوا حسرة يوم القيامة، قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً﴾ يعني كانت أصنامهم وآلهتهم وغيرهم أعداءً لهم تحسراً على ما فاتهم مما لو كانوا موحدين متابعين للأنبياء والرسل.

وهذا واقعٌ في ملكوت الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وواقعٌ يوم القيامة، يُري الله ﷻ حسرة الضال والكافر بعدم استطاعة من تعلَّق به أن يدفع عنه أذى يخافه؛ كما هو حال في المشركين في زماننا الذين يتعلقون بالأعتاب والقبور وغير ذلك، يريهم الله وقوع البلاء عليهم مع كونهم لا يزالون يهتفون: "يا حسين، ويا فلان، ويا فلان"، ومع ذلك يقع البلاء، فهذه حسرة الدنيا فكيف بحسرة الآخرة هي أشد وأعظم؟ -والعياذ بالله-، كما أن الله يعاقبهم بهذا النوع من العقاب -وهو التحسُّر على ما فاتهم-، كما قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾[الأنبياء:٩٨]، بمعنى أن الله ﷻ يجمع العابد والمعبُود في النار، حتى يتحسَّر العابد على صرف العبادة لغير الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

وإن كان من عُبد من دون الله ليس ممن جرى عليه التكليف -كالحجر والصنم وغير ذلك-، لكن ليكون ذلك زيادة في تحسُّر المشرك، وإن كان الذي أدخله الله النار ليس تعذيباً

له لأنه لم يجرِ عليه التكليف، لكن حتى يتحسَّر من ضيَّع حظه من الآخرة وعَبَد غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

يدلُّ على ذلك ما في البخاري أن النبي ﷺ قال: «الشمس والقمر نوران مكوَّران في النار يوم القيامة»؛ فحتى الشمس والقمر -وهما من مخلوقات الله المطيعة لأمره الكوني-، ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾[فصلت:١١]، لكن جعلها في النار ليتحسَّر من كان يعبدهما -من كان يعبد الشمس والقمر-؛ لأن هناك من يعبد الشمس والقمر حتى في وقت التنزيل، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾[فصلت:٣٧].

ثم قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾)؛ يعني لا أحد يُجيب المضطر إذا دعاه غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. والله -يا إخواني- يجيب المضطر وغير المضطر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، الله ﷻ لم يعلِّق الإجابة بالاضطرار، لكنها في الاضطرار تكون الإجابة أرجى لعظم الثقة به والالتجاء إليه؛ فالله يحب من عباده الملحِّين في الدعاء. وقد يدعو الإنسان ربه من غير اضطرار فيعطيه الله.

بمعنى أن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لما قال: «يد الله ملأى لا تغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض؟ فإنه لم ينقص ما في يمينه»؛ فالله ﷻ كريم سبحانه وبحمده، فلا يُقال إنه لا يجيب إلا عند الاضطرار، لكن عند الاضطرار تكون الإجابة أحرى بالداعي؛ لا لأن لطف الله محصور في الاضطرار، بل لأن هذا متعلقٌ بتوجُّه القلب توجهاً كلياً لله، وإلا الله ﷻ لطيفٌ في حال الاضطرار وفي غيره، لطفه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ متعلِّقٌ باضطرار العبد أو هو لطيفٌ على كل حال ويستجيب الدعاء على كل حال، ويسمع الدعاء على كل حال؟! يسمع الدعاء حتى من الكافر إذا كان مظلوماً؛ قال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «واتقِ دعوة المظلوم؛ فإنه ليس بينها وبين الله حجاب».

فالله ﷻ سميع سبحانه وبحمده، وقريبٌ من عباده، وعالمٌ بأحوالهم، ومحيطٌ بما ينفعهم وما يضرّهم، ومطّلعٌ على ما يصلح حالهم ومآلهم، ولطفه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أحاط بعباده سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ المضطر وغير المضطر.

فيكون قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾[النمل:٦٢]؛ لأن المضطرَّ توجهه الى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ توجُّهٌ تامٌ، توجُّه المفتقر إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ولا يخيب الله ﷻ من أتى إلى الله ﷻ بقلبه لا يردُّه الله ﷻ عن جنابه وبابه سبحانه وبحمده.

نسأل الله يتداركنا وإياكم بلطفه، وأن يستجب دعاءنا وأن يغفر ذنوبنا.

قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: (﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَئِلَهٌ مَعَ اللهِ﴾[النمل:٦٢]) وقال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿أَئِلَهٌ مَعَ اللهِ﴾ ولم يقل أربٌّ مع الله مما يدلُّ على أن الدعاء نوعٌ من أنواع توحيد الألوهية؛ أن الدعاء توحيدُ الالوهية فلا يُصرف إلا لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

ثم قال الشيخ رَحِمَهُٱللَّهُ: (رَوَى الطَّبَرَانِيُّ بِإِسْنَادِهِ: «أَنَّهُ كَانَ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ مُنَافِقٌ يُؤْذِي الْمُؤْمِنِينَ)، والمؤمنون يؤذيهم المنافقون سواء في غشهم أو في أموالهم أو في غير ذلك، أو في ممالأة المشركين عليهم أو غير ذلك، فقال بعضهم -يعني بعض أصحاب النبي ﷺ- قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق، فقال النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «إنه لا يستغاث بي وإنما يستغاث بالله»، هذا الحديث إذا صح هو على كل حال كله أحاديث كتاب التوحيد كما قال الشيخ ابن باز رَحِمَهُٱللَّهُ، كلها صحيحة أو حسنة أو قابلةٌ للتحسين، ليس فيها ما اتُفق على ضعف.

هذا الحديث فيه أن النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ وجَّه الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ إلى الأكمل، وهنا لابد أن يُعلم أمران: أن الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ لما قالوا (قُومُوا بِنا نَسْتَغِيثُ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ هَذَا الْمُنافِقِ)، هل قصدوا استغاثة المشركين الذين يذهبون إلى القبور ويستغيثون بهم من دون

الله؟! حاشاهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وهم أعرف الناس بالتوحيد؛ بدلالة أنهم قالوا: (**قُومُوا بِنا نَسْتَغيثُ**) يعني نذهب إليه، حيٌّ حاضرٌ قادرٌ ﷺ، ويكون قصدهم بالاستغاثة أن يدعو النبي عليه ﷺ، فكان ما طلبوا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وأرضاهم جائزٌ؛ من حيث أن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كان حيـًا، وكان حاضراً ﷺ، وكان قادراً على الدعاء على المنافق، كما دعا النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ على بعض المشركين حتى نزل قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿**لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ**﴾[آل عمران:١٢٨]، كان يدعو عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ على الحارث بن هشام وعلى صفوان بن أمية وعلى سهيل بن عمرو، حتى نزل قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿**لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ**﴾.

إلى غير ذلك من الأحاديث التي فيها أن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ دعا، فكان قصدهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بالاستغاثة يعني طلب النبي ﷺ أن يدعو على المنافق حتى يكفّ الله شرَّه، كما دعا النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ على من آذى المسلمين في هذا الحديث، وهو في الصحيح حديث سبب نزول قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في آل عمران: ﴿**لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ**﴾[آل عمران:١٢٨].

والأمر الآخر أن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لما لم يكونوا فعلوا شيئـًا محرمـًا، دلهم النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ على شيءٍ أكمل مما أرادوا، لما قَالَ: («**إِنَّهُ لا يُسْتَغاثُ بِي، وَإِنَّمَا يُسْتَغاثُ بِاللهِ**»)، وقوله: («**إِنَّهُ لا يُسْتَغاثُ بِي**»)، إذا كان قاله النبي صلى الله وسلم في ذلك الوقت وهو حاضرٌ وحيٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وقادرٌ على أن يدفع آذى المنافقين عن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، إما دفعـًا حسيـًا بأن يعض ويخوِّف بالله، أو أذىً حسِّيـًا أن يقيم عليه حداً إذا كان يستوجب حداً، أو أن يدعو عليه بأن يكفي الله عَزَّوَجَلَّ شرَّه الصحابة.

إذا كان النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ: («**إِنَّهُ لا يُسْتَغاثُ بِي**») مع استكمال الشروط؛ فأن يقال هذا بعد وفاته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من باب أولى -أن يقال: أنه لا يُستغاث بالنبي صلى الله وسلم من بعد موته من باب أولى-.

ولو فُتِح هذا الباب، لو جوَّز الإنسان -ونعوذ بالله من ذلك- أن يستغيث المخلوق

بالمخلوق في دفع أذى مخلوقٍ آخر، ماذا بقي لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؟! تفرَّق الناس في المستغاث بهم، صار هذا يستغيث بموتى، وهذا يستغيث بأولياء، وهذا يستغيث بفلان.. وصار الناس يتعلقون بغير الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وإنما يوجَّه الإنسان إلى التعلُّق بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

قال: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾ ولم يقل "أرب مع الله"، مما يدل على أن الدعاء نوع من أنواع توحيد الألوهية، فلا يُصرف إلا لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

ونختم بهذا الحديث؛ قال: "وروى الطبراني بإسناده أنه كان في زمن النبي ﷺ منافق يؤذي المؤمنين -والمؤمنون يؤذيهم المنافقون بغشهم أو ممايلتهم للمشركين- فقال بعض أصحاب النبي ﷺ: قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق، فقال النبي ﷺ: «**إنه لا يُستغاث بي، وإنما يُستغاث بالله**»".

وفي قوله ﷺ: («**وَإِنَّمَا يُسْتَغَاثُ بِاللهِ**») تذكيرٌ بما هو أصل التوحيد؛ أن الإنسان إنما يتعلَّق بالله ويستغيث به حتى فيما يقدِر عليه المخلوق، فإن الأكمل والأتم هو الاستغاثة بالله عَزَّوَجَلَّ وحده.

وهذا لا يمنع أن الإنسان يستغيث بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فيما لا يقدر عليه إلا الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ بل هذا كمال التوحيد أن يستغيث بالله عَزَّوَجَلَّ في دفع البلاء وفي جلب الخير، أو أن يستغيث الله عَزَّوَجَلَّ بالغيث: "اللهم أغثنا، اللهم أغثنا".

كما أن ما يقال في الاستغاثة بالمخلوق يقال في الاستعاذة أيضًا؛ من حيث أن الاستغاثة بالمخلوق إذا كان حيًا حاضراً قادراً جازت من حيث أنها سببٌ من الأسباب؛ قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾[القصص:١٥]. لكن الأكمل أن يستغيث بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ على كل أحواله.

ولا يُنكر على من استغاث بمخلوق فيما يقدر عليه المخلوق، لكن الأكمل -كما يقال في الاستعانة أيضًا- الأكمل أن يُستعان بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وأن يُستغاث بالله عَزَّوَجَلَّ، وأن يُستعاذ بالله

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقد قال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ للصحابي: «**فاعني على نفسك بكثرة السجود**».

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بَابٌ قَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾[الأعراف:١٩١-١٩٢].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (١٣) إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾[فاطر:١٣-١٤].

وَفِي الصَّحِيْحِ: عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «شُجَّ النبي ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ، فَقال: كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ؟! فنزَلَت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾[آل عمران:١٢٨].

وَفِيهِ: عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ -إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ فِي الرَّكْعَةِ الْآخِرَةِ مِنَ الْفَجْرِ- يَقُولُ: اللَّهُم إلْعَنْ فُلَانًا، فُلَانًا، وَفُلَانًا؛ بَعْدَمَا يَقُولُ: سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾[آل عمران:١٢٨].

وَفِي رُوَايَةٍ: يَدْعُو عَلَى صَفْوَانَ بنِ أُمَيَّةَ، وَسُهَيْلِ بنِ عَمْرٍو، وَالْحَارِثَ بنِ هِشَام، فَنَزَلَتْ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾[آل عمران:١٢٨].

وَفِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾[الشعراء:٢١٤]؛ فقَالَ: «يا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ! -أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا- اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ؛ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا. يا عَبّاسُ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ! لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئًا. يا صَفِيَّةُ عَمَّةُ رَسُولِ الله! لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا. وَيا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ! سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي؛ لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا».



قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه.

انتهى الحديث على كلام الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى عند قوله:

(بَابٌ قَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿أَيُشْرِكونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُم يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلاَ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾[الأعراف:١٩١-١٩٢].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (١٣) إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾[فاطر:١٣-١٤]).

في هذا الباب ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أدلةً في سياق بُطلان عبادة غير الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، سواء كانت عبادته في جلْب مرغوبٍ أو دفع مرهوب؛ لأن هذا هو الحامل على العبادة عند المشركين، وربما عُبد غير الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ تعظيماً له، فصار الحامل على العبادة عندهم إما أن يكون تعظيم المعبود -أصنامهم وأشجارهم وغير ذلك-، وإما لتعلُّق قلوبهم بها في جلْب مرغوبٍ أو دفع مرهوب -جلب مرغوب مما يتعلق برغبات الدنيا، أو دفع مرهوب مما يخافون من مصائب الدنيا-.

والله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ إذا استأثر -سبحانه وبحمده- بالخلْق فلم يشركه غيره فيه؛ وفي الخلْق والرزق والتدبير، والإحياء والإماتة، والبعث والنشور، والجزاء والحساب؛ فهو المستحقُّ للعبادة سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فإذا كان الرب ﷻ له تمام الملك، فلا مُلك لأحد مع مُلك الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وله تمام الخلْق، وله تمام التدبير، وله تمام الرَّزق؛ معنى ذلك أن العبادة كلها له سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

وأن عبادة غيره إنما تقع باطلاً وظُلماً لأنها وضِعت في غير موضعها؛ لأن الظلم في أصله وضع الشيء في غير موضعه، ومن عبد مع الله ﷻ غيره فقد وضع العبادة في غير موضعها،

وهذا أقبح الظلم وأشنعه وأكبره؛ قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[لقمان:١٣]. وقال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[البقرة:٢٥٤]. فالكافر بالله ظالم ظلم أكبر لأنه عَبَد مع الله غيره، أو جحد عبادة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ليس بالضرورة أن يكون الكافر عَبَدَ مع الله غيره، بل قد يكون عَبَد غير الله ولم يعبد الله، وقد يكون ما عَبَد شيئًا.

والكفر مِلَّةٌ واحدة؛ سواء عَبَد مع الله غيره، أو عَبَد غير الله ﷻ استقلالاً، أو لم يعبد شيئًا كالملاحدة وأضرابهم.. وكلهم من يسمون مشركين: من عَبَد مع الله غيره يسمى مشركًا لأنه أشرك مع الله ﷻ في العبادة، ومن عَبَد غير الله ولم يعبد الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يسمى مشركًا لأنه عَبَد هواه؛ وعبادة الهوى وجهٌ من أوجه الشِّرْك لأنه جعل مع الله ﷻ شريكًا في الطاعة -شرك الطاعة-، ومن لم يعبد شيئًا أيضًا متعلِّقٌ بأنه اتبع هواه، ولهذا كل عبادة دون الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ تسمى شركًا لأنها لا تخلو من تشريك، قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿يُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾[الأعراف:١٩١]، يعني ما لا يخلُق شيئًا من الدنيا بل هو يُخلَق، ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ عائدة إلى من عُبِدوا من دون الله، أو من عَبَدوا مع الله غيره؛ بمعنى أن المشركين مخلوقون أو أن أصنامهم هم يخلقونها -بمعنى أنهم يصنعون أصنامهم-.

فصاروا هم ومعبوداتهم مفتقرةٌ إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، مفتقرةٌ إلى أن توجِد نفسها، والله ﷻ قال عن نفسه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[الزمر:٦٢]، قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾[الأعراف:١٩٢] يعني أصنامهم التي يدعونها من دون الله ويتقرَّبون إليها لجلب نفعٍ أو دفع ضُر ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ﴾[الأنبياء:٤٣]، سواء كانت الأصنام أو الأشجار أو غير ذلك، لا يستطيعون دفع الأذى عن أنفسهم.

أربٌ يبول الثعلبان برأسه؟! لقد ذل من بالت عليه الثعالبُ

لما أسلم بعض الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ أجمعين، وكان بعض أقاربه يعظِّم صنمًا، فعلَّق عليه جيفة ثُعلبان -يعني ثعلب ميت-، ثم لما أصبح المشرك ألقى الجيفة عن صنمه وطهَّره

وطيَّبه، ثم لما كان من الغد فعل مثل ما فعل -الصحابي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، ثم لما جاءت الليلة الثالثة قال الذي كان يعبده من دون الله -وأسلم بعد ذلك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين-:

أربٌ يبـــول الثعلبـــان برأســـه؟! لقد ذل من بالت عليه الثعالبُ

يعني بما أنه لا يستطيع دفع الضُرِّ عن نفسه، ولهذا إذا سقط احتاج إلى من يوقفه، وإذا انكسر احتاج إلى من يجبره، وإذا أرادوا صنم صنعوه لأنفسهم؛ بمعنى أنه مفتقر إليهم محتاج إليهم، فهو لا يستطيع دفع الضر عن نفسه ولا يستطيع نصر نفسه، فكيف يُطلَب منه ذلك؟ والله عَزَّوَجَلَّ سمَّى نفسه نصيراً، وسمى نفسه قوياً وعزيزاً سبحانه وبحمده، وسمى نفسه -كما سماه نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- «**ذو الجبروت وذو الملكوت**».

والأصنام ليس لها شيءٌ من ذلك، لا الأصنام ولا غيرها ممن عُبِد مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولو كانوا الملائكة؛ هذا ليس متعلقاً بالأصنام فحسب، كل ما عُبد من دون الله عُبِد وهو لا يستحق ذلك لأنه عاجزٌ عن تدبير نفسه حتى ولو كانت ملائكة؛ لأن هناك من عَبَد الملائكة مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وهم أعظم خِلْقة من بني آدم، ومن الأولياء ومن القبور ومن الأضرحة والأشجار وغيرها؛ هناك من عبد الملائكة، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿**وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ**﴾[آل عمران:٨٠].

قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: (﴿**وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ**﴾) أيْ من دون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من معبوداتكم، والنبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بُعِث في أمةٍ متفرقة في آلهتهم، منهم من يعبد الشجر والحجر والشمس والقمر وغير ذلك، وكل هؤلاء الذين عُبدوا مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ما يملكون من السماوات والأرض شيئاً ولو كان قطميراً؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ هو مالك الملك.

والقطمير: هو الغشاء الذي يكون لفافة على نواة التمرة.

والفتيل: الذي يكون من أعلاها إلى أسفلها، والنقير: النُّقرة التي تكون في ظهرها، والقطمير: الغشاء الرقيق الذي يكون محيطاً بها؛ فإذا كانوا لا يملكون القطمير الذي يُحيط

بالنواة فمن باب أولى ألا يملكون النواة ولا التمرة ولا الشجرة ولا أشجار الدنيا ولا شيء من السماوات والأرض، فضرب الله ﷻ مثالاً بعجزهم وعدم افتقارهم بالقطمير الذي هو أحقر ما يكون، الذي لا يستفيد منه أحد ويُلقى مع النواة، فغيره هم عاجزون عنه من باب أولى.

قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: (﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾)، وهذه المقدمات -أو المنازل- الثلاث تدلُّ على أن من دعا غير الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لا يسمع دعاء من دعاه، ولو سمع ما استجاب له، ويوم القيامة يكون الحال أن يتبرأ ممن دعاه؛ كما قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ﴾[البقرة:١٦٦]. فعلى هذا يكون دعاؤه باطلاً في باطل، قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: (﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾)؛ لأن الله ﷻ ضرب على أسماع الموتى بعد موتهم، فلا يسمعون دعاء الأحياء، هذا في الأصل إذا كان المدعو من دون الله بشراً من الأموات، فكيف إذا كان من لا يسمع ولا يُبصر؟! كما قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في قصة إبراهيم: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾[مريم:٤٢]. فهو من باب أولى، لم تُركَّب فيه آلة السمع حتى يُقال إنه يسمع ولم يسمع، فهم من باب أولى.

قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: (﴿وَلَوْ سَمِعُوا﴾)، يعني لو جعل الله ﷻ لهم سمعًا يسمعون به دعاء من دعوهم من دون الله، لم يستطيعوا أن يجيبوهم لا بدفع شرٍ ولا بجلب خير: (﴿وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾) أيْ يبرؤون إلى الله مما وقع منكم من الشرك به سبحانه وبحمده. وإذا كان هذا في حق أنبياء الله ﷻ وأصفيائه فمن دونهم من باب أولى.

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾[المائدة:١١٦]. أول ما قال عيسى سبَّح الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ونزَّهه لشناعة هذا الذنب، ﴿قَالَ سُبْحَانَكَ﴾؛ سبحانك أن يكون معك شريك سبحانه وبحمده، وهذا من أقبح الذنوب؛ أقبح

الذنوب أن تجعل مع الله ﷻ شريكًا وهو خلقك.

ذكر ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للنبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: أيُّ الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك»، خلقك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وتجعل له نِداً! ولذلك سبَّح الله عيسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لشناعة ما قيل فيه وأنهم جعلوه مع الله ﷻ إلهـًا -لأن النصارى جعلوا عيسى مع الله إلهـًا- بصريح قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾[المائدة:١٧]، وبصريح قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾[التوبة:٣٠]. فلا تظن أن النصارى إذا قالوا إن عيسى ابن الله أنهم لا يعتقدون في عيسى الألوهية أو التدبير أو الحفظ أو غير ذلك، بل هم يعتقدون هذا.

ولهذا قال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لعدي بن حاتم لما قال: يا رسول الله، ما كنا نعبدهم، قال: «ألم يكونوا يحرِّمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرَّم الله فتستحلونه؟» قال: بلى، قال: «فتلك عبادتهم». يعني أن شرك الطاعة كان فاشيًا عند النصارى وإلى الآن فاشٍ، ناهيك أنهم نسبوا إلى الله ﷻ النقص لما جعلوا لله ﷻ ولداً، أو جعلوا الله ﷻ جزءاً من ثلاثة -تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً-.

ومن الأدلة غير ذلك: أن عيسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أمرهم بالتوحيد وترْك الشرك، وما أمرهم بالتوحيد وترْك الشرك إلا لأنهم وقعوا في الشرك وتركوا التوحيد، وإلا ما يكون لأمره ونهيه معنى: ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾[المائدة:٧٢].

فالمقصود أن عيسى إذا قال ذلك فغيره من باب أولى: ﴿سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ

﴿شَهِيدٌ﴾[المائدة:١١٦-١١٧].

هذه دعوات الأنبياء كلهم، لكن عيسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في هذه الآية من آخر سورة المائدة يقيمه الله ﷻ مقام المسؤول والمجيب؛ لأن عيسى اختلفت فيه الملل الثلاث، أما من عداهم فلا يأبه لهم الله ﷻ، هم شرار الخلْق كما قال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ -عُبَّاد الأصنام والأشجار والأحجار-: «أولئك شرار الخلق عند الله، وعليهم تقوم الساعة».

لكن الملل الثلاث هم الذين اختلفوا في عيسى: فمنهم من قال فيه وفي أمه ما برأهما الله منه، ومنهم من غلا فيه حتى جعله هو الله أو ثالث ثلاثة أو ابن الله -تعالى عن ذلك علواً كبيراً-، ومنهم الأمة المرحومة المهدية أمة النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ الذين وُفِّقوا لما أراد الله ﷻ من الحق؛ بهداية الله ﷻ إياهم لما أنزل فيهم كتابه وبعث فيهم رسوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: (﴿وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾[فاطر:١٤])، يعني لا ينبئك بما يقع يوم القيامة مثل الخبير الحميد البصير سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ بمعنى أن هذا حقٌّ واقعٌ من حيث براءتهم مِمَّن عبدهم وأشرك بهم مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ثم قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَفِي الصَّحِيحِ: عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «شُجَّ النبي ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ، فَقال: كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ ؟! فنَزَلَت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾[آل عمران:١٢٨]).

بمعنى أن الأمر لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في أوله وفي آخره.

هذا الحديث يدلُّ -وهو مراد الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ من ذكره هنا- على أن أكرم الخلْق على الله نبيه ﷺ، سيِّد الأولين والآخرين، ورحمةُ الله للعالمين، وإمام الأنبياء والمرسلين، ومع ذلك لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، حتى نالته عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ الجراحة ووصل السيف إلى وجهه، شُجَّ جبينه ﷺ، ونشبت حلقتان من المغفر في وجنته، وكُسرت رباعيته -أيْ السن الرابعة التي بجوار الثنية-، وسقط في الحفرة ﷺ، وصاح الشيطان: قُتِل محمد! وهذا كله ضرر.

فإذا كان النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لم يستطع دفع الضُرِّ عن نفسه، هل يجوز أن يُعبد مع الله

ﷺ؟ بمعنى أن الله ﷻ أرى الصحابة رَضِوَاللَّهُعَنْهُمْ أن سيِّد الأولين والآخرين عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لم يستطع دفع الضُرِّ عن نفسه، وأنه ليس له من الأمر شيء؛ لا من حيث دفع الأذى عن نفسه، ولا من حيث عِلمه بما يؤول إليه حال من آذوه.

فإذا كان ليس بعالمٍ ﷺ ما يقع من شرٍّ وما يقع من خير، معنى ذلك أن الله ﷻ هو المستحق للعبادة لا غيره، وأن الله ﷻ الذي استأثر بعلم الغيب واستأثر بدفع الضُرِّ وجلب الخير، وبيده مقاليد الأمور سبحانه وبحمده: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[الزمر:٦٣]. فالله ﷻ هو المستحق للعبادة.

ومثله قول النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لما كان يدعو على رِعل وبني لحيان وعُصيَّة «عصت الله ورسوله»، ومثل دعائه ﷺ على ثلاثةٍ من المشركين كانوا بلغوا في الصحابة المستضعفين أذاهم؛ كان النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إذا رفع رأسه من الركوع في صلاة الفجر يدعو عليهم، ويدعو لثلاثة: « اللهم العن الحارث بن هشام، اللهم العن سهيل بن عمرو، اللهم العن صفوان بن أمية، اللهم أنجِ الوليد بن الوليد، اللهم أنجِ عياش بن أبي ربيعة، اللهم أنجِ سلمة بن هشام».

والغريب في هذا الحديث؛ أن النبي يلعن رجلاً ويدعو لأخيه وكلاهما أخوان لأبي جهل عمرو بن هشام، يلعن الحارث بن هشام ويدعو لسلمة بن هشام وهما أخوان؛ لأن الله ﷻ فرَّق بينهما بالتوحيد. وإن كان الثلاثة قد أسلموا بعد ذلك، وهذا سيأتي في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾[آل عمران:١٢٨].

وإن كانوا أسلموا، لكن سياق الحديث هذا والذي قبله من حيث أن النبي لا يعلم بمآلات الأمور، وأن عِلم الغيب استأثر به الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأن ما وقع من ضُرٍّ في نفسه ﷺ أو أصحابه أو غير ذلك إنما وقع بتقدير الله وتدبيره، وما حصل من خيرٍ ومن تمكين ومن غير ذلك فهو بتدبير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾[آل عمران:١٢٨].

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَفِيهِ: عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: «أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ -إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ فِي الرَّكْعَةِ الْآخِرَةِ مِنَ الْفَجْرِ- يَقُولُ: اللَّهُمَّ الْعَنْ فُلَانًا، فُلَانًا، وَفُلَانًا؛ بَعْدَمَا يَقُولُ: سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ؛ فَأَنْزَلَ اللهُ تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾[آل عمران:١٢٨].

وَفِي رُوَايَةٍ: يَدْعُو عَلَى صَفْوَانَ بنِ أُمَيَّةَ، وَسُهَيْلِ بنِ عَمْرُو، وَالْحَارِثَ بنِ هِشَام، فَنَزَلَتْ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾[آل عمران:١٢٨]).

ونفع الله ﷻ بهؤلاء الثلاثة، بمعنى أن الله ﷻ أبقاهم ولم يعاجلهم الموت على الشرك حتى أسلموا ونفع الله بإسلامهم:

فصفوان بن أمية نفع الله ﷻ بالأدرع التي كانت عنده، بمعنى أن النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ استعار منه الأدرع يوم حنين، قال: أغصباً يا محمد؟ قال: «بل عاريةٌ مؤداة»، فانتفع المسلمون بما عندهم من أدرع وسلاح.

وسهيل بن عمرو لما مات النبي ﷺ ثبَّت الله ﷻ به أهل مكة، كان خطيب مكة في الجاهلية وفي الإسلام، قال: يا أهل مكة، لا تكونوا آخر من دخل في الإسلام وأول من خرج منه، فثبَّتهم الله ﷻ بسهيل كما ثبت الله أهل الطائف بعروة بن مسعود.

والحارث بن هشام مات في فتوح الشام، حتى قيل إنه مات رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في فلسطين في طاعون عمواس -وعمواس منطقة في فلسطين-.

فالمقصود أن الله ﷻ أبقاهم وأنهم دخلوا في الإسلام، مما يدلُّ على أن النبي لما كان يلعنهم ما ظهر له عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ من الغيب ما استأثر الله به من أن الله ﷻ كتب أن يسلموا.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَفِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾[الشعراء:٢١٤]؛ فَقَالَ: يا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ! -أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا-) هذا كان في أول الإسلام، وهذا يسمى من مراسيل الصحابة يا إخواني؛ مراسيل الصحابة أن يروي الصحابي

حديثًا أو خبراً أو قصة ما شهدها، قد تكون وقعت قبل أن يولد أيضـًا، كما روت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بدء الوحي، مع أن بدء الوحي لما وقع كانت عائشة لم تُخلَق بعد، ومثل هذا حديث أبي هريرة لما روى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه هذا الحديث، كان أبو هريرة ما زال في بلاد دوس ولم يُسلِم، ومراسيل الصحابة بإجماع المسلمين صحيحة؛ لأن الصحابي إذا أرسل إنما يُرسِل عن صحابيٍ آخر، هذا هو الأصل خلافًا لقول أبي محمد بن حزم كما هو معروف.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (**وَفِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾**[الشعراء:٢١٤]**؛ فَقَالَ: «يا مَعَشرَ قُرَيْشٍ! -أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا- اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ»**)

"اشترى وشرى" بمعنى ابذل نفسك وأنقذ نفسك من عذاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بما يدفعها من طاعته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

(**«لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا. يا عَبّاسُ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ!»**)، في بعض ألفاظ الحديث أن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ خصَّ وعمّ، قال: **«يا قريش، يا بني عبد مناف، يا بني هاشم»**، ثم قال: **«يا عباس، يا صفية، يا فاطمة»**.

(**«يا عَبّاسُ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ! لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئًا. يا صَفِيَّةُ عَمَّةُ رَسُولِ اللهِ! لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا. وَيا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ! سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي؛ لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا»**)، خصَّ النبي ﷺ فاطمة لأن الإنسان ينكسر قلبه ويرقُّ قلبه للصغير أكثر من الكبير، وإلا فالنبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بناته أربع رَضِيَ اللهُ عَنْهُنَّ أَجْمَعِيْنَ زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة، لكنه خصَّ فاطمة لأنها كانت وقتها أصغرهن، وهي آخر من مات من بناته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

فتخصيص فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لأن النفوس تتعلَّق بالصغار أكثر من تعلقها بالكبار رحمةً بهم ورفقًا بهم، وتخصيصه ﷺ لصفية بنت عبد المطلب عمَّته ﷺ لأنها أكثر ذكراً من عماته، وإلا فعماته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ثلاث وقيل أربع: أم حكيم -البيضاء-، وعاتكة، وبرة، وصفية؛ لكن صفية كانت أشهر منهن جميعًا.

وتخصيصه ﷺ للعباس بن عبد المطلب أيضاً كذلك؛ لأن العباس بن عبد المطلب كان أكثر مالاً من إخوانه، وإن كانت السيادة والجاه وغير ذلك لأبي طالب، لكن العباس كان أكثر ولداً من أبي طالب وأكثر مالاً، حتى قيل إن العباس بن عبد المطلب كان ابنه اثنا عشر ولداً.

فالشاهد أن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ خصَّ هؤلاء، ولا يعني ذلك أن الخطاب لهم وحدهم؛ لأن الخطاب كان عاماً: «**يا معشر قريش.. يا بني عبد مناف.. يا بني هاشم**»، ثم ذكر أولئك. والمقصود بذلك أن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لا يملك للكثير شيئًا كما أنه لا يملك للقليل شيئًا، كما أنه لا يملك لقرابته ولا للذين ليسوا من قرابته شيئًا، مما يدلُّ على أنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لا يملك لهم ضراً ولا نفعًا.

ولهذا قال في آخر الحديث لما ذكر فاطمة عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**سليني من مالي ما شئت لا أغني عنك من الله شيئًا**» لا يُغني عن الناس من الله شيئًا؛ لأن الخلْق خلْق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولأن الله ﷻ هو الغني الحميد، ولأن الله ﷻ هو الذي يجلب الخير ويدفع الضُرّ سبحانه وبحمده، أما النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فلا يملك من الناس إلا الدلالة إلى الخير، ولهذا حتى الدلالة إلى الخير -وإن كان النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مأموراً بذلك لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿**وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ**﴾[الشعراء:٢١٤]، حتى وإن كان النبي هو الذي ابتدأ من حيث أنها دلالة للإرشاد- إلا أن أثرها في القلوب إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ الخلْق خلقه يهدي من يشاء ويضل من يشاء سبحانه وبحمده. فسياق هذه الأدلة من حيث أن كل مَن غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يملك في تدبير ملكوته قليلاً ولا كثيراً؛ فلا يستحق العبادة مع الله.

كل من غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يملك في السماوات والأرض لا قليلٍ كالقطمير وما كان أقل منه، فمن باب أولى ما هو أكثر منه، ولا يملك دفع الضُرِّ عنه كما أن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لم يملك دفع الضُرِّ عن نفسه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ولا يملك جلْب الخير إلى غيره كما أن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أنزل فيه ربه سبحانه وبحمده: ﴿**إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ**﴾[القصص:٥٦]، فمعنى

ذلك أن الذي بيده تدبير السماوات والأرض هو الذي يستحق العبادة دون غيره.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بَابُ قَوْلِ اللهِ تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قالوا مَاذَا قال رَبُّكُمْ قالوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾[سبأ:٢٣].

وَفِي الصَّحِيْحِ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قال: «إِذَا قَضَى اللهُ الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ ضَرَبَتِ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خَضعَانًا لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهُ سَلْسَلَةٌ عَلَى صَفْوَانَ، يَنْفُذُهُمْ ذَلِكَ، ﴿حَتَّى إِذا فُزِّعَ عَن قُلُوبهُم قالوا مَاذا قال ربكُمْ قالوا الْحَقُّ وَهُوَ العَلَّي الْكَبِيرُ﴾[سبأ:٢٣]، فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُ السَّمْعِ، وَمُسْتَرِقُ السَّمْعِ هكَذَا، بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ -وَصَفَهُ سُفْيانُ بِكَفِّهِ، فَحَرَفَهَا وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ- فَيَسْمَعُ الكَلِمَةَ، فِيُلْقِيهَا إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، ثُمَّ يُلْقِيهَا الآخَرُ إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، حَتَّى يُلْقِيَهَا عَلَى لِسَانَ السَّاحِرِ أَو الْكَاهِنِ. فَرُبَّمَا أَدْرَكَهُ الشِّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا، وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يُدرِكَهُ، فَيَكْذِبُ مَعَها مَائة كِذْبَةً فَيُقال: أَلَيْسَ قَدْ قال لَنا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا: كَذَا وَكَذَا، فَيُصَدَّقُ بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ الَّتِي سُمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ».

وَعَنِ النَّوَّاسِ بنِ سَمَعَانِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا أَرَادَ اللهُ أَنْ يُوحِيَ بِالْأَمْرِ تَكَلَّمَ بِالْوَحْيِ، أَخَذَتِ السَّمَاواتِ مِنْهُ رَجْفَةٌ -أَوْ قال: رِعْدَةٌ شَدِيدَةٌ- خَوْفًا مِنَ اللهِ ﷻ. فَإِذَا سَمِعَ ذَلِكَ أَهْلُ السَّمَاواتِ؛ صَعِقُوا؛ وَخَرُّوا لِلَّهِ سُجَّداً، فَيَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ جِبْرِيلُ، فَيُكَلِّمُهُ اللهُ مِنْ وَحِيهِ بِمَا أَرَادَ. ثُمَّ يَمُرُّ جِبْرِيلُ عَلَى الْمَلَائِكَةِ، كُلَّمَا مَرَّ بِسَمَاءٍ سَأَلَهُ مَلَائكَتُهَا: مَاذا قال رَبُّنَا يا جِبْرِيلُ؟ فِيَقُولُ جِبْرِيلُ: قَالَ الْحَقَّ، وَهُوَ الْعَلَّيُّ الْكَبِيرُ. قَالَ: فَيَقُولُونَ كُلُّهُمْ مِثْلَ مَا قال جِبْرِيلُ؛ فَيَنْتَهِي جِبْرِيلُ بِالْوَحْيِ إِلَى حَيْثُ أَمَرَهُ اللهُ سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.



قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (بَابُ قَوْلِ اللهِ تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قالوا مَاذَا قال رَبُّكُمْ

قالوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾[سبأ:٢٣]).

﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ يعني حتى إذا أُزيل الفزع عن قلوب الملائكة؛ لأن الله ﷻ إذا قضى الأمر في السماء أخذت الملائكة رجفة -أيْ رِعدة- من خوفهم من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، فتضرب أجنحتها خضعانًا لله -تواضعًا وخشوعًا وإخباتًا وافتقاراً إليه سُبْحَانَهُوَتَعَالَى-.

هذا والملائكة من أعظم خلْق الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى؛ جنس الملائكة -يا إخواني- أعظم من خلق السماوات والأرض، قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾[غافر:٥٧]، ومع ذلك قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أُذِن لي أن أتحدث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش، ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام»، وفي بعض الألفاظ: «عنقه مطوية تحت العرش ورجلاه في تخوم الأرض». فجنس الملائكة أكبر من خلق السماوات والأرض، وإن كانوا يختلفون في الصورة كما قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾[فاطر:١].

وإن كان الله ﷻ أعطاهم من القوة -مثالها أن جبريل قلب ديار قوم لوط بطرف جناحٍ من الستمائة جناح-، جاء في بعض الآثار أنه رفعها حتى سمع أهل السماء نباح كلابهم، ثم قلبهم عليها فجعل عاليها سافلها.

وإن كان الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى ذكر من الملائكة ما ذكر من أنهم ﴿عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾[الأنبياء:٢٦]، ﴿لا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[التحريم:٦]؛ إلا أن الله ﷻ إذا قضى الأمر في السماء أخذت الملائكة رِعدة وغشي. قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾؛ يعني إذا أُزيل الفزع عن قلوبهم.

لماذا هذا الاستطراد الذي قلناه في الملائكة؟ يدلُّ على أن الملائكة لعظيم خلقتهم وعظيم قوتهم وكثرتهم، كما جاء في بعض الأحاديث أن البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه آخر ما عليهم، وكما في صحيح مسلم أن النبي

عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال: «**يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها**»، إلى غير ذلك من الأحاديث التي تدلُّ على كثرتهم. قال النبي ﷺ: «**أطَّت السماء وحُقَّ لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك قائمٌ أو ساجد**».

إذن هم كثيرون لا يحصي كثرتهم إلا الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، وهم عَالمٌ غيبي -قد يظهرون في بعض الأحاديث ولبعض خلْق الله كما أراد الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، لكن الأصل أنهم عَالمٌ غيبي-. وإذا قيل "هذا من عالم الغيب" معنى ذلك أن محمله التسليم، والتصديق لله ورسوله ﷺ، وانعقاد القلب على أن هذا حقٌ وأنه خبر يقين.

فإذا كانت هذه عظمتهم، وهذا خلقهم، وهذه قدرتهم، وهذه كثرتهم، ثم اعتراهم الفزع؛ ألا يدل على ضعفهم وافتقارهم إلى القوي المتين سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ؟ فالله ﷻ -سبحانه وبحمده- وإن جعل لبعض خلقه من القُدْرة ما جعل، إلا أنه ما فيه من قُدْرة مركبة فإنما ركبها الذي هو أقوى منه سبحانه وبحمده.

قال الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿**حَتَّى إذا فُزِّعَ عَن قُلوبهُم قالوا مَاذا قال ربكَمْ قالوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِّي الْكَبِيرُ**﴾[سبأ:٢٣]. كما أن في قولهم لبعضهم: ﴿**مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ**﴾؟ دليلٌ على أنهم لا يعلمون الغيب إلا ما أطلعهم الله ﷻ عليه؛ هذا مع قربهم من خبر الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ وما يقضيه مما يقع في ملكوته، وأن الله ﷻ جعلهم -كما قال سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ- ﴿**عِبَادُ الرَّحْمَنِ**﴾[الزخرف:١٩]، وقال سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿**بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ**﴾[الأنبياء:٢٦]. ومع ذلك لا يعلمون من الغيب إلا ما أطلعهم الله ﷻ عليه؛ لأن من أخصِّ خصائص ربوبيته سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ استئثاره بالغيب سبحانه وبحمده.

فإذا كانت الملائكة يعتريها الفزع، ولا تعلم من الغيب إلا ما أطلعهم الله ﷻ عليه، معنى ذلك أنهم لا يستحقون شيئًا من العبادة، وأنهم عبادٌ مفتقرون إلى الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

وفي قوله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿**وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ**﴾ دليلٌ على ما تقدم من أن الله ﷻ عليٌّ علوَّ

حكمٍ سبحانه وبحمده، وعلوَّ علمٍ.

وهنا -يا إخواني- بعض أهل العلم -وإن كان قولهم صحيحًا- يقولون أن العلو ثلاثة أنواع: علو قدْرٍ، وعلو قهرٍ، والذي اضطر أهل السنة والجماعة أن يقولوا عنه علو الذات -أو علو الجهة-؛ لأن الأشاعرة والمبطلة لا يقولون بالجهة، فقالوا: نقصد بعلو الذات في جهة العلو.

والجهة لم تأتِ على ألسنة الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وهذا بحثٌ قد لا يكون موضعه كتاب التوحيد، لكن هناك ألفاظٌ جرت على ألسنة أئمة السنة والجماعة، أطبقوا على جواز استعمالها مع أن الصحابة ما قالوها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وأرضاهم، وإنما أطبقوا على استعمالها لأنها تُغلِق باب الافتيات على الله في صفاته، وباب التلون عند المبتدعة.

فلما قال أهل السنة والجماعة -على سبيل المثال-: إن الله عَزَّ وَجَلَّ مستوٍ على العرش بذاته؛ كلمة "بذاته" ما جاءت في الكتاب ولا في السنة مقرونة بالاستواء، لكنهم ذكروها لأن هناك من يقول إن الله عَزَّ وَجَلَّ مستوٍ على العرش لكن ليس بذاته، وإنما هو استواء هيمنةٍ واستيلاء وغير ذلك.

ومثلها هنا؛ لما قال أهل السنة والجماعة: إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له علو القَدْر والقهر وعلو الذات، يقصدون بذلك جهة العلو؛ لأن هناك من المبتدعة من يثبت العلو، فليس على ظهر الأرض مبتدعٌ لا يُثبت لله علو القَدْر والقهر، مهما كانت بدعته إلا وهو يُقِرُّ لله عَزَّ وَجَلَّ بالقَدْر والقهر؛ لكن الذي وقع فيه الخلاف ما بين أهل الحق والسنة والجماعة والهدى، وما بين أهل الضلالة هو علو الذات -علو الجهة-.

لهذا قسَّموا العلو إلى ثلاثة أقسام، وإن كان هذا صوابًا، لكن الصواب في ذلك أن الله عَزَّ وَجَلَّ له العلو بكل اعتبار؛ فله العلو في الأمر فإذا أمر فلا يعلو أمره أمر، وله العلو في النهي، وله العلو في التدبير، وله العلو في الإحاطة، وله العلو في عِلم الغيب سبحانه وبحمده؛ بمعنى أن

الله ﷻ له العلو بكل اعتبار سبحانه وبحمده، وهو الأمر الذي لا يليق إلا به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾.

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وَفِي الصَّحِيحِ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قال: «إِذَا قَضَى اللهُ الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ»**). يعني القضاء الكوني القدري، وقد يكون في القضاء الكوني القدري قضاءً دينيًا شرعيًا؛ يعني يقضي الله ﷻ كونًا وقدراً أن يخلق وأن يحيي وأن يميت، كما أنه يتضمن أيضًا قضاءً شرعيًا دينيًا.

والقضاء الشرعي الديني أمثلته كثيرة في كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ مثاله قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾[الإسراء:٢٣].

والقضاء الكوني القدري كقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾[الإسراء:٤]. فالله ﷻ له قضاءٌ كوني قدري، كما أن له قضاءً شرعيًا دينيًا.

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قال ﷺ: (**«ضَرَبَتِ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ»**) يعني خضوعًا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، (**«كَأَنَّهُ سَلْسَلَةٌ عَلَى صَفْوَانَ، يَنْفُذُهُمْ ذَلِكَ»**) يعني يبلغهم كلامه سبحانه وبحمده، (**«﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾[سبأ:٢٣]، فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُ السَّمْعِ»**).. إلى آخر الحديث.

هنا مسألة فيما يتعلق بقوله ﷺ: (**«كَأَنَّهُ سَلْسَلَةٌ عَلَى صَفْوَانَ، يَنْفُذُهُمْ ذَلِكَ»**)، يعني ينفذهم ما قضاه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في ملكوته مما هو واقع، سواء قدريًا كونيًا أو شرعيًا دينيًا.

ما المقصود بقوله ﷺ: (**«كَأَنَّهُ سَلْسَلَةٌ عَلَى صَفْوَانَ»**)؟

السلسلة: الحديدة المترابطة، والصفوان: هو الحجر الأملس الأصم، وجرُّ السلسلة على الحجر الأملس يُحدِث صوتًا. والنبي ﷺ قال: «**كَأَنَّهُ**» يعني يُشبه صوته السلسلة -أو صوت السلسلة على الصفوان. أليس هذا تشبيه لله ﷻ ببعض خلقه؟

ولهذا قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الحديث: «من قال بأن الصوت الذي يُسمع من السلسلة يشبه صوت الله ﷻ، أو أنه صوت للملائكة؛ فقد قال بقول الجهمية».

لأن الذي يقول بأنه "صوت الملائكة" عطّل صفة الصوت عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والذي قال بأن "صوت الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ" شبّه الله بخلقه، والمشبهة أيضاً معطلة، والتعطيل تجهُّم.

قبل أن نتكلم عن عقيدة أهل السنة والجماعة في هذا: أهل السنة والجماعة إذا قالوا للمبتدع إنه "جهميٌّ"، لا يقصدون بذلك أنه من أتباع الجهم بن صفوان عيناً، وإنما يقصدون بأن اللوثة في العقيدة سببها لوثة جهم بن صفوان.

لماذا عطَّل الجهم بن صفوان الصفات؟ لأنه اعتقد أن إثباتها يلزم منه مشابهة الخالق بالمخلوق، فعطّل الصفات؛ فلهذا شيخ الإسلام ابن تيمية يسمي الأشاعرة جهمية -مع أنهم في التفصيل ليسوا جهمية-، ويسمي المعتزلة جهمية؛ لأنهم اتفقوا على تعطيل الصفات لمبدأ أن إثباتها يلزم منه مماثلة الخالق بالمخلوق.

فعلى هذا، هذان القولان باطلان. وإن كان قال بهذا القول بعض أهل العلم من أهل السنة والجماعة، لكن كان الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ شديداً في هذا لأنه يعلم مغزى الأقوال ومؤداها، كما كان الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذا قيل له: إن الله ﷻ "خَلَق آدم على صورته"، قَالَ: من قال أن الله ﷻ خلق آدم على صورة آدم فهو جهمي، مع أنه قال به بعض أهل العلم كالإمام ابن خزيمة صاحب "كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب"، لكن من قاله تديناً بمعنى أنه يعطِّل صفة الصورة عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فعبارة الإمام أحمد شديدة لأنه يعرف مؤدى الأقوال.

ناهيك أن قول النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**إن الله خلق آدم على صورته**»، وهناك لفظٌ آخر يحسم المسألة لما قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**خلق الله آدم على صورة الرحمن**» والحديث في صحيح البخاري بغير هذه اللفظة على كل حال، وله طرق كثيرة.

هذا الحديث لما قال الإمام أحمد "فقد قال بقول الجهمية"؛ لأن من قال بأن الصوت الذي يُسمع من السلسلة هو صوت الملائكة عطَّل صفة الصوت عن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فصار جهميًا، ومن قال بأن الصوت هذا الذي سُمِع مثل صوت الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فقد مثَّل الله ﷻ بخلقه.

لم يبق إلا قولٌ واحد: وهو أن ما يقع في آذان الملائكة وفي مسامعهم -مما يُسمع من السلسلة التي تُجر على الصفوان إذا قضى الله ﷻ بالأمر-، هو يُشبه ما يقع في أذن الإنسان إذا سمع السلسلة إذا جُرَّت على الصفوان. فصار التشبيه هنا هو تشبيه السمع بالسمع، لا تشبيه صوت الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بالسلسلة؛ وهذا هو الذي لا يجوز غيره.

وهو مثل قول النبي ﷺ: «إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر»، هل هذا تشبيهٌ لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بالقمر، أو تشبيه رؤيتك بالقمر في الدنيا برؤية المؤمنين لربهم في الجنة؟ الثاني؛ فهو تشبيه الفعل بالفعل -فعل الإنسان بفعل الإنسان الآخر-، كذلك هنا التشبيه لما يقع في أسماعهم بما يقع في أسماع الناس إذا سمعوا صوت السلسلة تُجر على الصفوان.

أما الله ﷻ فالفصل في ذلك قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[الشورى:١١].

والبحث هذا -الذي قلناه قبل قليل- بحثٌ دقيق جداً؛ من حيث أن بعض الصفات لا تليق بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ولا بد أن يتفطن لهذا؛ لأن كثيرين من الناس لهم منابر -والعياذ بالله- يطعنون في ثبوت الصفات بهذين الطريقين، وهما: إما أن ينزِّلون الأدلة على أنها من أدلة الصفات ثم يشغبون عليها حتى يعطّلونها فيتوصلون بذلك إلى تعطيل غيرها من الأدلة، أن ينزِّلون دليلاً ليس من أدلة الصفات على بحث الأسماء والصفات، لا لشيء لكن حتى يشغب على أهل السنة والجماعة ويعاندهم، حتى يتوصَّل بهذا العناد أو هذا الإفحام إلى تعطيل ما سواها من أدلة الصفات.

مثال ذلك قول الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ﴾، ماذا بعد ذلك؟ ﴿يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[الفتح:١٠]. أهل السنة والجماعة أكثرهم يقولون هذه ليست من أدلة الصفات، فإذا طرحها المعطِّل لصفة اليد لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وقال: إن علماء المسلمين يقولون هذه ليست من أدلة الصفات، هو ما أراد بذلك حقًا، وإنما أراد بذلك أن يعطِّل صفة اليد الدالة عليها آياتٌ أخرى. فإذا قال بأن هذه ليست من أدلة الصفات، يتوصَّل بذلك لتعطيل اليد عن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

كيف يقول في قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾[الملك:١]؟ كيف يقول في قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾[المائدة:٦٤]؟ كيف يقول في قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾[الزمر:٦٧]؟ كيف يقول في قوله ﷺ: «قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن»؟

فطريقة المبتدعة: أن يأتون بدليل ليس من أدلة الصفات فيشغبون حوله حتى يتوصلوا إلى تعطيل أدلة الصفات، مثل ما شغبوا على أهل السنة والجماعة في قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾[البقرة:١١٥]؛ قالوا: هذا ممتنع، كيف يكون الله عَزَّوَجَلَّ في كل مكان؟ أنتم تقولون: إن الله ليس في كل مكان وأنه في جهة العلو؟ إذن هنا "الوجه" لا يُضاف إلى الله عَزَّوَجَلَّ إضافة صفات. يتوصلون بذلك إلى إنكار الصفات كلها عن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

ولهذا لا بد أن يُعلم أن هناك فرقٌ ما بين الآيات التي يدلِّل بها أهل السنة والجماعة باعتبارها من آيات الصفات كقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾[القصص:٨٨] وكقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾[الرحمن:٢٧]، وبين قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾[البقرة:١١٥].

هذه طريقة من الطرق التي يحتال بها المبتدعة في تعطيل الصفات.

ومن الطرق أيضًا: أن يأتون بمسألة متفرِّعة عن صفة فيعطلونها ليعطّلوا الصفة من

أصلها، مثال ذلك: بعض المبتدعة يُنكرون أن يكون النساء يرين الله ﷻ في الآخرة، حتى ألَّف السيوطي في ذلك كتاباً سماه "إسبال الكساء على النساء"؛ يرد فيه على من قال إن النساء لا يرين الله في الآخرة.

لماذا هذا القول؟ قالوا: لأن النبي عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال فيه: «**إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تُغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا**» يعني صلاة العصر والفجر. قالوا: النساء لا يشهدن الصلوات في المساجد، فمعنى ذلك أنه ليس لهنَّ حظٌ في رؤية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى! أين في الحديث أن النبي يتكلم عن صلاة الجماعة؟ هل فيه شيء يتعلق بصلاة الجماعة؟ بل هو عن المحافظة على الصلاة حتى في البيوت بالنسبة للنساء. فبعضهم يشغب على فرعٍ من الأدلة حتى يبطل الأدلة من أصلها.

ومثل ذلك فيما يتعلق بهذا الحديث: لما قال أهل العلم إنه ليس من آيات الصفات؛ لأنه إنما تكلم عما يقع في السمع بالنسبة للسلسلة وما يقع في سماعهم لما قضى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. وأشبه ما يُمثَّل به على ذلك قول النبي عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لما سأله الحارث بن هشام عن الوحي قال: «**أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس**»، فهل وحي الله ﷻ الذي هو كلامه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُشبه صلصلة الجرس، أو أن النبي يسمع في أذنه عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ شيئاً مثل صلصلة الجرس يكون مستدعياً لحضور ذهنه ﷺ وانتباهه واستعداده -وإن كان حاضر الذهن لكن تهيؤه لنزول الوحي-؟ فلا يُشبَّه صوت الله ﷻ بشيءٍ من خلقه؛ لا صلصلة الجرس، ولا السلسلة، ولا غير ذلك، وإنما يكون ذلك شيءٌ يسمعه في أذنه ﷺ.

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قال ﷺ: («**كَأَنَّهُ سَلْسَلَةٌ عَلَى صَفْوَانَ، يَنْفُذُهُمْ ذَلِكَ، ﴿حَتَّى إِذا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِم قالوا مَاذا قال ربكم قالوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾**[سبأ:٢٣]، **فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُ السَّمْعِ**») ومسترق السمع من الجن، (**وَمُسْتَرِقُ السَّمْعِ هَكَذَا، بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ» وَصَفَهُ سُفْيانُ**) أيْ سفيان بن عيينة (**بِكَفِّهِ، فَحَرَفَهَا وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ**)؛ بمعنى أن بعضهم يعلو على

بعض حتى يسرقون السمع من السماء الدنيا.

الجن إنما يسرقون السمع من السماء الدنيا كما قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا﴾[الجن:٩]. قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾[الجن:٨]، لا كما يقول من لا علم له أنهم يسرقون السمع من السماء الثانية وما فوق ذلك؛ إنما هي السماء الدنيا، ومع ذلك إنما يسرقونها من الملائكة إذا تكلموا بما قضى الله من أمر، كما قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾[سبأ:٢٣]، فهم يتكلمون فيما بينهم الملائكة، فتخطف الجن الخبر ويزيدون كما قال عَلَيْهِالصَّلَاةُوَالسَّلَامُ: «يضيف إليه تسعة وتسعين كذبة».

قال ﷺ: ((«فَيَسْمَعُ الكَلِمَةَ، فِيُلْقِيهَا إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، ثُمَّ يُلْقِيهَا الآخَرُ إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، حَتَّى يُلْقِيَهَا عَلَى لِسَانَ السَّاحِرِ أَو الْكَاهِنِ. فَرُبَّمَا أَدْرَكَهُ الشِّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا، وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يُدِرَكَهُ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مَائة كِذْبَةً فَيُقال: أَلَيْسَ قَدْ قال لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا: كَذَا وَكَذَا، فَيُصَدَّقُ بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ الَّتِي سُمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ»)).

هذا من باب أن من كان عنده خواءٌ في العقيدة، وضعْفٌ في التعلُّق بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، واعتقاد أن الله ﷻ معه شريكٌ في علم الغيب؛ يصدِّق ذلك بأدنى الشُبَه، يعمى ولا يفطن لتسع وتسعين كذبة ويتعلق بكذبةٍ واحدة "ألم يقل كذا وكذا ووقع؟!". بمعنى أن هذا الذي حمله على التصديق هو خواء قلبه من الإيمان بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وعدم يقينه بأن علم الغيب مما استأثر الله ﷻ به.

والساحر والكاهن والعيَّاف والعرَّاف كلهم يدَّعون علم الغيب؛ لكن منهم من يدَّعي عن طريق النجوم أو عن طريق الجن، ومنهم من يدَّعي علم الغيب تخرُّصاً واستغفالاً لعقول الناس، لكنها كلها حكمها واحد؛ من حيث أن من نازع الله ﷻ فادَّعى علم الغيب لنفسه أو لغيره، أو صدَّق مدعيه، أو جوَّز أن يقع ذلك لأحدٍ من الناس؛ فهو كافرٌ كفراً بالربوبية وخارج

من الإسلام.

فمن يدَّعي علم الغيب لنفسه أو لغيره، أو لم يدَّعيه لنفسه ولا لغيره لكن رأى من يدعيه وصدَّقه، أو جوّز أن يكون أحدٌ يعلم الغيب مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ... كل هؤلاء كُفَّار ليسوا من الإسلام في شيء، لقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُل لَا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾[النمل:٦٥].

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَعَنِ النَّوَّاسِ بنِ سَمعَانِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا أَرَادَ اللهُ أَنْ يُوحِيَ بِالْأَمْرِ تَكَلَّمَ بِالْوَحْيِ، أَخَذَتِ السَّمَاواتِ مِنْهُ رَجْفَةٌ»).

الحديث الأول متعلق بأن الملائكة يعتريها الفزع: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾.

والحديث الثاني متعلِّقٌ بما يعتري السماوات من الرجفة خوفًا من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وإجلالاً له وتعظيمًا له.

(أَوْ قال: «رِعْدَةٌ شَدِيدَةٌ خَوْفًا مِنَ اللهِ ﷻ. فَإِذَا سَمِعَ ذَلِكَ أَهْلُ السَّمَاواتِ؛ صَعِقُوا؛ وَخَرُّوا لِلَّهِ سُجَّداً») و"الصعق" الغشي؛ لأن بعض الناس يقول قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ ليس معناه الغشي، بل الصعق معناه الغشي، والدليل في ذلك كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ﴾[الأعراف:١٤٣]. بمعنى أن الصعق الذي يعتري الملائكة هو من جنس الصعق الذي اعترى موسى؛ وهو من درجات الضعف الذي لا يتماسك فيه الإنسان كما أنه لا يتماسك فيه الملك إذا عظَّم الله ﷻ وخافه حق مخافته.

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قال ﷺ: («فَإِذَا سَمِعَ ذَلِكَ أَهْلُ السَّمَاواتِ؛ صَعِقُوا؛ وَخَرُّوا لِلَّهِ سُجَّداً، فَيَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ جِبْرِيلُ»)، وهو أفضل الملائكة. والملائكة يتفاضلون؛ فأفضل الملائكة من شهدوا بدراً، كما قال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في الحديث الصحيح: «إن جبريل قال: يا محمد من هم خيركم؟ قال: من شهدوا بدراً، قال: وكذلك من شهد بدراً من

الملائكة»، كما أن الملائكة يتفاضلون بذواتهم، فأفضلهم الثلاثة: جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، وأفضل الثلاثة جبريل الروح الأمين.

قال ﷺ: (**«فَيَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ جِبْرِيلُ، فَيُكَلِّمُهُ اللهُ مِنْ وَحْيِهِ بِمَا أَرَادَ. ثُمَّ يَمُرُّ جِبْرِيلُ عَلَى الْمَلَائِكَةِ، كُلَّمَا مَرَّ بِسَمَاءٍ سَأَلَهُ مَلَائِكَتُهَا»**)، وهذا من الأدلة على أن السماوات معمورة بالملائكة وبخلقٍ لا يحصيهم إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

(**مَاذا قال رَبُّنَا يا جِبْرِيلُ؟ فِيَقُولُ جِبْرِيلُ: قَالَ الْحَقَّ، وَهُوَ الْعَلِّيُّ الْكَبِيرُ**)، وقول الله ﷻ حقٌّ، سواء كان أمراً أو شرعاً «**أنت الحق، ووعدك حق، وقولك حق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، ومحمد ﷺ حق، والساعة حق**»؛ هذا الحديث في البخاري عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كان إذا استيقظ من الليل قال: «**اللهم لك الحمد أنت نور السماوات والأرض..**» إلى أن قال: «**أنت الحق، ووعدك حق، وقولك حق**» فكل قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حقٌّ لا يعتريه باطل -حاشاه سبحانه وبحمده-، سواء كان قولاً قدرياً أو قولاً شرعياً دينياً.

(**قَالَ: فَيَقُولُونَ كُلُّهُمْ**) أيْ الملائكة (**مِثْلَ مَا قال جِبْرِيلُ؛ فَيَنْتَهِي جِبْرِيلُ بِالْوَحْيِ إِلَى حَيْثُ أَمَرَهُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ**)، وجبريل خصَّه الله ﷻ بالوحي، كما خصَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ميكائيل بالقطر والريح، وكما خص الله ﷻ إسرافيل ومعه ملَكٌ آخر -كما عند الترمذي- بالنفخ في الصور، وكما خص الله ﷻ ملك الموت بقبض الأرواح وجعل معه ملائكة أيضاً.

ثم قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: (**بَابُ الشَّفَاعَةِ**).

قبل أن نذكر الأدلة في ذلك لا بد من مقدمة فيما يتعلَّق بباب الشفاعة.

الشفاعة: من الشَّفع، والشفع ضد الوتر. والشفاعة لا ينكرها المبتدعة -في الجملة إلا الوعيدية-، ناهيك أن أهل السنة والجماعة يُقِرُّون بالشفاعة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من حيث أنها ملْكٌ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يعطيها الله ﷻ من شاء من خلقه، كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿**قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ**

جَمِيعًا﴾[الزمر:٤٤].

ويقرُّون بأن الشفاعة إنما تكون يوم القيامة إذا اجتمع فيها الشرطان:

الشرط الأول: رضا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن المشفوع له؛ كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾[مريم:٨٧]، والعهد هو التوحيد.

الشرط الثاني: إذن الله عَزَّوَجَلَّ للشافع أن يشفع؛ وجمعَهُم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في قوله: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾[النجم:٢٦]، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾[الأنبياء:٢٨]. قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾[البقرة:٢٥٥].

فصار للشفاعة شرطان.

كما أن للشفاعة أركانًا -نتكلم عن الشفاعة الشرعية الدينية التي جاءت في كلام الله وذكرها علماء الاعتقاد- أيضًا: من حيث أن الشفاعة إنما تكون عند المشفوع عنده وهو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والذي يؤذن له بالشفاعة هو الشافع، سواء كانوا أنبياء أو ملائكة أو صالحين أو شهداء، أو العمل الصالح أو الأفراط أو غير ذلك مما أراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والمشفوع له وهو المنتفع بالشفاعة.

والمنتفع بالشفاعة أحوال: إما أن يكون انتفاعه بإجراء الحساب -وهذا للخلائق أجمعين-.

وإما أن يكون بالسوق من طريق النار إلى طريق الجنة.

وإما أن يكون برفع الدرجة في الجنة بعد أن دخلها.

وإما أن يكون باستفتاح باب الجنة.

وإما أن يكون بتخفيف العذاب في النار.

وإما أن يكون بالخروج من النار.

وزمن الشفاعة إنما يكون يوم القيامة، بمعنى أن الشفاعة إنما تُجرى إذا أذن الله ﷻ بإجرائها؛ قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**فأسجد تحت العرش فيفتح الله عليَّ من المحامد ما لا أعلمه الآن، فيقال لي: يا محمد ارفع رأسك، وقل يُسمع، وسل تُعطه، واشفع تُشفّع**».

إذاً معنى ذلك الشفاعة، وإذا ذكر أهل العلم قصدوا بذلك ما تتضمنه من هذه المسائل: المشفوع عنده هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا غير، والشافع من أعطاه الله ﷻ الشفاعة وهو مرضيٍ عنه، بشرط أن ينالها من يستحقها. والمشفوع له قد يكون مؤمناً صاحب ذنب، وقد يكون مؤمناً لا ذنب عليه، وقد يكون كافراً.

قد يكون مؤمناً صاحب ذنب، بمعنى أن يدخل النار بذنوبه فيُشفع له حتى يخرج من النار إلى الجنة، أو أن يكون ذنبه قصُرَ به عن الدرجات فيشفع له حتى يُرفع إلى درجةٍ أعلى، وإن كانت قد مُحيت ذنوبه؛ لما دخل الجنة، لا يدخل الجنة أحدٌ وعليه ذنب.

وإما أن يكون المشفوع له كافراً؛ كما جاء عن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنه قيل له: إن أبا طالب كان يذبُّ عنك فبماذا نفعته؟ قال: «**هو في ضحضاحٍ من نار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل**»، فانتفع عمه أبو طالب -مع كونه مات على الكفر- بشفاعة النبي ﷺ، ليس بعمله - ليس لأنه كان يذبُّ عن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ليس لأنه خرج معهم في شعب أبي طالب لما حاصر المشركون مكة، ليس لأنه قال القصائد المعروفة عن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، وإنما لأن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أكرمه الله بأن نفع عمه بشفاعة نبيه.

بعض المعاصرين يقولون: إن شفاعة أبي طالب إنما كانت لحمايته للنبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فهذا من أبطل الباطل؛ لقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿**وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا**﴾[الفرقان:٢٣]. قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾[هود:١٦].

وما كان له من عملٍ صالح عُجِّل له في الدنيا إما بجاه، وإما بمال، وإما بصحة، وإما بعافيةٍ، وإما ببقاء ذكرِهِ في قومه.. إلى غير ذلك؛ لكن ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾.

ثم الدليل ظاهر في قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل»؛ ما قال: ولولا عمله، ولولا حمايته، بل قال: «ولولا أنا».

والنوع الثاني من الشفاعة التي ينتفع بها الكافر هي لا تسمى انتفاعًا بقدر ما تكون إجراءً للحساب؛ لأن الشفاعة العظمى التي قال الله فيها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾[الإسراء:٧٩]. هل الذي ينتفع بإجراء الحساب أهل التوحيد وأهل الجنة فقط، أو كل أهل الموقف؟ كل أهل الموقف. ظاهره الانتفاع وإن كان ما بعده بالنسبة للكافر أشد منه؛ لكن المقصود أنه جرت شفاعته ﷺ حتى نالها أهل الموقف كلهم.

أما أن يقال بأن الشفاعة ينتفع بها الكافر انتفاعًا يدخل بها الجنة، فهذا لم يقل به أحد من أهل الإسلام؛ إنما قال به -يا إخواني- غُلاة المتصوفة وغلاة الرافضة؛ الذين يقولون إن الشفاعة تُدرك الكافر كأبي لهب وأبي طالب؛ ما قال بهذا إلا منغمسٌ إلى أذنيه في البدعة سواء كان صوفيًا أو رافضيًا.

والرافضة بحد ذاتهم خرجوا من عباءة التصوُّف -إلا ما قلّ-؛ لا تجد عند أهل الرفض بدعةً فيما يتعلق بتوحيد الألوهية، أو الانحراف في توحيد الربوبية، أو الغلو في الصالحين إلا وهي عائدةٌ إلى غلو المتصوِّفة.

بل قال بعض أهل العلم: إن الرافضة أيضًا خرجوا من عباءة المعتزلة -حتى الاعتزال-؛ فالمعتزلة يعطِّلون الصفات وما تضمَّنته الأسماء من معانٍ، وإن كانوا يثبتون الأسماء -أسماءً لا نعوتًا ولا أعلامًا-، وكذلك الرافضة؛ ليس على ظهر الأرض رافضيٍ يُثبت لله شيئًا من الصفات.

المعتزلة ينفون القَدَر، ويقولون: إن العباد خالقون لأفعالهم، وكذلك الرافضة.

فأهل الرفض خرجوا من عباءتين، لا كما يقول أبو حامد الغزالي وإن كان قوله صوابًا، لكن كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ -الذي يعرف مداخلهم وبواطنهم-، ألَّف كتاب "منهاج السنة النبوية" في الرد على الشيعة والقَدَرِيَّة؛ لأنهم كلهم بابٌ واحد، وأنهم خرجوا من عباءة التصوُّف فيما يتعلق بالانحراف في توحيد الربوبية والألوهية والغلو وغير ذلك، كما أنهم خرجوا من عباءة الاعتزال فيما يتعلق بالأسماء والصفات، وفيما يتعلق بالقضاء والقَدَر.

ولهذا حتى أصول المعتزلة خمسة أصول، وأصول الرافضة أربعة أصول؛ وأنا أنصح -يا إخواني- بأن يعرف الإنسان أصول كل طائفة؛ لأن هناك من ينصر أصلاً من أصول المبتدعة وهو لا يدري أن هذا الأصل سبقه إليه المعتزلة، سبقه إليه الأشاعرة، سبقه إليه الكرَّامية.

فأصول المعتزلة خمسة:

الأصل الأول: التوحيد.

الأصل الثاني: العدل.

الأصل الثالث: المنزلة بين المنزلتين، ما قال بها أحدٌ لا في الإسلام ولا في اليهودية ولا في النصرانية إلا المعتزلة.

الأصل الرابع: وجوب إنفاذ الوعد والوعيد، وأنه يجب على الله -بزعمهم- أن يُدخِل المؤمن الجنة كما يجب عليه أن يُدخل الكافر النار؛ فيوجبون ذلك إيجابًا -والعياذ بالله-، فالكافر الله ﷻ قطع بأن يدخل النار، لكن إيجابهم على الله ﷻ يدلُّ على عدم توقير.

الأصل الخامس: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عند المعتزلة، ويقصدون به الخروج على أئمة الجور ومنابذتهم وقتالهم، وقطع الطريق، ونزع اليد من طاعة.. إلى غير ذلك.

أما أصول الرافضة الأربعة التي يؤصلونها: العدل، التوحيد، النبوة، والإمامة.

يقصدون بالنبوة أن الوحي وإن انقطع الذي فيه أمرٌ ونهي وتكليف عن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، إلا أن "آل البيت" كُشِفت لهم الحُجُب، وأن الله ﷻ يوحي إليهم وإن كانوا ليسوا أنبياء؛ فشابهوا في ذلك الصوفية الذين يقولون إن "الولي" كُشِفت له الحُجُب، وأنه يحدِّث عن الله مباشرة: "حدثني قلبي عن ربي".

والإمامة عندهم أصلٌ من أصولهم الأربعة، يقرنونها بالشهادتين؛ حتى في أذانهم: "أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وأن علياً بالحق ولي الله".

لماذا هذا الكلام؟ لأن الرافضة أخذوا أصلين من أصول اعتقادهم من المعتزلة: أصل التوحيد -وقصدوا به أن الله واحدٌ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا صفات له والعياذ بالله-.

طيب. وأسماء الله ﷻ ما تعتقدون فيها؟

قالوا: أسماء الله ﷻ ليست نعوتاً ولا مدائح وإنما هي أسماء مجردة -لا تحمل معنى والعياذ بالله-، معنى ذلك أنهم لا يثبتون لله شيئاً، وهذا هو الحال عند الرافضة.

وماذا يقصدون بالعدل؟ يرون أن من العدل أن يقولوا: إن العباد خالقون لأفعالهم؛ فجعلوا العباد خالقين مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولهذا سماهم النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**مجوس هذه الأمة**».

من ذكاء شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ لما ذكر القَدَرِيَّة، غالباً الاقتران الذهني إذا قيل "القَدَرِيَّة" ينصرف البال إلى المعتزلة -وهم كذلك-، الرافضة أيضاً لهم تعلُّقٌ بالمجوس والفُرْس. قال النبي ﷺ: «**القَدَرِيَّة مجوس هذه الأمة**»، بمعنى أن فيه إشارة إلى أن القول بالقَدَر موافقٌ ومطابقٌ لعقيدة المجوسية قبل الإسلام من حيث القول بتعدد الخالقين، كذلك من أصولهم أصول المجوس هو الأصل عندهم.

فالمقصود أن الاهتمام بأصول البدع والطوائف يجعل الإنسان يميِّز بينها، وأن هناك

بدعًا قد تكون قاسمًا مشتركًا بين طائفتين وثلاث وعشر وأكثر من ذلك، وأن هناك بدعًا تلقفها بعض الطوائف عن غيرهم ولم يؤصلوها.

فعلى سبيل المثال الخوارج الذين هم أول بدعةٍ ظهرت في الإسلام، قال النبي ﷺ: **«لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد»** في البخاري، **«طوبى لمن قتلهم وطوبى لمن قتلوه»** عند أحمد، قال ﷺ لأجل قتيلهم: **«شهادتين»**، قال ﷺ: **«يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان»**. وكل هذه صحيحة، بعضها عند أحمد وبعضها في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حتى ذكرهم البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في باب قتال المرتدين؛ ولهذا قال ابن حجر: "كأن البخاري يميل إلى تكفيرهم"؛ لأنه جعل أحاديثهم في باب قتال المرتدين، كما أن ابن حجر يميل إلى ذلك، كما أن الطبري يميل إلى ذلك.. وغيرهم من أهل العلم.

مع ذلك، الخوارج إلى زماننا لا يؤصِّلون في الاعتقاد من جهة أنفسهم، إنما يأخذون أصول غيرهم فيعتقدونها؛ كل طوائف الخوارج: الأزارقة، النجدات، الصفرية، الأباضية، القعَدَة، الشُّرَاة -الذين يسمون الشراة-، كلهم لا يؤصلون في شيءٍ من مباحث الاعتقاد، لا في الأسماء والصفات ولا في القضاء والقَدَر ولا في غيرها، وإنما يأخذون البدعة معلَّبة -كما يقول المعاصرون-، يأخذون البدعة من المعتزلة فيتبنونها، يأخذون البدعة من الأشاعرة ويتبنونها. حتى الأباضية الذين هم موجودون الآن، الناظر في مذهبهم يجد أنه كله مذهب المعتزلة، كما هو الحال عند الزيدية من الرافضة.

ولهذا بعض البدع يؤصِّل لها أصحابها لما كانت في طور التأسيس وكان أصحابها فلاسفة، نظروا في كتب اليونان فاعتقدوا أصولاً وتكلَّفوا في التدليل عليها، وبعضهم لا يعرف شيئًا من هذا البحث -النظر في أصول الإيمان- فراقت له بدعة المعتزلة فجعلها في عقيدته.

ولهذا المعتزلة الخوارج الأولون الذين وضعوا السيف في أمة النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وقطعوا الطريق، وحكموا بكفر مرتكب الكبيرة.. إلى غير ذلك، الأصل أنهم في الأسماء

والصفات ما ذُكِر عنهم ولا حديث واحد فيه تعطيل للأسماء والصفات، الأصل أنهم في القضاء والقَدَر ليس عندهم أثرٌ واحد يدلُّ على أنهم كانوا معطلة للقضاء والقَدَر، أو يقولون على قول الجبرية وقول القَدَرِيَّة، وإنما كانت همتهم متعلقة بالوعد والوعيد، همتهم متعلقة بالوعد -ولهذا يسمون أنفسهم شُراة- يعِدون أنفسهم بالجنة، ويتوعدون غيرهم بالنار إن لم يكفّروهم.

من أين أخذوا أصول الاعتقاد؟ أخذوها من غيرهم وأضافوها إليهم.

هذا بحثٌ متعلِّقٌ بالفِرَق من حيث إن الفرق منها ما يؤصِّل، ومنها ما يأخذ من غيره، ومنها ما يزيد، حتى إن من عجائب الطوائف أن بعضهم ينتقل من بدعةٍ إلى نقيضها -إلى ضدها- مباشرة. وهذا يا إخوان تخبط كل من لم يلتزم الكتاب والسنة -ثبتنا الله وإياكم-، الذي لا يلتزم بالكتاب والسنة يتخبَّط نوبـًا يمين ونوبـًا يسار، ونوبـًا يثبت ونوبـًا يعطِّل.

الرافضة في أول أمرهم كانوا يمثِّلون الله ﷻ بخلْقه، وهو كفرٌ قبيح -والعياذ بالله-، أن يمثِّل الله ﷻ بخلقه، حتى قالوا من الشناعة ما تنقبض منه القلوب؛ قالوا: "إن الله ﷻ مثل خلقه سواء بسواء" -والعياذ بالله- في كل شيء يدور في ذهنك.

ثم تطوَّر حالهم بعد ذلك حتى صاروا لا يُثبتون شيئـًا من الصفات أبداً، وهو الذي عليه الحال الآن.

قال الجاحظ -وكان معطِّلاً للصفات وهو معتزلي-، قَالَ: في أول أطوار الرفض في زمن هشام بن الحكم وشيطان الطاق وغيرهم.. هؤلاء رؤوس الرفض، كانوا يرون أن الله ﷻ مثل خلقه -والعياذ بالله-، وأنا لا أحب أن أطيل عليكم لأن هذا له تعلّقٌ بعقيدة النصارى في عيسى على كل حال.

حتى قال الجاحظ: "ليس على ظهر الأرض رافضيٌ إلا وهو يزعم أن ربه مثله" -والعياذ بالله-.

الآن ليس على ظهر الأرض رافضي إلا وهو يعطِّل الصفات.

ما علاقة ما قلناه يا إخواني بأن النصارى اعتقادهم في عيسى مبنيٌ على التمثيل؟

أولاً كمقدمة: اليهود معطِّلة للصفات -لا يُثبتون شيئًا من الصفات-، وذكر الله ﷻ بعضًا من تعطيلهم؛ كتعطيلهم صفة الغنى عن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾[آل عمران:١٨١]، وكتعطيلهم صفة اليدين: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾[المائدة:٦٤] إلى غير ذلك.

فاليهود معطِّلةٌ للصفات، ومن المعلوم أن الجهم بن صفوان أخذ بدعته من الجعد بن درهم، والجعد أخذها عن بيان بن سمعان، وبيان بن سمعان أخذها عن طالوت بن أخت لبيد -يعني عن خاله لبيد بن الأعصم-، ولبيد بن الأعصم من اليهود من بني زريق من أهل اليمن، فصارت السلسلة سلسلة يهودية معطلة.

النصارى على الضد من ذلك -ممثِّلة-، يمثِّلون الله ﷻ بابنه -تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً-؛ أن الابن كالأب -يعني في الصورة وفي التمثيل-.

فاليهود معطِّلةٌ للصفات، والنصارى مُثبتة لكنها مثبتة إثبات التمثيل. ما علاقة التمثيل بالرفض الذي كنا نتكلم فيه، لما قال الجاحظ: "ما على ظهر الأرض رافضي إلا وهو يزعم أن ربه مثله"؟ لأن الرافضة الأولين قالوا في عليٍ: "أنت أنت"، قال: «ويلكم ما تقولون؟» قالوا: "أنت الله".

إذاً هم مثَّلوا عليًا بالله لما جعلوا عليًا صورة عن الله، وأولئك مثلوا عيسى بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لما جعلوا عيسى ابنًا لله؛ فصار الرافضة في أول الأمر ممثِّلةٌ لأنهم على غرار النصارى في تشبيه المخلوق بالخالق -تمثيل المخلوق بالخالق-، ثم تطوَّر مذهبهم بعد ذلك إلى أن صاروا معطِّلة.

هذا مما يدل على أن الإنسان إذا ما التزم بالكتاب والسنة لا بد أن يتخبَّط من بدعةٍ إلى

نقيضها وإلى ضدها، كما أن بعض القَدَرِيَّة كان في أول أمره قدريًا، ثم تحول أمره إلى أن صار جبريًا.

على سبيل المثال: الجهم بن صفوان من الناس من يظن أنه قُتِل على تعطيل الصفات فقط، الصواب أنه قُتِل على أربع بِدَع.

والجهم بن صفوان هو أبو محرز الترمذي السمرقندي، قتله سَلْم بن أحوز في جيش خالد بن عبد الله القسري في خلافة هشام بن عبد الملك. قتله على أربع بدع:

الأولى: لأنه كان خارجيًا -خرج على إمام زمانه-، وخرج مع الحارث بن سريج ضد هشام بن عبد الملك.

الثانية: لأنه كان يقول بالجبر؛ أن الإنسان في قَدَر الله كالريشة في مهب الريح، وكالورقة في الغصن يقلِّبها الهواء، يعني إذا فعل طاعة ليس باختياره وإذا فعل معصية ليس باختياره، كيف تفعل بقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾[الإنسان:٣]؟ كيف تفعل بقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾[الإنسان:٣٠]؟

والبدعة الثالثة: قوله بأن الله لا يُرى في الآخرة.

والبدعة الرابعة: تعطيله للأسماء والصفات جميعًا.

هناك بِدَعٌ أيضًا للجهم بن صفوان كبدعة القول بفناء الجنة والنار إلى غير ذلك.

لكن المقصود أن بعض البدع يتقاسمها أكثر من طائفة.

أما أهل السنة والجماعة فليس عند أهل السنة والجماعة قولٌ لأهل البدع، وإنما كل أقوالهم من كتاب الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وسنة رسوله ﷺ.

نسأل الله أن يرزقنا وإياكم العلم النافع والعمل والصالح.

والله أعلى وأعلم.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه.

الأسئلة

السُّؤَال: هل حصل شيء بالتفصيل في حديث الصورة؟

الجَوَاب: يقول النبي ﷺ: «**رأيت ربي في أحسن صورة**»؛ لأن بعض الناس يظنون حديث الصورة ما دل عليه إلا حديث أبي هريرة: «**إذا قاتل أحدكم فليجتنب الوجه، فإن الله خلق آدم على صورته**»، وفي لفظٍ آخر: «**إذا قبّح أحدكم فلا يقل: قبّح الله وجهك، فإن الله خلق آدم على صورته**»، هذا هو أصل الحديث، وفي البخاري قال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**إن الله خلق آدم على صورته طوله ستون ذراعًا في السماء**».

فصفة الصورة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ليست متعلقة بحديث «**إن الله خلق آدم على صورته**»، هناك حديث آخر عند الترمذي من حديث معاذ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وصححه البخاري؛ قال الترمذي -أبو عيسى محمد بن سورة رَحِمَهُ ٱللَّهُ صاحب الجامع-: "سألت عنه أبا عبد الله فقال: حديث صحيح"، وقصد بأبي عبد الله أيْ البخاري. قال: «**رأيت ربي في أحسن صورة، فقال: يا محمد، فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: الله أعلم. فوضع كفه بين كتفيَّ حتى وجدت برد أنامله بين ثديي، ثم قال: فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قال: قلت: في الكفارات والدرجات...**» إلى آخر الحديث.

فالصورة ثابتة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عند أهل السنة والجماعة.

الذي وقع فيه كلامٌ ما بين أبي بكر بن خزيمة -إمام الأئمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتاب التوحيد-، وما بين من كان في زمنٍ من أئمة أهل السنة والجماعة، ومن قبله كالإمام أحمد وغيرهم؛ الضمير العائد في كلمة "الصورة" في حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**إن الله خلق آدم على صورته**». فقالوا: "الضمير هنا عائدٌ إلى آدم". لما قال الإمام أحمد: "من قال بأن الضمير -في قوله ﷺ: «**فإن الله خلق آدم على صورته**»- عائدٌ إلى آدم، فأيّ صورةٍ لآدم قبل أن يُخلَق؟!"؛ بمعنى أن عود الضمير إلى شيءٍ ما كان موجوداً.

ولابد أن يُفرق -يا إخواني- بين من قاله من أهل السنة والجماعة كابن خزيمة، لأنه يثبت

الصورة في حديثٍ آخر، كالذين قالوا: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾[الرحمن:٢٧]، وقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾[البقرة:١١٥]. الذين قالوا ﴿فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾ ليست من آيات الصفات، هو يثبت الوجه بدليلٍ آخر؛ فصار من أهل السنة والجماعة وإنما أخطأ في فهمه للنص أو في فهمه لهذا الحديث بخصوصه، فأبو بكر بن خزيمة يثبت الصورة في حديثٍ آخر، كقوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «رأيت ربي في أحسن صورة».

لكن لما قال الإمام أحمد: "من قال بأن قوله ﷺ «فإن الله خلق آدم على صورته» يعني على صورة آدم فقد قال بقول الجهمية"، ما قصد الإمام أحمد ابنَ خزيمة ومن كان مثله، هؤلاء من أهل السنة والجماعة وأخطأوا في ذلك.

مثلهم شيخ الحديث الألباني، وأنا سألته بنفسي حينما جاء للحج عام ١٤١٠هـ، وغضب لذلك؛ قال: "بل خلق الله آدم على صورته". هل أقول بأن الألباني جهمي؟ لا نقول بذلك، وإنما نقول أنه أخطأ والصواب ما قال الإمام أحمد ومن قبله ومن بعده من الأئمة، حتى قال ذلك مشايخنا كابن باز وغيرهم "أن الله خلق آدم على صورة الرحمن"، وألَّف في ذلك الشيخ حمود التويجري كتابه المشهور "جواب أهل الإيمان في حديث إن الله خلق آدم على صورة الرحمن"؛ لأنه جاء في بعض الحديث «على صورة الرحمن»، والألباني يضعِّف هذه الرواية، لكن الحديث في صحيح البخاري.

الإمام أحمد لما قَالَ: "فقد قال بقول الجهمية"؛ لأن من قال بهذا من الجهمية قصد بذلك أن يعطِّل كل صفة ثبت ما يوافقها في المعنى العام لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

فمن قال بأن "الله خلق آدم على صورته -أي على صورة آدم-"، أراد بذلك أنه إذا كان الله ﷻ خلق آدم على صورة آدم، معنى ذلك أن كل صفة لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ -صفات الذات التي للمخلوق ما يقابلها بالمعنى الكلي ليس بمعنى التمثيل والتشبيه- أنها أيضـًا معطلة عن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فليس لله -كما يقول الجهمية- وجهٌ ولا يد ولا قُدْرة ولا إصبع، ولا حتى سمع

ولا بصر ولا غير ذلك؛ لأن الضمير عائدٌ إلى آدم، فدل على أن كل هذه الأدلة التي فيها صفات الذات وصفات الفعل تتهاوى؛ لأن الحديث في الأصل أن المقصود به إخبارٌ عن آدم وما يتعلق بصورته وصفاته، لا ما يتعلق بصفات الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

هذا البحث -وإن كان بحثاً دقيقاً- لا يقال إلا في محافل أهل العلم وطلاب العلم مثلكم، لكن الأصل في ذلك أنه لابد أن يُفرَّق ما بين من يقول القول الخطأ إذا كان ممن عُرِف بأنه رأسٌ في البدعة، وممن عُرف بأنه رأس في الحق؛ فلا يُعامل هذا بمعاملة هذا وإن كان القول خطأ عند الاثنين، لكن هذا إنما حمله على هذا الاختيار لأنه أصلاً مرتكسٌ في البدعة يعطل بعض صفات الله، وحمله على هذا اجتهادٌ من نفسه.

كما قلنا قبل قليل فيما يتعلق ببعض الصفات، قد يقول بها بعض أهل السنة والجماعة «كَأَنَّهُ سَلْسَلَةٌ عَلَى صَفْوَانَ»، وأنه تشبيهٌ بصوت الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، مثل ما يقال: بعض أهل العلم من أهل السنة والجماعة ومشايخنا، بعضهم ما مات إلا قريباً رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغفر له، في قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ﴾[النور:٣٥]، منهم من قَالَ: إن الله عَجَّلَ ليس من أسمائه "النور"، هم متفقون -أهل السنة والجماعة- على أن الله عَجَّلَ من صفاته النور، نورٌ حقيقي يليق بجلاله وعظيم سلطانه.

لكن من أهل السنة والجماعة من قَالَ: إن الله لا يسمى "نوراً"؛ ولهذا لا يجوز التعبيد بالنور، ومنهم من قَالَ: إن من أسماء الله عَجَّلَ: السميع والبصير والرحمن والنور. فهل الخلاف هذا ينبني عليه التبديع أو اجتهاد؟ اجتهاد، لكنهم متفقون على أن قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ﴾؛ هل هذا ضرْبُ مثالٍ بصفة الخالق سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بالمشكاة التي تكون فيه سهوة في الجدار وفيها مصباح وفيها سراج؟ هل الله عَجَّلَ شبَّه صفة النور له سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بالجدار والمصباح؟ هذا ما يقول به أهل السنة والجماعة أبداً، لا في الأولين ولا في الآخرين.

لماذا؟ لأنه قولٌ يصل إلى التمثيل -تمثيل الله عَجَّلَ ببعض خلقه-.

إذاً معنى ذلك أن قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ يعني: مثل الهداية التي يجعلها الله ﷻ في قلب المؤمن، كمثل المصباح الذي يجعله صاحبه في قلب الجدار، فيكون تشبيه المخلوق هدايتك وإيمانك وصلاحك وتقاك وسدادك؛ أليست أفعالاً لك؟ ألست أنت وأفعالك مخلوقٌ لله؟ فشبَّه الخالق بالمخلوق، إذاً الله ﷻ شبَّه صفة النور له سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بالمخلوق السراج، أو شبَّه المخلوق بالمخلوق؟ شبَّه المخلوق بالمخلوق.

طبعًا هذا ما قال به إلا أهل السنة والجماعة، أما المبتدعة فقالوا إن هذا تمثيل الخالق بالمخلوق؛ حتى يتذرَّعون بذلك إلى جواز القول بالتمثيل.

البحث في هذا فيما يتعلق بأن هل "النور" من أسماء الله أو ليس من أسمائه؟

من أهل السنة والجماعة والجلالة رحمهم الله من قال بأن النور من أسماء الله، ومنهم من قال أنه ليس من أسماء الله، فلا يُشدد في هذا، وإنما يقال أن هذا قابلٌ للاجتهاد، وأن من اجتهد وأصاب ممن قال بأن "النور" من أسماء الله ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "النونية"، وكذلك أبو بكر بن خزيمة أيضًا إمام الأئمة، قالوا بأن النور من أسماء الله، ومشايخنا ابن باز وابن عثيمين وابن الفوزان أيضًا يقولون: أن "النور" ليس من أسماء الله. هل يقال هؤلاء مبتدعة وهؤلاء متّبعون؟ كلهم أهل السنة والجماعة، رحمهم الله وغفر لهم.

والإنسان يكون عنده نَصَف فيما يتعلق بالتعامل مع أقوال أهل السنة والجماعة الذين هم أهل السنة والجماعة، وبين أهل البدعة والضلالة.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بَابٌ مَنْ تَبَرَّكَ بِشَجَرَةٍ أَوْ حَجَرٍ وَنَحْوِهِمَا

وَقَوْلُ الله تَعَالَى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى﴾[النجم:١٩-٢٠].

وَعَنْ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَى حُنَيْنٍ، وَنَحْنُ حُدَثَاءُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ، وَلِلْمُشْرِكِينَ سِدْرَةٌ يَعْكُفُونَ عِنْدَهَا وَيَنُوطُونَ بِهَا أَسْلِحَتَهُمْ، يقال لَهَا: ذَاتُ أَنْوَاطٍ. فَمَرَرْنَا بِسِدْرَةٍ، فَقُلْنَا: يا رَسُولَ اللهِ! اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ، فَقال رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اللهُ أَكْبَرُ! إِنَّهَا السُّنَنُ، قلتمْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، كَمَا قالتْ: بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قال إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾[الأعراف:١٣٨] لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ» رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ وَصَحَّحَهُ.



قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللّه:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه.

قال الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى: (بَابٌ مَنْ تَبَرَّكَ بِشَجَرَةٍ أَوْ حَجَرٍ وَنَحْوِهِمَا).

والتبرُّك -كما هو معلوم- بابٌ من أبواب الاعتقاد، والمقصود به التماس البركة، وله أصول عند أهل السنة والجماعة؛ أن البركة متعلقة بما نص الدليل من الكتاب والسنة على أنه مبارك، وأن ما جعل الله ﷻ فيه بركة فإنما تُطلب البركة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأنه هو الذي يبارك ﷻ، فقد يكون الشيء مباركًا بدليلٍ من كلام الله وكلام رسوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، لكن الله ﷻ يُجري بركته لأناس ويحبسها عن غيرهم.

وأظهر دليلٌ أو مثال على ذلك قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا

﴿آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[ص:٢٩]. فكلام الله مبارك من حيث أن الله ﷻ جعل فيه بركة بتدبُّره وتلاوته، والثواب عليه، والاستشفاء به، والعمل به، والاحتجاج به، والشفاعة لأصحابه يوم القيامة إلى غير ذلك؛ ومع ذلك يُجري الله ﷻ بركة كلامه على من شاء من عباده ويحرمها من شاء، كما ثبت عن النبي ﷺ لما ذكر الخوارج قال: «يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية».

فالتبرُّك في أصله مبنيٌ على ما ثبت الدليل بأنه مبارك، والذي يبارك هو الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ لأن البركة مُضيُّها في ملكوت الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ متعلِّقٌ بتدبير الله الذي هو فعله سبحانه وبحمده.

وقد يكون الانحراف في طلب البركة -بل يكون الانحراف في طلب البركة على غير الوجه الشرعي- انحرافًا في توحيد الربوبية وانحرافًا في توحيد الألوهية؛ انحرافًا في توحيد الألوهية لأنه طلب البركة من غير الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وانحرافًا في توحيد الربوبية لأنه ربما اعتقد بعض الناس أن الشيء يبارك من دون الله -والعياذ بالله-.

قول الشيخ رحمه الله: (وَقَوْلُ الله تَعَالَى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى﴾[النجم:١٩-٢٠]). لأن المشركين كانوا يُعظِّمون هذه الأصنام وغيرها؛ إما بتعظيم التوجُّه إليها في حفظ غائب، أو جلب مرغوبٍ، أو دفع مرهوب، أو صرف العبادة لها من دون الله، أو اتخاذها واسطة بينهم وبين الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، أو التماس البركة منها.

فالتماس البركة من الأصنام هو وجهٌ من أوجه الانحراف، وإلا فانحرافهم أبعد من ذلك؛ انحرافٌ كاعتقادهم أنها تنفع وتضر من دون الله، واعتقادهم أنها وسائط بين الله ﷻ وبين خلْقه، واعتقادهم بأنواع الشرك الذي كان يُصرف لها من دون الله -سواء كان دعاءً أو ذبحًا أو نذراً أو غير ذلك-.

واللات والعزى ذكرهما الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لأنهما من أعظم ما كان يعظِّمه المشركون في الجاهلية، وإلا فأصنامهم كثيرة؛ كما ثبت أنه لما بُعِث ﷺ كانت الكعبة حولها ثلاثمائة

وستون صنمًا، غير الذي كان في سقفها، وغير الذي كان في وسطها، وغير الذي اتخذه بعض المشركين في بيوتهم، وغير الأصنام التي كان المشركون يحملونها معهم في أسفارهم وفي بيعهم وشرائهم؛ بمعنى أن الشرك كان فاشيًا زمن بعثته ﷺ، لكن اللات والعزى ومناة وهُبَل وإساف ونائلة هي من أعظم ما يعظمه المشركون.

ولهذا لما ذكر النبي ﷺ في الحديث الذي أصله في الصحيح، لما قال النبي ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى يلحق حيٌّ من أمتي بالمشركين، وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان**». وجاء في بعض ألفاظ الحديث -وهو في الصحيح- قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**لا تقوم الساعة حتى تُعبَد اللات والعزى**»؛ لأن لها وقْعٌ في نفوس المشركين، ولهذا ذكرهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في أول ما ذكر مما يتعلق به المشركون من أصنامهم. ولأجل تعلقهم بها اشتقوا لها أسماءً، ألحدوا في أسماء الله ﷻ حتى اشتقوا من أسماء الله ﷻ أسماءً أطلقوها على أصنامهم؛ فمما قيل أنهم اشتقوا "اللات" من اسم "الله" سبحانه وبحمده، فسموا به الصخرة البيضاء التي كانت على الرجل الذي كان يلتُّ السويق.

فاجتمع فيه سببان: كونه يلت السويق للحاج في الجاهلية، وأيضًا اشتقوا له اسمًا من أسماء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهذا من الإلحاد -كما هو معلوم- الذي ذكره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾[الأعراف:١٨٠].

واشتقوا من اسم "العزيز" لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ اسم "العُزَّى" وهي شجرةٌ كان يتعلق بها المشركون، واشتقوا من "المنان" "مناة".

والإلحاد في أسماء الله ليست هذه صورته فقط، ولكن الإلحاد في أسماء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنواعه كثيرة:

- إما أن يكون إلحاداً بأن يسمى الله ﷻ بما لم يسمِّ به نفسه كما يقع من النصارى.
- أو أن ينكر اسمًا من أسماء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كما وقع ذلك من المشركين؛ كما قال الله

سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ﴾[الفرقان:٦٠]، وكما في قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾[الرعد:٣٠].

- وإما أن يكون الإلحاد أن يثبتوا الأسماء وأن يُجرِّدوها من معانيها كما هو إلحاد المعتزلة -فالمعتزلة لا ينكرون الأسماء وإنما يجردونها من المعاني-.
- وإما أن يكون الإلحاد أيضـًا أن يشتق من أسماء الله ﷻ أسماءً لمعبوداتهم.
- أو أن يكون الإلحاد أبعد من هذا، لأنه كلما بعُدَ الناس عن القرون المفضَّلة وعن أنواع الرسالة، وكلما طرأ الجهل وقلَّ العلم وكثُرَ دُعاة الباطل؛ كلما زاد إلحاد الناس في أسماء الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

وأسماء الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ توظِّف القلب على مراقبة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وخشيته ورهبته، والإقبال عليه ومحبته والتعرض لرحماته ونفحاته.

فالذي يُصدِّق بأسماء الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ تصديقـًا يتواطأ عليه القلب واللسان يكون عبداً صالحـًا؛ خلا بالمعصية أو كانت في محضر الناس، خلا بالطاعة أو كان بين الناس؛ بمعنى أنه يشهد أسماء الله ﷻ في فعله وتركه، فإذا علِم أن الله ﷻ سميع وبصير سبحانه وبحمده، مُحيطٌ سبحانه وبحمده، وأن الله ﷻ علَّام الغيوب، وأن الله ﷻ لا يخفى عليه شيء راقب الله، وصلُحَ قلبه على تقوى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

وإذا علم أن الله ﷻ لطيفٌ وبرٌّ وسلامٌ ورحيمٌ، وأن الله ﷻ يمهل المذنب لعله أن يتوب، وأن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يُعطي الإنسان على ما هو عليه من تلبسه بالمعصية؛ تعلق قلبه بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وأحبه وأقبل إليه وتزود من الطاعات.

وإذا علِم أن الله ﷻ جبار وقوي سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وعزيز، وأن الله -كما قال سبحانه وبحمده-: ﴿مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ﴾[النساء:١٤٧]؛ بمعنى أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قدير، قديرٌ على عباده لا يخرج عن قدرته أحد، فتوظَّف قلبه على خوف الله وألا يتعرَّض لسخطه

وعقوبته.

فالشاهد أن أسماء الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وصفاته توظِّف قلب العبد حتى يكون عبداً لله على وجه التمام، وتكون عبوديته لله عبودية تامة.

قال الشيخ رحمه الله: (**وَعَنْ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: «خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَى حُنَيْنٍ»**) يعني غزوة حنين، (**«وَنَحْنُ حُدَثَاءُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ»**). وفي بعض ألفاظ الحديث: «ونحن حدثاء عهدٍ بإسلام»، ولا تعارض بينهما؛ لأن قوله: (**«وَنَحْنُ حُدَثَاءُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ»**) يعني عهدنا بالكفر قريب، وقوله: «ونحن حدثاء عهد بإسلام» يعني عهدنا بالإسلام قريب.

وهذا يدل على أن ما وقع في آخر الحديث إنما وقع من هؤلاء الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ أجمعين؛ لم يقع من المهاجرين السابقين للإسلام ولم يقع من الأنصار، وإنما ما وقع من الذين ربما يخفى عليهم شيءٌ ما خفي على المهاجرين ولا على الأنصار، وهذا يدلُّ على أن الإنسان إذا طالت صحبته لأهل العلم وأدام النظر في كلام الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وفي سنة النبي ﷺ، وشروح أهل العلم لكلام الله وكلام رسوله عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، كان أبصر بالحق والباطل من غيره، وكان أعرف بالسنة والبدعة من غيره، وأعرف بالشرك والتوحيد من غيره، ولم تلتبس عليه الأمور.

والصحابة معذورون في ذلك -الذين قالوا "اجعل لنا ذات أنواط"-؛ لأنهم اعتذروا لأنفسهم من الخطأ الذي وقعوا فيه لما قالوا: «كنا حدثاء عهد بجاهلية» أو "حدثاء عهد بإسلام". أما الصحابة المهاجرون والأنصار رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ فلم يقع منهم شيء من ذلك.

وهذا من أعظم ثمرات العلم؛ أن الإنسان يريه الله عَجَّلَ- بركة العلم في المواقف التي ربما يضطرب فهم الناس فيها، فيحميه الله عَجَّلَ من الانحراف بسبب ما عنده من سابقة علم.

قال رحمه الله: (**وَلِلْمُشْرِكِينَ سِدْرَةٌ يَعْكُفُونَ عِنْدَهَا**»)، يعكفون عندها يعني يقيمون عندها إقامة الملتمس بركتها، لأن العكوف عند المشركين إنما هو عكوف عبادة: ﴿مَا هَٰذِهِ

﴿التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾[الأنبياء:٥٢]؛ بمعنى أنهم يعكفون عندها لقصد عبادتها، سواء بالتماس البركة كما في هذا الحديث، أو العكوف عندها لدعائها من دون الله أو لغير ذلك من الأسباب التي كان يفعلها المشركون.

قال رحمه الله: (وَيَنُوطُونَ بِهَا أَسْلِحَتَهُمْ) يعني يعلقون بها أسلحتهم، وهذا كان فعلهم في الجاهلية؛ من حيث أنهم يعتقدون أن هذه الشجرة التي هي ذات أنواط، سُمّيت ذات أنواط لكثرة ما يُناط فيها من الأسلحة والمتاع، يُناط يعني يُعلّق بها السلاح والمتاع وغير ذلك رجاء أن تبارك ما علَّقوا بها من أشيائهم.

(يقال لَهَا: ذَاتُ أَنْوَاطٍ. فَمَرَرْنَا بِسِدْرَةٍ) يعني غير السدرة التي رآها الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ للمشركين، بمعنى أن هؤلاء وإن كانوا حدثاء عهدٍ بإسلام إلا أنه ما زالت عندهم أثارةٌ من علم؛ من حيث أنهم لا يحبون رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وأرضاهم أن يكونوا متشبهين بالمشركين ولو في السدرة، مع كونهم طلبوا طلباً منكراً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لخفاء الأمر عليهم، لكنهم مع ذلك ما قالوا: "يا رسول الله ائذن لنا بأن ننوط أسلحتنا بالسِدْرة التي ينوط بها المشركون أسلحتهم"؛ بمعنى أنه ما زال عندهم آثارةٌ من علمٍ من حيث أنهم لم يحبوا أن يتشبهوا بالمشركين، وهذا بحدِّ ذاته للذي هو حديث عهدٍ بإسلام أن يُحمد له؛ أن يربأ الإنسان بنفسه وألا يتشبَّه بأهل الضلال، ولو كان عنده شيءٌ من الجهل، هذا بحد ذاته يُحمد له، لكن هذا لا يعني أن ما وقع منهم يصح طلبه أو أنه جائز، ولهذا نهى النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عن ذلك نهياً شديداً.

والنبي ﷺ ربما خفض جناحه وهضم حقه لبعض الصحابة، إلا إذا كان الأمر يتعلق بحق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فإذا كان الأمر يتعلق بحق الله غضب ﷺ لذلك، ورأى منه الصحابة وسمعوا من الكلام ما لم يعهدوه منه.

فعلى سبيل المثال؛ لما قال الرجل للنبي ﷺ: "ما شاء الله وشئت"، قال: «بئس ما قلت، أجعلتني لله نداً؟! بل ما شاء الله وحده». وقال في حديثٍ آخر للرجل الذي قال: "من يطع الله

ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى"، قال: «**اجلس، فبئس خطيب القوم أنت**». في حين أن النبي ﷺ يطلبه جفاة الأعراب من الأموال ويغلظون في خطابه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ومع ذلك يهضم حقه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. وليس لأحد من الناس أن يهضم حق أحد لأحد، لكن هذا من تودُّدِه ﷺ وتلطُّفه مع حدثاء العهد بالإسلام أو الأعراب أو غيرهم؛ يصدِّق ذلك قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿**بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾[التوبة:١٢٨].

أما إذا كان الأمر يتعلق بحق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيغضب لذلك، لأن هذا هو الذي لا يجوز غيره أن يغضب الإنسان لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولأن هذا فيه نُصْحٌ للمسلمين، ولأن حماية التوحيد أعظم من حماية الإنسان حظه من أذى الناس، حماية التوحيد وجناب ما يجب لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من إخلاص العبادة وتوقيره وتقديسه وتعظيمه؛ هذا واجب على كل مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر.

قال: (**فَمَرَرْنَا بِسِدْرَةٍ، فَقُلْنَا: يا رَسُولَ اللهِ! اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ، فَقال رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اللهُ أَكْبَرُ!»**). والنبي يقول: «الله أكبر» عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في أحوال؛ قد يقولها عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِعظم ما سمع من الشناعة المتعلقة بالشرك أو ما ينافي كمال التوحيد، أو لأنه سمع قالةً لا تليق بأنبياء الله ورسله. وقد يكبِّر الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ استبشاراً ببشارة سمعوها من النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ناهيك أن التكبير بحد ذاته من أعظم القربات والعبادات؛ يقول النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**أحبُّ الكلام إلى الله أربع**» وذكر منها التكبير، ولهذا أمر الله ﷻ به أمراً مؤكداً: ﴿**وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا**﴾[الإسراء:١١١]، ومن أوائل ما أمر به الله ﷻ نبيه ﷺ تكبيره كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿**يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ**﴾[المدثر:١-٣].

لكن في هذا الحديث كبَّر النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لأن ذلك متعلِّقٌ بشناعة تتعلَّق بحق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويُشبه هذا لما دخل النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الكعبة فاتحًا، ورأى فيها النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن المشركين صوَّروا إسماعيل وإبراهيم عليهما السلام في جدران الكعبة من

جوفها وهم يستقسمون بالأزلام -والاستقسام بالأزلام نوعٌ من عادات المشركين التي يزعمون بها أنهم يدعون علم الغيب-، فكبَّر النبي ﷺ في جوانب الكعبة، وأمر بطست فيه ماء ومحا تلك التصاوير وقال: «قاتلهم الله! والله ما استقسما بها قط»، وحاشاهما عليهما الصلاة والسلام.

فكبَّر هنا ﷺ لأن ما طلبه الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ -حدثاء العهد بالإسلام- طلبٌ منكر، لأن فيه التماس البركة من غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ناهيك أن في ذلك مشابهةً للمشركين.

قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: («إِنَّهَا السُّنَنُ») أو السَّنَن، يعني إنها الطرق التي سلكها اليهود والنصارى حتى انحرفوا عن دعوات أنبيائهم إلى القول على الله ﷻ ما لم يقل والكذب على أنبيائه ورسله، فانحرفوا عن أصل التوحيد الذي بُعِث به موسى وعيسى.

قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: («قُلْتُمْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، كَمَا قالتْ: بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قال إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾[الأعراف:١٣٨] لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ»)؛ يعني طرقهم، حتى ينحرف الإنسان من سبيل أنبياء الله ورسله إلى سبيل الشياطين وإخوانهم.

وهذا حقٌ واقع في الأمم السابقة، وهو سيقع في هذه الأمة، كما قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لا تقوم الساعة حتى يلحق حيٌّ من أمتي بالمشركين، وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان»، وكما في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال: «لا تقوم الساعة حتى تضطرب إليات نساء دوس حول ذي الخلصة».

وجناب التوحيد مأمورٌ بحمايته وصيانته وحياطته؛ لأن الإنسان إذا انحرف في التوحيد -ولو كان الانحراف بسيطًا أو يسيراً فيما يزعم- لابد أن يوصله إلى ما يخرج به من الدين جُمْلة وتفصيلاً، ما لم يتفقد نفسه ويراجع توحيده وينبذ البدعة ويتمسك بالسنة.

وأمثلة ذلك وأدلته وشواهده كثيرة في هذه الأمة وفي غيرها؛ فمن هذه الأمة من كان انحرافه في باب الأسماء والصفات، أو كان فيما هو دون مسائل الأسماء والصفات لكنه لا

يزال منحرفًا عن السنة، حتى يكون في آخر الزمان يقاتل هذه الأمة مع المسيح الدجال. وهذا من الضلال -والعياذ بالله- وليس وراء ذلك ضلال؛ أن يقاتل في جيش رجلٍ ضالٍّ حذَّر منه سائر الأنبياء ويزعم أنه رب العالمين، ثم يقاتل له ويغامر بنفسه على هذا الكفر؛ ليس وراء هذا الانحراف انحراف -والعياذ بالله-.

والذي نقصده بهذا قول النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: **«يخرج عليكم رجال من قِبَل المشرق، يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، ثم لا يعودون إليه -ووضع يده على صدره- سيماهم التخلق، لا يزالون يخرجون حتى يخرج آخرهم مع المسيح الدجال»**. وهذه أول بدعةٍ ظهرت في الإسلام وآخر بدعةٍ تبقى في المسلمين وهي بدعة "الخروج". بدعة الوعيدية، مع أن بدعتهم في أول أمرها -على شناعتها- كانت تكفير الفاسق الملي، لكن لما انقبضت قلوبهم عن الصحابة وكرهوا الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ وكفَّروهم رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ وأرضاهم، وحُرِموا العلم الذي علمه الصحابة -والصحابة كلهم أوعية العلم-، بسبب موقفهم من الصحابة؛ فما زالوا يتخبطون في الضلال -والعياذ بالله- حتى يكون في آخر أحوالهم أن يكون ضلالهم كما قال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: **«حتى يخرج آخرهم مع المسيح الدجال»**.

ومن الفوائد المتعلقة بالخوارج: أنهم في أول الأمر كانوا يقرؤون القرآن، إلا أن ضلالهم يصل في بعض الأحوال إلى أن يُنكروا شيئًا من كلام الله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ؛ وقد ذكر أبو الحسن الأشعري في "مقالات الإسلاميين" هذا من باب الاستطراد بآثار الانحراف؛ فإذا انحرف الإنسان عن السنة ولم يأخذ العلم من أهله لابد أن يقع في الضلال، ولابد أن يزداد انحرافه بُعداً عن السنة شيئًا فشيئًا حتى يخرج من الدين جملة وتفصيلاً.

حصل من واقع بدعتهم أنهم أنكروا سورة يوسف، فبعض الخوارج -وتخيل هذا الضلال- الذين قال فيهم النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: **«يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، تحقرون**

صلاتكم مع صلاتهم، وقراءتكم مع قراءتهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية»، تخيل أن بعض طوائف الخوارج أنكروا أن تكون سورة يوسف من القرآن! والسبب في ذلك: استحكام الجهل، واستحكام النَّفَس الوعيدية، وتضييق رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. ولا يزال بهم ذلك حتى يُعجبوا برأيهم ويقعوا فيما هو أبعد من ذلك من الضلال.

ولهذا مما يدلُّ على ذلك أن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ نزَّل الآية التي نزلت في موسى وقومه على الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ الذين طلبوا هذا الطلب، مع البون الشاسع ما بين ما وقع من الصحابة وما وقع من بني إسرائيل مع موسى؛ فالصحابة في حديث أبي واقد ما قالوا: "اجعل لنا شجرة نعبدها من دون الله"، في حين أن أصحاب موسى قالوا: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا﴾. والصحابة ما خرجوا فارِّين كما فرَّ بنو إسرائيل من فرعون، بل خرجوا طالبين للعدو ليقاتلوهم في غزوة حنين، وبنو إسرائيل خرجوا هاربين.

والصحابة ما رأوا من الآيات كما رأى بنو إسرائيل؛ بنو إسرائيل رأوا البحر فانفلق فكان كل فرق كالطوْد العظيم، والصحابة ما رأوا ذلك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

ومع هذا كله يذكِّر النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بهذه الآية؛ من حيث أن الإنسان إذا تساهل في مثل هذا الأمر الذي يصادم دعوات الأنبياء والمرسلين، لا بد أن يصل به الحال إلى ما وصل به حال بني إسرائيل لما قالوا لموسى: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾[الأعراف:١٣٨].

هذا لا يعني يا إخواني أن أهل السنة والجماعة ينزِّلون الآيات التي نزلت في المشركين على المسلمين؛ هذه طريقة الخوارج، وإنما ينزِّلون الآيات التي ذكر الله فيها المشركين على من استهان البدعة؛ لأنها ربما توصله إلى بدعةٍ أعظم من ذلك، وربما توصله إلى الكفر، لكن ليس من طريقة أهل السنة والجماعة أن ينزِّلوا آيات كلام الله في المشركين على المسلمين؛ هذا عند الخوارج كما قالوا لابن عباس في قصة مناظرته إياهم بعد مقتل عبد الله بن خباب بن الأرت، لما قال بعض الخوارج لابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: "دعوكم منه -يعني من عبد الله بن

عباس-؛ فإنه من قومٍ نزل فيهم قول الله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾[الزخرف:٥٨]". هذه الآيات نزلت في كفار مكة، لكن الوعيدية الخوارج نزَّلوها على عبد الله بن عباس حَبْر الأمة وترجمان القرآن؛ هذه طريقة الخوارج.

أما أهل السنة والجماعة فيستدلون -وهذا مزلقٌ خاصة في الآونة الأخيرة- ينزِّلون الآيات التي ذكرها الله ﷻ عن المشركين في مثل هذه المسائل للتحذير من أن يستجري بالإنسان الباطل حتى يقع فيما وقع فيه المشركين، لا من حيث الحُكم عليه بالشرك. كما قال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في الأهواء قال: «تتجارى بأصحابها كما يتجارى الكلَب بصاحبه»؛ لأن الهوى لا حد له -والعياذ بالله-، لا يحكمه كتاب ولا سنة ولا تقوى ولا غير ذلك، فلا بد أن يذهب بصاحبه إلى غير سبيل أنبياء الله والمرسلين.

من مثل هذا قول حذيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لما رأى في يد رجل خيطًا، فقطعه حذيفة بن اليمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وقرأ قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[يوسف:١٠٦].

هناك وجهٌ -كما هو معلوم- أن حذيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قصد بذلك الشرك الأصغر، لكن من الأوجه المذكورة في هذا الحديث: أن حذيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أراد بذلك أنه إذا انحرف الإنسان ولم يتفطّن للانحراف عن التوحيد واستلذّ بذلك، أو رأى أن ذلك سائغًا وعارض الكتاب والسنة وفَهْم سلف الأمة، لا بد أن يوصله إلى ما هو أبعد من ذلك من الضلال والانحراف.

قال ﷺ: («لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ» رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ وَصَحَّحَهُ)، «حذو القذة بالقذة، والنعل بالنعل، حتى لو دخلوا جُحْر ضبٍّ لدخلتموه». بل في بعض الأحاديث في غير هذا السياق قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «حتى لو كان فيهم من ينكح أمه علانية لكان فيكم من يفعل ذلك». ثبتنا الله وإياكم.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بَابُ مَا جاءَ فِي الذَّبْحِ لِغَيْرِ اللهِ

وَقَوْلُ الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لا شَرِيكَ لَهُ﴾[الأنعام:١٦٢-١٦٣] الْآيَةَ.

وَعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: حَدَّثَنِي رَسُولُ الله ﷺ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: «لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ، لَعَنَ اللهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ، لَعَنَ اللهُ مَنْ آوى مُحْدِثًا، لَعَنَ اللهُ مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الْأَرْضِ» رَوَاهُ مُسْلِمُ.

وَعَنْ طَارِقِ بنِ شِهَابٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قال: «دَخَلَ الْجَنَّةَ رَجُلٌ فِي ذُبَابٍ، ودَخَلَ النَّارَ رَجُلٌ فِي ذُبَابٍ»، قالوا: وَكَيْفَ ذَلِكَ يا رَسُولَ اللهِ؟ قال: «مَرَّ رَجُلَانِ عَلَى قَوْمٍ لَهُمْ صَنَمٌ لَا يَجُوزُهُ أَحَدٌ حَتَّى يُقَرِّبَ لَهُ شَيْئًا. فقالوا لِأَحَدِهِمَا: قَرِّبْ، قال: لَيْسَ عِنْدِي شَيْءٌ أُقَرِّبُ، قالوا لَهُ: قَرِّبْ وَلَوْ ذُبَابًا، فَقَرَّبَ ذُبَابًا، فَخَلُّوا سَبِيلَهُ؛ فَدَخَلَ النَّارَ. وَقالوا لِلْآخَرِ: قَرِّبْ، فقال: مَا كُنْتُ لِأُقَرِّبَ لِأَحَدٍ شَيْئًا دُونَ اللهِ ﷻ، فَضَرَبُوا عُنُقَهُ؛ فَدَخَلَ الْجَنَّةَ» رَوَاهُ أَحْمَدُ.



قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللّٰه:

قال الشيخ رحمه الله: (بَابُ مَا جاءَ فِي الذَّبْحِ لِغَيْرِ اللهِ)؛ يعني حُكْم الذبح لغير الله.

والأصل في الذبح لغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنه شركٌ أكبر؛ الذبح لغير الله، والنذر لغير الله، ودعاء غير الله لا يكون إلا شركًا أكبر؛ لأنه تقرُّبٌ لغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بما لا يجوز إلا لله.

ولهذا أول ما أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ به نبيه ﷺ -كما قلنا بالباب السابق- أمره بالتكبير. قال أهل العلم: أن الله ﷻ قرن ما بين التكبير وما بين النحر من حيث أنهما عبادتان مشروعتان مأمورٌ بهما في أول الإسلام: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (٢) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾[الكوثر:١-٣]. وسورة المدثر نزلت أيضًا في أوائل ما نزل: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾[المدثر:٣].

بل حتى سورة الأنعام نزلت دفعة واحدة معها سبعون ألف ملك لهم زجل بالتسبيح،

وفيها أمر النبي ﷺ بأن يكون النُسُك والذبح لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[الأنعام:١٦٢].

مع كون الربِّ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وهو الغني الحميد غنيٌ عن الذابح وغنيًا عن ذبيحته، لكنها عبادة يخالف بها أهل التوحيد أهل الشرك.

وهي -يا إخواني- عبادة مشروعة في كل وقت، الذبح لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قُربة يتقرَّب بها العبد لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، قد يكون لها سببٌ، وقد يكون لها زمانٌ مشروع، وقد تكون قُرْبةٌ يتقرَّب بها الإنسان لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ كما يتنفل لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بصدقة السر، وأن يكون بينه وبين الله ﷻ خبيئة لا يطَّلِع عليها إلا الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، أو أن يفعل شيئًا من القربات الثابتة في الكتاب والسنة، كذلك الذبح بحدِّ ذاته قُربةٌ ليست مشروطة بزمن كالأضاحي، وليست مشروطة بسببٍ كالعقائر، وليست مشروطة بشيءٍ يُلزم الإنسان به نفسه من غير أن يُلزمه الله ورسوله كالنذر، لكن الأصل في ذلك أنها قربةٌ يُتقرَّب بها إلى الله ﷻ. ومع ذلك الله ﷻ غنيٌ عنها: ﴿لَن يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا﴾[الحج:٣٧].

قال الشيخ رحمه الله: (**بَابُ مَا جَاءَ فِي الذَّبْحِ لِغَيْرِ اللهِ وَقَوْلُ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي﴾**) يعني كل صلاتي، (**﴿وَنُسُكِي﴾**) كل نُسُكي، (**﴿وَمَحْيَايَ﴾**) كل محياي، (**﴿وَمَمَاتِي﴾**) كل مماتي (**﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾**)؛ لأن العبد لا يجوز له إلا أن يكون عبداً لله على وجه الدوام، أن يكون متذللاً لله بالعبادة في كل أحواله؛ في منشطه ومكرهه، في سعته وتقتيره، في قدرته وفي عُسره، أن يعبد الله ﷻ بقدر استطاعته ولا يكون منه شيءٌ من العبادة لغير الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

قال الشيخ رحمه الله: (**وَعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: حَدَّثَنِي رَسُولُ الله ﷺ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: «لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ، لَعَنَ اللهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ، لَعَنَ اللهُ مَنْ آوى مُحْدِثًا، لَعَنَ اللهُ مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الْأَرْضِ»**).

اللعن -كما هو معلوم-: الطرد والإبعاد من رحمة الله. ولا يلعن الرب ﷻ في كتابه أو نبيه ﷺ فعلاً أو فاعلاً إلا أن يكون ذلك الفعل من كبائر الذنوب، وقد يكون شركًا وكفراً ناقضًا للتوحيد من أصله.

وأهل العلم قالوا في تعريف الكبائر والموبقات: "كل ذنبٍ توعَّد الله ﷻ عليه بلعنٍ في الدنيا، أو غضبٍ في الآخرة، أو عقوبة أو وعيدٍ، أو حدٍ من حدود الإسلام". الحدود في الإسلام خمسة حدود: حد الحرابة -أشدها-، وحد المسكر -أقلها-، وحد القذف، وحد قطع السارق، وحد الزنا -سواء كان محصنًا أو ثيبًا-. هذه الحدود الخمسة في الإسلام، سُمّيت حدوداً لأن الله ﷻ حدَّ فيها العقوبة ولأنها تحد من الوقوع فيها.

فالمقصود أن تعريف الكبائر الأرجح -وهو الذي اختاره مشايخنا-، ومن أوائل من عرَّف الكبائر بهذا التعريف الكلاباذي، ثم العز بن عبد السلام، ثم ابن تيمية رحمه الله -وإن كانا متقاربين العز بن عبد السلام وابن تيمية-، لكن هو الذي استقر عليه جمهور العلماء: أن كبائر الذنوب ما توعَّد الله ﷻ عليه بلعنٍ، أو غضبٍ، أو حدٍ من حدود الإسلام الخمسة المعروفة، أو نفي إيمان عن صاحبه، أو البراءة ممن فعله، أو قول أنه "ليس منا".

- نفي الإيمان عن من فعله كقول النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن**»، قالوا: من يا رسول الله؟ قال: «**من لا يأمن جاره بوائقه**».

- أو البراءة من صاحبه كقول النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**من بات بين ظهراني المشركين فقد برئت منه الذِّمَّة**».

- أو قول "ليس منا" كقول النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**من غشنا فليس منا**»، و«**من حمل علينا السلاح فليس منا**». وكقوله ﷺ في البراءة من النائحة: «**إن الله بريء من النائحة والصالقة والشاقة**»، والصالقة: هي التي ترفع صوتها بالنياحة وبالبكاء.

فهذا هو الذي ذكره أهل العلم في تعريف الكبائر.

لكن أيضـاً أضاف بعض أهل العلم إلى ذلك أن الكبائر ليست محصورة بعـدد، وإن ثبت عن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كما في البخاري ومسلم من حديث أبي هريـرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أن النبـي ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات» قيل: وما هن يا رسول الله؟ قـال: «الشـرك بـالله، والسـحر، وقتْل الـنفس التـي حـرَّم الله إلا بـالحق، وأكـل الربـا، وأكـل مـال اليتـيم، والتـولي يـوم الزحـف، وقـذف المحصـنات الغـافلات المؤمنـات». هـذا العـدُّ لـيس المقصـود بـه الحصـر، وإنمـا المقصـود بـه ضرب المثال -كما قال أهل العلم-، فهي أصولٌ لفروعٍ وأسس، وإنمـا العلـم ضياء وغبس، أو أن يكون غيرها عائدٌ إليها، إما أن يكون النبي أراد بذلك ذكر بعض الموبقات، أو أن يكـون غيرها مما لم يُذكَر داخلٌ فيها.

وإلا فالكبائر أكثر من ذلك، ولهذا جاء عن عبد الله بن عباس -وإن كان في سنده ضـعف؛ لأنه من رواية ليث بن أبي سليم عن طاووس عـن عبـد الله بـن عبـاس- أنـه سـئل عـن الكبـائر فقيـل: "الكبـائر سـبع؟" قـال: «بـل هـي إلـى السـبعين أقـرب». وفي لفظٍ آخـر قـال: «هـي إلـى السبعمائة أقرب». وفي لفظٍ ثالث قال: «بل هي سبع وسبع وسبع وسبع».

وكذلك جاء عن ابن عباس -وإن كان في سنده كلام- أنه قـال: «لا كبيـرة مـع الاسـتغفار، ولا صغيرة مـع الإصـرار»؛ بمعنـى أن الكبـائر قـد تكـون في أصـلها صـغائر، لكـن لاسـتخفاف المذنب وإصراره عليها صارت في حقه كبيرة، وقد تكـون صـغيرة لكـن تعظُـم بحسـب الزمـان وبحسـب المكـان، كمـا قـال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[الحج:٢٥].

لكن يبقى أن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في هذا الحديث يذكر بعض الكبائر مقرونة بالشـرك؛ لا من حيث اتفاقهما في المنزلة، لكن من حيث أنهما كلاهما مخالفة لأمـر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، يعنـي اتفاقهما في كونها معصية، لأن الشرك أعظم ما عُصـي الله عَزَّ وَجَلَّ بـه، ومـع ذلـك يجعلـه النبـي ﷺ قرينـاً لغيره من الذنوب مما هو دون الشرك كما في حـديث الموبقـات، وكمـا في حـديث علي

رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ؛ لكنه يقدِّم ما هو أقبح فيما يتعلق بالتعدي على حق الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ والظُلْم في حق الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

فقدَّم النبي ﷺ في الموبقات أقبحها: «الشرك بالله والسحر»، وقدَّم النبي ﷺ في حديث علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ هذا: الذبح لغير الله؛ قال عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «لعن الله من ذبح لغير الله»، سواء كان الذبح مما يتقالُّ الناس شأنه، أو كان الذبح مما ينفس ماله ويكون عزيزاً عند الناس، لأن الذبح في حد ذاته إذا صُرِف لغير الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ صارت عبادة لغير الله؛ سواء ذبح بدنة وناقة، أو ذبح ما هو أقل من ذلك.

قال عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: («لَعَنَ اللهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ»)، سواء لعنهما لعنًا مباشراً أو تسبَّب في لعنهما؛ لأنه جاء في الحديث الصحيح عن النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ في البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ قال: «من الكبائر شتم الرجل والديه». سمّاها كبيرة عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، وهذا يصدِّق ما قلناه قبل قليل أن من وصف الكبيرة أن تكون مقرونة باللعن؛ فهنا قال عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: («لَعَنَ اللهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ»)، وفي حديث عبد الله بن عمرو بن العاص في البخاري ومسلم قال: «من الكبائر شتم الرجل والديه»، قالوا: يا رسول الله أيسب الرجل أباه؟ قال: «نعم، يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه»؛ يعني يتسبب. فإذا كان هذا من الكبائر، فأقبح من ذلك أن يسب أباه مباشرة -والعياذ بالله-.

وقال ﷺ: («لَعَنَ اللهُ مَنْ آوى مُحْدِثًا») يعني: لعن الله من حمى محدثًا حتى لا يُقام عليه الحد؛ سواء كان إحداثه متعلقًا بحقوق الآدميين، أو ما هو أعظم من ذلك كأن يكون المحدث ممن أحدث بدعة في الإسلام وفرَّق الناس، أو أشاع بدعة تتعلق بالأسماء والصفات والقضاء والقَدَر، وعقائد الوعيدية والمرجئة وغير ذلك.

فإذا حماه -مع أن ولي الأمر أراد أن ينفذ حكم الله عَزَّوَجَلَّ فيه، سواء قتلاً أو تعزيراً أو حبسًا أو غير ذلك- فقد عطَّل حد الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، بمعنى أنه أعان على المنكر ولم يعن على

المعروف، وقد قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾[المائدة:٢]، وهذا أعظم جناية أن يكون الإنسان خصمه رب العالمين سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ هذه خصومة منه لرب العالمين، من كان الله عَزَّوَجَلَّ خصمه خُصِم.

فمن معاني إيواء المحدث: إيواء محدثٍ وجب إقامة الحد عليه، كأن يكون سرق ولم تظهر له توبة، واستأثر بالمال المسروق، أو أن يكون قذف عرضاً ووجب عليه حد الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فأوى إلى إنسان حتى يمنع من إقامة الحد عليه. وأعظم من ذلك أن يكون أحدث في دين الله عَزَّوَجَلَّ حدثاً، ثم أوى إلى أناس يحمونه من إقامة حدّ الله عَزَّوَجَلَّ عليه.

قال ﷺ: («لَعَنَ اللهُ مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الْأَرْضِ»). وتغيير منار الأرض ذكر أهل العلم أن له معنيين:

١- أن يغيِّر منار الأرض بقصد إضلال المسافر؛ كأن يتعاهد الناس علامة يعرفون بها الطريق فيضيِّع علامتهم أو يزيلها حتى يضيع الناس فتتلف أموالهم وأنفسهم بسببه.

٢- أن يغير منار الأرض تغييراً يترتب عليه أن يأكل أموال الناس بالباطل، وأن يضيف أرضهم إلى أرضه؛ كالذي يغيِّر علامات أرضٍ أو مزرعة أو مُلكاً فيأخذ من مُلك جاره بتغيير العلامات التي تحدُّ ما بين ملكه وما بين ملك جاره.

وهذا مع كونه أكلٌ للمال بالباطل، هو أيضاً غشٌ للمسلمين؛ قد قال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «من غشنا فليس منا». وفي الحديث الصحيح قال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «من ظلم قيد شبر من الأرض طوِّقه من سبع أرضين»، فسماه النبي ظلماً عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

ثم ذكر الشيخ رحمه الله حديث طارق بن شهاب وفيه: (أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «دَخَلَ الْجَنَّةَ رَجُلٌ فِي ذُبَابٍ») أيْ بسبب ذباب، («ودَخَلَ النَّارَ رَجُلٌ فِي ذُبَابٍ») أيْ بسبب ذباب، (قالوا: وَكَيْفَ ذَلِكَ يا رَسُولَ اللهِ؟ قال: «مَرَّ رَجُلَانِ عَلَى قَوْمٍ لَهُمْ صَنَمٌ»). الفرق بين الصنم والوثن: أنهما يتفقان في كونهما محلاً لعبادة غير الله، وتُصرف لها العبادات على أنواعها لغير الله

سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، لكن الفرق بينهما عند أهل العلم: أن الصنم ما نُحت على شكل صورة -سواء صورة إنسان أو حيوان أو غير ذلك-، والوثن ما عُبد على هيئته كالقبر والشجر وغير ذلك.

(«لَا يَجُوزُهُ أَحَدٌ حَتَّى يُقَرِّبَ لَهُ شَيْئًا. فقالوا لِأَحَدِهِمَا: قَرِّبْ، قال: لَيْسَ عِنْدِي شَيْءٌ أُقَرِّبُ، قالوا لَهُ: قَرِّبْ وَلَوْ ذُبَابًا، فَقَرَّبَ ذُبَابًا، فَخَلُّوا سَبِيلَهُ؛ فَدَخَلَ النَّارَ»)؛ يعني دخل النار بسبب أنه قرَّب لغير الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ شيئًا ولو كان ذبابًا.

(«وَقالوا لِلْآخَرِ: قَرِّبْ، فقال: مَا كُنْتُ لِأُقَرِّبَ لِأَحَدٍ شَيْئًا دُونَ اللهِ عَجَّلَ، فَضَرَبُوا عُنُقَهُ؛ فَدَخَلَ الْجَنَّةَ» رَوَاهُ أَحْمَدُ) هذا الحديث جوَّد إسناده الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله وكثيرٌ من أهل العلم، لكن من أهل العلم من يقول بأن هذا الحديث سنده ضعيفٌ مرفوعًا إلى النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ومنهم من يقول: إنه موقوفٌ على سلمان الفارسي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وأن سلمان ربما حدَّث به عن بعض أخبار بني إسرائيل لأنه كان أجيراً عندهم قبل الإسلام.

وسواء كان مرفوعًا أو موقوفًا؛ فالصواب أن مثل هذا لا يخالف ما عندنا من حيث أن الذبح لا يكون إلا لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فهو موافقٌ لأصول الشريعة ودعائم التوحيد التي بُعِث بها النبي ﷺ بل بُعِث بها سائر الأنبياء.

وفي قوله ﷺ: («دَخَلَ الْجَنَّةَ رَجُلٌ فِي ذُبَابٍ، ودَخَلَ النَّارَ رَجُلٌ فِي ذُبَابٍ»)؛ الأصل في ذلك أنهما مرّا بقومٍ لا يأذنون لأحدٍ أن يجوز واديهم حتى يقرِّب لصنمٍ عندهم يعظّمونه، فلما جاء الأول طلبوا منه أن يقرِّب فلم يعتذر عن التقريب من حيث أنه شرك، وإنما اعتذر بأنه لا يملك شيئًا يقربه؛ بمعنى أن الذي منعه من التقريب ليس كونه شركًا ولا كونه على التوحيد، وإنما عجزه عن الشرك أو عجزه عن إظهار ما يوافقونه عليه أو يوافقهم عليه من أنه مشركٌ وعلى ملتهم، ولهذا لما أرادوا أن يستثبتوا مما هو عليه من موافقتهم للشرك قالوا: قرِّب ولو ذبابة، مع أنهم لا يرون أن ذبابة يُقرَّب لها من دون الله، لكن حتى يعلمون أنه على ما هم عليه من الشرك بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

(«فَقَرَّبَ ذُبَابًا، فَخَلُّوا سَبِيلَهُ»)، بمعنى أنه سلِمت له نفسه لما قرَّب لغير الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى لكن لم يسلم له توحيده -والعياذ بالله-، وصار حاله في مآله النار كما قال النبي ﷺ: («فَخَلُّوا سَبِيلَهُ؛ فَدَخَلَ النَّارَ»).

(«وَقالوا لِلْآخَرِ: قَرِّبْ، فقال: مَا كُنْتُ لِأُقَرِّبَ») بمعنى أنه قد يكون بالإمكان أن يُقرِّب أناقته التي تحته، قد يكون بالإمكان أن يُقرِّب ولو ذبابًا مثلما فعل الذي قبله، لكنه أبى ذلك صيانةً للتوحيد بقوله: («مَا كُنْتُ لِأُقَرِّبَ لِأَحَدٍ شَيْئًا دُونَ اللهِ ﷻ») فدل على أنه موحِّد يرى أن القربان لا يجوز إلا لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى وبقي على ذلك حتى قُتِل على ذلك فدخل الجنة.

فحماية التوحيد وصيانته والتمسُّك به مما يُمدح عليه الإنسان ولو تعرض إلى التلف.

وهنا مسألة متعلقة بالعذر بالإكراه والعذر بالجهل وغير ذلك؛ لكن حتى لو رخصت نفس الإنسان عنده مقابل صيانته لتوحيد الله ﷻ؛ فإنه لا يُعاب عليه ذلك ولا يسمى قاتل نفسه.

بمعنى أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى جعل العُذْر بالإكراه رخصة، لكن نبينا ﷺ وسائر الأنبياء ألم يُكرهوا في الدعوة إلى التوحيد؟ أما قُتل زكريا؟ أما قُتل يحيى؟ سُمّي أولو العزم أولو العزم لكثرة ما نالهم من أممهم؟ ومع ذلك ما اعتذروا عما يقع منهم من بلاء بكونه إكراهًا. نعم، يجعل الله ﷻ لعباده رُخصة يحفظون بها أنفسهم من التلف ويعذرهم في ذلك سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، وهذا أمرٌ مهم -يا إخواني-، لكن لو ثبت إنسان على التوحيد وعلى السنة ولو كان في ذلك تلفًا له؛ هل يُعاب عليه ذلك؟ ما يُعاب عليه ذلك، هذا أرخص نفسه لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

لكن أيضًا بالمقابل لا يقال لأحد: "لا يجوز لك أن تترخص بالإكراه"، فالعلم وسطٌ ما بين ذلك. ألم يُعرض الإمام أحمد رحمه الله في بدعة الخلْق على القرآن على السياط؟ أما جُلد رحمه الله وحُمل مجلوداً المأمون في طرسوس هلك قبل أن يصل إليه الإمام، ثم عاد وعُيد عليه العذاب لأنه ظن أن الفرج أتى لما بلغه أن المأمون مات، وكان مرابطًا في

طرسوس ومع ذلك لما عاد إلى السجن، عاد الأمر أشد مما كان عليه. ومات القواريري وهو يرى الإمام أحمد وما فتّ ذلك في عضده: ومات ابن نوح وهو يرى، وما فتّ في عضده، ومات نعيم بن حماد في السجن وجُر بالسلاسل حتى كُردس في حفرة، ومع ذلك ما وافقوهم على ما يقولون.

بل قال المعتصم -وهو من أشد من آذى الإمام أحمد-: "قل كلمة أحل عنك القيد بيدي، قل القرآن مخلوق"، قال: "لا أجد ذلك في كلام الله ولا كلام رسوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ"، فأُعيدت السياط عليه حتى يغشى عليه، ثم يُحمل، ثم يؤتى به ويُجلد من الغد.

فالإنسان إذا رخصت نفسه لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وحصل له من ذلك ما حصل من الأذى لا يُعاب عليه ذلك؛ كما أن الإنسان قد يطيل الصلاة فتتفطر قدماه كما كان النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ على ذلك، وأمته من بعده يطيلون القيام، ويكثرون الصيام حتى يظهر ذلك في وهن أبدانهم، ولا يُعاب عليهم ذلك. بمعنى أن هذا مما لابد أن يُفهم على وجه الصواب؛ من حيث أنه لا يُعطَّل رحمة الله لأمته -الذي هو العذر بالإكراه-، وأيضًا لا يُعاب على من لم يأخذ بهذا العذر.

هذا فيما يتعلق بهذه الأمة، مع أن هذا الحديث -يا إخواني-، قال بعض أهل العلم أنه متعلِّقٌ بما وقع في الأمم قبلنا، ليس متعلقًا بهذه الأمة؛ من حيث أن العُذر بالإكراه رحمة تدارك الله بها هذه الأمة المرحومة لم تكن في الأمم السابقة، فلم يكن في الأمم السابقة أن من العذر في فعل الكفر الإكراه، ودللوا على ذلك بقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾[الكهف:٢٠]؛ بمعنى أنكم لو طاوعتموهم على ذلك وعدتم إلى مِلَّتهم لم يعذركم الله ﷻ بذلك لأنه قال: ﴿وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾.

قال بعض أهل العلم: العُذر بالإكراه إنما خصه الله ﷻ بهذه الأمة لأنها أمة مرحومة.

والأثر المشهور في ذلك أن عمار رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ نزل فيه قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ

﴿وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾[النحل:١٠٦]؛ لهذا أهل السنة والجماعة يعدون الإكراه عُذراً من الأعذار التي دلت عليها النصوص، سواء كان الإكراه، أو التأول السائغ، أو الخطأ، أو الجهل. ومنهم من يصل بالأعذار التي تُدفع التكفير إلى قرابة اثني عشر عذراً.

وقد استدلوا بحديث عمار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما جاء إلى النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يبكي قال: «**ما وراءك؟**» قال: "شر يا رسول الله، ما تُرِكتُ حتى نلتُ منك وذكرتُ آلهتهم بخير"، قال: «**كيف تجد قلبك؟**» قال: "مطمئناً بالإيمان"، قال: «**فإن عادوا فعُد**».

مثل عمار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لابد أن يُعلم حاله:

١- عمار أُكره على القتل وزهوق نفسه.

٢- أُكره من أُناس قادرين على فعل ذلك به.

٣- رأى عمار ذلك في غيره؛ رأى المشركين يقتلون سمية بنت خياط -والدته-، ويقتلون والده ياسر، ويقتلون أخاه الحارث وهو يرى؛ فتحقق عنده أنهم قادرون.

ناهيك أن عمار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ "عنسيٌ" من قبائل اليمن، لصيقٌ في قريش وليس منهم، فليس له قبيلة تحميه. فمثل هذا رخصةٌ ترخَّص الله عَزَّ وَجَلَّ بها على عباده، لكن يبقى أن الإنسان لا يجوز له أن ينكر على من تحمَّل الأذى ولم يجبهم إلى الكفر، ولا بد أن يُعلم هنا أن الإكراه متعلقٌ بزهوق النفس، ليس متعلقاً بالمال وشبه ذلك، ومن أهل العلم من قَالَ: أن الإكراه أيضاً متعلقٌ بالتعدي على العرض، لكن الأصل الذي دل عليه الكتاب والسنة أنه متعلقٌ بالقتل وإزهاق النفس.

وأهل السنة والجماعة في هذه المسألة وسطٌ ما بين المرجئة وما بين الوعيدية -الخوارج- الذين يضيقون رحمة الله ولا يرون عذراً، وما بين المرجئة الذين يقولون:

تزود ما استطعت من المعاصي ... إذا كان القدوم على كريمِ

بل هم يجمعون ما بين النصوص فيضمون بعضها إلى بعض.

والأصل في هذا الباب أنه متعلقٌ بالذبح لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، وأنه قُرْبةٌ لا تجوز لغيره سبحانه وبحمده، وأن من ذبح لغيره مختاراً متقرِّباً أنه مشركٌ شركاً أكبر.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بَابُ الشَّفَاعَةِ

وَقَوْلُ الله تَعَالَى: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾[الأنعام:٥١].

وَقَوْلُهُ: ﴿قُلْ لله الشَّفَاعَةُ جميعـًا﴾[الزمر:٤٤].

وَقَوْلُهُ: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾[البقرة:٢٥٥].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾[النجم:٢٦].

وَقَوْلُهُ: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقال ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ (٢٣) وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾[سبأ:٢٣-٢٤].

قال أَبُو الْعَبَّاسِ: «نَفَى اللهُ عَمَّا سِوَاهُ كُلَّ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ الْمُشْرِكُونَ -فَنَفَى أَنْ يَكُونَ لغَيْرِهِ مُلْكٌ، أَوْ قِسْطٌ مِنْهُ، أَوْ يَكُونَ عَوْنـًا للهِ- وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الشَّفَاعَةُ، فَبَيَّنَ أَنَّهَا لَا تَنْفَعُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّبُّ، كَمَا قال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾[الأنبياء:٢٨].

فَهَذِهِ الشَّفَاعَةُ الَّتِي يَظُنُّهَا الْمُشْرِكُونَ، هِيَ مُنْتَفِيَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ كَمَا نَفَاهَا الْقُرْآن.

وَأَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ: أَنَّهُ يَأْتِي فَيَسْجِدُ لِرَبِّهِ وَيَحْمَدُهُ، لَا يَبْدَأُ بِالشَّفَاعَةِ أَوَّلاً، ثُمَّ يُقال لَهُ: ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ.

وقال له أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: «مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ خَالِصـًا مِنْ قَلْبِهِ».

فَتِلْكَ الشَّفَاعَةُ لِأَهْلِ الْإِخْلَاصِ -بِإِذْنِ اللهِ-، وَلَا تَكُونُ لِمَنْ أَشْرَكَ بِاللهِ.

وَحَقِيقَتُهُ: أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ هُوَ الَّذِي يَتَفَضَّلُ عَلَى أَهْلِ الْإِخْلَاصِ، فَيَغْفِرُ لَهُمْ بِوَاسِطَةِ دُعَاءِ

مَنْ أَذِنَ لَهُ أَنْ يَشْفَعَ، لِيُكْرِمَهُ، وَيَنَالَ الْمَقَامَ الْمَحْمُودَ.

فَالشَّفَاعَةُ الَّتِي نَفَاهَا الْقُرْآنُ مَا كَانَ فِيها شِرْكٌ، وَلِهَذَا أَثْبَتَ الشَّفَاعَةَ بِإِذْنِهِ فِي مَوَاضِعَ، وَقَدْ بَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهَا لا تَكُونُ إِلَّا لِأَهْلِ التَّوْحِيدِ والإِخْلَاصِ».



قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللّه:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، صلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه.

اللهم علِّمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً يا كريم.

انتهى الكلام على قول الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: (بَابٌ فِي الشَّفَاعَةِ)، أيْ في الشفاعة المنفية والمُثبتة، وشروطها وأركانها وزمن وقوعها، ومخالفة الشفاعة في كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وكلام رسوله ﷺ عما عليه الشفاعة عند اليهود والنصارى والمشركين والمخالفين جملةً وتفصيلاً، حتى ممن انتسب إلى أهل القبلة من الطوائف والفِرَق.

والشفاعة بابٌ من أبواب الاعتقاد؛ لأن صورتها صورة الدعاء والطلب، ولأن الشفاعة في الأصل مُلْكٌ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾[الزمر:٤٤]. وأن الله ﷻ ذكر في كلامه أن لها شروطاً حتى تكون يوم القيامة، ولها أركان؛ من حيث أن أهل العلم قالوا: إن الشفاعة لا تصح ولا تقع ولا يُنتفع بها إلا بأركانٍ وشروط.

ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الباب بعض الآيات المتعلقة بالشفاعة وبعض الأحاديث الثابتة عن النبي ﷺ، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (بَابُ الشَّفَاعَةِ

وَقَوْلُ اللهِ ﷻ: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾[الأنعام:٥١])، ليس لهم من دون الله ﷻ يوم القيامة وليٌ؛ لأن الله ﷻ هو ولي المؤمنين،

ولأن المؤمنين بعضهم أولياء بعض، ولا شفيع؛ لأن الله ﷻ هو الذي يملك الشفاعة، وإنما يأذن بها الله ﷻ بشرطين: يأذن الله ﷻ في إجراء الشفاعة لمن شاء من خلقه ولمن رضي عنه من خلْقِه.

وقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ﴾، مثل قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَا﴾[الأنعام:٧٠]. وفي هذا بحثٌ فيما يتعلق به: هل يُسمى الله ﷻ "شفيعًا" كما سمى نفسه "وليًا" أو لا؟ الله ﷻ من أسمائه الولي، كما قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ ۚ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾[الشورى:٢٨]. فهل اقتران الشفيع بالولي في هذه الآية وفي آية يونس دليلٌ على أن الشفيع اسمٌ لله كما أن الولي اسمًا لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؟

أهل العلم على الخلاف فيما يتعلق بتسمية الله ﷻ "الشفيع"؛ هل يُسمى الله ﷻ شفيعًا أو لا؟ والصواب في هذا الباب: أن يُفرَّق ما بين الخبر وما بين الاسم، وأن أسماء الله ﷻ توقيفية، ومعنى توقيفية: أنه ما يُثبَت لله ﷻ من أسماء لابد أن يكون موقوفًا على النص من كلام الله ﷻ وما صح عن رسول الله ﷺ.

على أن "الشفيع" في هذه الآية يُنزَّل منزلة الذي يأذن الله ﷻ له بأن يشفع لغيره؛ بمعنى أن الله ﷻ ذكر في هذه الآية الولي من المؤمنين للمؤمنين والشفيع من المؤمنين للمؤمنين، وهذا منتفٍ عن الكافرين. فيقال في هذا: أن الولي المذكور في هذه الآية ليس هو "الولي" الذي هو اسم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وإنما المقصود به انتفاءُ الولي في الآخرة للكافرين من المؤمنين، وكذلك انتفاء الشفيع للكافرين من المؤمنين يوم القيامة، كما قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾[غافر:١٨].

مع أن من قال بأن "الشفيع" من أسماء الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قالوا: إنه جاء في اللغة أن الشفيع ما كان على وزن "فعيل" يصحُّ إطلاقه على ما كان على وزن "مفعول"، والله ﷻ مَشفوعٌ

عنده، ومَشفوع اسم مفعول. فيقال: إذا قيل بأن "الشفيع" من أسماء الله -وهو قولٌ لبعض أهل العلم- يقال: إنه شفيعٌ بمعنى "مشفوع عنده"، كما يقال "قتيلٌ" بمعنى "مقتول".

والصواب في هذه المسألة: أن الشفيع ليس من أسماء الله، وأنه على القول بأنه من أسماء الله فالمقصود بذلك أن الله ﷻ يُجري الشفاعة؛ لا يشفع لأحدٍ من خلقه، وإنما يُجريها لمن شاء الله ﷻ من عباده؛ لأن الله ﷻ لا يجوز أن يُقال أنه يشفعُ لأحدٍ من خلقه.

الله ﷻ له التدبير المطلق سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، يُضِلُّ من يشاء ويهدي من يشاء، يغفر ويرحم سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، ويحاسب ويعفو؛ فلا يقال إن الله ﷻ يشفع لأحدٍ، يشفع عند من؟! الشافع إنما يلتمس فضلاً ممن هو أرفع منه -تعالى الله ﷻ عن هذا القول علواً كبيراً-، ولهذا يجري على ألسنة بعض الناس: "الله يشفع لك يوم القيامة"، هذا قولٌ باطل؛ الله ﷻ مشفوعٌ عنده سبحانه وبحمده، وإنما تُلْتمس الشفاعة منه، ولا يقال إن الله ﷻ يشفع لأحدٍ من خلقه، يشفع إلى من سبحانه وبحمده، وهو سُبْحَانَهُوَتَعَالَى الكبير المتعال؟!

وهذا مما يدل على أن الشفيع ليس من أسماء الله، وإنما هذا الاستطراد في توجيه من قال بأن الشفيع من أسماء الله من بعض أهل العلم. والصواب في ذلك: أن الشفيع ليس من أسماء الله، وأن الشفيع المذكور في هذه الآية، هو كالشفيع المذكور في قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾[غافر:١٨]، وأن المقصود بذلك انتفاء الشفيع من بني آدم، وأنه خبرٌ عن بني آدم، أنه ليس للكافرين شفيعٌ ولا حميمٌ ولا وليٌ ولا ظهير.

وعلى كل حال الشفاعة ثابتةٌ في كلام الله وكلام رسوله ﷺ من ثلاث جهات: من جهة كونها منفية ومثبتة؛ منفيةٌ إذا كانت مطلوبةٌ ممن لا يملكها كالأصنام وغيرهم، أو تُطلَب ممن جعل الله ﷻ لهم مقام الشفاعة لكن الله ﷻ حجَب شفاعتهم عمَّن كفر به سبحانه وبحمده، وإن كانوا أهل كرامة عند الله ﷻ؛ بمعنى أنهم يشفعون للكافرين على جلالة قدرهم ومنزلتهم وحظوتهم واصطفاء الله لهم، لكن الله ﷻ لا يجري شفاعتهم لأنه مضى في قدره سُبْحَانَهُوَتَعَالَى

أن الكافر لا تنفعه الشفاعة.

ومثال هذا ما يقع لإبراهيم كما في صحيح البخاري، عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «أن إبراهيم يوم القيامة يلقى أباه وعلى وجهه غبرة وقترة، فيقول لأبيه آزر: ألم أقل لك لا تعصني؟ فيقول أبوه: فإني لا أعصيك اليوم. فيقول إبراهيم عند الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: يا رب، أنجز ما وعدتني، فإنك وعدتني أن لا تخزيني يوم يبعثون، وأيُّ خزيٍ أعظم من خزي أبي الأبعد؟ -يقصد أباه- فيقول له الرب سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: إني حرمت الجنة على الكافرون. ثم يقال لإبراهيم: انظر تحت قدميك، فينظر تحت قدميه فإذا هو بذيخٍ متلطِّخ»؛ يعني أن الله ﷻ حوَّل صورة أبيه آزر إلى صورة ذيخ، والذيخ ذكر الضبع؛ وهذا حتى تطيب نفس إبراهيم من أبيه، «فيؤخذ بقوائمه فيُلقى في النار».

هذا الحديث عند البخاري من أفراده، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مرفوعًا إلى النبي ﷺ؛ ففيه: أن إبراهيم على جلالة قدره واتخاذ الله ﷻ إياه خليلاً، وأنه من أنبياء الله ﷻ وأصفيائه، إلا أن شفاعته إذا كانت في كافر لا يجريها الله ﷻ لما سبق في قدره سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾[المدثر:٤٨].

وقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾[المائدة:٧٢]؛ أنصار ونصير وشفيع كله بمعنى واحد، بمعنى أنه لا يطمعون بالنجاة من النار إذا ماتوا على الكفر.

فهذه شفاعةٌ منتفية من حيث عدم حصول النفع بها في الآخرة، أو أن تكون الشفاعة المنتفية المقصود بها أنها وإن ادعاها الكافرون أو زعم الكافرون أنها واقعة، إلا أنها منتفية قدراً وشرعًا؛ شرعًا من حيث إنها لا تجوز كالذين يطلبون الشفاعة من الموتى والأجداث وغيرهم، كما قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَىٰ﴾[الزمر:٣]؛ فهذه منتفيةٌ شرعًا من حيث إنها شفاعة شركية، ومنتفية قدراً من حيث إنها لا تقع يوم القيامة.

فهذا البحث الأول فيما يتعلق بباب الشفاعة: انقسامها إلى منفية وإلى مثبتة.

والمنفية: إما أن تكون منفية شرعـًا ودينـًا، أو قدراً وكونـًا.

أو في الدنيا وفي الآخرة -عدم جوازها في الدنيا وعدم نفعها في الآخرة-.

والشفاعة المثبتة التي ذكر الله ﷻ أنه يملكها سبحانه وبحمده، كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾[الزمر:٤٤]، ثم الله ﷻ يعطيها من يشاء من خلقه؛ يعطيها الله ﷻ للملائكة والأنبياء والشهداء، والأفراط والعمل الصالح، والقرآن والبقرة وآل عمران وما شاء الله ﷻ.

فهي مثبتةٌ من حيث ذكر الله ﷻ أنها واقعة، ومن حيث اجتماع الشرطين فيها؛ والشرطان اللذان يسبقان الشفاعة: إذْنُ الله ﷻ للشافع أن يشفع، ورضا الله ﷻ عن المشفوع له.

وإذن الله ﷻ للشافع إنما يكون لمن كانت له كرامة عند الله ﷻ، وأعظم من جعل الله ﷻ له كرامة: كلامه سبحانه وبحمده؛ لقول النبي ﷺ في البقرة وآل عمران: «**أنهما تأتيان يوم القيامة تُحاجَّان عن صاحبهما**»، ولقوله ﷺ: «**إن سورة ثلاثين آية شفعت في صاحبها حتى أدخلته الجنة: تبارك الذي بيده الملك**».

فكلام الله ﷻ أعظم الكلام، وهو بعض كلامه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. ثم يأتي بعد ذلك أنبياؤه ورسله، ثم الملائكة -على القول بأن الأنبياء أفضل من الملائكة والبحث في هذا له مقامٌ آخر-، ثم الشهداء؛ يشفع الشهيد في سبعين من أهل بيته، ثم سائر الصالحين، ثم المؤمنون، ثم يشفع الأفراط الذين ماتوا قبل الحِنْث لوالديهم، ثم يشفع أهل الجنة لمن في النار من المؤمنين، ويشفع أهل الجنة لأهل الجنة في رفع درجاتهم في الجنة، وهذا سيأتي فيما يتعلق بأنواع الشفاعة. فهذه المسألة الأولى فيما يتعلق بالشفاعة وأنها منقسمةٌ إلى منفية ومثبتة.

والمسألة الثانية فيما يتعلق بالشفاعة أنها مسبوقة بشرطين: رضا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن المشفوع له، وإذن الله ﷻ للشافع؛ كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا

﴿تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ﴾[النجم:٢٦]. يأذن الله ﷻ للشافعين أن يشفعوا، وأول شافعٍ يوم القيامة سيد الأولين والآخرين ﷺ، ثم بعد ذلك يأذن الله ﷻ بالشفاعة فيجريها الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ لكنه كما قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾[الأنبياء:٢٨].

والمسألة الثالثة المتعلقة بهذا الباب -باب الشفاعة-: أن الشفاعة قائمةٌ على أربعة أركان:

الركن الأول: المشفوع عنده وهو الرب سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ لأن الله ﷻ بيده النفع والضُرّ سبحانه وبحمده، وبيده المغفرة وبيده المحاسبة سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ قال الله ﷻ: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾[الحجر:٤٩-٥٠]. وأن الإنسان لا يملك لنفسه ولا لغيره شيئًا إلا إذا أذن الله ﷻ.

والثاني: الشافع، والشافعون يوم القيامة كثير، أعظمهم وأولهم سيّد الأولين والآخرين نبينا محمد ﷺ.

والنبي ﷺ لكرامته عند الله ﷻ جعل الله ﷻ له شفاعات ليست لغيره؛ ثلاثة أنواع من الشفاعة جعلها الله ﷻ لنبيه ﷺ ليست لغيره، وباقي أنواع الشفاعة له ولغيره. بمعنى أن كل شفاعةٍ يجريها الله ﷻ يوم القيامة -سواء في عرصات يوم القيامة، أو إذا دخل أهل الجنة الجنة ودخل أهل النار النار-؛ فإن النبي ﷺ له الشفاعة في المقامين: المقام الذي يقوم فيه الناس لرب العالمين، وإذا دخل أهل الجنة الجنة وإذا دخل أهل النار النار.

له ﷺ "المقام المحمود" كما قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾[الإسراء:٧٩]. والمقام المحمود شفاعته ﷺ في إجراء الحساب، وهذا سيأتي بالتفصيل بعد قليل.

لكن المقصود أن الركن الثاني من أركان الشفاعة هو "الشافع"، سواء كان كلام الرب

سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أو نبيه ﷺ أو سائر الأنبياء أو الملائكة إلى غير ذلك.

والثالث: المشفوع له، والمشفوع له ينقسم إلى نوعين: إما أن يكون كافراً، وإما أن يكون مؤمناً صاحب تفريط، وإما أن يكون مؤمناً ليس عنده تفريط.

بمعنى أن الشفاعة التي يجريها الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يوم القيامة، يحصل للكافر منها نوع حظٍ، لكنها ليست شفاعة بدخول الجنة ولا بانقطاع العذاب، وإنما إما أن تكون تخفيف عذاب وإما أن تكون إجراء حساب؛ وهاتان الشفاعتان هما اللتان تحصلان للكافر يوم القيامة.

شفاعة تخفيف العذاب في أبي طالب كما هو معروف، أن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال له عمه العباس بن عبد المطلب: "إن عمك أبا طالب كان يذب عنك فبماذا نفعته؟"، فقال ﷺ: «هو في ضحضاحٍ من نار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار»، يعني أن الله ﷻ خفَّف عنه العذاب لشفاعة النبي ﷺ لا غير -لا لعمله الذي كان في الدنيا-؛ لأن عمله الذي كان في الدنيا جُوزِي به. قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾[الزلزلة:٧].

قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾[هود:١٥]؛ لا يُظلمون. لا أبو طالب ولا غير أبي طالب، لا يظلمه الله ﷻ كما قال عن نفسه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾[النساء:٤٠]، وفي الآية الأخرى قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[يونس:٤٤]. فهذه شفاعةٌ وقعت للكافر، وأبو طالب مات كافراً، من حيث تخفيف العذاب لا انقطاعه.

والنوع الثاني من الشفاعة التي تطال الكافر والمؤمن: الشفاعة التي هي شفاعة إجراء الحساب. وفي الحديث الصحيح أن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ذكر أن الناس إذا طال بهم المقام يوم القيامة يأتون إلى آدم ويقولون: «يا آدم أنت أبو البشر، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما بنا؟ اشفع لنا عند ربك»، يعني حتى يُجرى الحساب، لطول المقام وشدة الضنك الذي يعيشه الناس يوم القيامة -نسأل الله أن يلطف بنا وبإخواننا-.

«فيقول: إنني قد أكلت من شجرة نُهيت عن الأكل منها، اذهبوا إلى نبي الله نوح، فيأتون إلى نوح، فيقول: إنني دعوت على قومي دعوة لم تكن لي، اذهبوا إلى نبي الله إبراهيم، فيقول: إنني كذبت ثلاث كذبات». قال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في حديثٍ آخر: «ما كذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات، كلها في ذات الله»، يعني أنه سماها كذبًا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من باب خفض النفس والتواضع لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وإلا في الحقيقة ليست كذبًا. لأن الأولى لما قال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾[الصافات:٨٩] ولم يكن سقيمًا بدنٍ، وإنما كان سقيم القلب لما كان عليه قومه من عبادة الأصنام.

ولما قال للكافر عن زوجته سارة: "هذه أختي"، وإنما أراد بذلك أخته في الدين؛ لأنه قال في ذات الحديث كما قال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «إنه ليس على ظهر الأرض على الدين غيري وغيرك».

والثالثة لما قال: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾[الأنبياء:٦٣]، إنما أراد بذلك أن يحرِّك عقولهم الجامدة وفِطَرهم، ولهذا قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾[الأنبياء:٦٥].

فالمقصود: أن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يعتذر عن الشفاعة بمثل هذا، «اذهبوا إلى نبي الله موسى، فيقول موسى: إنني قد قتلت نفسًا لم أومر بقتلها»، وهذا أيضًا من خفض النفس؛ لأن ما وقع من موسى من قتل الرجل إنما كان قبل النبوة، وبإجماع المسلمين والموحِّدين من كل مِلَّة أن الإسلام يجبُّ ما قبله، وأن التوبة تجبُّ ما قبلها، كذلك النبوة تجبُّ ما قبلها، لكن من باب خفض النفس ذكر ما وقع منه من قتل الرجل.

«اذهبوا إلى نبي الله عيسى، فيذهبون إلى عيسى فيقول عيسى: اذهبوا إلى نبي الله محمد، رجل غُفِر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ولم يذكر ذنبًا» -يعني أن عيسى لا يذكر ذنبًا-. ثم إذا جاءوا إلى النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يقول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «أنا لها»، فيسجد تحت العرش؛ قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «فأخر تحت العرش، فيَدَعني الله ما شاء أن يدعني، ثم يفتح عليَّ بمحامد لا

أعلمها الآن، فيقال: يا محمد، ارفع رأسك، وقل يُسمع، واشفع تشفع».

فهذه الشفاعة التي هي المقام المحمود يطال أثرها كل من كان في الموقف من المسلمين وغير المسلمين، من الجن والإنس؛ لكن لا يعني ذلك أنها إذا طالت الكافر يخفف عنه الموقف بعد ذلك، وإنما ما وراء ذلك أشد من ذلك -والعياذ بالله-، لكن المقصود بذلك يطال أثرها الكافر، ولهذا ما قلنا "يطال نفعها الكافر" وإنما "يطال أثرها"، أما المؤمن فيطاله نفعها؛ لأن ما وراءه خيرٌ من مقامه يوم القيامة.

فهاتان الشفاعتان تنالان الكافر: شفاعة النبي لأبي طالب، وشفاعته ﷺ في إجراء الحساب يوم القيامة.

والشفاعة الخاصة للنبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ -الثالثة-: شفاعته ﷺ في استفتاح باب الجنة؛ فأول من يدخل الجنة هو ﷺ، ثم فقراء المهاجرين، ثم هذه الأمة، ثم الأمم بعد ذلك.

فهذا فيما يتعلق بأنواع الشافعين، وسيِّدهم ﷺ نبينا محمد.

والركن الرابع: الشفاعة ذاتها -أو نوع الشفاعة التي يُنتفع بها-، وهذه:

إما أن تكون شفاعة لإجراء الحساب.

وإما أن تكون شفاعة في تخفيف العذاب.

وإما أن تكون شفاعة في دخول الجنة. وهذه الثلاثة للنبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

وإما أن تكون شفاعة في الخروج من النار إلى الجنة لعصاة الموحّدين.

وإما أن تكون شفاعة فيمن استوجبوا دخول النار فتُدركهم الشفاعة قبل دخول النار من عصاة الموحدين.

وإما أن تكون الشفاعة لمن دخل الجنة في أن يُرفع منزلة في الجنة لا توازي أعمالهم، وإنما يشفع فيهم إخوانهم أو الأنبياء والمرسلون؛ فيُرفع لأجل الشفاعة.

وإما أن تكون شفاعة في تخفيف العذاب عن عصاة الموحدين في النار، لكن لا يخرجون

حتى يُقضى ما عليهم مما كتب الله به قضاءهم.

والركن الخامس في الشفاعة -وهذا مهم وهو الذي أغلق به أهل السنة والجماعة الانحراف على الصوفية والقبورية وأضرابهم-: وهو "زمن الشفاعة".

كل هذا إنما يكون يوم القيامة؛ بمعنى أن هذا كله لا يُطلب في الدنيا من أحد ألبتة، ولا يقع في الدنيا أبداً، ولا يُقطع فيه لأحدٍ من الناس في الدنيا إلا ما جاء في كلام الله وكلام رسوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

فزمن الشفاعة هو الذي يأذن الله ﷻ فيه للشافعين بأن يشفعوا، وينال المشفوع له ما يناله من رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ إما بانقطاع العذاب أو تخفيفه، أو دخول الجنة أو رفع الدرجة، أو السوق من طريق النار إلى طريق الجنة. نسأل الله أن يجعلنا وإياكم من أهل الجنة.

فصارت الأركان خمسة: المشفوع عنده -وهو الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ-، والشافعون، والمشفوع لهم، وأنواع الشفاعة، وزمن الشفاعة.

قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: (﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾[البقرة:٢٥٥]).

يعني لا يشفع أحدٌ عند الله ﷻ إلا إذا أذن الله ﷻ له بأن يشفع. إذا كان ذلك لا يقع للنبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إلا بعد أن يأذن الله له، فمن دونه من باب أولى -إذا كان النبي ﷺ لا يشفع حتى يقال له: «يا محمد، ارفع رأسك، وقُل يسمع، واشفع تشفع» فغيره من باب أولى-.

(قَالَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾[النجم:٢٦]). فمن دون الملائكة من باب أولى.

(وقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ﴾) يعني ادعوا أصنامكم أو كل ما عُبد من دون الله؛ سواء كان الذي عُبد من دون الله صنماً، أو جدثاً ميّتاً، أو شجراً، أو شمساً، أو جناً أو غير ذلك، كل ما دُعي من دون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نفى الله ﷻ عنه أن يكون له مثقال ذرة في السماوات والأرض؛ نفى الله ﷻ عنه الملك، ونفى الله ﷻ عنه الشِّرْكة، ونفى

الله ﷻ عنه أن يكون ظهيراً لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وهو القوي المتين سبحانه وبحمده.

ولهذا قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذه الآية: «إنها قطعت عروق شجرة الشرك من القلب».

لأن الشرك في القلوب له عروق؛ إما عرق يتعلق بتوحيد الربوبية -انحراف في توحيد الربوبية-، أو عِرقٌ يتعلق بتوحيد الألوهية. فالذين جعلوا مع الله ﷻ شريكًا في الملك انحرفوا في توحيد الربوبية، وكذلك الذين زعموا أن مع الله ﷻ ظهيرٌ معينٌ له سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في تدبير ملكوت السماوات والأرض؛ انحرفوا في توحيد الربوبية، وكذلك الذين زعموا أن غير الله ﷻ تجري شفاعته ويرحم ويغفر ويُدخِل الجنة مع الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ انحرفوا في توحيد الربوبية، ثم انحرفوا في توحيد الألوهية لما سألوا الشفاعة ممن لا يملكها.

ولهذا هذه الآية قطعت عروق الشرك من حيث أن الله ﷻ ما ذكر في آخرها إلا الشفاعة، ثم ذكر سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أن الشفاعة له وإليه؛ أن الشفاعة له سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ملكًا، وإليه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عطاءً؛ يعطيها من يشاء ويمنعها من يشاء. قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: (﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا﴾) يعني وما لهؤلاء الذين تدعون من دون الله، (﴿مِنْ شِرْكٍ﴾) مع الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، (﴿وَمَا لَهُ﴾) يعني وما لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وهو القويُّ المتين العزيز سبحانه وبحمده، (﴿مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾[سبأ:٢٣])، والله ﷻ هو الذي تفرَّد بالخلق، وهو الذي تفرد بالتدبير؛ بل كل ما سوى الله فقيرٌ ومحتاجٌ ومفتقرٌ إليه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وهو الغني الحميد.

ولهذا ما ثم في الملكوت إلا خالقٌ ومخلوق؛ والله هو الخالق سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وكل من عداه مخلوق. عابدٌ ومعبود؛ والله ﷻ هو المعبود وكل ما سواه عابدٌ له. غني وفقير؛ والله ﷻ هو الغني الحميد وكل من عداه مفتقرٌ محتاجٌ إليه.

قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: (﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾[سبأ:٢٤]).

ثم قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**قال أَبُو الْعَبَّاسِ: «نَفَى اللهُ عَمَّا سِوَاهُ كُلَّ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ الْمُشْرِكُونَ»**).

وهذا -من باب ربط بعض المسائل بما تقدم- دلل به بعض أهل العلم على أن المشركين بعضهم يُقِرُّ بالبعث بعد الموت، لكن لا يعني ذلك أن الإقرار بالبعث يقتضي إقرارهم بالجنة أو النار. نحن قلنا إن المشركين في البعث بعد الموت على ثلاثة أنحاء:

منهم من يُنكر البعث بعد الموت وهم أكثرهم؛ قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا﴾[التغابن:٧]، وهؤلاء أكثر المشركين.

ومنهم من يشكُّ في ذلك: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾[الجاثية:٣٢].

والصنف الثالث: الذين يُقِرُّون بالبعث بعد الموت، وهؤلاء أخذوها من أثارةٍ ممن كان مجاوراً لهم من أهل الكتاب.

فمنهم من كان يقر بالبعث بعد الموت، وذكرنا شاهداً في بعض قصائدهم في معلقة زهير بن أبي سلمى -وهو مات قبل الإسلام بقرابة أربعين سنة، وإن كان ابناه صحابيين بجير وكعب لكنه هو مات في الجاهلية- وفي معلقته:

فلا تكتمنّ الله ما في صدوركم ليخفى، ومهما يكتم الله يَعلَمِ

إلى أن قال:

يُؤخرْ فيُوضعْ في كتابٍ فيُدَّخرْ ليومِ معادٍ أو يُعجلْ فيُنقمِ

يعني من أساء سوءة أو فعل ذنبًا؛ إما أن يُحصى عليه ويحاسب يوم القيامة، أو أن تُعجَّل له العقوبة في الدنيا، معنى ذلك أن بعضهم يُقِرُّ بالبعث.

ممن يُقِرُّ بالبعث الذين قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَىٰ﴾[الزمر:٣]؛ من حيث أنهم يزعمون أنها نافعة لهم يوم القيامة. ولهذا كذَّبهم الله ﷻ في زعمهم وظنهم لما قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾[المدثر:٤٨]. وفي قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللهِ ۖ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[لقمان:١٣]. يعني الظلم الأكبر المخرج من الإسلام، دليله

قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[البقرة:٢٥٤]، ودليله قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فيما يتعلق بالشفاعة: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ﴾ -يعني الظلم الأكبر- ﴿مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾[غافر:١٨].

هذا على القول -يا إخواني- بأنهم أرادوا بذلك زلفى الله، وإلا في قولٍ لبعض المفسرين أنهم أرادوا بذلك أن تكون لهم الأصنام مقرِّبة عند الله ﷻ ورافعة لحاجاتهم فيما يتعلق بحاجات الدنيا لا حاجات الآخرة؛ حاجات الدنيا من حفظ الغائب ورد المكروه وجلب الخير وغير ذلك. وهي على كل حال من عادة المشركين التعلُّق بغير الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

قال شيخ الإسلام أبو العباس ابن تيمية -تقي الدين بن شهاب الدين بن مجد الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن الخضر بن أبي القاسم بن تيمية، الحراني النميري-: («نَفَى اللهُ عَمَّا سِوَاهُ كُلَّ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ الْمُشْرِكُونَ -فَنَفَى أَنْ يَكُونَ لِغَيْرِهِ مُلْكٌ، أَوْ قِسْطٌ مِنْهُ») يعني شيء من الملك؛ لأن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قال: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾، إذا كانوا لا يملكون مثقال ذرة، معنى ذلك أنهم لا يملكون شيئًا، (أَوْ يَكُونَ عَوْنًا لله- وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الشَّفَاعَةُ، فَبَيَّنَ أَنَّهَا لَا تَنْفَعُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّبُّ، كَمَا قَالَ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾[الأنبياء:٢٨]).

قال الشيخ ابن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فَهَذِهِ الشَّفَاعَةُ الَّتِي يَظُنُّهَا الْمُشْرِكُونَ، هِيَ مُنْتَفِيَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) يعني غير واقعة يوم القيامة؛ وإنما يتعلقون بالظنون: ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾[النجم:٢٨]، (كَمَا نَفَاهَا الْقُرْآنُ.

وَأَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ: أَنَّهُ يَأْتِي فَيَسْجُدُ لِرَبِّهِ وَيَحْمَدُهُ، لَا يَبْدَأُ بِالشَّفَاعَةِ أَوَّلًا). وهذا من أدبه ﷺ مع الرب ﷻ، وهذا الأدب أدبٌ نبوي.

ولهذا مما لا ينبغي أن يُغفل عنه -أن الإنسان في حياته كلها محتاجٌ إلى الله ومفتقرٌ إليه، في خير الدنيا وخير الآخرة، في رغبه ورهبه؛ سواء كان رغب الدنيا أو رغب الآخرة، وفي رهبه كذلك؛ رهب الدنيا يعني ما يخافه في الدنيا وما يخافه في الآخرة-: أن يقدم بين يدي دعائه

ثناءه على الله ﷻ وإجلاله له، والله ﷻ يحب الحمد في غير الحاجة؛ فكيف إذا كنت مفتقراً وترجو من الله ﷻ نفعـاً أو دفع ضُرّ؟

ولهذا لما سمع النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ رجلاً دعا ولم يحمد الله ولـم يصلِّ على نبيه، قـال: «عجِلَ هذا، إذا أراد أحدكم أن يدعو أو أن يسأل ربه فليبدأ بحمد الله ﷻ والثناء عليه، ثـم ليصلِّ على النبي ﷺ، ثـم ليسأل بعدُ ما شاء»، وهذا هـو الـذي فعله النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ سجد لله سجود الخضوع والتواضع والعبودية لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأثنى على الله ﷻ، وفتح عليه الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ محامده؛ لأن الله ﷻ يحب الحمد، كما جاء في الحديث الصحيح حديث الأسود بن سريع عن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «أما إن ربك يحب المدح»، وفي لفظٍ آخر: «إن الله ﷻ يحب الحمد ولذلك حمِد نفسه» والحديث في البخاري، حديث الأسود بن سريع عند أحمد: جاء شاعرٌ من اليمن وقال: يا رسول الله، إنني قد كتبتُ قصيدة مدحتُ بها ربي -أو قال أثنيتُ بها على ربي- قال: «هاتِ، فإن ربك يحب الحمد»، وفي لفظ: «فإن ربك يحب المدح».

ولهذا يا إخواني أنا أوصي -وأنا أكثركم تقصيراً- أن يجعل الإنسان له ورداً يتعلق بمحامد الله ﷻ وإجلاله وتقديسه وتعظيمه؛ لأن الله يحب ذلك. وِرْداً بينك وبين الله، لا تشرِّعه للناس ولا تقل هذا بعشر مرات وهذا بعشرين مرة؛ ذِكرٌ بينك وبين الله ﷻ، احمد الله ﷻ بجمع الآيات التي حمِد بها نفسه، بالدعاء الذي ثبت عن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أنه حمد ربه فيه: «اللهم لك الحمد أنت قيوم السماوات والأرض ومن فيهن ولك الحمد، أنت ملك السماوات والأرض ومن فيهن ولك الحمد، أنت رب السماوات والأرض ومن فيهن ولك الحمد...»، الدعاء الآخر: «اللهم لك الحمد كله، وبيدك الخير كله، وإليك يُرجع الأمر كله...» إلى غير ذلك من المحامد الثابتة عن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

هذا يا إخواني يرقِّق القلب، لكن بحضور قلب؛ احمد الله ﷻ وقلبك حاضر كأنك تناجي الله، وأنا أحب لإخواني ما أحبُّه لنفسي -وأنا أكثركم تقصيراً-، لا يحرِّك القلب في الدعاء إلا

إذا استشعرت أنك تناجي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لا تنظر إلى الساعة، لا تجلس وقلبك متعلق بمشوار، لا تجلس وأنت تقلِّب الجوال، لا تجلس وأنت مشغل نفسك بشيء من أمور الدنيا، اجلس وأثنِ على الله عَزَّوَجَلَّ وأنت تناجي ربك سبحانه وبحمده.

والله عَزَّوَجَلَّ يفتح مغاليق القلوب بمحامد، يخصُّ به الله عَزَّوَجَلَّ من يشاء من عباده، لا يحمد الله عَزَّوَجَلَّ أحدٌ حمداً إلا والله عَزَّوَجَلَّ مستحقٌ أكثر منه.

هنا يا إخواني لا يقال أن في حمد الله عَزَّوَجَلَّ غلواً؛ لأن الإنسان مهما حمِد الله عَزَّوَجَلَّ لم يقْدُر الله حق قدْرِه، لكن يتحرى ما جاء في الكتاب والسنة من محامد وما ثبت عن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[الفاتحة:٢]. ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ۖ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾[الأنعام:١]، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾[الأعراف:٤٣]، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾[سبأ:١]، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[فاطر:١]، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾[الكهف:١]، ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ﴾[الإسراء:١١١]، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[النمل:١٥]، ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾[النمل:٥٩]، ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[الصافات: الآيات ١٨٠-١٨٢].

والآيات لو استطردنا في هذا ستجد آيات كثيرة في كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ إما أن تكون حمداً، وإما أن تكون تعظيماً وتقديساً، وإما أن تكون من هذا الباب -الثناء على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ-.

ونسأل الله ﷻ أن يعفو عن تقصيرنا، وأن يعاملنا بلطفه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وإلا فنحن مقصرون؛ مهما بلغ الإنسان من حمده لربه هو مقصِّر، لأن نِعم الله ﷻ لا تُحصى، ومع ذلك لو حمِدْت الله ﷻ بما تظن أنه مكافئ للنِّعم، لصار حمدك فيه تقصير لأنك لا تحصي نِعم الله، فمن باب أولى لا تحصي محامده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وقال له أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟**) يعني من أسعد الناس حظًا بشفاعتك يا رسول الله يوم القيامة؟

(**قَالَ: مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ**)، هنا اجتمع شرطان؛ الشرط الأول: الشهادة باللسان، والشرط الثاني: أن يكون صادقًا من قلبه. وإذا كان صادقًا من قلبه لابد أن يأتي بالعمل الذي يصحِّح الشهادة في الآخرة.

فلابد أن يُعلَم هنا أن أسعد الناس بشفاعة النبي ﷺ يوم القيامة من تواطأ قوله وفعله مع عمل قلبه؛ قوله "لا إله إلا الله"، وفعله ما توجبه "لا إله إلا الله" من الأعمال، وقلبه أن يقولها صادقًا من قلبه؛ لأن كثيراً من الناس يقولون: "لا إله إلا الله"، لكن قد يقولونها بغير صدق، وهذا يقع؛ فالمنافقون كانوا يقولون في زمن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ولكن قلوبهم كافرة.

(**قَالَ ﷺ: «مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ»**.

فَتِلْكَ الشَّفَاعَةُ لِأَهْلِ الْإِخْلَاصِ -بِإِذْنِ اللهِ-، وَلَا تَكُونُ لِمَنْ أَشْرَكَ بِاللهِ)، وأهل الشرك لا يعرفون الإخلاص ولا يفهمون الإخلاص؛ الإخلاص مما خصَّ الله ﷻ به أنبياءه وأتباع أنبيائه. وما من عمل يُرجى الثواب عليه يوم القيامة إلا وهو مسبوقٌ بالإخلاص، ومصاحبٌ له، ومختتمٌ به.

مسبوقٌ بالإخلاص من حيث أنه نواه قبل أن يفعله لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأن يكون مستصحبًا للعمل بمعنى أنه لا يطرأ عليه الرياء في أثنائه، وأن يكون مختتمًا به بمعنى أن قلبه يتعلَّق بالله ﷻ رجاءً أن يقبل الله عمله، ولا يتكبَّر به ولا يُعجب به، وإنما يخفض نفسه ويرى أنه مقصِّرٌ

في حق ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال الإمام المجدد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وَحَقِيقَتُهُ: أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ هُوَ الَّذِي يَتَفَضَّلُ عَلَى أَهْلِ الْإِخْلَاصِ، فَيَغْفِرُ لَهُمْ بِوَاسِطَةِ دُعَاءِ مَنْ أَذِنَ لَهُ أَنْ يَشْفَعَ، لِيُكْرِمَهُ، وَيَنَالَ الْمَقَامَ الْمَحْمُودَ.**

فَالشَّفَاعَةُ الَّتِي نَفَاهَا الْقُرْآنُ)، يعني نفاها الله ﷻ في كتابه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ (**مَا كَانَ فِيهَا شِرْكٌ، وَلِهَذَا أَثْبَتَ الشَّفَاعَةَ بِإِذْنِهِ فِي مَوَاضِعَ**)؛ ولهذا قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَّا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾[مريم:٨٧]؛ والعهد هو التوحيد. ﴿اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ بمعنى أن الله ﷻ وعدهم أن يُجري الشفاعة لهم لأنهم جاءوا بالتوحيد الخالص من الشرك.

يبقى هنا مسألة: هل يجوز للإنسان أن يطلب الشفاعة في الدنيا ممن هو من أهل التوحيد في الآخرة؟ وهذه مسألة إنما تُذكَر في التبع لأنها قد تُفهم على غير وجهها. فمن الناس من يقول إنه يجوز لي أن أقول للرجل الصالح من إخواني الذي أُحسِن الظن به: "اشفع لي يوم القيامة"؛ هل يجوز هذا أو لا يجوز؟

جاء في الترمذي أن أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال للنبي ﷺ: يا رسول الله، اشفع لي يوم القيامة، فقال له النبي ﷺ: «**إني فاعل**». ثم قال: يا رسول الله، أين أطلبك يوم القيامة؟ قال: «**اطلبني عند الصراط أول ما تطلبني**»، قال: فإن لم أجدك؟ قال: «**اطلبني عند الميزان**»، قال: فإن لم أجدك؟ قال: «**اطلبني عند الحوض، فإني لا أخطئ هذه الثلاثة مواطن**» رواه الترمذي بسندٍ جيّد.

فقول أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ للنبي ﷺ: "اشفع لي يوم القيامة" هذا خاصٌ بالنبي ﷺ؛ لأن النبي ﷺ مقطوعٌ بأنه سيِّد الأولين والآخرين، وأن النبي ﷺ له المقام المحمود، وأن الله ﷻ وعد نبيه ﷺ بأن شفاعته جارية يوم القيامة: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾[الإسراء:٧٩].

ومن دونه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ليس في منزلته؛ ولهذا الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ مُطبقون على أن أفضل الناس بعد النبي ﷺ هو أبو بكر الصدِّيق، فهل أحدٌ منهم ذهب إلى أبي بكر الصديق وقال:

"يا أبا بكر الصديق اشفع لي يوم القيامة؟"؛ ولهذا لا تُطلب الشفاعة إلا من الله. ولما قلنا إن الركن الخامس في أركان الشفاعة يُغلق هذا الباب؛ لأن بعض الذين انحرفوا في باب الشفاعة جوّزوا طلب الشفاعة في الآخرة ممن هو حيٌّ من الموحدين في الدنيا، وهذا خطأ؛ لأنهم نزَّلوا غير النبي منزلة النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

وخطأٌ لأن هذا الفهم ما فهمه أهل الإسلام -لا الصحابة ولا من بعدهم-.

وخطأ لأن هذا يفتح الباب للغُلاة في الصالحين أو ممن يزعمون أنهم صالحون، وربما يفتح الباب حتى لغير الشفاعة، كأن يطلب المسامحة من الميت؛ مات له قريبٌ وبينه وبينه مظلمة فيقول له: "يا فلان سامحني"، هل يجوز مخاطبة الميت؟ قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾[فاطر:٢٢]، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[المؤمنون:١٠٠].

الذي في قبره لا يريدك لا أنت ولا غيرك، مشغولٌ بحاله؛ إما في روضة أو في أمرٍ آخر. ناهيك عن أن هذا يفتح باب سؤال الموتى من دون الله.

ولهذا هذا الحديث الذي ثبت عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ إنما وقع من أنس خاصة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وأقرَّه النبي على ذلك -لا شك في هذا-، لكنه خاصٌ بالنبي ﷺ بدلالة فهم الصحابة وفهم التابعين وأتباع التابعين، ولم ينحرف أحدٌ في هذا إلا وعنده انحرافٌ في توحيد الألوهية أو انحرافٌ في تعظيم الأولياء والقبور والأجداث وغيرهم.

ولهذا فُتِح الباب عند بعض الناس حتى صاروا يطلبون المسامحة والعفو ممن مات وإلى غير ذلك.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بَابٌ وَقَوْلِ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾[القصص:٥٦].

وَفِي الصَّحِيحِ: عَنِ ابْنِ الْمُسَيَّبِ، عَنْ أَبِيهِ قال: لـمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ؛ جَاءَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَعِنْدَهُ عَبْدُ اللهِ بنُ أَبِي أُمَيَّةَ وَأَبُو جَهْلٍ، فقال لَهُ: «يا عَمُّ! قُلْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ».

فَقَالا له: أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟! فَأَعَادَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَأَعَادَا، فَكَانَ آخِرَ مَا قَالَ: هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَأَبَى أَنْ يَقُولَ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ.

فقال النَّبِيُّ ﷺ: «لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ»؛ فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿مَا كَانَ للنبي والَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى﴾، وأَنْزَلَ اللهُ فِي أَبِي طَالِبٍ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾[القصص:٥٦].



قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللّه:

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (بَابٌ وَقَوْلِ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[القصص:٥٦]).

هذه الآية نزلت في أبي طالب لما كان النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يقول لأبي طالب عمه: «يا عم، قل كلمة أحاج لك بها عند الله»، وهذا "الاحتجاج" ذكره الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد ذلك وهو في الصحيح.

قال الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَفِي الصَّحِيحِ: عَنِ ابْنِ الْمُسَيَّبِ) وهو سعيد بن المسيب بن حزن، والمسيب بن حزن وحزن أبوه كلاهما صحابة، وسعيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ من التابعين.

(عَنْ أَبِيهِ قال: لـمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ؛ جَاءَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَعِنْدَهُ عَبْدُ اللهِ بنُ أَبِي أُمَيَّةَ وَأَبُو جَهْلٍ، فقال لَهُ: «يا عَمُّ! قُلْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ»)، يعني أنه إذا

قال "لا إله إلا الله" ومات بعدها صار له حظٌ من شفاعة النبي ﷺ، هذا لا يعني -كما يفهم بعض المرجئة- أن كلمة "لا إله إلا الله" تُسقِط ما عداها من الأعمال؛ وإنما قصد النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنه إذا قال هذه الكلمة -وهو في سياق الموت- ومات بعدها فهي نافعةٌ له يوم القيامة، لكن لا يعني ذلك أنه لو بقي حيـًا بعد "لا إله إلا الله" ولا صلى ولا صام ولا فعل شيئـًا من ذلك أنها نافعته، هذا قول المرجئة.

ولهذا هناك فرقٌ ما بين إمرار أحاديث الوعد وإمرار أحاديث الوعيد، وفرْقٌ ما بين قول النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**قولوا "لا إله إلا الله" تفلحوا**»، وبين قوله ﷺ: «**بُني الإسلام على خمس**».

فالمرجئة يأخذون ببعض الأحاديث ويعمون عن بعضها، والصواب في ذلك أن "لا إله إلا الله" تستوجب أركان الإسلام وأركان الإيمان.

قال النبي ﷺ: («**كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ**»، **فَقَالَا له**) -يعني عبد الله بن أبي أمية وأبو جهل-، ومما يُذكر في هذا المقام أن المسيَّب بن حزن، وعبد الله بن أبي أمية، وعمرو بن هشام -الذي هو أبو جهل- كلهم من بني مخزوم، ولم يكن عنده من بني هاشم إلا ابن أخيه ﷺ، فالذين كانوا محيطين به كلهم من بني مخزوم، وكلهم أسلموا إلا أبو جهل؛ فوالد المسيب أسلم وهو من بني مخزوم، وعبد الله بن أبي أمية هو أخو أم سلمة زوجة النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، أسلم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وأرضاه، لكن الذي مات كافراً -قُتل في بدر كافراً- أبو جهل عمرو بن هشام.

(**فَقَالَا له: أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟!**). وبما أن مِلَّة مخزوم هي مِلَّة عبد المطلب، فلماذا ذكَّروه بعبد المطلب؟ حتى يكون ذلك أثبت له على مِلَّة مخزوم وعبد المطلب وغيره -على مِلَّة أهل الكفر-.

فذكَّروه بذلك حتى يستثبتاه على الشرك ومات على ذلك. وهذا يدلُّ على أن رفيق السوء

لا يأتي من ورائه إلا السوء.

(فَأَعَادَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَأَعَادَا، فَكَانَ آخِرَ مَا قَال: هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَأَبَى أَنْ يَقُولَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ.

فقال النَّبِيُّ ﷺ: «لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ»)، ونهى الله ﷻ نبيه عن ذلك؛ نهاه الله ﷻ عما أُنزل في هذا الحديث وفي غيره.

نهاه الله ﷻ عن الاستغفار لأبي طالب بقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٣) وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾[التوبة:١١٣-١١٤] في يوم القيامة.

كذلك نُهي النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عن أن يستغفر لغير أبي طالب ممن هم من أهل بيته، والحديث في صحيح مسلم عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ لأن الشرك والتوحيد بينهما مفاصلة في الدنيا ومفاصلةٌ في الآخرة؛ مفاصلةٌ في الدنيا بالولاء والبراء، ومفاصلةٌ في الآخرة كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾[الشورى:٧]، وقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾[المدثر:٤٨]. وأنزل الله في أبي طالب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[القصص:٥٦].

والذي أردت أن أقوله قبل قليل -لكنه لابد أن يؤخذ بنوعٍ من الأدب مع النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وأن يوضع الحديث موضعه ولا يُستفصل في ذلك-: جاء في صحيح مسلم عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كان في سفرٍ فعدل عن الطريق إلى قبر، فجلس عند رأسه على صدور قدميه وحرَّك رأسه كالذي يحدِّث أحداً، فعاد النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ والصحابة معه، فرأوا النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يبكي، فسألوه عن ذلك فقال: «هذا قبر آمنة بنت وهب -أمه ﷺ-، استأذنت ربي أن أزور قبرها فأذن لي، واستأذنت أن أستغفر لها فلم يأذن

لي» والحديث في صحيح مسلم.

هذا موافقٌ لما في قصة أبي طالب؛ لكن هذا الحديث يُذكر على ظاهره من غير أن يُستفصل في ذلك، نعم من كان قبل بعثته ﷺ على دين المشركين فهو من أهل النار لأنه مات على الشرك، كما قال النبي ﷺ في حديث آخر: «أبي وأباك في النار».

لكن هل معنى ذلك أن هذا يُطرح أمام العامة؟ لأن طرح هذا أمام العامة إنما يكون لداعٍ يدعو إليه، بمعنى أنه إنما يكون في محيط طلاب علم، أو إذا ورد الحديث، أو إذا جاءت مناسبة تتعلق به كما في قصة أبي طالب. لكن العامة لا يتقبلون مثل هذه الأحاديث، تنقبض قلوبهم من ذلك، ولا شك أن كلا الحديثين عن أنس: حديث «استأذنت أن أزور قبر أمي»، وحديث «أبي وأباك في النار» وكلاهما في صحيح مسلم.

لكن العامة ربما تنقبض قلوبهم من الحديث فيقع لهم فتنة بسببه؛ ولهذا الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لما قال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ما قال في آمنة، قال أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "فلم يُرَ أكثر باكيًا من ذلك اليوم". ذكروا آباءهم الذين ماتوا على الكفر، وذكروا ما فاتهم من الخير والفضل، ورأوا ما أدركوه من الفضل، ولهذا يُكتفى بأن يُذكر هذا الحديث الذكر العابر دون أن يُطرح أمام العامة؛ فـ"إنك لن تُحدِّث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة".

ولهذا لما طُرح هذا الكلام عند بعض المنحرفين في مثل هذه المسائل، تعصَّب لمخالفة هذا الحديث وهو في الصحيح، فتعصَّب في هذه المسألة حتى صحَّح حديثًا ضعيفًا جداً، بل من أهل العلم من قال إنه موضوع، وهو: "أن الله ﷻ بعث أبوي المصطفى ﷺ وآمنا به ثم ماتا بعد ذلك". والذي قال هذا واختار هذا القول ليس من أفراد الناس، بل هو جلال الدين السيوطي العالم المشهور رَحِمَهُ اللَّهُ وغفر له، حتى ألَّف كتابًا سماه "مسالك الحنفا في إسلام أبوي المصطفى".

ما الذي جرَّه إلى هذا البُعد ورد الأحاديث الصحيحة؟ أنها طُرِحت في غير وجهها

وصارت محلاً للحديث، لكن يُقَرّ الحديث ويقال: "هذا صحيحٌ ثابتٌ عن النبي ﷺ، والنبي لا ينطق عن الهوى، وأن هذا واقع"، لكن يُراعى في ذلك شأن العامة؛ فمدارك العقول تختلف، وأيضًا الناس اطلاعهم على الأحاديث وفهمهم للصورة واستيعابهم لها ليسوا على حدٍ سواء، فلا يُفتح عليهم باب فتنة.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ سَبَبَ كُفْرِ بَنِي آدَمَ وَتَرْكِهِمْ دِينَهُمْ هُوَ الْغُلُوُّ فِي الصَّالِحِينَ

وَقَوْلُ اللهِ ﷻ: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾[النساء:١٧١].

وَفِي الصَّحِيحِ: عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا فِي قَوْلِ اللهِ ﷻ: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾[نوح:٢٣]؛ قَالَ: هَذِهِ أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ أَنِ انْصُبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ فِيهَا أَنْصَابًا، وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ، فَفَعَلُوا، فَلَمْ تُعْبَدْ، حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَنُسِيَ الْعِلْمُ؛ عُبِدَتْ.

وَقَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ: «قال غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ: لَمَّا مَاتُوا؛ عَكَفُوا عَلَى قُبُورِهِم، ثُمَّ صَوَّرُوا تَمَاثِيلَهُم، ثُمَّ طَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ، فَعَبَدُوهُمْ».

وَعَنْ عُمَرَ بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قال: «لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، فَقُولُوا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ» أَخْرَجَاهُ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ الْغُلُوُّ» حديثٌ صحيحٌ.

وَلِمُسْلِمٍ: عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قال: «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ» قالها ثَلَاثًا.



قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

ثم قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ سَبَبَ كُفْرِ بَنِي آدَمَ وَتَرْكِهِمْ دِينَهُمْ هُوَ الْغُلُوُّ فِي الصَّالِحِينَ).

ذكر في هذا الباب قصة ود وسواع ويغوث ويعوق؛ قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أول الباب: (وَقَوْلُ اللهِ ﷻ: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ

﴾[النساء:١٧١]).

فحتى يتبين للإنسان أن الغلو شأنه خطير؛ لأن الغلو وإن كان مما تستقله النفوس وتستهين به، إلا أنه يوصل لما هو أبعد من ذلك، ففي حجَّة الوداع التقطوا للنبي ﷺ حصيات عند جمرة العقبة، وصفها الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ "فوق الحُمّصة ودون الزيتونة"، وقال: «**بمثل هؤلاء فارموا، وإياكم والغلو؛ فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم**».

يعني الغلو في مثل هذا ربما يوصل إلى درجة يستحلّ الإنسان الدم الحرام والمال الحرام والعِرض الحرام «**حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم**»، وهذا الذي ذكره الله ﷻ عن أهل الكتاب قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ**﴾[النساء:١٧١].

أهل الكتاب اليهود والنصارى، أليس كذلك؟ لأنه نزل فيهم التوراة والإنجيل، وكلاهما غلا؛ هؤلاء غلوا ففرَّطوا، وهؤلاء غلوا فأفرطوا. ففي عيسى غلوا فأفرطوا حتى جعلوه جزءاً من الله، أو هو الله، أو ابن الله. وهؤلاء غلوا ففرطوا -وهم اليهود- فسبوا عيسى وقتلوا الأنبياء؛ فصاروا على طرفي نقيض، وكلا طرفي قصد الأمور ذميم؛ هذا ذميمٌ وهذا ذميم، لأن هذا غلوٌ في الإفراط وهذا غلوٌ في التفريط.

ولهذا ذكرهم الله ﷻ مثالاً على الغلو؛ إما أن يغلوا في عيسى فيؤلِّهونه، أو أن يغلو اليهود في عزير فيجعلونه ابن الله -تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً-، حتى غلوا في أنفسهم وقالوا: ﴿**نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ**﴾[المائدة:١٨]، وحتى غلوا فيما شرع الله ﷻ لهم فشددوا على أنفسهم فشدد الله ﷻ عليهم بالآصار التي وضعها الله ﷻ عن هذه الأمة.

قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: (**وَفِي الصَّحِيْحِ: عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي قَوْلِ اللهِ ﷻ: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾**[نوح:٢٣]). ود وسواع ويغوث

ويعوق ونسر كانوا أناساً صالحين من قوم نوح، فلما ماتوا جاء الشيطان فزيَّن لمن في وقتهم أن يصنعوا لهم تماثيل؛ لا ليعبدوهم وإنما لينظروا إلى تماثيلهم فيذكروا عبادتهم فينشطوا لذلك. وهذه من الحيل الشيطانية -هذه من خطوات الشيطان-، فما كان صنع التمثال لهم في أول الأمر لعبادتهم من دون الله، وإنما كان قصده في ذلك أن ينشطوا للعبادة -مثل ما يسميها الناس الآن ذكريات-.

ولهذا لما حرَّم أهل العلم التصوير، حرَّموه لئلا تُتخذ ذكريات؛ الذكريات إذا كانت صالحة فاحشرها في دعائك للموتى، أما أن تكون تماثيل فهذا هو سبب الشرك. فلما مات ذلك الجيل جاء الشيطان، ولهذا قال ابن عباس -في بعض ألفاظ الحديث-: «فلما هلك أولئك ونُسي العلم جاء الشيطان إلى الذين بعدهم وقال: إن آباءكم إنما كانوا يستنصرون بهم فيُنصرون، ويستسقون بهم فيُسقون أو يستغيثون بهم فيُغاثون -يستغيثون بهم إذا أجدبت الأرض ويستنصرون بهم إذا خافوا عدواً-؛ فعُبدوهم من دون الله ووقع الشرك بعد ذلك في بني آدم».

وقبل ذلك ما كان هناك شرك، نعم كانت هناك ذنوب كالكيد والقتل كما وقع بين ابني آدم، لكن ما كان قبل نوح إنما كانت ذنوب ولم يكن هناك شرك، وهذا ظاهرٌ في قول ابن عباس موقوفاً -ويروى مرفوعاً للنبي ﷺ-: «**بين آدم ونوح عشرة قرون، كلهم على التوحيد**»، وهذا رواه البخاري عن ابن عباس.

وجاء ذلك في كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾[البقرة:٢١٣] يعني على مِلَّةٍ واحدة؛ لأن "أُمَّة" تأتي في كتاب الله بمعنى الدين، وبمعنى الجماعة من الناس، وبمعنى القدوة، وبمعنى المدة الزمنية. كما قال تعالى: ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ يعني وقت، ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ يعني قدوة، ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ يعني جماعة. فقوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ يعني على مِلَّةٍ واحدة ما بين آدم وما بين نوح، ثم لما وقع الشرك بعث الله

ﷻ النبيين مبشرين ومنذرين.

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قَالَ ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: هَذِهِ أَسَمَاءُ رِجَالٍ صَالِحينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ أَنِ انْصُبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ فِيهَا أَنْصَابًا، وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ، فَفَعَلَوا، فَلَمْ تُعْبَدْ، حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُوْلئِكَ وَنُسِيَ الْعِلْمُ؛ عُبِدَتْ).

وفي رواية: "واستُنْسِخ العلم" يعني نُسي وجُهِلت الأحكام؛ وهذا بحد ذاته دليلٌ على أنه إذا كثُر الجهل قلَّ العلم، وأنه إذا كثُر العلم انحسر الجهل وفشا العلم في الناس وعرفوا الحلال والحرام، واحتاطوا لعقائدهم وما غشَّهم الناس بالبدعة والباطل والشرك.

لكن إذا قلَّ العلم –وقِلَّة العلم إما بقبض العلماء كما ثبت عن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، أو أن يكون الناس سعوا في الجهل وفي الباطل وفي الشرك حتى صاروا أنشط في الدعوة إليه من أهل الحق في دعوتهم للتوحيد.

(وَقَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ: «قال غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ: لَمَّا مَاتُوا؛ عَكَفُوا عَلَى قُبُورِهِم، ثُمَّ صَوَّرُوا تَمَاثيلَهُم، ثُمَّ طَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ، فَعَبَدُوهُمْ») يعني عبدوهم من دون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

(وَعَنْ عُمَرَ بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ») الإطراء هو المدح والمبالغة في ذلك؛ بمعنى أن يمدح الإنسان بما ليس فيه، أو يغلو فيه كما هو مدح النصارى لعيسى، وكما هو مدح المتصوفة لبعض الأولياء والصالحين في زمانهم، وكما هو مدح الرافضة للأئمة الاثني عشر.

فمدح الإنسان لأخيه –وإن كان يمدحه بما يعلم منه– لكنه يضر الممدوح، فالمدح بحد ذاته لا يحبذه الصالحون، لا فيما بينهم وبين إخوانهم، ولا فيما يتعلق بمن هم دونهم من أهل الدنيا، ولهذا سماه النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ "الذبح"، النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قَالَ: «إياكم والتمادح فإنه الذبح»، يعني يذبح الإنسان وأنت لا تشعر، بمعنى أنه يغتر في نفسه، أو أنه يتذكر كلامك له إذا جلس لوحده، أو يدخل عليه العُجب بنفسه؛ فتُفْسِده وأنت أردت خيراً –تفسده من

حيث لا تشعر-. وهذه هي سنة النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في كبح جماح المدح، لأن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كان يراعي ذلك في الصحابة.

والصحابة الذين مدحهم رب العزة سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -وهم خير الخلْق والخلقة بعد أنبيائه-، ومع ذلك لمَّا رأى النبي ﷺ صحابياً يمدح صحابياً قال: «ويلك! قطعت عنق صاحبك» قالها مراراً، و"ويلك" هذه لا تُقال إلا للزجر الشديد. ولهذا قال النبي ﷺ: «إذا رأيتم المداحين فاحثوا في وجوههم التراب». وهذا محمولٌ على الذي يمدح بالكذب، أو يمدح تزلُّفاً للدنيا، أو يمدح لحظ نفسه، أو يمدح ليدفع الأذى.

وإذا جمعت هذه الأحاديث بعضها إلى بعض، وجدت أن المدح في ذاته مذموم؛ والله ﷻ عاب المدح على الناس، كلنا نحفظ قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾[النساء:٤٩]، وفي الآية الثانية قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾[النجم:٣٢].

والإطراء إذا استرسل معه الإنسان لابد أن يقع فيما هو أبعد من ذلك، إن كان في ذاته مكروهاً، وقد يكون محرَّماً وابن آدم ضعيف يتخطفه الشيطان بالشُّبَه ويزيِّن له الشيء وهو لا يشعر، وأحياناً لا يتفطن أن الشيطان تلاعب به إلا بعد مدة؛ أحياناً يقع في قلبه بسبب وسوسة الشيطان أنه بلغ شأواً في طلب العلم أو في الصلاح، ثم يتبين له أن الشيطان تلاعب به.

(قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، فَقُولُوا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ») وأعظم ما يُمدح به الإنسان في الدنيا والآخرة أن يُقال إنه "عبدٌ لله"؛ لأن الله ﷻ وصف به نبيه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في أرفع المقامات:

في مقام الدعوة: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾[الجن:١٩].

في مقام الكفاية: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾[الزمر:٣٦].

في مقام الوحي: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾[النجم:١٠].

في مقام إنزال الكتاب: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾[الفرقان:١].

في مقام الإسراء: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾[الإسراء:١].

فوصفه الله بالعبودية في أرفع المقامات والنبي خليقٌ بذلك، ما وصفه الله ﷻ بالشجاعة وهو خليقٌ بذلك، ولا بالكريم وهو خليقٌ بذلك، ولا بالقوي وهو خليقٌ بذلك، ولا بالسمح الخلوق حسن السجايا وهو خليقٌ بذلك، وهو سيد الأولين والآخرين فيها، وإنما وصفه الله ﷻ بالعبودية والرسالة والنبوة؛ العبودية صلة بينه وبين الله ليس له فيها شريك، والرسالة استئمانٌ من الله ﷻ بالوحي.

ولهذا لما غلا بعض المنحرفين في الأولياء، جوَّزوا أن يُوصف الولي بصفاتٍ ما كان أهل السنة يصفون بها أئمتهم؛ فسموا من يزعمون أنهم أولياء "مجاذيب" وهو من جذبه الحق إليه حتى كشف عنه حُجُب الغيب، وسموهم "العارفين بالله"، والأقطاب، والأغواث، والأقتاد، والأبدال. فأطلقوا عليهم ألقاباً ما كان الصحابة يُطلقونها على أبي بكر وعمر، مع علمهم بأن أبا بكر وعمر أفضل الأمة بعد نبيها ﷺ.

فلما انحرفوا جوَّزوا أن يُطرى النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بكل مدحٍ ولو وصل إلى حد الكفر والعياذ بالله، إلا أن تقول إنه ابن الله. والبوصيري -صاحب البردة- يقول في بردته:

دع ما ادعته النصارى في نبيهم واحكم بما شئت مدحاً فيه

يعني: "لا تقل فيه كما قالت النصارى في عيسى إنه ابن الله، لكن ما سوى ذلك امدح بما تريد"، وهذا فهم منكوس مغلوط، لأن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال في آخر الحديث: «**إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله**».

وهنا فائدة: من علامات أهل الضلال والبدع أنهم إما أن يستدلون بحديثٍ ضعيف أو موضوع، أو بحديثٍ صحيح يأخذون بعضه ويتركون بعضه؛ وهذا مثالٌ على ذلك، أخذ أول

الحديث وجوّز أن يُمدح النبي بكل مدح وإن غلا فيه حتى يصل إلى الشرك الأكبر، إلا أن يكون محمدٌ ابنًا لله -تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً- وعمي عن آخر الحديث.

ويُراجع هنا كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله: "ما استدل مبطلٌ بدليل على باطله إلا كان في دليله ما يُرَدّ به عليه"؛ لأن الله لم ينزل القرآن والسنة لتكون حُجَّة على الحق وإنما حُجَّة للحق، فلا يكون كلام الله ﷻ دليلاً لصاحب الباطل، بل تجد في ذات الدليل الذي اختاره ما ينقض قوله، من ذلك هذا الحديث لما قَالَ: أنه يجوز أن يقول في النبي عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كذا، عمي عن آخر الحديث لما قَالَ النَّبِيُّ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**إنما أنا عبدٌ فقولوا عبد الله ورسوله**»، فأكبر مدحٍ يُمدح به النبي عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ما رضيه الله ﷻ لنبيه وما رضيه النبي لنفسه ﷺ.

ناهيك أن الصلاة على النبي عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في ذاتها مدحٌ واستجابةٌ لأمر الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَال: قال رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوُّ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ الْغُلُوُّ»**)، وهذا تقدم في حديث رمي الجمار.

(**وَلِمُسْلِمٍ: عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قال: «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ -قالها ثَلَاثًا»**). المتنطعون هم المتكلفون، ومن معاني التنطع "التفيهق"؛ وهو التشدق في الكلام والغلو فيه، أو التكلف في العبادة والوصف والمدح، والله ﷻ نهى نبيه عن ذلك كما قال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾[ص: ٨٦].

فالذين يغلون في الصالحين وفي الأولياء -على اعتبار أنهم أولياء- خالفوا أمر الله ﷻ لنبيه ﷺ، وأمر النبي ﷺ لأمته. أمر الله لنبيه لما نهاه عن التكلُّف في قوله: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾[ص:٨٦]، وأمْر النبي لأمته ﷺ لما قال عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «هلك المتنطعون» قالها ثلاثًا.

مع أن النبي ﷺ إذا كان يستحق المدح يراعي هذا الجانب؛ لأن الذي يمدح النبي

عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُخشى عليه أن يقع في محظورٍ يتعلق بالممدوح.

فقد يمدح رجلٌ النبي ﷺ والنبيُّ مستحقٌ لهذا المدح، ما غلا فيه بل قال حقًا، لكن لأن الذي مدح النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حديث عهدٍ بإسلام، ويخشى عليه النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن يقع فيما هو أبعد من ذلك مما لا يجوز، فينهاه النبي ﷺ عن ذلك، وإن كان قد قال هو في نفسه ﷺ ذلك، لكن لاختلاف حال القائل ينهى النبي عن ذلك.

نضرب مثالاً على ذلك: ما ورد في صحيح البخاري حين قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في بلال: «أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا» يقصد بلالاً. إذن هذا مدح، هل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ارتكب خطأً في هذا؟ لم يرتكب خطأً في هذا؛ باعتبار أن أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سيد الصحابة، وبلال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سيد السابقين إل الإسلام، فما قاله عمر حقًا.

وقد ثبت عن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنه قال: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة»؛ وفي بعض الألفاظ: «ولا فخر» يعني من باب هضم النفس والتواضع لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وإلا هو أعظم الفخر أن يُجري الله ﷻ على يديه الشفاعة للأولين والآخرين في "المقام المحمود"؛ فالله ﷻ سماه مقامًا لأنه فخر.

فإذا كان النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة» والحديث صحيح، فلماذا نهى النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الوفد الذين جاءوا إليه وقالوا: "يا رسول الله أنت سيدنا وابن سيدنا"؟ فقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «السيد الله، قولوا بقولكم أو ببعض قولكم، ولا يستجرينكم الشيطان».

نهاهم النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لأنهم كانوا حُدثاء عهدٍ بإسلام، فلم يعرفوا من الإسلام ما عرفه السابقون من المهاجرين والأنصار، فخشي عليهم ﷺ من الشيطان، بدلالة قوله: «قولوا بقولكم أو ببعض قولكم، ولا يستجرينكم الشيطان»، فقد يُمدح ﷺ بمدحٍ هو خليقٌ به، ومع ذلك ينهى عن ذلك مراعاةً لحال المادح، لا تكذيبًا له في مدحه وإنما مراعاةً لحاله.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بَابُ مَا جَاءَ مِنَ التَّغْلِيظِ فِيمَنْ عَبَدَ اللهَ عِنْدَ قَبْرِ رَجُلٍ صَالِحٍ؛ فَكَيْفَ إِذَا عَبَدَهُ؟!

وَفِي الصَّحِيحِ: عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنهَا: أَنَّ أُمَّ سَلَمَةَ ذَكَرَتْ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ كَنِيسَةً رَأَتْهَا بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ، وَمَا فِيهَا مِنَ الصُّوَرِ، فقال: «أُوْلئكَ إِذَا مَاتَ فيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ -أَوِ الْعَبْدُ الصَّالِحُ- بَنُوا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِداً، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ، أُوْلَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللهِ».

فهَؤُلَاءِ جمَعَوا بَيْنَ الْفِتْنَتَيْنِ: فِتْنَةِ الْقُبُورِ، وَفِتْنَةِ التَّمَاثِيلِ.



قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللّٰه:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه.

هذا استكمالٌ لدرس التعليق على كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد للإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى.

والكتاب كما هو معلوم ستة وستون بابًا، مضى منها قرابة العشرين بابًا، وهذا استكمالٌ لما بقي.

لكن قبل أن نبدأ في التعليق على الكتاب، لا بد أن يُعلم شأن التوحيد وأهميته، وأثره على قبول العبادة وردها، وأن التوحيد أول ما بعث الله ﷻ به النبيين، وأول ما دعا إليه النبيون، وأن قبول العمل وردَّه مبنيٌ في الكتاب والسنة على النظر إلى التوحيد؛ فإذا صلح التوحيد قُبِلَت العبادة، وإذا خالطه شيءٌ من الشرك أفسد ما سواه من العبادة.

مع قول النبي ﷺ: «**أول ما يُحاسب عليه العبد الصلاة، فإن صلحت صلح سائر عمله**»، إلا أن قبول الصلاة -ولو كانت صالحة وما بعدها من الأعمال صالحة أيضًا- فإن قبول ذلك كله مرتهنٌ بصحة التوحيد؛ لأن النبي ﷺ لما بعث معاذ بن جبل إلى اليمن قال: «**إنك تأتي**

قومًا أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه أن يوحِّدوا الله».

فدل على أن التوحيد أول ما يُنظر فيه من عمل العبد، ولأن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أخبر في واضح الكتاب العزيز أن من أشرك مع الله ﷻ غيره حبط عمله ولو كان عمله صالحًا، وهذه دعوة الأنبياء جميعًا: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[الأنعام:٨٨]، وقال لنبيه ﷺ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾[الزمر:٦٥].

فدل على أن الاهتمام بالتوحيد هو سنن الأنبياء والمرسلين، بل هو أمر رب العالمين؛ لما كان الله ﷻ أول ما أمر به عباده توحيده، وأن العبادة لا يُنظر فيها مهما كانت صالحة، ومهما خرج الإنسان من ماله قُربةً لله، ومهما عَمَر وقته بالطاعات، لا يُنظر فيها حتى يُنظر في حق الله -الذي هو التوحيد-. والتوحيد حق الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ كما قال الرب سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات:٥٦].

وتعلُّم الإنسان لمسائل التوحيد ليس شكًا فيما في قلبه من توحيد الله ﷻ، وإنما احتياطٌ وصيانةٌ للتوحيد، واحترازٌ للشُّبَه التي يثيرها المشركون؛ بمعنى أن الإنسان إذا تعلَّم التوحيد لا يخلو من فائدةٍ وزيادة علم، ويتعاهد في قلبه إما لأنه ربما يذْهلُ الإنسان عن بعض مسائل التوحيد الدقيقة، أو يجهل بعض الشُّبَه التي يُلبِّس بها المشركون وأشباههم على أهل التوحيد، أو لغير ذلك من الأسباب.

معاذ بن جبل -يا إخواني- أعلم الأمة بالحلال والحرام، ومع ذلك قال له النبي ﷺ: «يا معاذ، أتدري ما حق الله على العباد وما حق العباد على الله؟» معاذ يعرف ذلك، لكن السؤال إنما أراد به النبي ﷺ تعظيم شأن التوحيد، وأن يكون على البال دائمًا، وأن يحتاط الإنسان لصيانته.

فإذا كان الإنسان يحتاط لصحة بدنه، ويحتاط لسلامة طعامه من الآفات والأمراض والتلوُّث، ويحتاط لنفسه من الحر والبرد وغير ذلك، فأن يحتاط لتوحيده من باب أولى؛ لأن

كل ما سوى ذلك ضرره في الدنيا والدنيا تزول بأهلها، لكن التوحيد إذا خالطه شركٌ أكبر أفسد الدنيا والآخرة -والعياذ بالله-.

فالاحتياط له عملٌ بما أمر الله ﷻ به، وسيرٌ على سنن الأنبياء والمرسلين، ومنابذةٌ لطريق المشركين، وصيانةٌ للتوحيد وحمايةٌ له.

فلا يلبِّس أحدٌ على أحد بأن التوحيد عُرِف وأن الناس أهل توحيد، لا؛ الصحابة كانوا أهل توحيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُم، ومع ذلك كان النبي يخاطبهم خطاب المعظِّم لشأن التوحيد والآمر به ﷺ، والإنسان إذا أحب شيئًا -يا إخواني- أكثر من ذكره، لا يفتر عنه لسانه ولا قلبه والتعلُّق به، والله ﷻ يحبه عباده، ولهذا لا يفترون عن ذكر حقه سبحانه وبحمده الذي هو توحيده بالعبادة ظاهراً وباطنًا.

وكتاب التوحيد الذي ألَّفه الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ؛ ألَّفه لأجل هذا المعنى، نعم لما ألَّفه كانت بِدَع الشرك كثيرة في هذه البلاد، منهم من كان يتعلق بالموتى من دون الله، إما في بناء القباب على القبور كما كان مبنيًا على قبر زيد بن الخطاب وضرار بن الأزور قبابٌ، ويقصدها الجهال يتبركون بها وربما دعوها من دون الله، وإما أن تكون الشعوذة والشعبذة كثيرة في هذه البلاد قبل دعوة الشيخ، وإما لبدعٍ أخرى كبدع التبرُّك والتوسُّل وغير ذلك.

ودعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي بن مشرف التميمي -المولود ١١١١هـ، المتوفى ١٢٠٦هـ- إلى التوحيد رَحِمَهُ اللَّهُ دعوة محفوفةٌ بالخطر وأذى الناس، وعدم موافقتهم على ما يدعو إليه، ومع ذلك صبر على ذلك واحتسب الأجر في ذلك، وناله من الأذى الشيء الكثير، ناله أذى لما ذهب إلى العراق، وناله أذى لما ذهب إلى الحجاز -مكة والمدينة-، وضُرِب رَحِمَهُ اللَّهُ حتى أثقله الألم، وكان عازمًا أن يرحل إلى الشام ليأخذ من علماء المذهب الحنابلة، فعرض له لصوصٌ وأخذوا ماله وضربوه رَحِمَهُ اللَّهُ.

وحتى بعد ذلك، لما قام بالدعوة وناصره الإمام محمد بن سعود، طاله من الأذى الكثير؛ سواء من علماء الضلالة أو من العامة الذين يتأكّلون من وراء القباب والقبور وغير ذلك -أيْ يجدون من ورائها نفعًا-، ورأوا أنه يقطع عليهم الطريق ويذهب بالتوحيد سوقهم، فآذوه رَحِمَهُ ٱللَّهُ وكذبوا عليه.

وكانت دعوته رَحِمَهُ ٱللَّهُ هي دعوة العلماء قبله، فهو إمامٌ من الأئمة، وليس الكلام عن أحدٍ من أئمة الإسلام حشدٌ له، وإنما من باب أن المسلم ذكورٌ شكور -يذكر الفضل لأصحابه ويشكرهم عليه-، فما قام به الإمام المجدد قام به أئمةٌ من قبله، والأئمة من بعده من علماء أهل السنة والجماعة، والنصحة لإخوانهم من المسلمين، وهم على ذلك كله مُتَّبِعون لسنة النبي ﷺ.

وكل دعوة للخير -وأعظم الخير التوحيد- محفوفةٌ بالأذى؛ لما قال النبي ﷺ في حديث العرباض: «**العلماء ورثة الأنبياء**»، ما قصد بذلك التوريث من حيث التعليم فقط، وإنما التوريث من حيث أن علمهم علم الأنبياء، ودعوتهم دعوة الأنبياء، وما يطالهم من الأذى طال الأنبياء قبلهم، وما أُمروا به من الصبر أُمِر به الأنبياء قبلهم.

فالتوريث في العلم والدعوة، وأن يوطِّن نفسه على الأذى، وأن يصبر على ذلك إن طاله أذى من الناس، وأن يحتسب الأجر في ذلك. وقد قال النبي ﷺ: «**يُبتلى المرء على قدر دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه**».

كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ مع اهتمامه بشأن التوحيد أمَّاراً بالمعروف نهاءً عن المنكر، وحريصًا على أن يرفع الجهل عن أهل مجتمعه وأهل زمانه، ولهذا دعوة الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ -كما نظر في ذلك الذين كتبوا في تاريخ هذه الدعوة- قائمةٌ على ثلاثة أمور:

أولاً: إصلاح التوحيد الذي هو الآصرة بين العباد وبين ربهم، ونبذ صور الشرك الأكبر أو الأصغر، والطرق المفضية إليه والذرائع الموصلة إليه.

ثانيـًا: إصلاح التوحيد من حيث رد الناس إليه، وإلا فالتوحيد صالحٌ منذ أن بُعث النبي ﷺ، وإنما هو "إصلاح الرد"؛ لأن إصلاح ذات التوحيد إحداث، وإنما المقصود بذلك الرد إلى التوحيد الأول الذي بُعث به النبي ﷺ والأنبياء من قبله، والأنبياء كلهم دعوتهم واحدة كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[الأنبياء:٢٥]، قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إنا معشر الأنبياء ديننا واحد وشرائعنا شتى».

وإصلاح التوحيد في قلوب الناس بعد انحرافهم فيه لا يكون إلا بالكتاب والسنة، وهذا هو الذي يوظِّف القلوب ويهيئها لقبول النصح؛ يعني يكون الحامل على ذلك النص للناس، والدليل على النصح أنه ما دعا إلى نفسه، وما دعا إلى طريقة تسمى "الوهابية" كما يكذب عليه الناس في هذا الزمن وقبل ذلك، وإنما دعا إلى التوحيد، وما سمى مذهبه مذهبًا، بل سمى مذهبه اتباعـًا للنبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وسيراً على سنته.

وما دلل رَحِمَهُ اللَّهُ على ما يدعو إليه بكلامه ولا بكلام أحدٍ من الناس، وإنما بكلام الله وكلام رسوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ وهذا يوظِّف القلب على قبول ما يقول، ويجعل الناس يرون فيه النُّصح والصدق في الدعوة، وأنه ما دعا لشيءٍ من الدنيا، وإنما دعا إلى الآخرة نُصحـًا لإخوانه ولأهل زمانه ولمن يأتي بعد ذلك.

ومن أهداف دعوته رَحِمَهُ اللَّهُ: أن يُعمَل بشرع الله في عباد الله؛ لأن الناس كانوا في زمنه يتحاكمون فيه إلى "الطواغيت"، إما سُلّم العادات والعشائر والقبائل، أو لشيءٍ يقترحونه بينهم في فضّ النزاعات والدماء وغير ذلك، فأراد أن يُعمل بشرع الله في عباد الله؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾[يوسف:٤٠].

فعرَّف الناس الحدود التي حدها الله عَزَّوَجَلَّ على الذنوب التي رتَّب عليها حداً، وعرَّف الناس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ووعظ الناس الوعْظ الذي يدعوهم إلى الطاعة وينهاهم عن المعصية، وخطب الناس رَحِمَهُ اللَّهُ -وله خطبٌ في هذا المعنى- في الدعوة

للتوحيد والطاعات عمومـًا، والنهي عن الشرك والمعاصي عمومـًا.

فمن أهداف دعوته رَحِمَهُ ٱللَّهُ: دعـوة النـاس إلـى أن يُحكَّـم شـرع الله فـيهم؛ لأن الله ﷻ إنمـا أنزل شرعه لذلك: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾[المائدة:٤٤]، ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[المائدة:٤٥]، ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[المائدة:٤٧]. قـال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾[الأنعام:٥٧]، وقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾[المائدة:٥٠].

ومن أهداف دعوته رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أن يرفع الجهل عـن النـاس؛ لأن الجهـل كـان في زمنـه كثيـراً، ولـيس بالضـرورة أن يرتفـع الجهـل بـالخط والكتابـة لا، قـد يرتفـع الجهـل بـالتلقين؛ مـا كـان أصحاب النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كلهم يقرؤون ويكتبـون، نعـم فـيهم الكثيـر ممـن يقـرأ ويكتـب، لكن أكثرهم ما ذُكِر أنه يقرؤون ويكتبون، ومع ذلك هم أئمـة الإسـلام، وهـم دواويـن الحفـظ وأوعية العِلم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُم.

فالعِلم قد يكون بغير كتابة وبغير دراسة، قد يكون بالتلقين وبالنُّصح وبتعليم النـاس كبـار المسائل وأصولها، وأن يُعظَّم الرب ﷻ في قلوب الناس، وأن يُعلم أن طلـب العلـم أمـر بـه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وأمر به نبيه ﷺ: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[النحل:٤٣]، وقـال ﷺ: «ألا سألوا إذ لم يعلموا، فإنما شفاء العي السؤال».

فكان من دعوته أن يُرفع الجهل عن الناس، وهـذا بحـد ذاتـه يُغلِق بـاب الافتيـات علـيهم والكذب عليهم؛ إذا رُفِع الجهل عن الناس احتـاط النـاس لكـل مـا يسـمعون؛ بمعنـى أنهـم مـا كانوا جُهَّالاً -أوعيـة يُلقـى فيهـا أيُّ شـيء-، بـل صـاروا ينتبهـون. بمعنـى أن الإنسـان إذا عُلِّـم وتعلَّم صار عنده صيانةٌ ذاتية، لا يدخل عليه الباطل، وصار عارفـًا بالتمييز مميّزاً ما بين الحـق والباطل بالنظر إلى الدليل.

ومن أهداف دعوته رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغفر له: تعظيم الدليل -الكتـاب والسـنة- في نفـوس النـاس، ونبذ التقليد الأعمى؛ إن كثيراً من الناس في زمنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ -وقد يكون قبـل ذلـك وقـد يكـون في

هذا الزمن- يقدِّمون قول الناس على قول الله وقول رسوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ويرون أنهم محسنون في ذلك، من حيث أن "العالِم الفلاني أو الولي الفلاني أعرف بالله مني فلذلك أصدِّقه"، وإذا قلت له "قال الله قال رسوله"، قال: "هو أعلم بما يقول الله وبما قال الرسول". وهذا عين الانتكاس والضلال.

يُروى عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لما قال أمراً، قال بعض من عنده: "لكن أبا بكر وعمر يقولان كذا وكذا"، فقال: «يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء، أقول لكم قال رسول الله ﷺ وتقولون قال أبو بكر وعمر؟».

أبو بكر وعمر أفضل الأمة كلها بعد نبيها ﷺ، ومع ذلك -وحاشاهما، لو تُصوِّر ذلك- لو قالا قولاً ما قاله النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أو الحديث على خلافه، يُعتذر لهما والجادة جادة رسول الله ﷺ -الطريق طريق الذي بُعث بها ﷺ-، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾[الحجرات:١]. معنى ذلك أن الذي يقدِّم بين أيدي الله ورسوله أحداً من الناس لم يتقِ الله، ما قَدَرَ الله حق قدره وما عظَّم الله؛ فالتقوى كل التقوى أن يقف الإنسان عند كلام الله وكلام رسوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ موقف المصدِّق، والمسلِّم، والمتابع المطاوع.

المصدِّق، والمسلِّم بمعنى أنه لا يقول: "لو أنه كان الحكم كذا وكذا"، لا؛ مُسلِّم ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[النساء:٦٥]، ثم يتبع ذلك الاستقامة؛ أن يطاوع وأن يتابع، كما قال النبي ﷺ لمن قال: يا رسول الله أوصني، قال: «قل آمنت بالله ثم استقم» أمسك الجادة، وهذا لا يكون إلا بمعرفة مراد الله ومراد رسول الله ﷺ، من كتاب الله ومن سنة رسول الله ﷺ.

وإذا التبس على الإنسان الحُكم وقصُرَ باعه في العلم يسأل أهل العلم؛ كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٤٣) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ﴾[النحل:٤٣-٤٤].

فكانت دعوته رَحِمَهُ اللَّهُ بنبذ التقليد والنظر في الدليل، وتقديم الدليل على قول كل قائل؛ هو بحد ذاته صيانةٌ للناس أن يدخل عليهم الباطل واحتياطًا للشرع.

وهذا مما يُرد به على الذين قالوا: إن الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان متعصباً للمذهب، وأن له أقوالاً مخالفة للدليل؛ هذا كذب، والذين يكذبون على الأئمة قبل الإمام أحمد وبعده كثيرون، كما كذب أعداء الأنبياء على أنبياء الله ﷻ، أيعجزون أن يكذبوا على غيرهم؟!

فالمقصود أن هذه الدعوة إلى التوحيد هي طريق الأنبياء، وأن الإنسان مهما بلغ من العلم في مسائل التوحيد لا يزال محتاجاً إلى التذكير به؛ لا من حيث أنه حق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الذي لابد أن يكون محل السمع والبصر من العبد، وأن يكون حاضراً في كل عبادةٍ وفي كل زمانٍ ومكان، ولا من حيث أن فتور الذِّكر أو التذكير بالتوحيد ربما يُنسي الإنسان بعض مسائله فيدخل عليه الباطل، إما بتلبيسه أو بتشكيكه، لكن دوام الذكر دوامٌ للتحصين.

وكما أن الباطل لا ينقطع إلى يوم القيامة، لا يزال الباطل يتجدد ويتفرَّع إلى يوم القيامة، ولا يزال الحق والباطل في مغالبة منذ خلَق الله ﷻ آدم وإبليس إلى آخر من تقوم عليه الساعة.

ما دامت المعركة حامية والميدان ميدان ابتلاء -ابتلاء أهل الحق من أهل الباطل-، معنى ذلك أنه لابد أن يكون الإنسان متحصِّناً بالتوحيد، وعارفاً لحق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على وجه الكمال اللائق به سبحانه وبحمده؛ مميزاً ما بين الاتباع وما بين الغلو، مميزاً ما بين الجفاء وما بين الاستقامة، مميزاً ما بين الحق والتقصير فيه، فلا يلتبس عليه الحق بالباطل ولا يلتبس عليه الباطل بالحق؛ يعرف السنة ويميزها، ويعرف الباطل ويميزه.

وكل من وقع في الضلال من الطوائف ما وقعوا في الضلال إلا لأنه التبس عليهم الحق بالباطل؛ سواء التبس عليهم بغير قصدٍ منهم، وهذا ليس عذراً لهم لأنهم بالإمكان أن يسألوا أهل العلم في كل زمان أهل علم، قال النبي ﷺ: «**إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها**»، فإذا التبس على أهل الباطل الحق بالباطل واختاروا الباطل، هذا ليس عذراً لهم؛ ليس الالتباس عذراً، لأنهم كان بالإمكان أن يسألوا وأن ينظروا النظر البسيط في كلام الله وكلام رسوله، وأن يستقيموا كما استقام من قبلهم. فالالتباس ليس عذراً، بل

المؤاخذة بعدم السؤال: «ألا سألوا إذ لم يعلموا، فإنما شفاء العي السؤال».

فكل طائفةٍ خالفت أهل السنة والجماعة، إنما خالفت أهل السنة والجماعة بهوى، أو لأنهم أرادوا حقًا لكن أخطأوا طريقه.

بهوى يعرفون الحق ويعرفون الباطل، لكن هواهم مع الباطل اختاروا الباطل، وهم يعلمون أن هذا هو الحق، وهؤلاء لهم شبهٌ بالمشركين، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾[الأنعام:٣٣]، عرفوا الطريقين -يعرفون أن هذا حق وهذا باطل-، قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾[الزخرف:٢٢]؛ بمعنى أنهم قالوا: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾[الزخرف:٢٣]، يعني يرون أن الباطل الذي كان عليه الآباء هو القدوة التي لا ينبغي أن تُترك، فهؤلاء ما التبس عليهم الحق والباطل، لكن اختاروا الباطل على علمٍ بالحق.

والطائفة الثانية: الذين التبس عليهم الحق والباطل، إلا أنهم قصَّروا في السؤال عما التبس عليهم.

الإنسان ربما يلتبس عليه الطريق في الصحراء، ومع ذلك يقف حتى يجد من يدله على الطريق، يلتبس عليه البضاعة أيهما أرخص وأيهما أجود، فلا يشتريها حتى يسأل ويستفصل؛ فأن يسأل عن التوحيد من باب أولى. حتى ولو كان عنده أناسٌ وعلماء ضلالة يضلُّونه، ما يُخلي الله ﷻ من قائم له بحُجَّة.

الزمن قد يكون فيه علماء ضلالة، لكن من خصائص هذه الأمة -يا إخوان- أن الله ﷻ لا يُخلي زمانها ومكانها من قائم لله بحُجَّة؛ ما يطبِّق الجهل في هذه الأمة تطبيقًا تامًا حتى لا يبقى إلا رؤوس الضلال، هذا لا يكون في هذه الشريعة أبداً؛ بل هذا طعنٌ في حكمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الذي جعل هذه الشريعة خاتمة الشرائع، وتكذيبٌ لقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾[غافر:٥١]. وقد قال النبي ﷺ:

«إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها دينها».

فلا ينعدم الحق والنور والهدى، والدلالة والإرشاد والرشد، لا ينعدم من هذه الأمة حتى يبعث الله في آخر الزمان ريحًا تقبض أرواح المؤمنين من آباطهم، فلا يبقى إلا شرار الخلْق وعليهم تقوم الساعة. فلا عذر بعد ذلك لأحدٍ أن يترك السؤال عن الحق؛ بدعوى أن نفسه أو أن عقله يرى أن الزمان ليس فيه من يعرف الحق إلا هؤلاء علماء الضلالة.

نعم، يبتلي الله ﷻ عباده بأن يكون للحق إقبالٌ وله إدبار؛ لأن الحق لو كان مقبلاً دائمًا لربما أصاب الناس الزهو والغرور والكبر، ولو كان مدبراً دائمًا لربما أصابهم الإياس من روح الله والقنوط، فجعل الله ﷻ سنته الكونية ما بين هذا وما بين هذا. وهذا وقع لنبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ يوم بدر -يوم الفرقان- أظهره الله ﷻ على المشركين، وبعدها بعام قُتل سبعون من أصحابه في غزوة أُحُد؛ فيقع هذا ويقع هذا.

أما الحق الذي لا يخالطه باطل، والنور الذي لا تخالطه ظُلمة، والهداية التي لا تخالطها ضلالة؛ هذا لا يكون إلا في الجنة، أما الدنيا فدار بلاءٍ وامتحان؛ قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[الأنبياء:٣٥].

فكانت دعوات الأئمة -رحمهم الله- على هذا، ومن ذلك الإمام المجدد ابن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ دعا إلى هذا وصبر على ذلك وتحمَّل ما طاله من الأذى، ومع ذلك ما زال ذكره باقيًا، والذين كانوا يقعون فيه ويكذِّبونه ويتهمونه بما هو منه بريء، ذهب بهم الزمان ولا يعرفهم أحد؛ لو قيل لأحد من الناس: تعرفون "ابن عفالق"؟ ما أحد يعرفه، وكان من أشد أعداء الإمام ابن عبد الوهاب. تعرفون "ابن جرجيس"؟ ما أحد يعرفه، وكان من أشد أعدائه رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وغيرهم كثير؛ فلما كانوا يصاولون عن باطلهم، مات باطلهم ومات ذكرهم معه، والموعد الله.

ولما كان الشيخ -نحسبه والله حسيبه- إنما أراد الآخرة، بقيت دعوته؛ لا لذاته وإنما لأن

الله ﷻ يهيئ لهذه الدعوة أنصاراً وحملةً يحملونها من زمن إلى زمن، وإلا فالإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ – على جلالة قدره- جنديٌ من جنود الله كغيره من العلماء، تحمَّل الأذى وناله من ذلك ما نال، لكن أبقى الله ﷻ ما دعا إليه.

فيبقى أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ إذا أراد أمراً هيأ أسبابه، فهيأ أسباب رد الناس إلى توحيد الأسماء والصفات، والرد على الاتحادية، والرد على الروافض والقَدَرِيَّة والمعتزلة، وغيرهم من طوائف الضلال واليهود والنصارى، هيأ الله ﷻ أسباب ذلك في كثيرٍ من العلماء، منهم شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ثم هيأ الله ﷻ الأسباب بغير ابن تيمية من بعده، وفي كل زمانٍ يجعل الله ﷻ أسباباً تكون تهيئةً للعود بالناس إلى دعوة الأنبياء والمرسلين.

شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ لما بدأ بالدعوة كان في زمانه علماء، ما كان الناس كلهم جُهّالاً ودهماء وجفلاً؛ كان فيهم علماء، وكان العلماء الذين في زمن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ على مشارب:

منهم: من كان يصدِّق الشيخ لما عرف بأن دعوته هي دعوة الناس للتوحيد، ولما عرف أن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يرى أن هذا كفرٌ وهذا بدعة، وهذا شركٌ أصغر وهذه ذريعة؛ قال: "كل ذلك حق، لكن الناس كلهم على خلاف ما تدعو إليه"، فيرى أن هذا ميدانٌ محفوفٌ بالخطر، منهم "ابن منقور" وغيره من العلماء، علماء صالحون في ذاتهم مهتمون بمسائل الفقه، وافقوا ابن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ على دعوته، لكنهم قالوا: إن الخوض في مثل هذا من الصعوبة بمكان؛ لأن الناس ما عادوا يستنكرون الشرك وزيارة القبور والعكوف عندها. هذه موافقة في الرأي لكن ليست موافقة في العمل، فاشتغلوا بالفقه وبأصول الفقه وبعلوم الآلة وبغير ذلك.

ونوعٌ ثانٍ من العلماء: كانوا يعرفون أن ما هو عليه حق، لكنهم يعتقدون أن الدعوة إلى ذلك تقطع الطريق عليهم؛ إما لأنهم منتفعون من وراء ذلك، أو لأنهم يحبون هذا المسلك لأنه يجعل الناس في ظلمة الجهل فيحتاج إليهم الناس، بمعنى أن سوقهم رائجة وحضورهم بين الناس موجود لأجل الجهل عند الناس.

فصارحوا الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالمخالفة، منهم "ابن عفالق" في الأحساء، ومنهم "ابن جرجيس" في العراق وغيرهم، ومع ذلك ما التفت رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، وسلك الطريق وهو يعلم أنها محفوفةٌ بالمخاطر.

الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما تأثّل ولا تكثَّر بهذه الدعوة ولا ريالاً واحداً؛ بمعنى أنه -نحسبه والله حسيبه ولا نزكي على الله أحداً- بدأ دعوته لله، ولحق بربه ما أخذ من الدعوة شيئًا من الدنيا. عاش رَحِمَهُ ٱللَّهُ قرابة اثنتين وتسعين سنة، ما تملَّك في هذه الدعوة الطويلة جداً شيئًا إلا أن يكون مُلكًا له قبل الدعوة، أو ملكًا لآبائه وأجداده في العيينة وفي الدرعية وغير ذلك.

مع أنه عاصر ثلاثة أئمة: الإمام محمد بن سعود، وابنه الإمام عبد العزيز بن محمد بن سعود، وحفيده الإمام سعود بن عبد العزيز بن محمد بن سعود، ومات في زمن الثالث.

وكان له من الجاه والمكانة والجلالة والحب والتقدير والاستشارة، وصدورهم عن فتواه وسؤاله إذا أشكل عليهم أمر من الأمور؛ كان له من ذلك الشيء الكثير عند الإمام محمد وابنه الإمام عبد العزيز وابنه الإمام سعود.

مع أنه لو طلب شيئًا من الدنيا جاءته الدنيا كلها، أليس كذلك؟ ومع ذلك ما انتفع بهذه الدعوة أبداً؛ مات رَحِمَهُ ٱللَّهُ وما في مُلكه إلا ما كان له ولإخوانه في العيينة، أو ما تملكه هو وإخوانه بعد ذلك شراءً في الدرعية، ما سوى ذلك ليس له شيء.

ولهذا طُف نجد كُلّها -سواء كنت من أهلها أو من غيرها-، طُفها من عرضها إلى طولها، هل تجد أوقاف محمد بن عبد الوهاب؟ أو مزارع محمد بن عبد الوهاب؟ أو عقارات محمد بن عبد الوهاب؟ ليس من ذلك شيء.

أراد الآخرة -نحسبه والله حسيبه- على ما طاله من الأذى، وذهب إلى الآخرة خالي الوفاض من أموال الناس، خفيف الحِمْل، وترك خيراً كثيراً، ولا يزال الناس يذكرونه

ويترحمون عليه رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغفر له.

وكتاب التوحيد الذي ألَّفه رَحِمَهُ ٱللَّهُ -كما قال أهل العلم-: إنه أول ما ألّف من الكتب؛ وهو من أشهر الكتب وأظهرها والذي عُرف به عند العامة، فالعامة إذا ذكروا "كتاب التوحيد" ذكروا محمد بن عبد الوهاب.

أما طلاب العلم فيعرفون للشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتباً غير "كتاب التوحيد"؛ هذا الكتاب إنما ألَّفه رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أول الأمر في البصرة -كما ذكر بعض من ترجم له-؛ لأنه رأى في البصرة بعض صور الشرك من تعظيم القباب، والسدول، والعتبات، ودعاء غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ورأى فيها بعض من يقع في الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ.. إلى غير ذلك من البدع التي كانت في ذلك الزمان في تلك البلاد.

ويسَّر الله عَزَّ وَجَلَّ له أن يدخل مكتبةً فيها كُتُبٌ لأهل السنة والجماعة في البصرة، والكتب كانت شحيحة في بلاد نجد؛ لأن غالب أهل نجد في ذلك الوقت إما أن يكونوا من أهل الحاضرة مشتغلين بالحرث والزرع، أو من البادية مشتغلين بالحلال يشد وينزل، بمعنى أن الكتب في حاضرة نجد في زمن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ليست كالكتب في العراقين -البصرة والكوفة-، ولا في مصر، ولا في الحجاز ولا في غيرها؛ وإنما كان الناس في شظف من العيش وقِلَّة ذات اليد مشغولين بأرزاقهم.

فلما يسَّر الله عَزَّ وَجَلَّ له المكتبة في البصرة واطلع على كثير من الكتب، جمع أصل "كتاب التوحيد" ومادته، ثم لما عاد بعد ذلك أعاد النظر فيه في "حريملاء".

والمراحل التي مر بها الشيخ مراحل كثيرة؛ أول الأمر "العيينة"، ثم ما حصل بينه وبين "ابن معمر" ما حصل، ثم ذهب إلى "الدرعية" وناصر محمد بن سعود، قبل ذلك عرض دعوته على علماء الأحساء، ثم ذهب إلى الحجاز وأخذ من الشيخ محمد حياة السندي رَحِمَهُ ٱللَّهُ والكلام في هذا يطول.

لكن نظره الثاني في "كتاب التوحيد" إنما كان في "حريملاء" قريباً من الزمن الذي مات فيه أبوه عبد الوهاب، والشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ من بيت علمٍ وفضل؛ فوالده عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ من قضاة الحنابلة، وكذلك جده سليمان، فأخذ العلم فيما يتعلق بالفقه الحنبلي من آبائه وأجداده، لكن هذا ما منعه أن يرحل في طلب العلم وأن يطَّلع على مزيدٍ من الكتب المدوَّنة في ذلك.

قيَّض الله ﷻ له ناصراً وبدأ بالدعوة، وحصل له من جراء ذلك ما حصل، ووضع الله ﷻ في قلوب الناس قبولاً له، فأقرَّ الله ﷻ عينه بعد أن ضرب التوحيد بجرانه، وظهرت السنة وأُزيلت البدع من المساجد، كانت البدع في كل مكان؛ في الأسواق، وفي رقاب الأطفال -التمائم والخرق وغير ذلك-، وحتى في دواب الناس -إبلهم وغير ذلك-.

بل ذكر بعض من وصف الحال في نجد قبل دعوة الشيخ أن بعض الناس ربما يضع التمائم على رؤوس النخل، إذا كانت النخلة مثمرة وعذوقها كثيرة، خاف عليها من العين فوضع تميمة حتى تكون مباركة لها، وكان في الدرعية شجرة يقال لها "قريوة" يعتقدون أنها تحل البركة وأنها تدفع الأذى، وأن الحاجة عندها مقضية، وكان فيها "نخلة" يقال لها "نخلة الفحَّال"، أن المرأة إذا عدمت الزوج وخافت العنوسة، أو كانت عاقراً -لا تلد-، ذهبت إلى نخلة الفحّال واحتضنتها وقالت: "يا فحال الفحول، أريد زوجاً قبل الحول" نسأل الله العافية.

كذلك "غار بنت الأمير"؛ يزعمون أنه غار انفلق لبنت أمير كان يطلبها اللصوص ليخطفوها، كلها أساطير وأكاذيب، فانفلق لها الغار فاختبأت في جوفه حتى ذهب اللصوص ثم خرجت وعادت إلى أهلها، فقالوا: "غار بنت الأمير الذي أنجى المرأة"، فيُقصد للحاجة ودفع الأذى وجلْب النفع -كما يزعمون-.

"كتاب التوحيد" كله متعلقٌ بهذه المسائل، وأوله: بَابُ فَضْلِ التَّوْحِيدِ وَمَا يُكَفِّرُ مِنَ

الذُّنُوبِ.

فضل التوحيد من حيث أن الله ﷻ إنما يأمر بأول ما يأمر به لفضله عنده سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ولعظم شأنه، ثم بعد ذلك تتابع الأبواب.

في الدروس المتقدمة مرَّ من الكتاب عشرون بابًا أو تسعة عشر بابًا، وكلاهما صحيح؛ من حيث أن من أهل العلم من يذكر أن كتاب التوحيد أوله: (بَابُ فَضْلِ التَّوْحِيدِ)، ومنهم من يذكر أن أول باب هو قول المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (كتاب التوحيد وقول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات:٥٦]. وعلى هذا كتاب التوحيد إما أن يكون ستًا وستين بابًا وإما سبعًا وستين بابًا.

وهذا -يا إخوان- لا يعني أن التوحيد كله في هذا الكتاب؛ ما ادّعى ذلك ابن عبد الوهاب ولا قال ذلك، وإنما قصد بذلك ذِكر بعض أبواب التوحيد ومسائله العظيمة الجليلة -التي لها شأن في التوحيد-، لكن لا يعني ذلك أن التوحيد محصور هنا؛ كما أن الإمام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغيره ممن كتب في التوحيد لا يقول أحد منهم إنه يحصر التوحيد في كتابٍ واحد، وإنما يكمِّل بعضها بعضًا؛ فما لم يُذكر هنا ذُكِر في غيره، فما لم يُذكر من مسائل التوحيد في "كتاب التوحيد" قد يكون ذكره المقريزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه "تجريد التوحيد المفيد"، وقد يكون ذكره السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ذكره غيره من الأئمة؛ والكتب يكمِّل بعضها بعضًا كما أن العلماء يكمِّل بعضهم بعضًا.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**بَابُ مَا جَاءَ مِنَ التَّغْلِيظِ**) يعني التشديد (**فِيمَنْ عَبَدَ اللهَ عِنْدَ قَبْرِ رَجُلٍ صَالِحٍ؛ فَكَيْفَ إِذَاعَبَدَهُ؟!**) أي أن التشديد في النهي عن عبادة الله وحده لا شريك له عند القبر، ورد بها الدليل من الكتاب والسنة، فكيف بعبادة القبر ذاته؟ فالأُولى بدعة؛ مَن عبد الله ﷻ عند قبر رجلٍ صالح يعتقد بركة المكان أو فضيلة المكان فقد وقع في البدعة.

أما إذا عبده من دون الله، فهذا وقع في الشرك الأكبر.

والشرك الأكبر في حقيقته: هو صرف العبادة التي لا تجوز إلا لله لغير الله، كيفما صُرفت؛ فإذا صرفها لقبر رجلٍ صالح -كما بوَّب له الإمام-، أو صرفها لملك، أو لنبيٍ من الأنبياء، أو صرفها لحجر أو شجر؛ فكلها شِرْكٌ أكبر.

وهنا لا يقال: "هذا شركٌ أكبر، وهذا شرك أكبرُ من الأكبر"، بمعنى أن الشرك الأكبر مِلَّةٌ واحدة؛ فلا يقال أن من عبد صنماً أعظم كفراً ممن عبد نبياً، كلهم مشركون شركاً أكبر، لكن يقال: "هذا أقبح من هذا"؛ فالذي يعبد صنمين وثلاثة وعشرين أقبح كفراً ممن لا يعبد إلا صنماً واحداً، لكنهم كلهم مشركون شركٌ أكبر، والذي يعبد صنماً من حجر والآخر يعبد صنماً من تمر فإذا جاع أكله، كلهم مشركون شركاً أكبر، لكن هذا أقبح من هذا، وإلا فالشرك الأكبر هو صرْف العبادة التي لا تجوز إلا لله لغير الله.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وَفِي الصَّحِيْحِ: عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا**) وعائشة أم المؤمنين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أكثر أحاديثها في هذا الباب مراسيل صحابة، بمعنى أنها ما عاينت كل ما روته عن النبي ﷺ في الجملة، بل روت عن غيرها من الصحابة لأنها قالت: «**لم أعقل أبويّ إلا وهما يدينان الدين**».

أم سلمة -هند بنت أمية- رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا كانت من المهاجرين إلى الحبشة، لما آذى كفار مكة النبي ﷺ وأصحابه، وأذن لهم النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في الهجرة؛ أم حبيبة وأم سلمة وغيرهن، ومن الرجال عثمان وجعفر بن أبي طالب وغيرهم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين.

قالت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: (**أَنَّ أُمَّ سَلَمَةَ ذَكَرَتْ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ كَنِيسَةً رَأَتْهَا بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ، وَمَا فِيهَا مِنَ الصُّوَرِ، فقال ﷺ: «أُوْلئكَ إِذَا مَاتَ فيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ -أَوِ الْعَبْدُ الصَّالِحُ- بَنُوا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِداً، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ، أُوْلَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللهِ»**).

في هذا مسائل:

المسألة الأولى: أن المقصود بالكنيسة هي ديرة النصارى أو محل عبادة النصارى، كما أن "البِيَع" محل عبادة اليهود، ويصح أن يُطلق هذا على هذا، لكن المقصود أنها مواضعُ

للشرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والتصاوير والتماثيل، وقول الباطل على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فكنيستهم فيها شعار التثليث وأن لله ولداً.

ولهذا دخول الكنيسة بحد ذاته لأهل العلم فيه كلام، والصواب الذي تطمئن إليه النفس أنه لا يجوز؛ لأدلة من كلام الله وكلام رسوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾[النساء:١٤٠]، وهذا صريح جداً في أنه لا يجوز أن يجلس الإنسان في مكانٍ يُستهزأ فيه بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فكيف إذا كان المكان محلاً لعبادة غير الله، ونسبة الولد إلى الله؟! ناهيك عما فيه من تصاوير، ناهيك عما فيه من أكاذيب، ناهيك عن أن عقيدتهم مبنيةٌ على تكذيب النبي وما بُعث به ﷺ.

فكيف يدخل عليهم الإنسان؟ حتى لو زين له الشيطان وقال له -وهذا من بعض الناس الذين فيهم نوع من الخِفَّة- يقول: "أنا أدخل الكنيسة فأوثِّق النصارى وما هم عليه حتى أرد عليهم"؛ أنت لا تعرف ما هم عليه حتى تدخل ديرتهم وكنائسهم؟ ربما يستغفل الناس حتى يمرر مشروعه الخامل، وربما أراد ذلك ليُذكر بهذه الجرأة.

أما دخول الكنائس فالأصل في ذلك أنه ليس من تعظيم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، يا إخواني! الإنسان لا يعظِّم المجلس الذي يُسب فيه والده، أليس كذلك؟ طيب، أيهما أعظم: حق الوالد -وإن كان حقه عظيماً- أو حق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؟

ثم لو دخل ما استطاع أن ينكر المنكر؛ لو دخل لابد أن يدخل متلبساً بلبوس التعظيم للمكان ولأهله، ما يتكلم بكلمة حتى يخرج مع الباب، فكيف تدخل وتجعل نفسك رهاناً للمشركين والنصارى؟ ما يجوز هذا.

ومن ناحية أخرى: أن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ثبت عنه -عند عبد الرزاق وابن أبي شيبة والبيهقي- أنه قال: «لا تدخلوا على هؤلاء المشركين في كنائسهم؛ أن تنزل السخطة عليهم» يعني وأنتم

بينهم، وهذا صريح لا يُدفع ألبتة من حيث وضوح ألفاظه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وأرضاه، وقد قال النبي ﷺ: «إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه»، وقال ابن مسعود: "كنا نقول إن بين عيني عمر ملكًا يسدده"، وقال النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر»، وقال عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «أبو بكر وعمر مني بمنزلة السمع والبصر». وعمر في هذا المقام يقول رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وأرضاه: «لا تدخلوا على هؤلاء المشركين في كنائسهم»؛ يُؤخذ منه أمران:

الأمر الأول: حرمة دخول كنائس النصارى.

الأمر الثاني: أن النصارى مشركون.

لأن بعض الناس يقول: "النصارى واليهود ما يقال لهم إنهم مشركون، وإنما يقال لهم أهل كتاب"؛ بل هم أهل كتاب ومشركون؛ لأن عيسى عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ قال في خطابه لبني إسرائيل: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾[المائدة:٧٢]. ولأن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قال: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ﴾[التوبة:٣١] والأحبار هم علماء اليهود، والرهبان هم عُبّاد النصارى.

ولما قال عدي بن حاتم رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ -وكان نصرانيًا قبل أن يسلم-: يا رسول الله ما كنا نعبدهم، قال النبي ﷺ: «أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتستحلونه؟» قال: بلى، قال: «فتلك عبادتهم» فهذه "شرك الطاعة"؛ فاليهود والنصارى أهل كتاب، وحرّفوا كتابهم، وهم مشركون كما قال عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «لا تدخلوا على هؤلاء المشركين في كنائسهم أن تنزل السخطة عليهم».

وهذا كله -يا إخوان- حتى لا يستدلَّ أحدٌ بهذا الحديث على أنه يجوز دخول الكنائس، لأن أم المؤمنين أم سلمة دخلت الكنيسة ووصفتها للنبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ؛ فهذا سبب الاستطراد في هذه المسألة. لأنه يقال لمثل هذا: أن أم المؤمنين أم سلمة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا لما دخلت الكنيسة لم تدخل عن علم وإنما كان خافيًا عليها الحُكم؛ فالنبي في المدينة -أو في مكة

حينها- وهي في الحبشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، خفي عليها الحكم، ومع ذلك ما وقع منها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ما وقع لغيرها من الرجال الذين كانوا معه.

ثم لما قال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أولئك القوم إذا مات فيهم الرجل الصالح»؛ هل هو رضًا بما رأته أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أم كراهية؟ بل كراهية لما رأته، ولهذا قال في آخر الحديث عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: («أُوْلَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللهِ»)؛ فما رأيتِ ليس محلاً للثناء، وليس محلاً للانبهار، وليس محلاً للعُجْب، وليس محلاً للمدح؛ وإنما هذا فعلُ أصحابه "شرار الخلق عند الله" سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وهنا لفتة لطيفة في هذا المقام؛ من حيث أن النساء عموماً لا يتفطنَّ لبعض المسائل كما يتفطن لها الرجال، ولهذا جعل الله ﷻ العصمة والقوامة وتدبير الأمور إلى الرجل وليس إلى المرأة؛ وكما قيل: "إن غضبت ألقت بلا تروِ عليك ألف طلقة تدوي".

فأحيانًا يتفطن الإنسان لمثل هذه المقامات؛ من حيث أن أم المؤمنين أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا دخلت ورأت التصاوير ورأت الصلبان، لكن بهرها ما رأته من تصاوير ومن تزويق ومن غير ذلك، وهي معذورةٌ في ذلك بطبيعتها، ولأنها لا تعرف الحُكْم، لكن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ صائنٌ للتوحيد وحامٍ له عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

قالت: (وَمَا فِيهَا مِنَ الصُّوَرِ، فقال: «أُوْلئكَ إِذَا مَاتَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ»)؛ هذا في الأغلب، من حيث أنه صالحٌ عندهم، وليس بالضرورة أن يكون صالحًا عندنا؛ فمشركو النصارى -وإن كان فيهم قسِّيس- لا يكون صالحًا عندنا لأنه يُقِرُّ لله بالولد، فهو صالحٌ عندهم هم، ولأجل صلاحه عندهم عظَّموه وبجَّلوه وغلو فيه حتى بنوا عليه مسجداً -وليس المقصود بالمسجد هنا مساجد المسلمين، وإنما محلاً للعبادة- وصوروا على قبره صورة له، أو صورة للعذراء مريم، أو صورة لعيسى؛ وهذا إلى الآن موجود في كنائسهم، بمعنى أن كنائسهم لا تخلو من تصاوير وتماثيل.

فقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إِذَا مَاتَ فيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ**» يعني فيمن يعدّونه صالحاً عندهم، «**أَوِ الْعَبْدُ الصَّالِحُ**» يعني فيما يعدونه صالحاً في حكمهم، لكن ليس بالضرورة أن يكون هذا صالحاً عندنا، ونقول ليس بالضرورة لأنهم قد يصوِّرون عيسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ولا شك في صلاح عيسى، ومع ذلك التصاوير موهومة أو مُدَّعاة، وعيسى رفعه الله كما أخبر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال ﷺ: (**«بَنُوا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِداً، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ، أُوْلَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللهِ»**).

وهنا مسألتان في هذا الجزء من الباب:

من حيث أن المسجد لا يصحُّ أن يكون معه قبر، سواء كان القبر قبله أو بعده، فإذا اجتمع المسجد مع القبر في مكان وزمان واحد، يُنظر إلى أيهما أسبق فيكون الحكم له؛ فإذا كان المسجد قائماً ثم أُدخل فيه القبر، وجب أن يُخرج الميت من المسجد؛ لأنه لا يجتمع مسجدٌ وقبر؛ صيانة للتوحيد وسداً لباب ذرائع الشرك.

وإذا كان القبر قبل المسجد وبُني عليه مسجد، وجب أن يُزال المسجد؛ وهذا أيضاً من باب صيانة التوحيد. وسيأتي الكلام عما يتعلق بالحُجْرة التي دُفن فيها النبي ﷺ بعد قليل.

لكن نقول: إن هذا هو الأصل؛ أن المسجد الذي هو محل عبادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يكون قريباً من القبور حتى لا يختلط التوحيد بالشرك، وحتى لا يكون المسجد ذريعة إلى التوسُّل بأصحاب القبور والأضرحة والسدول والعتبات وغير ذلك كما هو مشاهد الآن؛ وأنه إذا اجتمع قبر ومسجد يصلي الناس في المسجد الذي فيه القبر، ثم يخرجون ليتبركون بالضريح، فمعنى ذلك أنه قَرَّب لهم الشرك. فلا بد -كما أنه لا يورد ممرضٌ على مصح، ولا تُقرب النار من الزيت، وغير ذلك من التي قُرْب هذا يُفسد هذا- من باب أولى أن لا يُقرب التوحيد من أسباب الشرك وذرائعه صيانةً للتوحيد.

والنبي ﷺ نهى أن يُصلى في المقابر؛ نهى النبي ﷺ عن الصلاة في مواضع: "المزبلة"

لأنها محلٌ للنجاسة، و"المجزرة" لأن الدم المسفوح نجس، و"المقبرة" إغلاقًا لباب ذريعة الشرك، و"معاطن الإبل" لأن الإبل خُلقت من جن، ولأن النبي ﷺ نهى عن ذلك بقوله: «صلوا في مرابض الغنم ولا تصلوا في أعطان الإبل»، و"الصلاة فوق ظهر الكعبة" لأن الذي يصلي فوق ظهر الكعبة لم يستقبل القبلة وإنما استقبل الفضاء.

ومع ذلك، فإن النهي عن الصلاة في المقابر خصَّه دليلٌ عن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ من حيث أنه قال: «جُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً»، واستثنى من ذلك عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بقوله: «الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام»؛ الحمام لأنه موضع النجاسة وكشف العورات، والمقبرة لأنها موضع للشرك والغلو والانحراف عن التوحيد.

المسألة الثانية: شرار الخلق عند الله جاء ذكرهم في كلام النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ووصف بهم طائفتان: الطائفة الأولى الذين حرَّفوا دين الله ﷻ وبغوا على أنبيائهم، واتخذوا قبور أنبيائهم مساجد وعبدوها من دون الله؛ فكل هذا شرك، وهؤلاء هم شرار الخلْق كما في هذا الحديث قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: («أُوْلَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللهِ»).

وجاء في حديثٍ آخر أن شرار الخلْق عند الله ﷻ من هم أشرّ من اليهود والنصارى -على شرِّ اليهود والنصارى-، وهم الذين تقوم عليهم القيامة؛ أيْ أن شرار الخلْق الذين تدركهم الساعة وهم أحياء.

لأن الذين تدركهم الساعة وهم أحياء تُدركهم وقد أهلك الله الملل كلها، كما أخبر النبي ﷺ؛ لما ذكر النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عيسى بن مريم قال: «يوشك أن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا عدلاً مقسطًا، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، فلا يقبل إلا الإسلام».

وقال ﷺ: «وَلَيُهْلِكَنَّ اللهُ فِي زَمَنِهِ الْمِلَلَ كُلَّهَا» أيْ في زمن عيسى؛ لأنه إذا نزل عيسى يحكم بشريعته ﷺ، فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية. ولما أخبر النبي بأن ذلك واقع، فهو خبر إقرار؛ بمعنى أنه يقع، فلا يبقى في الحياة إلا المناجزة ما بين من كذب على عيسى

ومن اتهم أمه؛ كذب على عيسى النصارى، واتهم أمه اليهود.

«**وَلَيُهْلِكَنَّ اللهُ فِي زَمَنِهِ الْمِلَلَ كُلَّهَا**»؛ والفرق ما بين المِلَّة والنِّحلة:

المِلَّة: هي التي تُنتمى إلى شريعة وإلى دين وإلى كتاب ولو كان حرَّفوه بعد ذلك؛ فهؤلاء يسمون مِلَّةً، الذين ينتمون إلى كتاب منزل أو نبي مرسل ويقرون بالبعث والجزاء -على خلاف ما بينهم وبين اعتقاد المسلمين في ذلك كله-.

النحلة: هي النحلة المدعاة المختلَقة، التي لا تنتمي لا إلى كتاب ولا إلى رسول ولا إلى بعث وجزاء، وسميت نِحلة من حيث أنها منتحلَة مكذوبة.

وفي قوله ﷺ: «**وَلَيُهْلِكَنَّ اللهُ فِي زَمَنِهِ الْمِلَلَ كُلَّهَا**»، قصد بذلك النِّحَل المكذوبة؛ عُبَّاد الأصنام والبقر والحجر والشجر، أو اليهود والنصارى؟ اليهود والنصارى، ودليل ذلك قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿**وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا**﴾[النساء:١٥٩]؛ أيْ يؤمن بعيسى. فإذا نزل عيسى، أهل الكتاب من اليهود والنصارى بعضهم يؤمن بعيسى ويصطف معه لقتال المسيح الدجال، والذين يكذّبون بعيسى إذا نزل يصطفون مع المسيح الدجال؛ سواء النصارى الذين تعصبوا لما هم عليه في كنائسهم، أو اليهود الذين يتابعون المسيح الدجال.

وقوله: «**وَلَيُهْلِكَنَّ اللهُ فِي زَمَنِهِ الْمِلَلَ كُلَّهَا**» يعني أن الله ﷻ يُظهره على أعداء التوحيد، ثم يبعث الله ﷻ ريحًا فلا يبقى في الأرض بعد ذلك إلا أهل التوحيد وشرار الخلْق.

وذكر النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حُسْن العيش بعد عيسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إذا أهلك الله ﷻ المسيح الدجال، ثم أهلك يأجوج ومأجوج؛ فيبعث الله ﷻ ريحًا تقبض أرواح المؤمنين فلا تبقي منهم أحداً، ولو كان في جوف جبلٍ حتى تنفذ إليه الريح. قال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**تخرج ريح من اليمن -وفي رواية: من جهة حضرموت- طيبة باردة، لا تدع أحداً في قلبه مثقال حبة من إيمان إلا قبضته**».

قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**فيبقى شرار الناس، عليهم تقوم الساعة**»، شرار الخلْق في هذا الحديث هم الذين اجتمعوا في وصفٍ واحد وهو الكفر بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأنهم شرُّ الخلْق والخليقة؛ لكن هؤلاء لهم زمانٌ وصفة وهؤلاء لهم زمانٌ وصفة، وكلهم على كل حال أعداء الأنبياء والمرسلين، وكلهم مكذِّبون لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ومعترضون على أمره.

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**فَهؤُلاءِ جمَعَوا بَيْنَ الْفِتْنَتَيْنِ: فِتْنَةِ الْقُبُورِ، وَفِتْنَةِ التَّمَاثِيلِ**).

يعني هؤلاء الذين ذكرتهم أم سلمة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا وَأَرْضَاهَا في هذا الحديث جمعوا ما بين الفتنتين -فتنة القبور وفتنة التماثيل-.

فتنة القبور -يا إخواني- تنقسم إلى نوعين:

فتنة في القبور في التعامل معها؛ من حيث دفن الميت، والكتابة على قبره، وتجصيصه، والصلاة عند القبر، وأقبح ذلك الصلاة إليه، وأقبح من ذلك الصلاة له.

الصلاة عنده لا تجوز؛ لأن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ -كما في صحيح مسلم- قال: «**نهى رسول الله ﷺ أن يُجصص القبر، وأن يُقعد عليه، وأن يُكتب عليه**».

وفي زيادة عند النسائي وعند أبي داود وغيرهما: «**ونهى ﷺ أن يصلى عنده**» نهى عن الصلاة عند المقابر. فصار المنهي عنه عند المقابر أربعة:

التجصيص: والتجصيص يعني تلطيخه بالجص، فنهى عنها؛ فكيف إذا كان رخامًا؟ النهي أبيَن، فإذا كان عتبة؟ أبيَن، إذا كان تبليطًا، إذا كان تزويقًا، إذا كان قُبة؟! فإذا كان التجصيص لا يجوز فغيره من باب أولى.

القعود عليها: نهى ﷺ أن يُقعد عليها؛ لأن هذا فيه امتهانٌ للميت وعَدم احترام له، فحرمته ميتًا كحرمته حيًا.

ولهذا النبي ﷺ نهى عمَّا هو أقل من ذلك؛ نهى أن يمشي الإنسان بين القبور بنعليه -وهذا نراه من الإخوان هنا في الجنازة-، فقد رأى رجلاً يمشي بين القبور من أصحاب النبي

ﷺ بنعليه، فقال: «**يا صاحب السبتيتين، اخلع سبتيتيك**». والسبتيتان هما الحذاء التي لا شَعر عليها؛ وهذا نراه من الإخوان، والناس يجهلون أن هذا منهيٌ عنه؛ لأن الإنسان لا يدخل مجالس الرجال بحذائه، فكيف بمجالس الموتى رحمهم الله؟ فلا يطأ القبر، ولا يمشي بين القبور بالحذاء؛ لأن حرمتهم أمواتًا كحرمتهم أحياءً.

الكتابة: نهى النبي ﷺ عن الكتابة ولو كانت يسيرة؛ معنى ذلك أن كتابة الفاتحة على رخام عند القبر، أو كتابة "هذا قبر الشهيد فلان ابن فلان"، أو "توفي سنة كذا بسبب كذا"؛ هذا كله منهيٌ عنه من باب أولى.

فكل كتابةٍ منهيٌ عنها، وهناك فرق ما بين الكتابة التي تُفهم والكتابة التي هي "تعليم"؛ أي نعلِّم بها على قبور أمواتنا لنعرفها حتى إذا زرناها اهتدينا إليها، وحتى لو زار الإنسان قبر والده في مقبرةٍ فيها قبور ولم يهتدِ إليه، فالدعاء يصل؛ لكن لشيءٍ في نفوس الناس يحبُّون ذلك وهو موافق للسنة أن يعلِّم الإنسان قبر من يحب حتى إذا زاره وقف عند قبره، والنبي عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لما دفن عثمان بن مظعون قَالَ: «**هو فَرَطُنا إلى الجنة**»، فلما فرغ من دفنه ﷺ وضع عند رأسه صخرة كبيرة وقال: «**أتعلَّم بها قبر أخي**» أيْ أعرفه إذا أردت أن أزوره مرةً أخرى؛ فتعليم القبر مشروع لا أحد ينهى عن ذلك، لكن الكتابة عليه بكتابةٍ مُفهمة هي التي نهى عنها النبي عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

الصلاة عندها: نهى النبي عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عن الصلاة عندها، والصلاة لها أشد منعًا؛ ولهذا ثبت عند الطبراني في الأوسط أن النبي ﷺ: «**نهى أن يُصلى على الجنائز بين المقابر**».

ونحن الآن نصلي على الجنائز بين المقابر، فهل ما يفعله الناس الآن صحيح أم باطل؟ ما يفعلونه صحيح، ولا نتردد في هذا؛ من حيث أن بعض الناس ربما يأتون للصلاة على غائبهم أو لم يدركوا الجنازة في المساجد فيصلون عليها في المقبرة. فالنهي الذي ورد ليس مقصوداً به المنع المطلق الذي يُبطل الصلاة، وإنما المقصود بالنهي أن تُعطل المساجد من

الصلاة على الموتى؛ فالأصل أن يُصلى على الميت في المساجد.

فإذا رُفعت الجنازة وذهبت إلى المقبرة، فحق الميت أن ينتفع بدعائك.

وحتى لو صلى قريباً من القبر على الميت في قبره جاز ذلك ولا ينهى عنه أحد، لو دُفنت جنازة، وأحد المشيعين قريبٌ للميت، وبينه وبين القبر الذي سيصلي عليه قبران أو ثلاثة، فلو تخطى ووقف عند القبر وصلى صلاة الميت جاز ذلك؛ لماذا؟ لأن النبي فعل ذلك في ثلاثة من الصحابة. لما بلغه ﷺ أن المرأة السوداء التي كانت تقُمُّ المسجد ماتت من الليل، فكرهوا أن يوقظوه ﷺ، فلما فقدها سأل عنها قالوا: "ماتت البارحة يا رسول الله"، قال: «**دلوني على قبرها**»، فدلوه على قبرها فصلى عليها بعد أن دُفنت بين المقابر.

وكذلك حبيب بن حباشة صحابي جليل مات رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وصُلّي عليه وكان النبي غائباً، فذهب النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ ووقف على قبره وصلى عليه.

وكذلك عمرة بنت مسعود -امرأة صالحة هي أم سعد بن عبادة سيد الخزرج-، وهي التي قال فيها النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ لما قال سعد بن عبادة: "إن أمي ماتت فأي الصدقة أفضل؟" قال: «**سقي الماء**»، فكان يسقي الماء لأمه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، فلما بلغ النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ أن أم سعد بن عبادة ماتت وقد كانت مريضة قبل ذلك، وقف على قبرها وصلى على قبرها.

فهذه الأمور تختلط على الناس من حيث أنهم يظنون أن هذا النهي -لما نهى عن الصلاة على الموتى بين المقابر- أن ما يقع فيه الناس خطأ؟! بل ما يقع فيه الناس صواب. لكن النهي في ذلك -والنهي صحيح عند الطبراني في الأوسط- عن أن يُكتفى بهذا عن محل الصلاة عليهم الأصلي الذي هو المساجد.

وأنتم تلْحظون مع زحام الناس -وخاصة من زحمة الشوارع في هذي الطرقات-، يخرج الإنسان للصلاة على الجنازة من بعد الظهر، وإذا وصل فاتته الجنازة ورُفعت، فيضطرون أن يصلوا على الجنازة في المقابر، وهذا تداركٌ لحق الميت.

من فتنة القبور أيضـًا: أن تُقصد العبادة في المقابر على غير دليل من الكتاب والسنة؛ فالمقابر ليست محلاً للعبادة إلا لثلاثة أنواع من العبادة لا رابع لها:

١- تذكُّر الآخرة؛ لقوله ﷺ: «**كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها، فإنها تذكركم الآخرة**».

٢- أن يُصلى على الميت إذا فاتت الإنسان الصلاة على الميت في المسجد.

٣- اتباع النبي ﷺ في دفن الميت، وحُسْن لحده، وأن لا يُرفع القبر، وأن لا يوطأ حتى لا يُمتهن.

فصارت القبور ليست محلاً للعبادة، وإنما هي محلٌ للدعاء إذا ورد: «**السلام عليكم ديار قوم مؤمنين**»، وليتذكر الآخرة وليدعو للميت، وأن يُتعامل مع المقابر المعاملة الشرعية؛ فلا يُرفع القبر، ولا يوطأ ويُمتهن، ولا يُجصص، ولا يُكتب عليه، ولا ما أشبه ذلك، وأن لا يُسرج عليه أيضًا -بمعنى أن لا توضع عليه قناديل ومصابيح-، إلا إذا احتاج الإنسان إلى ذلك لأجل دفن الميت، وهذا كثيراً ما يقع في هذه البلاد وغيرها في ليالي رمضان؛ يكون الناس في رمضان صائمين أو الحر شديد فيدفنون من الليل، فيحتاجون إلى مصابيح -يُسرجون مصابيح- على القبر وقت الدفن، هل هذا من الإسراج الذي نهى عنه النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؟ لا، هذا إسراجٌ لمصلحة الميت.

وقد قالت عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: «**ما علمنا بدفن رسول الله ﷺ حتى سمعنا صوت المساحي من آخر الليل ليلة الأربعاء**»، فالصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ دفنوا نبينا ﷺ ليلاً، هل يُتصوَّر أنهم دفنوه بغير نورٍ يرون به طريقهم؟ فإذاً يحتاجون إلى الإسراج لأجل إصلاح لحد الميت الذي يُدرج فيه، وإصلاح كفنه، إلى غير ذلك.

ومن فتنة القبور وتجاوز الناس في هذا الباب: أن الذين لا يحبون أن يتذكروا الآخرة يقلبون القبور إلى محالٍّ غير موحشة؛ مسطّحات خضراء واستراحات وغير ذلك. الأصل في

المقابر أن تكون على ما هي عليه -مقابر السنة والجماعة- حتى تكون مذكِّرةً بالآخرة، لما كان النصارى لا يريدون الآخرة صارت مقابرهم حدائق وأشجار وأكاليل زهور؛ وهذا يبيع طعامًا، وهذا يبيع.. لأنهم لا يريدون أن يتذكروا الآخرة، فصارت مقابرهم متنزهات؛ هذا يلعب بالدراجة مع عياله! بمعنى أنها ما صارت تذكر بالآخرة، بل جعلوا هذا العناية والتزويق حتى لا يُكدِّر عليهم ذِكْر الموت.

لكن لو كانت القبور ليس بها هذا التزويق الذي عند اليهود والنصارى، صارت تذكِّر بالآخرة. ومع ذلك لابد أن تُصان وتُحتاط من النجاسات وغير ذلك، كما كانت وما زالت عليه مقابر أهل السنة والجماعة.

أما فتن التماثيل والتصاوير التي ذكرها الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لما قال: (**فَهَؤُلَاءِ جمَعَوا بَيْنَ الْفِتْنَتَيْنِ: فِتْنَةِ الْقُبُورِ، وَفِتْنَةِ التَّمَاثِيلِ**)؛ ففتنة التماثيل هي الفتنة التي لا ساحل لها؛ من حيث أن فتنة المقابر محفوفة بأسوار المقبرة، أو ما يقع في قلوب الناس من تعظيم القبور والتعلُّق بالموتى، لكن فتنة التماثيل والتصاوير في جيوب الناس، وفي بيوتهم، وفي سياراتهم، وفي عمارهم، وفي كل مكان؛ ولهذا يحتاط الإنسان لهذا ولهذا، من حيث أن الفتنة بالقبور أوصلت المشركين إلى عبادة الموتى من دون الله، والفتنة بالتماثيل هي التي أوصلت وَدّ وَسُوَاع وَيَغُوث وَيَعُوق وَنَسْر -وكانوا أناسًا صالحين-، هي التي أوصلت الناس إلى عبادتهم من دون الله؛ لأنهم هم الذين صنعوا لهم تماثيل، فلما نُسخ العلم -كما قال ابن عباس-: «لما نُسخ العلم وهلك أولئك، جاء جيلٌ فقال الشيطان: إنما كان آباؤكم يستسقون بهم فيُمطرون، ويستنصرون بهم فيُنصرون؛ فعُبدت من دون الله».

ولما نهى النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عن التجاوز في القبر والدفن، ونهى عن التصاوير والتماثيل والصورة، وقال: «**أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِينَ يُضَاهُونَ بِخَلْقِ اللهِ**»؛ لأن هذه ذريعةٌ إلى انحرافٍ عن التوحيد، وهذه ذريعة إلى انحرافٍ عن التوحيد.

فإذا قال الإنسان: "أن الناس لا يخفى عليهم التوحيد، ولا يخفى عليهم الشرك، ولا يُتصور أنهم سيعظِّمون الصورة الفلانية بالميدان الفلاني"، يقال: هؤلاء ليسوا بأعلم بالتوحيد من أصحاب النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الذين دخلوا معه عام الفتح ومكة حولها ثلاثمائة وستون صنمًا، وهم رأوا الآيات، ورأوا شواهد نبوته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وصلوا وراءه، وصاموا معه، وجاهدوا بين يديه، إلى غير ذلك مما هو بعضه يؤكد التوحيد في القلب فكيف بكلِّه؟

ومع ذلك، لم يَكِل النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الصحابة لما في قلوبهم من إيمان كالجبال، بل كسَّر الأصنام بيده، كسّرها بيده مع أنها قريبًا من الكعبة الذي هو بيت الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أخذ يحطمها بحربته ويقول: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ۚ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[الإسراء:٨١].

هاتان الفتنتان بابان -وأبواب الشرك ليست هذه فقط، ثبتنا الله وإياكم-؛ الذي يتساهل فيهما ربما يكون عنده شيء من التردد في الثبات الذي كان عليه ثبات الأولين، ربما يتساهل في بعض المسائل التي تتعلق بتزويق القبور وترخيمها وغير ذلك، يقول: "الناس ما عاد تعبد القبور، نعمل هذا فقط حتى لا يبقى شكل القبر غير جيد"؛ فالثبات على هذا لا يأخذ الناس بالعظمة ولا يقسى عليهم في الدعوة للتوحيد، لكن يُعلم أن النبي ما نهى عن شيء إلا وفِعله يضر، وما أمر بشيء إلا والخير كله في فعل الخير الذي أمر به عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَلَهُمَا عنها رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت: «لمَا نُزِلَ برَسُول الله ﷺ، طَفِقَ يَطْرَحُ خَميصَةً لَهُ عَلَى وَجْهِهِ، فَإِذَا اغْتَمَّ بِهَا كَشَفَهَا، فَقال وَهُوَ كَذَلِكَ: لَعْنَةُ اللهِ عَلَى اليهُودِ وَالنَّصَارَى، اتّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ -يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا، وَلَوْلا ذَلِكَ أُبْرِزَ قَبْرُهُ، غَيْرَ أَنَّهُ خُشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِداً-» أَخْرَجَاهُ.

وَلِمُسْلِمٍ: عَنْ جُنْدُبِ بنِ عَبْدِ اللهِ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ وَهُوَ يَقُولُ: «إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ، فَإِنَّ اللهَ قَدْ اتَّخَذَنِي خَليلاً كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَليلاً، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً مِنْ أُمَّتِي خَلِيلاً؛ لاتَّخَذْتُ أَبَا بِكْرٍ خَليلاً. أَلَا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، إِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ».

فَقَدْ نَهَى عَنْهُ فِي آخِرِ حَيَاتِهِ، ثُمَّ أَنَّهُ لَعَنَ - وَهُوَ فِي السِّيَاقِ - مَنْ فَعَلَهُ، وَالصَّلاةُ عِنْدَهَا مِنْ ذَلِكَ -وَإِنْ لَمْ يُبْنَ مَسْجِدٌ- وَهُوَ مَعنى قَوْلِهَا: خُشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِداً، فَإِنَّ الصَّحَابَةَ لَمْ يَكُونُوا لِيَبْنُوا حَوْلَ قَبْرِهِ مَسْجِداً.

وَكُلُّ مَوْضِعٍ قُصِدَتِ الصَّلاةُ فِيهِ فَقَدْ اتُّخِذَ مَسْجِداً، بَلْ كُلُّ مَوْضِعٍ يُصَلَّى فِيه يُسَمَّى مَسْجِداً؛ كَمَا قال النبي ﷺ: «جُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ مَسْجِداً وَطَهُوراً».

وَلِأَحْمَدَ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ: عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعاً: «إِنَّ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ: مَنْ تُدْرِكُهُم السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءٌ، وَالَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ». وَرَوَاهُ أَبُو حَاتِمْ فِي صَحِيحِه.



قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ الله:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه.

أما بعد:

كانت القراءة في المجلس السابق عند قول الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب بن

سليمان بن علي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (بَابُ مَا جَاءَ مِنَ التَّغْلِيظِ فِيمَنْ عَبَدَ اللهَ عِنْدَ قَبْرِ رَجُلٍ صَالِحٍ؛ فَكَيْفَ إِذَا عَبَدَهُ؟!)، وتقدَّم الكلام عن حديث (عَائِشَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ أُمَّ سَلَمَةَ ذَكَرَتْ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ كَنِيسَةً رَأَتْهَا بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ، وَمَا فِيهَا مِنَ الصُّوَرِ، فقال: «أُوْلئكَ إِذَا مَاتَ فيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ -أَوِ الْعَبْدُ الصَّالِحُ- بَنُوا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِداً، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ، أُوْلَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللهِ»).

وكان مما تقدم أن ترجمة الباب تبين أن هناك فرقًا ما بين من عبد الله ﷻ عند قبرٍ يعتقد صلاح صاحبه، وبين من عبَد القبر من دون الله؛ ولهذا قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فَكَيْفَ إِذَا عَبَدَهُ؟!)؛ إذا كانت عبادته عند القبر بدعة وذريعةٌ للشرك، وليس عند القبر شيء من العبادات إلا تذكُّر الآخرة والدعاء للميت والإحسان إليه من حيث لحده ودفنه، وما سوى ذلك من القُرَب فليس محلها المقابر؛ حتى أن أهل العلم كانوا ينهون عن الصدقة في المقابر كسقي الماء وغيره، حتى لا يكون ذريعة لأن تكون المقابر محلاً للقُرُبات.

وقد دفن النبي ﷺ أصحابه في الشتاء والصيف، في الليل وفي النهار، ومع ذلك ما كانت المقابر في نظر الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ محلاً للقربات.

فالمقصود أن المقابر ثبتت السنة فيها عن النبي ﷺ، وجاءت بها أحكام وعليها فهم الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، ومن ذلك أن المقابر ليست محلاً للعبادة.

والذين يعبدون الله ﷻ عند قبر رجلٍ صالح إنما حملهم على ذلك أحد أمور: إما لاعتقادهم بركة المكان لأن صاحبه رجل صالح، وقول الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا: (فِيمَنْ عَبَدَ اللهَ عِنْدَ قَبْرِ رَجُلٍ صَالِحٍ) فيما يراه الذين يقصدون العبادة عنده، فقد يكون غير صالح، وقد يكون قبراً وهميًا، وقد يكون من ضُلَّال الصوفية، فقوله (عِنْدَ قَبْرِ رَجُلٍ صَالِحٍ) يعني فيما يظنون، ومع ذلك منهيٌ عن ذلك، فكيف إذا عبده؟ إذا عبده صرف العبادة لغير الله، ولو كان يصلي ويصوم وشعاره شعار أهل الإسلام، إن عبد غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فهو مشرك شركًا أكبر، كما

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾[المائدة:٧٢].

فإذا عَبَدَ الله عَزَّوَجَلَّ -والكلام هنا على من عبد الله وقصد بالعبادة الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- فإما أن يعتقد بركة المكان، أو أن يعتقد بركة العبادة عند هذا المكان، أو أن يعطِّل المساجد ويصلي في المقابر، وكل هذا خلاف السنة، وأشد منها كُلها من عَبَد صاحب القبر من دون الله.

وتقدم أيضًا الكلام على أن أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لما دخلت الكنيسة، ووصفت ما كان فيها للنبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ليس في هذا دليلٌ على جواز دخول المسلمين في كنائسهم وأديرتهم ومحل عبادتهم؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قال: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[الأنعام:٦٨]، والظالمون هنا الظلم الأكبر الذي هو الشرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهذا خطاب الله لنبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وخطاب الله للأمة، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾[النساء:١٤٠]. ليس معنى ذلك أنه إذا سكتوا عن الكفر تجلس معهم وأنت تعلم أنهم سيعودون إليه بعد ذلك، إنما قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ حتى يتركوا باطلهم، سواء بمحضري أو بغيابي وعدم حضوري.

ومثل ذلك قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾[الفرقان:٧٢]؛ أيْ لا يشهدون أعياد النصارى في كنائسهم، ولا يحتفون بما هم عليه من كفر وشرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والباب في هذا سيأتي الكلام عنه بالتفصيل؛ الباب في هذا يا إخوان تقدم تقريره في الإسلام في أوائل ما نزل من القرآن؛ المفاصلة ما بين شعار الكفر وشعار التوحيد، ومحل العبادة ومحل الشرك بالله. نزل في أول ما نزل من الإسلام، سورة الفرقان سورةٌ من العتاق

الأُوَل، يعني أنها نزلت في أول الإسلام، وفيها قول الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾[الفرقان:٧٢]. والزور المذكور في هذه الآية جمهور المفسرين على أنه المقصود به أعياد المشركين.

وقد قال النبي ﷺ في الصحيحين كما هو معروف؛ أن أبا بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ لما نهر الجاريتين يوم العيد، قال له النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «يَا أَبَا بَكْرٍ، إِنَّ لِكُلِّ قَوْمٍ عِيدًا وَهَذَا عِيدُنَا». ففيه فائدتان:

الفائدة الأولى: أن العيد شعارٌ للملل؛ كل أمةٍ لها عيدٌ هو شعارٌ لملَّتها، فالنيروز والفصح وغير ذلك -بغض النظر عن أن تكون محلاً لتوزيع الطعام أو غير ذلك-، فهي أعيادٌ متعلقة بدين، وعيدنا كذلك عيدٌ متعلِّقٌ بعبادة؛ فعيد الفطر متعلقٌ بتمام فريضة الصيام، وعيد الأضحى متعلقٌ بتمام الوقوف في عرفة؛ فالعيد له تعلُّقٌ بالعبادة، والعبادة تميز الملل بعضها عن بعض، وقد قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في الكافرين: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[الكافرون:٦]، ومفهومه: كل دين له ما يميزه عن غيره من الأديان.

فأم سلمة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا لما دخلت الكنيسة ما قصدتها من المدينة أو من بلاد المسلمين إلى بلاد النصارى، وإنما كانت مع المهاجرين، ومع ذلك ما وقع منها رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا وأرضاها عن علمٍ منها بالحكم أو عن غير علم؟ عن غير علم، ما زال الإسلام غضًّا طريًا حديثًا بالناس، وأم سلمة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا وغيرها من الصحابة يخفى عليهم مثل هذه التفاصيل.

المفيد في هذه القصة أن النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ لما جاءت أم سلمة ووصفت له هذه الكنيسة التي رأتها -تسمى كنيسة مارية- ما وصفت للنبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ الصلبان، وإنما وصفت ما فيها من التصاوير؛ على طبيعة النساء أنه يبهرهن الشيء الذي فيه تزويق وفيه ألوان وفيه أصباغ وكذا، فذكرتها للنبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ لسببين:

السبب الأول: أن مثل هذه تبهر النساء لكن لا تبهر البشر الرجال؛ فما رأته أم سلمة رآه الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ الذين كانوا معها في الهجرة، وإنما وصفته أم سلمة دون غيرها.

السبب الثاني: أن أم سلمة لما وصفت ذلك للنبي كان النبي ﷺ في السياق -بأبي هو وأمي-، بمعنى أن النبي اشتد عليه المرض، فأرادت أن تسليه تظن أن هذا يسليه ﷺ، ومع ذلك لما قالت ذلك ما نظر النبي إلى ما بَهَرَها من التزويق، وإنما نهى النبي ﷺ عما كان عليه النصارى من حيث أنهم: «إِذَا مَاتَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا»؛ يعني محلاً للسجود، ليس المقصود بالمسجد المسجد الذي له سقف وقُبَّة ومنارة، وإنما قصدوا السجود عنده لبركة المكان في قلوبهم، أو لأنهم يرون أن العبادة عنده أعظم شأناً وبركةً من العبادة خارجه؛ فسواء هذا أو هذا كله مما أحدثه النصارى وتلقّفه بعض الطوائف المنحرفة عن السنة ممن ينتسبون للإسلام.

وقول الشيخ الإمام المجدد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (جمَعَوا بَيْنَ الْفِتْنَتَيْنِ: فِتْنَةِ الْقُبُورِ، وَفِتْنَةِ التَّمَاثِيلِ)؛ فتنة القبور لأن الناس يتعلقون بالموتى، لأنه في زعمهم -الذين يتعلقون بالموتى- أن الميت انتقل من عالم الشهادة إلى عالم الغيب، وأنه اقترب إلى الرب -فيما يزعمون- وظهرت له معالم الآخرة، وأن الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أطلعه على شيءٍ لم يطلعنا عليه؛ فيتعلقون به من دون الله.

ولهذا النبي عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لما نهى عن العبادة عند القبر -سواء قصد بالعبادة القبر أو قصد بالعبادة العبادة ذاتها عند القبر-، فقد نهى النبي عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عما هو أقل من ذلك، من حيث أن النبي عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ «نَهَى أَنْ يُجَصَّصَ الْقَبْرُ»؛ فالبناء عليه من باب أولى.

التجصيص: أن يلطخ الجص على القبر على الدفان، هذا منهيٌ عنه؛ فكيف إذا كان رخاماً؟ كيف إذا كان غالي الثمن؟ كيف إذا كان بناءً؟ كيف إذا كان محلاً للعبادة عنده؟ هذا من باب أولى أن يكون محرماً.

ونهى النبي ﷺ أن يُسْرَج على القبور -أن يوقد عليها القنديل-، بمعنى أن إيقادها في الليل ربما سوَّغ للناس قصدها في الليل الذي هو محل قيام الليل، ومحل خلوة النفس وسكونها، والإقبال على العبادة في الغالب يكون إذا هجع الناس في الليالي؛ فنهى النبي عن

إسراجها حتى لا يكون ذلك باعثاً إلى الصلاة عندها، أو لغير ذلك من أسباب تعظيمها، وإلى غير ذلك.

ونهى النبي ﷺ أن يُقعد عليها أو أن توطأ؛ من حيث أن الميت المسلم حُرْمته محفوظة حياً وميتاً؛ ولهذا نهى النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ صاحب السبتيتين -الذي كان يمشي بسبتيتين في حذائه من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: «يَا صَاحِبَ السِّبْتِيَّتَيْنِ، أَلْقِ سِبْتِيَّتَيْكَ»؛ يعني احتراماً للمرور ما بين الموتى، فالموتى مسلمون ولهم احترامهم أحياءً وأمواتاً؛ فالسنة أن يأخذ حذاءه بين يديه إذا مر ما بين المقابر، أو أن يتجنب المقابر كلها.

ومما نهى عنه النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنه نهى عن الكتابة؛ نهى النبي ﷺ «أَنْ يُجَصَّصَ الْقَبْرُ، وَأَنْ يُكْتَبَ عَلَيْهِ، وَأَنْ يُبْنَى عَلَيْهِ، وَأَنْ يُوطَأَ»، والكتابة بمعنى الكتابة التي يُفهم منها مراده، حتى ولو كانت قليلة ويسيرة؛ فإذا نهى النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن يُكتب على القبر: "هذا قبر زيد أو عمر"، فمن باب أولى أن يكون النهي شاملاً ما هو أكثر من ذلك؛ "مات في يوم كذا بسبب كذا" أو "الفاتحة على روح فلان" أو غير ذلك مما تجاوز فيه الناس تجاوزاً بعيداً عن السنة.

ولو قصد الإنسان بذلك تعليم القبر؛ فتعليم القبر سنة، لكن ليس بهذه الطريقة؛ لما مات عثمان بن مظعون رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وضع النبي ﷺ على قبره صخرة وقال: «أَتَعَلَّمُ بِهَا قَبْرَ أَخِي، وَأَدْفِنُ إِلَيْهِ مَنْ مَاتَ مِنْ أَهْلِي»، وهذا بحد ذاته فيه سنة؛ منها أن الإنسان من باب الوفاء -والنبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يقول: «حُسن العهد من الإيمان»- وحفظ فضيلة المتوفى أن يزور قبره.

زيارة القبر قصداً لصاحب القبر الذي هو زيدٌ أو عمرو هو ثابتٌ عن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لهذا الحديث، وضع صخرة على قبر عثمان بن مظعون وقال: «هُوَ فَرَطُنَا إِلَى الْجَنَّةِ» -أي هو سابقنا إلى الجنة-، وقال: «أَتَعَلَّمُ بِهَا قَبْرَ أَخِي». وشيباننا الآن وأعمامنا وإخواننا ونحن أيضاً نضع علامات على القبر؛ إما شماغاً أو عقالاً أو شيئاً يميِّز القبر هذا عن غيره بمجرد التمييز فقط، ولا إنكار في ذلك.

المنهي عنه الكتابة، والمنهي عنه التجصيص وما فوق التجصيص، والمنهي عنه أن يوضع عليه أكاليل زهور، وعند الناس نوعٌ من الانحراف في هذا؛ أنه ربما نثر بذراً من نبت معيَّن حول القبر وسقاه، فمثل هذا كله مما أحدثه الناس.

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فَهَؤُلَاءِ جمَعَوا بَيْنَ الْفِتْنَتَيْنِ: فِتْنَةِ الْقُبُورِ، وَفِتْنَةِ التَّمَاثِيلِ).

وفتنة التماثيل تشمل التصوير والتمثال الذي له ظل، والنبي ﷺ لما نهى ذكر وعيداً على الفعل: «أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْمُصَوِّرُونَ»، فلما ذكره النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بهذا النهي الشديد ولعن على ذلك، فحريٌّ بالمسلم ألا يتساهل في ذلك ويقول: "التصوير الفلاني يجوز"؛ لأن الأمر متعلق بكبيرة من كبائر الذنوب، ناهيك عن أنه ذريعةٌ إلى الشرك.

فالإنسان لا يتحيَّن أو يتلمَّس الأعذار في مثل هذا وهو يرى أن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لعن عليه؛ الإنسان إذا ورد نهيٌ عن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ولعن عليه، أو ذكر وعيداً عليه في النار أو قَالَ: «لَيْسَ مِنَّا»، لا يتمحَّل الإنسان حتى يُخرج منه بعض أنواعه حتى يجوِّزه لنفسه أو لغيره، إنما ينأى بنفسه ويفر المسألة متعلقة بالوعيد، فإذا كان مجسَّماً له ظل فلا شك أنه أشد.

وحتى يُعلم أن فتنة التماثيل والتصاوير دخلت كل بيت، ومن ذلك بيت النبوة ﷺ، ليس قصداً من أمهات المؤمنين وأهل البيت، لكن قد تكون في بعض المنسوجات، قد تكون في بعض الأواني؛ لأن الذين كانوا يصنعون الأواني في زمن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ اليهود، واليهود صاغة وصُنَّاع، فربما وضعوا فيها بعض التصاوير، والذين ينسجون أيضاً اليهود؛ فربما دخلت في بيوت المسلمين.

ففي صحيح البخاري أن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت: «مَا تَرَكَ النَّبِيُّ ﷺ فِي بَيْتِهِ تَصَالِيبُ إِلَّا نَقَضَهَا»، وفي حديثٍ آخر عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أنها سترت سهوة في بيتها بقرام فيه تصاوير؛ بمعنى أن التصليب والتصوير دخل حتى بيت النبوة، ومع ذلك ما تساهل فيه النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ نقض التصاليب وهتك القرام الذي فيه التصاوير، وأمر عائشة أن تصنع منه

وسادتين منبوذتين توطآن -أيْ أنها تُمتهن-.

فإذا قال الشيخ أن هذه من الفتن؛ قصد بذلك أنها عمَّت وطمَّت وصارت في كل بيت، مهما تحرى الإنسان ونظَّف بيته، اليوم غداً عقب شهر ستعود من منتوجات أو مصنوعات لا بد، وهذا نوعٌ من التمحيص، وأيضًا يكون فتحًا لباب توجيه الذرية بأن هذا مما حرَّمه الله ﷻ وحرَّمه الرسول عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وَلَهُمَا عنها**) أيْ عن عائشة (**رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا قالت: «لمَا نُزَلَ برَسُول الله ﷺ، طَفِقَ يَطْرَحُ خَميصَةً لَهُ عَلَى وَجْهِهِ»**)، الخميصة يعني قطعة القماش المبللة بالماء؛ لأن النبي عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ارتفعت حرارته في آخر عُمره المبارك ﷺ، فكان يطرحها على وجهه حتى تخفف حرارته، ومع ذلك إذا اغتم بها -أي إذا أراد أن يتنفس- كشفها.

وفي هذا الحال الشديد، حال المرض الذي كان آخر حياته ﷺ، كان النبي عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ على مثل هذه الحال الشديد يحذِّر أمته مما وقعت فيه الأمم من الانحراف الذي قد يكون سببًا للوقوع في الشرك الأكبر.

قالت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا: (**فَإِذَا اغْتَمَّ بِهَا كَشَفَهَا، فَقال وَهُوَ كَذَلِكَ**) يعني على هذه الحال: (**«لَعْنَةُ اللهِ عَلَى اليهُودِ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ» يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا، وَلَوْلَا ذَلِكَ أُبْرِزَ قَبْرُهُ، غَيْرَ أَنَّهُ خُشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِداً**). هذا الحديث رواه البخاري ومسلم.

وفيه مسائل:

قوله ﷺ: «**لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**»؛ ليس سبب اللعن لليهود والنصارى أنهم اتخذوا القبور مساجد فقط، بل هذه وغيرها، من أسباب لعن اليهود والنصارى: تكذيبهم للأنبياء وتحريفهم لشرع الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ. وقد ذكر الله ﷻ أن أنبياءهم لعنوهم: ﴿**لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ**﴾[المائدة:٧٨]؛ داود من أنبياء اليهود، وعيسى بن مريم بعثه الله ﷻ بالإنجيل للنصارى، فهم ملعونون على

ألسنة أنبيائهم، وهم المغضوب عليهم والضالون؛ كما في حديث عدي بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «الْمَغْضُوبُ عَلَيْهِمُ الْيَهُودُ، وَالضَّالُّونَ النَّصَارَى».

والنصارى ضلالهم لا يُشبه ضلال أحدٍ من الطوائف؛ لا ممن ينتسب للإسلام وهو كاذب، أو ممن ينتسب للإسلام وهو من أهل القبلة ومخطئ في ذلك، ولا ممن ينتسب إلى مللٍ غير الإسلام؛ ما ضل أحدٌ في ربه مثل ما ضل النصارى، وكل ضلالٍ اختاروه لأنفسهم وصفه الله عَزَّ وَجَلَّ بالكفر.

هنا مسألة يا إخواني: هل يسمى النصارى واليهود "أهل كتاب" أو "مشركين" أو "كفار"؟

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾[النساء:١٧١]؛ فسماهم الله عَزَّ وَجَلَّ أهل كتاب، لكنهم أهل كتاب ومشركون وكفار؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال في سورة المائدة عن عيسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾[المائدة:٧٢]. فالذي يقول أن النصارى أهل كتاب؛ هم أهل كتاب من حيث أنهم مِلَّةٌ أنزل الله عَزَّ وَجَلَّ على نبيهم كتابًا، لكنهم ما حفظوه وحرَّفوه وزادوا ونقصوا؛ هذا من حيث انتسابهم للكتاب، ليس انتسابهم لمن استقام على كتابه، وإنما انتساب من فضَّله الله بكتابٍ لكنه دفع الفضل عن نفسه، وهذا يقال في اليهود وفي النصارى.

وهم مشركون؛ لقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ﴾[التوبة:٣١]. ولهذا عدي بن حاتم لما قال: يا رسول الله ما كنا نتخذهم أربابًا، قال: «أَلَيْسُوا يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللهُ فَتُحَرِّمُونَهُ، وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَتُحِلُّونَهُ؟» قال: أما هذه فنعم، قال: «فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ»؛ يعني شرك الطاعة يُخرج الإنسان من كونه عبداً لله عَزَّ وَجَلَّ إلى أن يكون عبداً لمن أطاعه في مقابلة ما أمر الله، أو ما نهى الله عَزَّ وَجَلَّ عنه.

وفي مصنف عبد الرزاق وابن أبي شيبة وغيرهم، وهو مما صححه ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في "أحكام أهل الذِّمَّة" -وهذا مفيد جداً أن يكون حاضراً في أذهانكم، خاصة في هذه الأيام

والناس على أبواب الاحتفالات النصرانية-، قال عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، والنبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ قال: «**إِنَّ اللهَ جَعَلَ الْحَقَّ عَلَى لِسَانِ عُمَرَ وَقَلْبِهِ**». وابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يقول: "كنا نقول إن بين عيني عمر ملكًا يسدده".

عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال في حديث: «لا تعلموا رطانة الأعاجم»، ثم قال رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «ولا تدخلوا على المشركين في كنائسهم يوم عيدهم؛ فإن السخطة تنزل عليهم». «ولا تدخلوا على المشركين» وصفهم بالمشركين، ما قال المشركين عند أصنامهم، قال: «المشركين في كنائسهم».

إذن النصارى الذين يُنسبون إلى الكنائس مشركون؛ لهذه الأدلة من كلام الله ﷻ وكلام النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، ولهذا الأثر وغيره من آثار عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وغيره من الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ.

وفي قوله يا إخوان: «فإن السخطة تنزل عليهم»؛ ليس المسلم ضيِّق الفهم حتى يظن أن السخطة المقصود بها المفاجأة أو العذاب الذي يأتي فجأة؛ أن يؤخذ بالزلزال أو أن تحترق الكنائس، لا، هو أعظم وأشد من ذلك؛ يعني أن تحترق الكنيسة -سواء بسببٍ أو بغير سبب-، ويموت من فيها على الكفر -والعياذ بالله-، هذا مما يمنع الإنسان أن يجازف بعمره وبتوحيده في دخول هذه الأماكن.

لكن ما قصده عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ «أن تنزل السخطة عليكم»؛ يعني أن ينظر الله إليك وأنت بينهم فيسخط عليك سخطًا إلى يوم القيامة، والموعد يوم القيامة.

فأيهما أشد: أن يسخط الله ﷻ عليهم في الدنيا بعذاب .. بزلزال .. بحرق .. باختلافهم فيما بينهم ويقتتلون في كنائسهم كما وقع في بعض الأزمنة الغابرة، أو أن تُحفظ السخطة إلى يوم القيامة؟ يوم القيامة أشد؛ أن تنزل السخطة عليكم وأنتم بينهم، فيسخط الله ﷻ، كما أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يكره أن يرى عبده في مكانٍ نهاه عنه، وهذا من أشد ما يكون كراهية عند الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، أشد ما سُبَّ الله ﷻ به -ذو الجلال والإكرام سبحانه وبحمده-، أشد ما وقع من

المسبَّة أن يُنسب لله ﷻ الولد.

قال عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «لقد سبّوا الله ﷻ سبّةً ما سبّه بها أحد»، يعني لم يسبّ اللهَ أحدٌ من الكفار والمشركين من الأمم الغابرة كما سب النصارى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ هؤلاء يقولون هو الله، وهؤلاء يقولون هو ابن الله، وهؤلاء يقولون ثالث ثلاثة، وكلهم كفَّرهم الله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾[المائدة:٧٢]، ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ﴾[المائدة:٧٣]، وفي سورة التوبة قال الرب سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ ۖ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ﴾[التوبة:٣٠]. ما وصفهم بالبدعة؛ كل الطوائف وصفهم الله ﷻ بالكفر، مهما سموا أنفسهم بعد ذلك من الأسماء الحادثة: أرثوذكس، بروتستانت، كاثوليك؛ كلهم على هذا الاعتقاد؛ إما أن ينسبوا عيسى إلى الله ﷻ نسبة الولد، أو نسبة اللاهوتية التي اختلطت بالناسوتية -كما يقولون- حل في بدن عيسى، أو أن يقولوا ثلاثة: الأب والابن وروح القدس.

ولهذا انتشار النصرانية في كل زمان ومكان أكثر من انتشار اليهودية؛ لأن النصارى عندهم كَلَبٌ في الدعوة إلى نصرانيتهم وعندهم حرص على ذلك، واليهود ليس عندهم هذا الحرص؛ ليس لأنهم عاجزون عن هذا، وليس لأنهم كسالى في ذلك، لكن لأنهم يرون أن اليهودية شرَفٌ إنما تكون لـ"شعب الله المختار" فقط؛ فإذا أتى لليهود -ثبتنا الله وإياكم- من يريد أن ينتسب إليهم ويختارون اليهودية عن دينهم الذي هو دين آبائهم وأجدادهم، لا يدفعونه عنهم لكن يبقى أن عندهم الطبقية؛ مثل يهود الفلاشا الذين في إثيوبيا، ويهود الدونمة وغيرهم؛ فهم دخلوا في اليهودية لكنهم ليسوا من بني إسرائيل، قَبِلوهم باعتبار أنهم يكثّرون سوادهم.

لكن النصارى لا؛ عندهم كَلَبٌ -أيْ حرص- على دعوة للنصرانية، سواء بالقسر أو بأن يظهروا للناس وجه التسامح، أو وجه قبول الطرف الآخر، أو وجه أن عيسى بُعِث بالرهبانية

والتقلل من الدنيا واجتماع الآراء والتوجهات العقدية فيما بينهم.

فالمقصود أن النبي عَلَيْهِالصَّلَاةُوَالسَّلَامُ لما حذَّر من فتنة اليهود وحذَّر من فتنة النصارى، حذَّر التحذير الذي هو مقرونٌ باللعن؛ قال عَلَيْهِالصَّلَاةُوَالسَّلَامُ: («لَعْنَةُ اللهِ عَلَى اليهُودِ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ» يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا).

ثم قالت عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: (وَلَوْلَا ذَلِكَ أُبْرِزَ قَبْرُهُ، غَيْرَ أَنَّهُ خُشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِداً)، يعني لولا ذلك لأبرز الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ قبر النبي ﷺ، وهذا لا يعارض قول النبي عَلَيْهِالصَّلَاةُوَالسَّلَامُ: «مَا قُبِضَ نَبِيٌّ إِلَّا دُفِنَ حَيْثُ يُقْبَضُ».

لما قُبض عَلَيْهِالصَّلَاةُوَالسَّلَامُ اختلف الصحابة: أين ندفن رسول الله؟ وأبو بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ له عزمات وتوفيقات رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ كثيرة، منها هذه؛ لما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَا قُبِضَ نَبِيٌّ إِلَّا دُفِنَ حَيْثُ يُقْبَضُ»، فرفعوه ﷺ وحفروا تحت بساطه ودفنوه في المكان الذي قُبِض فيه.

قول عائشة: (وَلَوْلَا ذَلِكَ أُبْرِزَ قَبْرُهُ)؛ يعني حتى ما فعلوه لولا خشية الصحابة أن يتعلَّق الناس بالقبر وينحرفوا عن التوحيد الذي بُعِث به النبي عَلَيْهِالصَّلَاةُوَالسَّلَامُ، لنصبوا حجرته وجعلوا قبر النبي خارجاً، لكن أبقوا الحجرة على ما هي عليه؛ من حيث صيانة القبر أن يقع المشركون في تعظيمه.

ومع ذلك، لما دُفن معه عَلَيْهِالصَّلَاةُوَالسَّلَامُ صاحباه أبو بكر وعمر؛ فترتيبهم في الدفن كما هو معروف: أقربهم إلى القبلة سيد الأولين والآخرين ﷺ، وبين كتفيه أبو بكر وراءه، وعمر وراء أبي بكر؛ فهم على الترتيب من حيث أن النبي أقرب إلى القبلة ﷺ ثم أبو بكر ثم عمر.

لما ماتت عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا -وهذا من فقه الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ في التعامل مع القبور- دُفنت مع من دُفن من أمهات المؤمنين قبلها كأم سلمة وغيرهن في مقبرة البقيع، فبقيت الحُجرة فارغة ليس فيها أحد، وكانت عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا تضع ستراً على القبور احتياطاً لقول النبي عَلَيْهِالصَّلَاةُوَالسَّلَامُ: «لعن الله زائرات القبور»، وفي لفظ: «زوّارات القبور»؛ فمن كان بينه وبين

المقبرة ساتر -ولو كان سترة-، فما دون السترة محله وما وراءها مقبرة؛ هذا من فقه عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وكان مسروق بن الأجدع رَحِمَهُ اللَّهُ من خيار التابعين، إذا أراد أن يُسلِّم على النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تأمره عائشة نفسها بأن يرفع الستر، وأن يدخل ويسلِّم على النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وصاحبيه ثم يخرج.

هنا مسألة مهمة وهذا موضعها؛ ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: "الزيارة الشرعية التي كانت زمن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ منتفٍ وقوعها منذ قرون"؛ لأن الزائر لا يسمى زائراً حتى يقف عند المزور، والمزور الذي هو النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من قديم بين الناس وبين القبور الثلاثة الجدار الإسمنتي والسياج الحديدي والسترة، فليس هناك أحدٌ يدخل عند القبور، فلم يبقَ إلا الصلاة عليه ﷺ؛ ولهذا سهَّل على أمته لما قال: «**وَصَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ**».

وهذا من رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ أن صان الأمة عن التعلُّق بقبر أشرف الخلْق عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وهذا يصدِّقه قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ**». فاستجاب الله عَزَّوَجَلَّ دعاءه ﷺ؛ يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ:

ودعا بأن لا يُجعل القبر الذي ... قد ضمَّه وثنا من الأوثانِ
فأجاب رب العالمين دعاءه ... وأحاطه بثلاثة الجدران
حتى اغتدت أرجاؤه بدعائه ... في عزة وحماية وصيان

فلم يقع عند قبره عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ شيءٌ من الشرك ألبتة، منذ قُبض ودُفن ﷺ إلى هذا الزمن، وهذا من فضل الله وتسديده.

يقع من بعض من تولوا القيام على الحرمين بِدع كالقُبَّة الخضراء، وكان على جدار الحُجْرة أبياتٌ من بعض القصائد -التي يسمونها المدائح النبوية-، وربما يقع بعض الزائرين

في مخالفات كالوقوف خاشعًا كأنما يقف لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لكن ما ذُبح عند قبره ﷺ دم، وما سُجد على قبره، وما انتهب الناس -كما يفعل الرافضة وعُبَّاد القبور- شيئًا من تربته، ولا وضعوا على قبره عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كما يضع الناس أكاليل الزهور وغير ذلك؛ فهذا من صيانة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لهذه الأمة.

لما كان نبيها خاتم الأنبياء، وكتابها خاتم الكتب، وشريعتها خاتمة الشرائع، وهي خاتمة الأمم؛ جرت حكمة الله ﷻ أن يحفظ التوحيد لهذه الأمة، وأن لا يختلط على الناس توحيدهم كما اختلط عند اليهود وعند النصارى وعند غيرهم من الأمم السابقة.

ذكر ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتاب "الجواب الباهر في الرد على زوَّار المقابر" أن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا لما ماتت ودُفنت في البقيع، أزال الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ سقف الحُجرة، فصارت الحُجرة صورتها في صورة المقبرة؛ مثل مقابر النسيم وغيرها، جدران تحفظ حُرمة الموتى وألا يُمتهن القبر، ومكشوفة إلى السماء من حيث أنه لم يعد هناك بناء، كان السقف موجوداً لما كانت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا محتاجة إلى ما يكنُّها من المطر ومن الغبار ومن الشمس، فلما ماتت لم يبقَ للسقف حاجة، فأُزيل السقف وبقيت الحُجرة على أربعة جدران.

بعد ذلك لما احتاج الناس إلى توسعة المسجد، دخل جزءٌ من الحُجْرة -الذي هو الجدار الثالث-؛ كانت مربّعة ثم أُخِذ منها جدار فوصل الركنان بجدار واحد، فصارت مثلثًا كما ذكر ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

أول ما وقع هذا التغيير وقع والصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ لم يبقَ منهم أحد؛ إلا ما قيل جابر وكان كفيفًا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، لكن ما بقي من الصحابة أحد، بمعنى أنهم لم يرضوا بذلك.

بل حتى التابعون الذين كانوا في وقتها، لما دخل جزءٌ من الحُجْرة -التي فيها القبور الثلاثة في المسجد-، صار جدارها جداراً للمسجد، ما دخلت بحيث أحاطتها جدران المسجد؛ ما وقع ذلك إلا في سنة ٩٤هـ، ما بقي من الصحابة إلا أنس في البصرة، أو من كان

في المدينة كجابر وغيره، ومع ذلك كانوا يكرهون ذلك.

والذي أدخله بهذه الصورة الوليد بن عبد الملك، وكما هو معروف من خلفاء بني أمية؛ ليس صحابيًا ولا ابن صحابي، وقد اختُلِف في صحبة جده مروان بن الحكم؛ يقال أن له رؤية لكنه ليس صحابيًا، ولم يكن الأمير على المدينة وقتها -عمر بن عبد العزيز- صحابيًا، ولا أبوه صحابيًا عبد العزيز بن مروان، ولم يكن عبد الملك بن مروان صحابيًا؛ بمعنى أنه وقع من إنسان غير بصير بالسنة.

ومع ذلك كان هناك احتياطٌ بألا يُصرف للقبر شيءٌ مما نهى عنه صاحبه ﷺ؛ فقولها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: (وَلَوْلَا ذَلِكَ أُبْرِزَ قَبْرُهُ، غَيْرَ أَنَّهُ خُشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِداً)، يعني يُتَّخذ محلاً للسجود.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَلِمُسْلِمٍ: عَنْ جُنْدُبِ بنِ عَبْدِ اللهِ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ) أيْ بخمس ليالٍ (وَهُوَ يَقُولُ: «إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ، فَإِنَّ اللهَ قَدْ اتَّخَذَنِي خَلِيلاً كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خليلاً، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً مِنْ أُمَّتِي خَلِيلاً؛ لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خليلاً. أَلَا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، إِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ»).

إذا كان النبي ﷺ قد نهى عن ذلك فيما يتعلَّق بقبره، فأن يكون النهي فيما دونه تبعٌ لذلك، ولهذا سنة النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -يا إخواني- في هذا بأن لا يُسجد عند القبر، ولا يُجصص، ولا يُرفع.. ولا غير ذلك؛ سنته ظاهرة في قبره، والصحابة الذين ماتوا في المدينة -وأكثرهم مات في المدينة- ما رُفع قبر أحد منهم ألبتة؛ إذا قلنا أن أبا بكر وعمر دُفنا مع النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فعثمان في البقيع وباقي العشرة المبشرين بالجنة في البقيع، وعلي في الكوفة، والذين ماتوا من المهاجرين والأنصار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في المدينة أو في غير المدينة ما رُفع قبر أحدهم، أو ما أوصى أحدهم أن يُرفع قبره؛ من حيث أن هذا تعليمٌ نبوي، كانوا عليه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وأهلهم أيضًا أنفذوا وصية رسول الله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فيه.

وإنما رُفعت القبور بعد ذلك بفعل المتصوفة أو الذين يتعلَّقون بالجدَث -أيْ القبر-، لكن ليس من وصيتهم -حاشاهم- ولا يرضون بذلك لو كانوا أحياءً. ومع ذلك بعضها إنما رُفعت بعد ذلك -بعد موتهم- بدهرٍ طويل؛ كالقبر الذي يزعمون أنه قبر أبي أيوب الأنصاري في آيا صوفيا؛ ما رُفع القبر إلا بعد دهرٍ طويل وبنوا عليه مسجداً، وغيره من القبور.

أما الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ ما كان هذا من فعلهم -وحاشاهم-، ولا كان ذلك من وصيتهم ولا من وصية أبنائهم ولا من وصية أحفادهم؛ فسنة النبي ﷺ في المقابر ظاهرةٌ في قبره وأمره بذلك، وظاهرةٌ في قبور الصحابة ووصيتهم بأن لا تزخرف.

وعلى هذا أهل السنة والجماعة إلى هذا الزمن والحمد لله؛ يبقى أن القبر محلٌ وبعده نقلةٌ إلى الحساب والجزاء، لا يزخرف ولا يعظَّم ولا يُكتب عليه، ويبقى الدفن كما قال النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «أَنْ لَا تَدَعَ قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَّيْتَهُ».

الحديث عند مسلم أن أبا الهياج الأسدي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ -في خلافة علي، وهذا فيه مما يستشعر منه أن علياً لما كان خليفةً في الكوفة كانت الطوائف الضالة في الكوفة كثيرة؛ السبئية والروافض وغيرهم، والقَدَرِيَّة كانوا قبل ذلك قد ظهروا مع معبد الجهني وغيرهم، كان أثرهم في العراق أكثر من غيرها، فقول علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ لأبي الهياج الأسدي: أَلَا أَبْعَثُكَ عَلَى مَا بَعَثَنِي عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟ «أَنْ لَا تَدَعَ صُورَةً إِلَّا طَمَسْتَهَا، وَلَا قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَّيْتَهُ». وفي بعض ألفاظه: «وَلَا صَلِيبًا إِلَّا كَسَرْتَهُ». والخبر بكسر الصليب مذكورٌ في حديثٍ آخر، لما قال النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «يُوشِكُ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُمْ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا مُقْسِطًا»؛ يعني حكماً عادلاً، «فَيَقْتُلَ الْخِنْزِيرَ، وَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ، وَلَا يَقْبَلَ إِلَّا الْإِسْلَامَ، وليُهلكنّ الله في زمنه الملل كلها».

في هذا الحديث -حديث جندب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ- مسألة "الخلة"؛ الخُلَّة -يا إخوان- محبةٌ وزيادة، بمعنى أن المحبة هي تعلُّق القلب بالمحبوب، بغض النظر عن كونها شرعية يثاب عليها، أو أمراً طبعياً كمحبة الإنسان لزوجته أو غير ذلك؟

الخُلَّة محبةٌ وزيادة؛ بمعنى أن تستغرق الخُلَّة قلب الإنسان فيمن اتخذه خليلاً، فالمحبة درجات، لكن الخُلَّة درجةٌ واحدة؛ لأنها تستغرق القلب كله.

إذا فُهم الفرق بينهما، فلا يليق بالله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ أن يتخذ الإنسان مع الله ﷻ خليلاً؛ من حيث أن الله ﷻ لما اختار إبراهيم خليلاً، واختار محمداً ﷺ خليلاً، معنى ذلك أن قلب إبراهيم يجب أن يكون كله لله؛ ولهذا امتحنه الله بذبح ولده إسماعيل، ووجب أن يكون النبي عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قلبه كله لله؛ ولهذا ابتُلي في أهل بيته كلهم -ماتوا بين يديه-: خديجة، وزينب، وأم كلثوم، ورقية، وأبناؤه القاسم وعبد الله وإبراهيم؛ كلهم ماتوا وهو يرى عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

وفاطمة ماتت بعده بستة أشهر، وإبراهيم مات قبل موته بستة أشهر؛ بمعنى أن النبي عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ استنطف الله ﷻ من قلبه كل محبةٍ حتى يكون قلبه كله لله: «وَإِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ، فَإِنَّ صَاحِبَكُمْ خَلِيلُ اللهِ»، وفي لفظٍ آخر: «فَإِنَّ اللهَ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا».

ولهذا يقول أهل العلم في هذه المسألة: أن الله ﷻ اصطفى إبراهيم بالخُلَّة: ﴿وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾[النساء:١٢٥]، واصطفى موسى بالتكليم: ﴿قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي﴾[الأعراف:١٤٤]. أما سيد الأولين والآخرين عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إمام الأنبياء والمرسلين، فجمع الله له الأمرين كليهما؛ فاصطفاه الله ﷻ بالتكليم ليلة المعراج، واصطفاه الله ﷻ بالخُلَّة كما في هذا الحديث.

هذا فيما يتعلَّق بالخُلَّة التي هي صفةٌ لله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، لا فيما يتعلَّق بخُلَّته هو عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، والخلة التي هي صفةٌ لله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ مجراها مجرى سائر الصفات؛ ولهذا أنكرتها الجهمية، ولما أنكرها الجعد بن درهم قُتل على إنكارها وعلى غيرها من إنكاره للصفات.

أما فيما يتعلَّق بأن يتخذ الصحابيُّ النبيَّ ﷺ خليلاً فليس من هذا الباب، وأما أن يتخذ

زيدٌ أخاه عمراً خليلاً فليس من هذا الباب؛ من حيث أن هذا جائز وهو من الخُلُق الذي جعله الله ﷻ بين قلوب المؤمنين، ولهذا أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «أَوْصَانِي خَلِيلِي ﷺ»؛ فالنبي لم يتَّخذ أبا هريرة خليلاً على كرمه ومنزلته وفضله، لكن أبو هريرة يتّخذ النبي خليلاً -وهو صادقٌ في ذلك- من حيث أن قلبهم استوعبت محبة النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وتعظيمه وتقديم قوله -المحبة التي لا تصل بهم إلى انحراف الصوفية-؛ ولهذا غامروا بأرواحهم في الجهاد بين يديه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وإذا أمرهم بأمرٍ ابتدروا ولم يتوقفوا توقف اليهود والنصارى في أنبيائهم، بل يبادرون مباشرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

هذا يدلُّ على أنهم لا يقدِّمون محبةً على محبتهم لنبيهم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فالبحث هنا لا يتعلق بأن يحب أحدٌ النبيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أو أن يتخذه خليلاً؛ لحديث أبي هريرة قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**أَوْصَانِي خَلِيلِي بِثَلَاثٍ: أَنْ أُوتِرَ قَبْلَ أَنْ أَنَامَ، وَصِيَامِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ، وَرَكْعَتَي الضُّحَى**». وأيضًا قوله ﷺ: «**الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ**»، معنى ذلك أن الخُلَّة مبذولةٌ ما بين المسلمين ليست ممنوعة، ولهذا يُثني الله ﷻ عن المتقين بوصفها: ﴿**الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ**﴾[الزخرف:٦٧]؛ لأن خُلَّة المتقين خلةٌ مقبولة. والخُلَّة ليس المقصود بها الميل القلبي المجرَّد من التواصي بالحق والتواصي بالصبر، وإنما لها آثارٌ تدل على الصدق في ذلك والكذب في ذلك.

فخُلَّة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لنبيه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هي محبةٌ وزيادة، والخُلَّة في أصلها تستوعب القلب حتى لا يكون في القلب إلا من كان الإنسان متخذه خليلاً له:

قَدْ تخلَّلْتَ مسلكَ الروح مِنِّي ... ولـذا سمي الخليلُ خليلا
فإذَا ما انَطقْتُ كنْتَ حديثي ... وإذا ما سكت كنتَ الغليلا

هذه الأبيات لبشار بن بُرد بن يرجوخ، تُذكر في هذا السياق من أنها شاهدٌ على معنى الخُلَّة وأن الخلة تستوعب القلب كله؛ فإذا تكلم لا يتكلم إلا بمن اتخذه خليلاً، وإذا سكت

فإن ذهنه مشغولٌ به.

وهذا تعلُّقٌ مذموم لأنه جاء في سياق الغزل، وبشار بن برد مطعونٌ في عقيدته في الأصل، لكنها من الشواهد اللغوية التي يُبيَّن بها أن الخُلَّة تستوعب القلب كله، وأنها تتسلل في القلب حتى يُقدِّم الإنسان ذكر خليله على ذكر نفسه.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فَقَدْ نَهَى عَنْهُ فِي آخِرِ حَيَاتِهِ، ثُمَّ أَنَّهُ لَعَنَ - وَهُوَ فِي السِّيَاقِ - مَنْ فَعَلَهُ)، يعني من فعل ما نهى عنه من اتخاذ القبور مساجد.

(وَالصَّلاةُ عِنْدَهَا مِنْ ذَلِكَ -وَإِنْ لَمْ يُبْنَ مَسْجِدٌ- وَهُوَ مَعَنى قَوْلِهَا) أيْ قول عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا: (خُشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِداً، فَإِنَّ الصَّحَابَةَ لَمْ يَكُونُوا لِيَبْنُوا حَوْلَ قَبْرِهِ مَسْجِداً)؛ لا يُتصور أن الصحابة يبنون حول قبره مسجداً ذا سقفٍ ومنارةٍ وقُبَّة وغير ذلك؛ فدل على أن النهي أن "يُتَّخذ القبر مسجداً" يعني أن يكون محلاً للسجود.

ومما يدلُّ على هذا المعنى قول النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «جُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا»؛ فأينما صلى وسجد لله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ يسمى محلُّه محلاً للسجود من حيث أنه مسجد.

قال الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَكُلُّ مَوْضِعٍ قُصِدَتِ الصَّلاةُ فِيهِ فَقَدْ اتُّخِذَ مَسْجِداً، بَلْ كُلُّ مَوْضِعٍ يُصَلَّى فِيه يُسَمَّى مَسْجِداً؛ كَمَا قال النبي ﷺ: «جُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ مَسْجِداً وَطَهُوراً»).

وَلِأَحْمَدَ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ: عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مَرْفُوعًا) أيْ من كلام النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، والمرفوع ما رُفع إلى مقام النبوة من قولٍ أو فعلٍ أو تقرير، والموقوف ما وُقف به عند الصحابي من قولٍ أو فعلٍ أو فتوى أو فقه، والمقطوع ما وُقف به عند التابعين.

فصار النقل ثلاثة: المقطوع -وليس المنقطع الذي هو عِلَّة إسنادية- الذي ينتهي الوصل فيه إلى التابعي، فما كان من خبرٍ عن سعيد بن المسيب وسعيد بن جبير والحسن البصري وعطاء وغيرهم هذه تسمى مقطوعات.

وما كان موقوفًا على الصحابة يسمى موقوفًا، وما اتصل الوصل به إلى مقام النبوة.

وما نُسِب إلى النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ سُمي مرفوعًا؛ لأنه أرفع شأنًا من غيره، ولا يتقدم أحد على قول رسول الله ﷺ بقول أحدٍ من الناس.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَلِأَحْمَدَ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ: عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «إِنَّ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ: مَنْ تُدْرِكُهُم السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءٌ، وَالَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ»)؛ يعني أن شرار الناس عند الله وأبعدهم منزلة طائفتان: الذين لا يدينون بدين كعُبَّاد الأصنام والأحجار وغيرهم، والذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد.

وهذان الصنفان أحدهما له دليلٌ يخصه، والصنفان جميعًا في هذا الحديث -حديث عبد الله بن مسعود-.

قال النبي ﷺ: «لا تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا عَلَى شِرَارِ الْخَلْقِ». وشرار الخلْق المقصود بهم هنا -يا إخوان- ليسوا اليهود ولا النصارى؛ شرار الخلْق هم الذين لا يدينون بدين، لا الإسلام ولا اليهودية ولا النصرانية.

لماذا نقول هذا؟ لأن عيسى إذا نزل في آخر الزمان قال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «فَيُهْلِكُ اللهُ فِي زَمَانِهِ الْمِلَلَ كُلَّهَا إِلَّا الْإِسْلَامَ».

والملل في الأصل ثلاث ملل: اليهود، والنصارى، وهذه المِلَّة التي قال الله فيها: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾[النحل:١٢٣]؛ وهذه المِلَّة الحنيفية هي مِلَل الأنبياء كلهم كما قال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «إِنَّا مَعْشَرَ الْأَنْبِيَاءِ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ، دِينُنَا وَاحِدٌ وَشَرَائِعُنَا شَتَّى».

مِلَّة اليهود والنصارى من حيث أنهم يخالفون أهل النِّحَل التي هي شرائع مُدّعاة.

لما قال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «فَيُهْلِكُ اللهُ فِي زَمَانِهِ -أي زمن عيسى- الْمِلَلَ كُلَّهَا إِلَّا الْإِسْلَامَ»؛ من حيث أنه إذا نزل عيسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ نزل وقد اصطفَّ اليهود مع المسيح الدجال، أول من يشيّعه ويناصره سبعون ألفًا من اليهود وغيرهم، يصطفون مع الدجال لأنهم

يسمونه "الملك المخلِّص"، ما يرون فيه نبوة.

بمعنى أن اليهود والنصارى يختلفون في ختْم النبوة؛ فاليهود يرون أن النبوة خُتمت بموسى، ولهذا يوشع بن نون ليس نبيًا عندهم، ويرون أن موسى هو الذي خُتِمت به النبوات، كل من جاء بعده فإنما هو ملك من ملوك بني إسرائيل.

النصارى لا يرون هذا الاعتقاد؛ النصارى يرون أن عيسى ما خُتمت به النبوة لأنه ليس نبيًا عندهم -إما هو الله، أو ابن الله، أو ثالث ثلاثة-، ويرون أن الحواريين أنبياء -اثني عشر نبيًا-، كما هو اعتقاد غلاة الصوفية وغلاة الرافضة؛ ويرون أن النبوة وهبٌ وكشْفٌ وغير ذلك، قد يخرج بها الإنسان عن شرع النبي الذي كان قبله كما يرى ذلك بعض الزنادقة من غلاة الصوفية.

فيرون -أيْ النصارى- أن النبوة لا تُختم، من حيث أنه ربما يكون هناك نبيٌ بعد ذلك، ولو كان عاملاً بتعاليم عيسى، لكنه نبيٌ ليس له من المقام كما لعيسى من حيث أنه ابن الله وغير ذلك.

هذا الاعتقاد عند النصارى وعند اليهود من حيث عدم ختم النبوة أو ختمها.

لما قال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**وَلَيُهْلِكَنَّ اللهُ فِي زَمَنِهِ الْمِلَلَ كُلَّهَا**»؛ فإذا خرج المسيح الدجال يتعامل معه بنو إسرائيل معاملة "الملك المخلِّص".

النصارى منهم من يصدِّقهم في ذلك ويصطفّ مع اليهود؛ بمعنى أنه يكون في أتباع المسيح الدجال، فإذا نزل عيسى يقاتل المسيح الدجال ومن معه ويُقْتَل بباب لُدّ كما هو معروف.

هنا قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿**وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا**﴾[النساء:١٥٩].

﴿**وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ**﴾ يعني النصارى، ﴿**إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ**﴾ يعني بعيسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ،

بمعنى أنه يترك العقيدة المحرفة أن عيسى ابن الله أو ثالث ثلاثة أو هو الله، ويصدِّق بعيسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، كما صدق بخبر الله ﷻ عن عيسى بعض الصحابة الذين كانوا على النصرانية؛ لما بُعث النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كان عروة بن مضرّس نصرانيًا، وكان عدي بن حاتم نصرانيًا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، فلما سمعا كلام الله ﷻ في عيسى وأمه آمنا وتركا النصرانية.

فإذا نزل عيسى يتركون ما هم عليه في الكنائس؛ الكنائس على اختلافها: الكنائس الشرقية، أو التي تسمى كنيسة الموارنة، أو غيرهم، يتركون كل ما عليه الكنائس؛ لأنها كلها تتفق على مسألة البنوة -أن هذا ابنٌ لهذا-.

فقوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**وَلَيُهْلِكَنَّ اللهُ فِي زَمَنِهِ الْمِلَلَ كُلَّهَا**»؛ بمعنى أن من كان يهوديًا مصطفًا مع المسيح الدجال يقتله عيسى بمن معه من الموحدين، ومن كان من النصارى قبل نزول عيسى يترك النصرانية إلى الإسلام ﴿**وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ**﴾[النساء:١٥٩]، أو يترك النصرانية إلى ما هو كفرٌ آخر ويُقتل مع من يُقتل من اليهود.

هنا يبقى عيسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في الأرض، وشكر النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ الحياة بعده -يعني ذكرها بوصفٍ حسن-، «**وينزع الله ﷻ الضغينة حتى ما بين السباع والدواب، حتى يلعب الصبيان بالحيات، وحتى يرعى الأسد مع الغنم**»؛ بمعنى أنها تُنزع الضغينة من قلوب حتى البهائم.

ثم بعد ذلك تتوالى أشراط الساعة الكبرى، إلى أن يبعث الله ﷻ ريحًا فتقبض أرواح المؤمنين «**ريحًا طيبة من جهة حضرموت**» كما قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، «**وَلَوْ كَانَ فِي كَبِدِ جَبَلٍ لَدَخَلَتْ عَلَيْهِ حَتَّى تَقْبِضَ رُوحَهُ، فلا يبقى إلا شرار الخلْق وعليهم تقوم الساعة**»، هذا نوعٌ من شرار الخلْق الذين ليسوا أهل دين -أهل إلحاد، أو من هم على عبادة الأصنام والأبقار وغير ذلك- هذا نوع.

والنوع الثاني: «**الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ**».

"الذين يتّخذون القبور مساجد" وصْفٌ يشمل من كان هذا فعله من اليهود أو النصارى أو ممن انحرف عن السنة من أهل الإسلام؛ لأن هذا وصفٌ -مثلما يسمى: قاسم مشترك-، يقع هذا الفعل ممن يسجد لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ممن يبني المساجد؛ عُبّاد الأصنام والأوثان والأبقار لا يسجدون لله ولا يبنون المساجد، فصار هذا الوصف يشمل الطوائف ممن وقع في ذلك من اليهود أو النصارى أو المنتسبين إلى الإسلام.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قال ﷺ: (**«إِنَّ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ: مَنْ تُدْرِكُهُم السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءٌ، وَالَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ»**).

من المسائل التي يحسن أن تُذكر في هذا السياق: شعار الكفر الذي هو دلالة على الكفر، وشعار الكفر الذي هو دلالة على المِلَّة، وصار بعد ذلك دلالة على الكفر.

شعار الكفر بالنسبة للنصارى هو "الصليب"؛ كما قال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لعدي بن حاتم لما جاء مسلماً وقد لبس صليباً من ذهب، قال: **«يَا عَدِيُّ، اطْرَحْ عَنْكَ هَذَا الْوَثَنَ»**. ولماذا هو شعار الكفر؟ لأنه تضمن عقيدة كفرية بنسبة الولد إلى الله، وأن الله خذل ولده وأنه صُلب ووضع عليه الأشواك وطُعن في خاصرته.. إلى غير ذلك من الكلام الذي ذكره باستفاضة شيخ الإسلام في "الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح"، وذكره أيضاً ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه "هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى"، وغيرهم ممن تكلَّم في انحراف النصارى في عيسى.

بمعنى أن انحراف النصارى في عيسى ليس من حيث أن الله ﷻ له ولدٌ فقط، لا؛ هناك انحراف طويل عريض في هذا، حتى من انحرافهم: أن الله بكى لما طُعِن ولده في خاصرته! كيف تجترئ قلوبهم على اعتقاد ذلك في الرب سبحانه؟ البكاءُ كمال أم نقص؟ نقص، طلب الولد والتعلُّق بالولد وغير ذلك كمال أم نقص؟ نقص، ولهذا الذي لا يُرزق ولداً في الدنيا ينكسر الناس له ويتعاطفون معه، فكيف يُنسب ذلك لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؟ وخذلان الله ﷻ لعيسى

الذي يزعمون أنه ولده، هذا نقص أم كمال؟ مع أن الله ﷻ قال: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾[النساء:١٥٧].

فالمقصود أن شعار الكفر قد يكون شعاراً يدلُّ على العقيدة في أول ظهورها، وقد يكون شعاراً أُلحق بالعقيدة بعد ذلك، فيكون شعاراً للعقيدة ولو لم يكن شعاراً للنصارى الأولين.

فيظن الناس أن هناك فرقًا ما بين شعار النصارى الذي هو الصليب، وما بين شعارهم الذي هو الشجرة أو الأجراس؟ الشجرة والأجراس لها تعلق بالصليب أم لا؟ نعم، معنى ذلك صار شعاراً دينيًا، نعم هو يدلُّ على العقيدة، وأن الصليب يتضمن عقائد كفرية إلا أنه صار الآن شعاراً للكفر.

يقال مثل هذا -يا إخواني- كما يقال لليهود، اليهود لهم شعارٌ يدلُّ على عقيدتهم دلالة مباشرة، اليهود يعتقدون أن الله ﷻ خلق السماوات والأرض في ستة أيام كما هو من كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾[ق:٣٨]، اليهود يقولون أن الله ﷻ مسَّهُ لغوبٌ وتعب -تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً- فاستراح يوم السبت.

فلا بد نعرف هذا الكلام حتى تعرف لماذا يعظّمون الشمعدان، والشمعدان هو المقبض الذي يحمل ستة شموع، ثلاثة يمين وثلاثة يسار ووسطها شمعة. الشمعدان هذا رمزٌ لعقيدةٍ دينية، متعلقة بعقيدة اليهود تعلقاً مباشراً.

لكن النجمة المسدسة التي على علمهم الآن هو شعارٌ قومي، لكن صار الآن رمزاً دينيًا لهم، فينسبونه إلى داود -نجمة داود أو غير ذلك-، بغض النظر عن أصوله، حتى أن بعض من كتب في آثار الملل منهم من قال: أن هذه النجمة كانت أصلاً تزوّق بها بيوت المسلمين في الأندلس، يعني أنها نجمة ليست بالضرورة أن تكون شعاراً لليهود، لكن لما طرحها اليهود شعاراً لملتهم حتى وضعوها على العلم، صارت شعاراً لكفرهم، ولو ما كانت بمنزلة

الشمعدان، الأجراس والشجرة شعاراً للنصارى، ولو ما كانت بمنزلة الصلبان.

تسمية بعض الناس في بعض أطراف الدنيا بعض المصالح المتعلقة بالدول أو بعض المنافع المتعلقة بالناس باسم الأصنام والآلهة، هو شعارٌ للذين كانوا يعبدون الآلهة من دون الله، ولو ما كان التعامل معها تعامل المشركين مع الأصنام، فالشعار الذي تميزت به النِّحل نوعان: إما أن يكون شعاراً مباشراً إذا ذُكر ذُكروا.

وإما أن يكون شعاراً طرأ بعد ذلك فصار إذا ذُكر ذكروا.

هذا التفصيل حتى يقال: أنه لا يجوز لأحدٍ أن يقول أن تعليق الشجرة والأجراس يجوز، ما فيه خلاف إذا ما علقت الصليب! وبعض الناس يقولون هذا، فلما صار هذا شعاراً لهم، وهم لا يضعونه إلا لهذه المناسبة؛ لاعتقادهم بصحة الشعار الأصلي الذي يدلُّ على التثليث وعلى الصلْب وعلى غيرها.

فحضور أعيادهم دليلها في كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كثير، ودليلها في فهم الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أكثر، وحديث عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لما قال: «لا تعلموا رطانة الأعاجم، ولا تدخلوا على المشركين في كنائسهم يوم عيدهم؛ فإن السخطة تنزل عليهم»، وهذا الحديث إسناده صحيح، رواه عبد الرزاق وابن أبي شيبة وغيرهم.

كل هذه تدلُّ على المفاصلة التي بُعث بها النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

فإذا جاء إنسان وقال: نحن نُنهى بأن نزور كنائسهم، مع أن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ربما دخل عليه النصارى في مسجده ﷺ وسألوه كما في وفد نصارى نجران، فلماذا لا نذهب إلى كنائسهم؟!

فرْقٌ ما بين هذا وما بين هذا كما بين السماء والأرض؛ لأن المسلم إذا دخل أديرة النصارى وكنائسهم هل يستطيع أن يأمر وينهى؟ هل هو قادم على الاحتساب في ذلك؟ هذا ما يجوز كسروا الأصنام وخذوا الصور، ونبيكم عيسى وليس بإله.. يستطيع ذلك؟ ما لك إلا

تلتزم الصمت، لكن عندما جاء وفد نصارى نجران إلى النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، هل قالوا للنبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: لا تصلوا صلاتكم ونحن بينكم؟ بمعنى أيهم الذي غالبٌ للرأي النبي ﷺ أم وفد نصارى نجران؟ النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

لكن لو ذهب بعض المسلمين إلى النصارى في كنائسهم، هل يستطيع أن يأمر وينهى؟ أقل أحواله -ثبتنا الله إياكم- تعطيل الأمر بالمعروف الذي هو التوحيد، والنهي عن المنكر الذي هو نسبة الولد إلى الله، وربما يقع في قلبه نوعٌ من الميل إليهم، ولو كان ليس ميلاً عقدياً، لكنه ميلٌ خطيرٌ للغاية. قد قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾[المائدة:٥١]. لهذا لا بد أن يكون الإنسان على حذر في هذا.

ثم -يا إخواني- من شأن أهل المروءات والعقل والرصانة والأخلاق العالية، أن يدخلوا في مجلسٍ يُسَبُّ فيه أبوهم، أو أن يتركوا هذا المجلس، فكيف إذا كان المسبوب الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؟ كيف تدخل على أناسٍ يسبون الله ﷻ ويصفونه بالنقائص، ومع ذلك تدخل باختيارك وتأكل من حلوائهم وتهديهم، أشد من كل ذلك أن يهديهم، وقد كان إجماع المسلمين أنه لا يجوز لأحد أن يفرح بمعصية من عصى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، يعني لا يجوز لأحدٍ أن يبارك إنساناً لأنه زنى، أو أن يبارك لأنه سرق، أو أن يباركه لأنه تعدى على الناس بالضرب والسلب..

مع أن كلها معاصي لا تصل إلى الكفر، فكيف بالذي يقول "عيد مبارك" و"كل سنة وأنتم طيبين" في عيد النصارى؟ أيهما أشد خطراً وضلالاً؟ فإذا كان لا يجوز تهنئة أصحاب المعاصي والبدع على معاصيهم وبدعهم، فكيف بتهنئة من يصف الله ﷻ بذلك؟

والواجب في مثل هذا الكلام أن يكون الإنسان على قدم بالثبات؛ من حيث أن هذا يجوز وهذا لا يجوز، وأن هذا لا بد أن يُصان الناس عنه، ويتأكد هذا -يا إخواني- إذا ضعُف عند الجيل الموجود الآن، العلم الشرعي، والسمعة الإعلامية والطرح القوي في وسائل الإعلام

تزعزع الناس عما كنا نحن وإياكم عليه لما كنا شباباً؛ عيالنا الآن دخَلَهم المال إلا من رحم الله -وهم كثير والحمد لله-.

فإذا كان الطرح قوياً، وإذا كان يلبَّس هذا لبوس "التسامح" وتقبُّل الطرف الآخر -كما يقولون-، لا بد أن يعرف الإنسان أن هناك فرقٌ بين أن يتقبل الطرف الآخر من حيث أنني أتقبله حتى تكون الدعوة فيه ويبقى الولاء والبراء، ومن حيث أنني لا أتعدى عليه لكنني لا أحبه كما أحب المسلم؛ كيف أحبه وهو يسب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؟ هذا انحراف -والعياذ بالله-، الإنسان لا يحب من سب والده ويُمدح على ذلك من حيث أن كرامة المسلم تأبى أن يحب من تعدى على والده، فمن باب أولى أن لا يكون محباً للذي يسب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

لا يتعدى عليه، لا يظلمه، هذا أمرٌ آخر، هذا متفقٌ عليه عند المسلمين -والحمد لله-، ليس عندهم ازدواجية بالفهم، وإنما يتبرؤون من الكفر وأهله، كما قال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أوثق عرى الإيمان الحب في الله، والبُغض في الله، والموالاة في الله، والمعاداة في الله». فلا يشهد عيدهم، ولا يهنئهم على ذلك، ولا يسوِّق لبعض الشعارات، أو حتى -يا إخواني- بعض التخفيضات التي تكون بمناسبة هذا الأمر، فبعض المنتوجات في غير هذه البلاد تطلبها من البلد التي انتشرت فيها النصرانية، ويضعون عليها تخفيضاً؛ هذا التخفيض ليس لأنك زيد أو عمرو، لكن حتى تُمرَّر عقيدتهم، يستميلونك بشيءٍ، ومع ذلك هم حافظين حقهم، يعني ليس تخفيضاً يُذهب حقهم -هم حاسبينها صح مثلما يقولون-، لكنهم يسوِّقون للباطل بأنواعٍ من التسويق بقدر ما يستطيعون.

والإنسان إذا صان عقيدته في وقت الفتن واختلاط الآراء، كان ثوابه عظيماً من حيث أن الله ﷻ يمحِّص بمثل هذه الأمور: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾[آل عمران:١٤١].

نختم بما قلناه من أن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما قال: «لا تقدموهم وقد أخرهم الله، ولا تعزوهم

وقد أذلّهم الله، ولا تكرموهم وقد أهانهم الله»، ثم قال: «لقد سبوا الله ﷻ سبة ما سبه بها أحد».

يعني عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ينظر بعين البصيرة، وغيره من الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، والخير في الأمة كثير، من حيث أن عدم إكرامهم لا يعني أنك تتعدى عليهم تعديًا ينفّرهم عن الدين، وقد قال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**من قتل معاهداً**» يعني نصراني بينه وبين المسلمين عهد، ومثل المعاهدة: من حُقِن دمه بمعاهدة أو بعقدٍ بينه وبين ولي أمر المؤمنين، لا من حيث أننا نكرمه هو كافر ونصراني، وإذا مات لا نشك أنه مخلَّدٌ في النار، لا نشك في ذلك؛ لكن حفظًا لكرامة الإسلام وحتى لا يؤتى الإسلام من قِبَل المسلمين.

نقول: إن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لما قال ذلك، ليس المقصود بذلك حفظ كرامة النصراني الذي يعتقد التثليث، وإنما حفظ عهد الإسلام الذي حفظ للنصراني دمه. قال عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «لا تقدموهم وقد أخّرهم الله، ولا تعزّوهم وقد أذلّهم الله، ولا تكرموهم وقد أهانهم الله».

ثم قال بعد ذلك: «لقد سبوا الله سبة ما سبه بها أحد».

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ الْغُلُوَّ فِي قُبُورِ الصَّالِحِينَ يُصَيِّرُهَا أَوْثَانًا تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ

رَوَى مَالِكٌ فِي الْمُوَطَّأِ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قال: «اللَّهُم لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ، اشْتَدَّ غَضَبُ اللهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهُمْ مَسَاجِدَ».

وَلِابْنِ جَرِيرٍ بِسَنَدِهِ: عَنْ سُفْيَانَ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَفَرَءيتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى﴾؛ قال: كَانَ يَلُتُّ لَهُمُ السَّوِيقَ فَمَاتَ؛ فَعَكَفُوا عَلَى قَبْرِهِ.

وَكَذَا قال أَبُو الْجَوْزَاءِ؛ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «كَانَ يَلُتُّ السَّوِيقَ لِلْحَاجِّ».

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: «لَعَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ زَائِرَاتِ الْقُبُورِ، وَالْمُتَّخِذِينَ عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ وَالسُّرُجَ». رَوَاهُ أَهْلُ السُّنَنِ.



قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللّه:

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه.

كانت القراءة السابقة في "كتاب التوحيد" للإمام المجدد رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى عند قوله: (**بَابُ مَا جَاءَ مِنَ التَّغْلِيظِ فِيمَنْ عَبَدَ اللهَ عِنْدَ قَبْرِ رَجُلٍ صَالِحٍ؛ فَكَيْفَ إِذَا عَبَدَهُ؟!**)، يعني أن عبادة الله ﷻ عند المقابر بالصلاة لا تصح، وإنما شُرِعت العبادة في المقابر دعاءً للميت، أو تذكُّراً للآخرة، أو إحساناً للميت من حيث دفنه ولحده وغير ذلك، وما سوى ذلك فليست المقابر محلاً للقُرَبِ ولا محلاً للعبادات، سداً لذريعة الشرك وصرف العبادة لغير الله.

ذكر الشيخ بعد ذلك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ الْغُلُوَّ فِي قُبُورِ الصَّالِحِينَ يُصَيِّرُهَا أَوْثَانًا**).

ومناسبة هذا الباب لما قبله: من حيث أن من عَبَدَ الله ﷻ عند القبر، إنما حمله على الصلاة لله عند القبر غلوه في صاحب القبر، أو اعتقاده أن شأن الصلاة عنده أعظم من شأنها في المساجد وفي غيرها.

فهو غلوٌ من ناحيتين: غلوٌ في المكان لاعتقاد أن العبادة فيه أفضل.

أو غلوٌ في المدفون -الميت- لاعتقاده بركة المكان الذي يُحيط به.

وهذا هو الذي يحمل الناس على الصلاة عند المقابر، وقد نهى النبي ﷺ أن يُجْلَس على القبر، وأن يجصَّص، وأن يُسرج، وأن يُصلى إليه. إذا كان الحامل على ذلك كله غلوّهم في الموتى، ناسب أن يكون الباب الذي بعد ذلك باب يتعلّق بالغلو.

وقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ الْغُلُوَّ فِي قُبُورِ الصَّالِحِينَ يُصَيِّرُهَا أَوْثَانًا**)؛ لأن هذا هو الأصل، أن الناس إنما يغلون في قبور الصالحين، لا يغلون في قبور غيرهم -هذا في أول الأمر-، أما بعد ذلك صار الناس لما كان عندهم ضعفٌ في التوحيد يغلون في القبر الذي يزعمون أن فيه رجلاً صالحًا، أو القبر الذي يجزم أهل التواريخ أنه ليس فيه أحد، وإنما مشهدٌ بُني وغُشَّ به الناس حتى يكون سببًا لدرِّ الأموال، أو أن يكون المدفون أصلاً ما عُرِف بحُسن سيرة كغلاة المتصوفة وغيرهم.

فلما كان الأصل في ذلك إنما هو غلو في الصالحين كودّ وسواع ويغوث ويعوق ونسراً، فإن أهل الغلو ربما غلوا في قبورٍ ليس فيها صالحون أصلاً، أو قد يكون القبر فارغًا وإنما وضع للاحتيال، ويستوي الأمر في ذلك سواء كان قبر نبيٍ أو وليٍ أو دعيٍّ أو كافرٍ أو غير ذلك، كلها صرْفُ عبادة لغير الله؛ من قَصَدَ بالعبادة غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فقد اتخذه إلهًا.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**يُصَيِّرُهَا أَوْثَانًا**) يعني أوثانًا تعبد من دون الله، ولو كانت في نظر الناظر قبراً وجدثًا -يسمى جَدَث، ويسمى جَدَف-، وإن كانت في نظره قبراً، إلا أن توجُّهه إليه بالعبادة صيرها أوثانًا.

والفرق ما بين الوثن وما بين الصنم: الصنم ما عُبِد من دون الله ﷻ من الصور المنحوتة، سواء كانت صورة إنسانٍ أو طائرٍ أو حيوان أو غير ذلك، إذا كانت منحوتة على صورةٍ مما خلق الله ﷻ من آدميٍ ومن غيره يسمى صنمًا.

وإذا كانت عُبدت على هيئته من غير نحتٍ ومن غير تصوير، يسمى وثنـًا.

فمن عَبَد الشجرة عبد وثنـًا، ومن عبد الصنم المنحوت عبد صنمـًا، ومـن عَبَـد الشـمس والقمر وغير ذلك فقد عبد أوثانـًا. هذا فيما يتعلق بالتفريق ما بين الوثن وبين الصنم.

أما فيما يتعلق بالحُكم فكلها واحـد مـن حيـث أن مـن عُبِـد مـن دون الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وقـع عابده في الشرك الأكبر الذي بُعِث الأنبياء بإزالته والنهي عنه، إنما بُعِث الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأول مأمورٌ به التوحيد، وأول منهيٍ عنه الشرك.

وبُعِث أنبياء الله ﷻ والناس مختلفون في آلهتهم، منهم من يعبد صنمـًا، ومنهم من يعبد قبراً، ومنهم من يعبد حجراً وشجراً، وشمسـًا وقمراً وغير ذلك.

فلم يختلف خطابهم في قومهم من حيث أن هذا كله شـركٌ أكـبر؛ فبُعـث ﷺ والمشـركون مختلفون في آلهتهم، منهم من يعبد صنمـًا كـاللات ومناة، ومنهم من يعبد شجراً كـالعزى، ومنهم من يعبد رجلاً صالحـًا كاللات، على بعض تفسير قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى﴾[النجم:١٩]؛ قيل: إنه رجل صالح في الجاهلية كـان يلـتُّ السـويق للنـاس، ومنهم من يعبد الشمس والقمر، ومنهم من يعبد النجم كما قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى﴾[النجم:٤٩]، عندما كان يعظمون ويعتقدون فيه تصرفـًا في ملكوت الله، ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى﴾ أي إذا كان مربوبـًا لا يستحق شيئـًا من العبادة، ولا يُتصور أن يكون ربـًا لشيءٍ في ملكوت الله، بل هو مربوبٌ لله يعني مدبَّر، يدبِّره ربه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

وكذلك قوله ﷻ: ﴿لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ﴾[فصلت:٣٧]، وقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عن المشركين: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾[الجاثية:٢٤]، وقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾[الجاثية:٢٣]، وقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَلا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾[آل عمران:٨٠]. معنى ذلك يا إخوان أن النبي ﷺ بُعِث في أمةٍ اختلفوا في معبوداتهم؛ فمنهم من يعبد

نبيـاً، وملكـاً، ورجـلاً صـالحـاً، وجنـاً: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ﴾[الجن:٦]، ومنهم من يعبد جمادات لا إدراك لها ولا تصرُّف كالشمس والقمر والشجر والحجر. ومع ذلك كان الخطاب واحداً من حيث أنه منازعةٌ في حق الله، صَرَف شيئاً لا يجوز إلا لله ﷻ لغيره، ولو كان نبياً مرسلاً أو ملكاً مقرَّباً، لأنهما عُبدا من دون الله؛ عبدوا الملائكة من دون الله كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾، وعبدوا عيسى من دون الله؛ ﴿وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ﴾[المائدة:١١٦]، لأن هذا وقع منهم، وهو موجود عند النصارى يعتقدون أن عيسى بعض الله -تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً-.

فالمقصود أن هذا الباب من حيث أن كل هؤلاء الذين عبدوا غير الله إنما وقعوا في ذلك بسبب غلوهم، والغلو نهى الله ﷻ عنه الأمم التي قبلنا، ونهيه ﷻ لهذه الأمة من باب أولى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾[النساء:١٧١]، لما حج النبي ﷺ حَجَّة الوداع أمر ابن عباس أن يلتقط له حصيات ليرمي الجمرات، فالتقطها للنبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ "دون الزيتونة وفوق الحمصة" وقال: «بأمثال هؤلاء فارموا، وإياكم والغلو، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو؛ حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم». فإذا كان النبي يحذِّر من الغلو في واجبٍ من واجبات الحج، يُجبر لو تركه الحاج بعبادةٍ أخرى -بالدم-، ومع ذلك حذَّر هذا التحذير، ورتب على ذلك المفاسد العظيمة: «حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم». بمعنى أن الغلو يوصل الإنسان إلى ما لا يُتصوَّر أو ما لا يظن أنه سيصل إليه من الانحراف.

ولهذا قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (يُصَيِّرُهَا أَوْثَانًا) يعني يصير القبور التي في الأصل قبر رجل عاجز عن نفع نفسه -الميت عاجز عن نفع نفسه-، كيف يُعبد ويُطلب منه شيء؟! هذا سفه بالعقل وسفه بالتصور وانحراف في التوحيد، وصرْفُ العبادة لغير الله. هو عاجزٌ عن نفع نفسه، هو لا يستطيع أن يخرج من قبره، فكيف يُطلب منه أن ينفع غيره؟

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (رَوَى مَالِكٌ فِي الْمُوَطَّأِ) مالك بن أنس رَحِمَهُ ٱللَّهُ أبو عبد الله الأصبحي، (أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قال: «اللَّهُم لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ، اشْتَدَّ غَضَبُ اللهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»).

في هذا الحديث الثابت عن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مسائل:

أولها: أن النبي ﷺ دعا بأن لا يُجعل قبره وثنًا؛ يعني يُعبد من دون الله ﷻ. وهذا يدلُّ على شفقته ﷺ على من يأتي بعده من أمته، ولا يُتصوَّر ذلك أن يقع من الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ؛ لأنه أعلم الناس بالتنزيل، وأتبع الناس للرسول ﷺ، لا يُتصوَّر منهم ذلك، والنبي أثنى عليهم: «خير الناس قرني»، وأثنى عليهم رب العزة سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهم أوعية العلم، فهموا عن النبي ﷺ خطابه وأمره، فصار الخطاب للأمة إلى قيام الساعة. ولهذا الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ بعد وفاته ﷺ كانوا دعاة توحيد ويحذِّرون من الشرك.

فقوله ﷺ: «اللهم لا تجعل قبري وثنًا يُعبد» ليس خطابًا للصحابة، وإن كان الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ مخاطبون بكل ما يقول به النبي ﷺ، لكنهم أعرف بالتوحيد ممن جاء بعدهم، وأحذر من الشرك ممن جاء بعدهم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وأرضاهم، ولا يلحقهم أحدٌ في الفضيلة، وأثنى عليهم الله ﷻ ورسوله ﷺ، لكن هذا واقعٌ في هذه الأمة كما أخبر النبي في أحاديث كثيرة ﷺ، واقع في الأمة الانحراف في التوحيد، وأن تُصيَّر القبور أو غيرها أوثانًا تُعبد من دون الله؛ هي واقعةٌ قدراً وكونًا، لكن النبي حذَّر منها ﷺ.

وهذا -يا إخواني- من دواعي مشايخنا والذين قبلهم، ونحن وإياكم، من دواعي أن يدرس الإنسان التوحيد، أن يتعلمه، وأن يكون حاضراً؛ لأن التوحيد إنما يضعف في القلوب بكثرة الجهل وبِقِلَّة العلم، فإذا قلَّ العلم فشا الجهل، وإذا مات العلماء اتخذ الناس رؤوسًا جُهَّالاً، وإذا قل دعاة الحق كثُرَ دعاة الباطل.

فالإنسان ربما في هذه الأزمنة يستبعد، أن تُعبد اللات والعزى، يقولون: كيف تُعبد والنبي

ﷺ كسَّرها تكسيراً لما دخل مكة، وقال: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾[الإسراء:٨١]؟! لا، تُعبد؛ لأن النبي أخبر بأن تُعبد بأسمائها اللات والعزى. إذن معنى ذلك أن المسألة إقبالٌ وإدبار؛ إقبالٌ في معرفة التوحيد، وإدبارٌ بالجهل به، إقبالٌ لأصحاب الباطل وتزيينه للناس وغِشّهم به، وإقبالٌ به إذا قوي التوحيد.

قال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لا تقوم الساعة حتى تُعبد اللات والعُزَّى» ذكرها بأسمائها، وفي لفظٍ آخر: «لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوسٍ حول ذي الخلصة»، وذو الخلصة كسَّره جرير بن عبد الله والنبي حاضر، ويعود بعد ذلك في آخر الزمان! كيف يعود طيب، والناس يقرأون هذا في صحيح البخاري؟ قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لجرير: «يا جرير، ألا تريحني من ذي الخلصة؟»، فذهب جرير وقاتل المشركين الذين عنده وهدم الصنم، ومع ذلك أخبر النبي بأنه «لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوس حول ذي الخلصة»؟!

السبب في ذلك: أنه لا بد أن يكون ما بين الحق والباطل إقبالٌ وإدبار -مغالبة-، إذا قوي أنصار الحق ودعوا الناس إلى التوحيد ضعُفَ جانب الباطل وأهله، إذا قلَّ العلم فشا الجهل، إذا قلَّ دُعاة الحق كثُر دُعاة الباطل.

فالدعوة إلى التوحيد والتذكير به لا بد أن تكون حاضرة في قلب الإنسان؛ لأن دعوة أصحاب الباطل إلى الباطل حاضرة في الناس، لا بد أن تكون موجودة كما أخبر النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لا تقوم الساعة حتى تلحق فئامٌ من أمتي بالمشركين»، وليس بالضرورة -يا إخوان- أن يلحقوا بالمشركين في بلدانهم، قد يلحقوا بالمشركين في تصوراتهم واعتقاداتهم وقناعاتهم، ولا يهتمون للإسلام ولا يميزون ما بين الحق والباطل، ويرون أن هذا وجهة نظر، مثل ما هو مطروح الآن أن هذا وجهة نظر وقناعاتٍ شخصية إلى غير ذلك.

ما الذي حملهم على هذا الانزلاق؟ كثرة الطرح من أصحاب الباطل وتزيينه للناس وغِشّ الناس به، وجعله مجرد وجهة نظر -التوحيد والشرك وجهة نظر- وقناعات شخصية؟

هل التوحيد قناعة شخصية، أم أنه أمرٌ رباني؟ هل الشرك قناعة شخصية أم أنه طاعةٌ للشيطان؟ ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[البينة:٥].

فهذا الإقبال وهذا الإدبار يستدعي أن يكون الإنسان متحصنًا بالعلم؛ حتى لا يغشه أحد وحتى لا يُغَش في دينه هو.

ولهذا النبي ﷺ وهو المعلم الأول للتوحيد، كان يُعلِّم الصحابة مسائل التوحيد، ولا يقولون: عرفوا ذلك وسمعوا وقرأوا القرآن المجيد وفهموا؛ بل كان يعلِّم أعلمهم بالحلال والحرام، معلوم أن معاذ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ هو أعلم الأمة بالحلال والحرام، ومع ذلك قال له النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «أتدري ما حق الله على العباد وما حق العباد على الله؟»، هل يتصور أحدٌ منَّا أن معاذاً يجهل ذلك وهو أعلم الأمة بالحلال والحرام بشهادة النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ؟! ليس جاهلاً بذلك، وإنما تكرير ذلك.. حتى لما قال: «الله ورسوله أعلم» من باب التواضع والاستزادة وانتظار زيادة العلم.

ومع ذلك إنما علَّمه النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ حقه ﷻ على عباده، الحق الذي لأجله خلقهم، وحق عباده الذي يتفضَّل به لمن وحَّده، من باب تأكيد هذا المعنى وأن يكون حاضراً في الأذهان.

فقول الشيخ رَحِمَهُٱللَّهُ: (**رَوَى مَالِكٌ فِي الْمُوَطَّأِ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ، اشْتَدَّ غَضَبُ اللهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»**).

هنا -يا إخوان- نتوقف قليلاً، لماذا ما قال النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: "غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد" وإنما قال ذلك بشدة الغضب؟ ولهذا حتى صفات الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ التي اتصف بها على وجه الكمال، يكون للإنسان حظٌ من غضب الله ﷻ بقدْر انحرافه، ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ﴾[النساء:٩٣]، لكن هنا «اشتد غضب الله»، لماذا؟ لأن قتل النفس ظُلماً وتعدياً وعدواناً ولأجل الدنيا من

غير استحلال هذه كبيرة من الكبائر، من أشد الكبائر كما قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «لا يزال المرء في فسحة من دينه ما لم يصب دمًا حرامًا»، لكن إذا كان الذنب تعديًا على الله ﷻ يكون الغضب أشد، كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الذين يدخلون النار: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾[الإسراء:٩٧]؛ لشدة ما وقعوا فيه من انحراف -والعياذ بالله-.

فقوله ﷺ: («اشْتَدَّ غَضَبُ اللهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ») وصفٌ لله ﷻ بالغضب، ووصفٌ للصفة بالشدة؛ لشدة ما وقعوا فيه من الخطأ، ومع أن ما وقع منهم من الخطأ هو شركٌ أكبر، لا يشك المسلمون في ذلك، ما وقع منهم من خطأ إنما كان خطأٌ في اتخاذ قبور خير خلْق الله مساجد الذين هم أنبياء الله ﷻ، فكيف إذا كان الذي يُتخذ مسجداً قبر إنسانٍ مغموز في عقيدته، مطعون فيه، لا يُعرف بالمروءة أو إلى غير ذلك من الأسباب؟ فالكفر مِلَّة واحدة، ولا يقال أن الكفر الأكبر هذا أكبر من الكفر الأكبر هذا، الكفر الأكبر كله واحد، منزلةٌ واحدة، مخرجٌ من الدين، ومحرِّمٌ لرحمته، حارمٌ عن الشفاعة، ومحرِّمٌ عن دخول الجنة. لكن هذا أقبح من هذا.

وهذا يا إخواني التفريق الذي يذكره أهل العلم في هذا الباب، ليس تقليل شأن الكفر الأكبر من هذا النوع مقارنة بغيره من النوع الآخر، فإذا قالوا أن عبادة الميت من دون الله شركٌ أكبر، وعبادة الصنم من دون الله شركٌ أكبر، وعبادة صنمٍ بالليل وصنمٍ بالنهار شِرْكٌ أكبر، وإذا قالوا أن هذا أقبح من هذا، المفاضلة هنا بصيغة التفضيل "أقبح" هي متعلقة بأن هذا جمَع ما بين الشرك الأكبر وما بين ما تأباه العقول؛ كيف يعبد عشرة أصنام، خمسين صنمًا؟

وهذا كان فاشيًا عند المشركين قبل بعثته عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وفي صدر الإسلام، كانوا يوظِّفون الأصنام لوظائف، هذا لغائب، وهذا لحفظه، وهذا للزواج، وهذا لدفع العدو، وهذا لكذا وهذا لكذا، كما قال الحصين والد عمران رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لما سأله النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «كم تعبد؟» قال: سبعة، ستة في الأرض وواحد في السماء. قال: «من لرغَبتك ورهَبتك؟» يعني إذا

جاء الأمر وحزبك أمر، في الرهب خفت من عدوٍ أو خفت من مرض، لمن تتوجه؟ قال: «الذي في السماء» سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ الذي للرغب والرهب -الرب سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ-. قال: «فأعبد الذي في السماء ودع الذي في الأرض».

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَلِابْنِ جَرِيرٍ) ابن جرير أبو جعفر محمد بن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ (بِسَنَدِهِ: عَنْ سُفْيَانَ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ) ابن جبر من خيار التابعين، (فِي قَوْلِهِ: ﴿أَفَرَءيتُم اللَّاتَ وَالْعُزَّى﴾؛ قال -مجاهد-: كَانَ يَلُتُّ لَهُمُ السَّوِيقَ)، يعني اللاتّ بالتشديد سُمي لاتًّا لأنه يلتُّ السويق، والسويق مثل الدقيق الذي يُخلطه بالماء طعامًا للمسافر، هذا قبل الإسلام، هذا لا يعني أنه كان رجلاً صالحًا، وإنما أحبه الناس لمطلق الإحسان، لكنه لا يعني أنه كان موحِّداً كما كان الحال عند ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر. ولو كان الأمر كذلك، فإن عبادته من دون الله عَزَّوَجَلَّ من جنس عبادة الأصنام.

والتفسير الثاني: أن اللات صخرةٌ بيضاء في الطائف، تعبدها ثقيف ومن حولها من القبائل -ثقيف وهُذيل وغيرهم-، ويصرفون لها العبادة من دون الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، سواء كانت العبادة بالتوجُّه والتعلُّق والقصد، أو كانت العبادة بإنهار الدم أو غير ذلك، هذا فيما يتعلق باللات، وما قال المفسرون في معنى قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى﴾[النجم:١٩].

العُزَّى سَمُرةٌ تُعبد من دون الله، وقد كانت الأشجار أيضًا تُعبد في زمنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كما هو معروفٌ في ذات أنواط؛ قالوا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، سماها المشركون ذات أنواط، لم يسمها الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، بمعنى أن اسمها في الجاهلية ذات أنواط؛ لأنهم كانوا ينوطون بها أسلحتهم، يعني يعلّقون بها أسلحتهم لاعتقادهم أن هذه الشجرة تُكسِبُ السيوف البركة وتُكسِب الدروع الحماية، بمعنى أن لها تأثُّرٌ في أسلحتهم.

هذا بحد ذاته انحرافٌ في الربوبية، من حيث اعتقدوا أن مع الله عَزَّوَجَلَّ مدبِّرٌ في ملكوته ولو بعض التدبير، هذا انحرافٌ في الربوبية، ما الذي طرأ عن هذا الاعتقاد المنحرف؟ انحرافٌ في

الألوهية، ولهذا الانحراف في الألوهية لا بد أن يكون قبله انحراف في الربوبية، والأمر بالضد أيضـًا.

ولماذا نحن أهل السنة وجميع أهل الإسلام لماذا نقول أن توحيد الله ﷻ توحيد الأسماء والصفات والربوبية والألوهية صارت أربعة، لماذا تجعلها واحداً؟ لأنها كلها عائدة إلى حقٍ واحد الذي هو حق الرب سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فإذا انحرف الإنسان في الربوبية لا بد أن ينحرف في الألوهية، وإذا انحرف في هذه لا بد أن ينحرف في هذه، وإذا انحرف في أحدهما فما عرف الله ﷻ بأسمائه وصفاته وكمالاته.

المشركون من دواعي انحرافهم في الأسماء والصفات، ما عرفوا معنى قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾، كيف تعبد غيره وهو العلي سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عن عبادة غيره؟ لا يقبل سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لصفة علو قدره ﷻ أن يكون معه من يُشرَك به في عبادته، فالأسماء والصفات بحدّ ذاتها داعية إلى توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية.

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قال: كَانَ يَلُتُّ لَهُمُ السَّوِيقَ فَمَاتَ؛ فَعَكَفُوا عَلَى قَبْرِهِ)، وهذا كما هو عادة المشركين؛ حتى الذين انحرفوا في الصالحين يعكفون عند قبورهم ويجاورون عندها، لا من حيث الاتعاظ، والنبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يقول: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تذكركم الآخرة»، لكن إذا وصل الحال إلى العكوف عندها معنى ذلك أنه سيترك الجُمَع والجماعات، ومعنى ذلك أن العكوف موافقٌ لما كان عليه المشركون في الجاهلية.

فإذا كان اعتكافـًا -هذا العكوف يعني أن يديم المكث عندها ويفرِّط في شهود الجماعات وغير ذلك- صارت أشد خطراً، لأن الاعتكاف عبادةٌ مقصودةٌ لذاتها، فإذا حرُم العُكوف ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا﴾ ما قال معتكفين ﴿عَاكِفُونَ﴾[الأنبياء:٥٢] جمع عاكف، فإذا كانت هذه دعوة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وهذا خلق المشركين في زمنه، أشد منها أن يكون اعتكافـًا، بمعنى أنه يقصد بها عبادة الاعتكاف عند القبر. وهذا يا إخواني موجودٌ

عند من يعظِّمون العتبات والسدول والمشاهد الشركية، الآن موجود مع أنه ما كان مثل الاعتكاف القديم الذي ينقطع لهم من باب انقطاع الباكي والنائح، بل ينقطع لهم من باب القاصد بالاعتكاف العبادة -والعياذ بالله-، فهذا باطل وهذا باطل لا شك.

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وَكَذَا قال أَبُو الْجَوْزَاءِ؛ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: «كَانَ يَلُتُّ السَّوِيقَ لِلْحَاجِّ»**).

الحج كان معروفاً في العرب حتى قبل الإسلام وحتى في زمن إبراهيم وما قبل إبراهيم، لكن كان المشركون يخلطون تلبيتهم بالشرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على ما فشا عندهم وما رأوه دين الآباء والأجداد، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه سمعهم وهم يلبون بهذا قبل بعثته؛ فالنبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ اصطُنع للنبوة والرسالة، لم يخالط المشركين فيما كانوا عليه من الانحراف في التوحيد، كان يسمعهم ﷺ يقولون: «لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك»، فإذا قالوا: «لبيك لا شريك لك»، يقول: «حسبكم حسبكم»، بمعنى أنه إلى هذا الحد توحيد وما بعد ذلك شرْكٌ وانحراف، ولهم تلبياتٌ غير ذلك على كل حال.

لكن المقصود إذا قيل أنهم كانوا يحجون في الجاهلية، لا يعني ذلك أنه الحج الذي كان عليه الأنبياء والمرسلون، مما يدلُّ على هذا دلالة واضحة أنهم يحجُّون البيت ويطوفون به، وإذا طافوا بالحطيم وبالكعبة المشرّفة تمسحوا بالأصنام التي حولها، وكان حول الكعبة ثلاثمائة وستين صنماً هذا فيما جاء في بعض الآثار، لكن البيوت والدور مليئة بالأصنام، جوف الكعبة فيه أصنام، ما فوق جدران الكعبة كان سقفها مفتوحاً إلى السماء، ما فوق جدرانه كان فيه أصنام.

ولهذا في الحديث الذي رواه الإمام أحمد أن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ دخل الكعبة -يعني المسجد- هو وابن مسعود أو علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، فأمره النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أن يصعد فوق ظهره وأن يُسقِط الأصنام التي فوق جدار الكعبة، بمعنى أن الكعبة وقت بعثته عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كانت

الأصنام فيها لا يبعد أن يقال أنها أكثر من الطائفين -والعياذ بالله-، ما حول الكعبة وما في جوفها وما عند الناس في بيوتهم إلى غير ذلك.

فكان المكان والزمان مليئًا بالأصنام، مليئًا بصرْف العبادة لغير الله، واستعان الله ﷻ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وفعل ما أُمِر به من الدعوة إلى التوحيد، والنهي عن الشرك والتحذير منه.

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وَعَنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قَال: «لَعَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ زَائِرَاتِ الْقُبُورِ، وَالْمُتَّخِذِينَ عَلَيْهِا الْمَسَاجِدَ وَالسُّرُجَ»**). السُّرُج جمع سراج.

هذا الحديث رواه أهل السنة، وهذا الحديث تلقَّتْه الأمة بالقبول وصححه جماهير أهل العلم، ولو تكلم بعض أهل العلم فيه، وقالوا إنما الذي صح عن النبي ﷺ: «**لعن الله زوَّارات القبور**»، ولم يقل: «**زائرات القبور**»، وهذا دفْعٌ في الصدر، حديثٌ تعاقبت عليه الأمة وهو موافقٌ لعمومات الأحاديث الناهية عن زيارة المقابر للنساء. ثم يُقال بأن هذا الحديث مردود؟! إنما يفرح بهذا القول الذين يسوِّغون ويجوِّزون زيارة النساء للقبور.

وحتى يُبيَّن توجيه الحديث: من أهل العلم والفضل من قال بأن هناك فرقًا ما بين "الزائر" و"الزوَّار"؛ "الزوار" الذي يعتاد الزيارة قالوا: هذا هو الذي نُهي عنه «**زوارات القبور**»، أما "الزائر" مرة واحدة فما ورد النهي عن ذلك إلا في هذا الحديث، وهذا الحديث فيه كلامٌ من حيث صحته.

هذا التقرير باطلٌ من جهتين:

من جهة: أن الحديث صحَّ وتلقته الأمة بالقبول: «**لعن الله زائرات القبور**».

ومن جهة ثانية: أن التفريق ما بين ما كان على وزن "فعَّال" الذي تُسمى صيغة مبالغة، وما كان على وزن "فاعل" هو تفريقٌ يتعلق بعلم البلاغة وعلوم الآلة، لا يتعلق بالنصوص الشرعية يا إخواني، بمعنى أن "الزائر" و"الزوار" حكمهما واحد؛ لأن التفريق بينهما غير وارد في خطاب الشرع.

ولا مانع أن نضرب مثالاً: الذي ينمُّ بين الناس يسمى نماماً. لماذا ما قلنا "نَامّ"، إذن مع ذلك يسمى نماماً، وإن لم تقع منه النميمة إلا مرة واحدة.

الذي يكذب في خطابه ماذا يسمى؟ كذاباً. ما نقول كاذب، بمعنى أنه يصدُق عليه وصف المبالغة لأن ذلك وقع منه.

إذن هل المبالغة لما وُصف بها لكثرة وقوع النميمة، ولكثرة وقوع الكذب، ولكثرة وقوع الزيارة، أو لقُبح الفعل؟ إذن صيغة المبالغة لا لكثرة الزيارة وقلتها، وإنما لقُبح الفعل وحُرمته، فإذا قال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «لعن الله زائرات القبور»، أو قال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «لعن الله زوارات القبور»، فالخطابان نسقُهما واحد؛ فإذا ذُكِر بصيغة المبالغة لقُبْح الفعل الذي نهى عنه النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

والذي يدلُّ على ذلك كلامه الشديد لفاطمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، والحديث أيضاً حسَّنه بعض أهل العلم، أن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ رأى ابنته فاطمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا مقبلة فقال: «من أين أتيتِ؟» قالت: من آل فلان أعزّيهم في ميّتهم. قال: «لعلكِ بلغتِ معهم الكدى؟» فقالت: معاذ الله! وقد سمعتك تنهى عنه. فقال: «لو بلغتِ معهم الكدى ما رأيتِ الجنة حتى يراها جدُّ أبيكِ»، هذا خطابٌ شديد، ولأهل بيته، ولسيدة نساء العالمين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا وأرضاها. ومع ذلك هذا الخطاب الشديد لشدة خطورة زيارة النساء للمقابر.

وهذا التوجيه لا شك أنه صحيح، لكن ليس هو التوجيه الأوحد الذي لا توجيه غيره؛ من حيث أن بعض أهل العلم قال: إنما شُدِّد في نهي النساء عن زيارة المقابر لأنهن يجزعن، وربما يتسخَّطن وغير ذلك، هذا يرد، وهذا من دواعي النهي، لكن النهي في ذلك لأن النبي ﷺ إذا نهى عن شيءٍ لا يسع الإنسان أن يخالف النبي في ذلك؛ تظهر لك الحكمة .. تخفى عليك.

لكن لما نهى النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ النهي الشديد حتى في خطابه لفاطمة، وقال

عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لعن»، واللعن هو الطرد والإبعاد عن رحمة الله، ما يسعك بعد ذلك يا أخي أن ترقِّق المسألة وتقول: هذا لسبب كذا، وإذا أُمِن هذا الاحتمال جاز للنساء أن يزرن المقابر! لأن من الناس من يقول هذا ويغفل، على أنه إذا قال أن النهي لأجل أن النساء يجزعن، يغفل عن أن هذه الكلمة أنها تسوِّغ للنساء أن تزور قبر أبيها بعد أسبوعين أو ثلاثة أسابيع لما ذهب الحزن وهدأت النفوس.

فتعليقه بهذا يُرقق الموقف، لكن تعليقه باللعن -إذا كان اللعن من كبائر الذنوب-، من المعلوم أن كبائر الذنوب تميزت عن صغارها بأسباب، إما أن يكون مرتبٌ عليها لعنٌ، أو غضب، أو نفي إيمان، أو وعيد شديد، أو الحدود، أو غير ذلك.

فيتفطَّن الإنسان لبعض الكلمات التي ربما تكون مدخلاً للمُبْطِل، ويعظِّم جانب النهي الذي نهى عنه النبي ﷺ، جانب النهي بحد ذاته قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾[الحشر:٧] نهى النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يكفي، فكيف إذا كان نهياً مقروناً باللعن؟! هذا من باب أولى.

فقول ابن عباس: «لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور، والمتخذين عليها المساجد والسُّرُج»، من هذا الباب. يبقى أن هناك من يشغب في هذه المسألة من حيث أن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بمجموع الأحاديث في هذا الباب؛ يُفهم منه أن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كان يأذن للنساء بزيارة المقابر، أو في أقل الأحوال رأى المرأة التي منكبّة على قبر ولدها تبكي عليه، فما نهاها النبي عن ذلك، مع أن الحديث في ضِمنه نهيٌ عمَّا هي عليه لما قال: «اتقي الله واصبري»، قالت: إليك عني. «اتقي الله واصبر»، بالإمكان أن يوجهها الإنسان إلى أن هذا نهيٌ عمَّا هي عليه من الانكباب على القبر.

لكنهم يستدلون على ذلك بأحاديث أخرى، كقول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: يا رسول الله.. وهذا -يا إخوان- في زماننا هذا لا بد أن يطّلع الإنسان على الحادثة؛ لأن الذين يدعون إلى خلاف

ذلك ما يأتونك بأدلة من الخارج يأتونك بأدلة ربما تشكل على الإنسان، قالت عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا: يا رسول الله ماذا أقول إذا زرتِ المقابر؟ قَالَ: «**قولي السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون**».. الحديث بمعناه، قالوا فهذا دليلٌ على أن النساء يزرن المقابر، بل ويقلن الدعاء إذا دخل الزائر على المزور لهذا الحديث.

وتوجيه هذا وأضرابه أن يقال: أن النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ في أول الأمر نهى نهياً عاماً «**كنت نهيتكم عن زيارة القبور**»، والحال الثانية أذِن إذناً عاماً: «**فزوروها فإنها تذكركم الآخرة**»، في هذه الحال يُنزَّل حديث عائشة لما سألت النبي عن زيارة القبور، لكن استقرَّ الأمر على لعن زوَّارات القبور «**لعن الله زوارات القبور**»، وفي اللفظ الآخر: «**لعن الله زائرات القبور**»، فزوَّارات القبور يعني من وقعت منها زيارة ولو مرة واحدة المبالغة ليس لعدد الزيارات وإنما لقُبْح الفعل، كما يقال للنمام نمّاماً ولو ما نمَّ إلا مرّةً واحدة، وللكذاب كذّاباً ولو ما كذب إلا مرةً واحدة.

وأما فيما يتعلق بقوله عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: («**وَالْمُتَّخِذِينَ عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ**»)، تكلمنا عنه بالأبواب السابقة.

(«**وَالسُّرُجَ**») السُّرُج المقصود بذلك أن تكون القبور مضاءة على سبيل التعبُّد والتديُّن، لكن ربما يحتاج الناس إلى سراج لإصلاح الدفن أو لحاجة الناس إلى المصباح، فهذا معهودٌ في زمن النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ أن يُتَّخذ السراج وقت الدفن حتى يرى الحافر والملحِد طريق اللحد.

والنبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ دُفِن من الليل، قالت عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا: «مات النبي ﷺ لما تعالى النهار يوم الاثنين، فما علمنا بدفنه إلا بعد العشاء الآخرة يوم الثلاثاء بصوت المساحي»، بمعنى أنهم دفنوه عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ من الليل، وحصل ذلك لعثمان وما زال الناس إلى الآن يحتاجون إلى الدفن ليلاً إذا كثُرت الجنائز أو إذا اشتد الحر أيام الصيف أو لغير ذلك من

الأسباب، فإذا كان الدفن ليلاً احتاج الناس إلى المصابيح والسُّرُج فمثل هذا لا ينهى عنه أحد.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بَابُ مَا جَاءَ فِي حِمَايَةِ الْمُصْطَفَى جَنَابَ التَّوْحِيدِ وَسَدِّهِ كُلَّ طَرِيقٍ يُوصِلُ إِلَى الشِّرْكِ

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾[التوبة:١٢٨] الْآيَةُ.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قال رسول الله ﷺ: «لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُوراً، وَلَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيداً، وَصَلُّوا عَلَيّ؛ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ، وَرُوَاتُهُ ثِقَاتٌ.

وَعَنْ عَلَيٍّ بنِ الْحُسَيْنِ: أَنَّهُ رَأَى رَجُلاً يَجِيءُ إِلَى فُرْجَةٍ كَانَتْ عِنْدَ قَبْرِ النَّبِيِّ ﷺ، فِيدْخُلُ فِيهَا فَيَدْعُو، فَنَهَاهُ وَقال: أَلَا أُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا سَمِعْتُهُ مِنْ أَبِي، عَنْ جَدِّي، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قال: «لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيداً، وَلَا بُيُوتَكُمْ قُبُوراً، فَإِنَّ تَسْلِيمَكُمْ يَبْلُغَنِي أَيْنَمت كُنْتُمْ» رَوَاهُ فِي الْمُخْتَارَةِ.



قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللّٰه:

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**بَابُ مَا جَاءَ فِي حِمَايَةِ الْمُصْطَفَى جَنَابَ التَّوْحِيدِ وَسَدِّهِ كُلَّ طَرِيقٍ يُوصِلُ إِلَى الشِّرْكِ**).

(**الْمُصْطَفَى**) نبينا ﷺ، وحمايته جناب التوحيد باعتبار أن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أكمل البيان في التوحيد وأكمل البيان في التحذير من الشرك.

الحماية تأتي -يا إخواني- بعد أن يُكمِل الإنسان ما أُمِر به أو قبل أن يُكمِل ذلك؟ لما بلَّغ البلاغ المبين عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وعلم أمته الحق وطريقه، وحذَّرهم من الشرك ومن الانحراف، حمى النبي ﷺ بعد ذلك التوحيد الذي بُعِث به وقرَّره على ما أمر به ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الأصل أن الحماية إنما تكون إذا فرغ الإنسان من البلاغ، وإذا لم يبق للناس شُبْهَةٌ فيما

دعا إليه من الحق وما حذَّر عنه من الباطل.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وَسَدِّهِ كُلَّ طَرِيقٍ يُوصِلُ إِلَى الشِّرْكِ**)، من هذا العنوان لهذا الباب يُفهم أن الطرق الموصلة إلى الشرك طُرُقٌ كثيرة، فمن أكثرها الغلو، لكن من الأسباب الموصلة إلى الشرك تقليد الآباء والأجداد، قد يكون غير غالٍ في صاحب القبر ولا يعرفه أصلاً، لكن أباه وأجداده يعبدون هذا القبر ويعظّمونه فتابعهم على هذا، بمعنى أن الطرق الموصلة إلى الشرك ليست طريقاً واحدة، الطريق الموصل إلى التوحيد طريقٌ واحد كتاب الله ﷻ وسنة النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ الوحي، لكن الطرق الموصلة إلى الشرك أكثر من طريق.

وهذا يا إخواني سنة الله ﷻ الكونية القَدَرِيَّة والشرعية الدينية أن الحق دائماً واحد، والباطل متشعِّب، إذن الطرق الموصلة إلى الشرك ليست طريقاً واحداً، والطريق الموصل إلى الحق هو طريقٌ واحد.

مما يدلُّ على هذا قول ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «خط النبي ﷺ في الأرض خطاً مستطيلاً -يعني طويلاً-، وخط عن يمينه خطوطاً وعن شماله خطوطاً، ثم قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**هذه السُّبُل على كل سبيل شيطان يدعو إليه**»، ثم وضع يده المباركة عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في الخط المستطيل -أيْ المستقيم- وقال: ﴿**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ**﴾[الأنعام:١٥٣].

﴿**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي**﴾ على صيغة الإفراد، ﴿**فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ**﴾ على صيغة الجمع.

فإذا قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وَسَدِّهِ كُلَّ طَرِيقٍ يُوصِلُ إِلَى الشِّرْكِ**)، معنى ذلك أن الطُّرُق التي تُفضي إلى الشرك -ثبتنا الله وإياكم- والنبي حاضر كانت كثيرة، فكيف إذا تقادم الزمان وبعُدَ الناس عن أنوار الرسالة؟! تزداد أكثر وأكثر، ولهذا ما كان في زمن الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ من يعبد ما يُعبَد الآن، بغضّ النظر عما عُبِد في هذا الزمان، ومع ذلك لما كان الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ

يُغالبون على التوحيد والنهي عن الشرك كانوا يرون من يقع في الشرك؛ لأنهم قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾[الزخرف:٢٣]، مقتدون يعني ما ندري هم على صواب أو خطأ لكنا نختار هذا.

وطائفةٌ أخرى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾[الزخرف:٢٢]، هي هداية أنتم على الخطأ، ومنهم من كان يعبد الأصنام؛ لأنه يغلو فيها، ومنهم من يعبد غير ذلك لأسبابٍ أخرى؛ فيعبد هواه ميلاً إلى هوى، كأن يعبد الجن خوفًا منهم، بمعنى أن الطرق المفضية إلى الشرك كثيرة.

فإذا كان هذا في أول التنزيل وفي أول مبعثه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، سيكون هذا موجوداً إلى قيام الساعة، وسيزيد الأمر شراً؛ لأن بطبيعة الحال كلما بعُدَ الناس عن زمن النبوة كلما كثُرَ الجهل وكلما قلَّ العلم، وإذا كثُر الجهل بالتبع يكثر دعاته، وإذا قلَّ العلم يقلُّ دعاته كما هو معروف.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾[التوبة:١٢٨]).

في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، يعني أنه أنصح لكم مما لو كان الذي جاءكم من غير أنفسكم، أيُّهم أنصح للمدعوين إذا كان منهم ويعرفونه أو إذا ما عرفوه إلا لما دعاهم؟ لما كان منهم ويعرفون صدقه وأمانته قبل بعثته، وما أُخذت عليه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هِنةٌ من الهنات، وما عُرِف عنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إلا بالصدق والأمانة، فلماذا تتنكبونه ولا تصدقونه؟ ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، يعني أصدق لكم نُصحًا، وأحرص عليكم وأرفق بكم، ويُحبُّ لكم الخير أكثر من غيره، فما بقي لكم عذر في ترك تصديقه واتباعه.

﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾، يعني إضافةً إلى ذلك لا يحب ما يُعنِتُكم ويشقُّ عليكم، حتى في

دعوته لكم يرفق بكم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فلا يحب أن يكلِّفكم ما لا تطيقون، ومع ذلك حريصٌ عليكم.

كل هذه الأوصاف الثلاث تقطع العُذْر في ترك متابعته ﷺ إذا كان منكم وفيكم، وإذا كان حريصًا عليكم وشفيقًا عليكم، وإذا كان لا يحب أن يكلِّفكم ما لا تطيقون، فلماذا تتركونه؟ فليس لهم عُذْرٌ في ذلك.

مع أننا نقول -يا إخواني- حتى لو كان من غيرهم في أمةٍ من الأمم على سبيل المثال، وحتى لو كان ما أمرهم به وما نهاهم عنه هم يرونه ثِقلاً عليهم مع أنه لا يأمر الله ﷻ عباده إلا بما يطيقون، مع ذلك كُلِّه لا يسعهم إلا أن يصدّقوا نبيهم وأن يؤمنوا به.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، وهذه من الأوصاف التي تقطع المعذرة في عدم اتباعه ﷺ، رأفته ورحمته.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ يعني فإن أبوا، فاعلم أن الله ﷻ أجرى في سننه الكونية أن يكون للأنبياء مكذِّبين، وأن يكون للرُّسل معاندين، وأن يكون للحق أعداءٌ يدعون إلى الباطل، والله ﷻ يهدي من يشاء ويُضِلُّ من يشاء، بمعنى أنك إذا فعلت ذلك وقامت حُجَّةُ الله ﷻ عليهم بما يرون من صفاتك ومن رفقك ورأفتك ورحمتك، ثم بعد ذلك ما قبلوا ما تدعو إليه ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾، ما عندي بذلته، ولم يبق إلا تدبير الله ﷻ لملكوته.

من تدبيره ﷻ أن هدى أبا بكر وأضل أبا جهل، ﴿يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَيُضِلُّ مَن يَشَاءُ﴾، بمعنى أن الإنسان إذا قطع الله ﷻ عليه المعذرة ثم اختار لنفسه الباطل، إنما اختار له الباطل بعد أن ظهر الحق له جليًا وظهر له الباطل جليًا، فاختار ما وافق هواه، فلم يبق له عُذرٌ عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾[التوبة:١٢٩].

قال أبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن هذه الآية أقرب القرآن عهداً بالسماء. بمعنى أنها من آخر ما نزل.

وهناك أقوالٌ في آخر ما نزل من القرآن على خمسة أقوال أو ستة أقوال، لكن الشيء الذي يعنينا هنا؛ أن هذه الآية من آخر ما نزل لتعلُّقها بآخر ما دعا إليه النبي ﷺ، وبآخر ما عهدوه من رأفته ورحمته ورفقه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وبما عهدوه من أن الخلْق خلقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَيُضِلُّ مَن يَشَاءُ﴾.

وهناك أقوالٌ في آخر ما نزل كما يعرف الجميع؛ فمن أهل العلم من يقول: إن آخر ما نزل سورة النصر ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ﴾[النصر:١]. ومنهم من يقول: إن آخر ما نزل قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾[المائدة:٣]. ومن أهل العلم من يقول: إن آخر ما نزل قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[البقرة:٢٨١]، ومنهم من قال: هذه الآية وغير ذلك من الأقوال.

لكن على كل حال، سواء كان ما قاله أبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هو الأقرب إلى الصواب، أو كان غيره أقرب إلى الصواب لأسبابٍ أخرى، فما يعنينا في هذا الأمر أن قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[التوبة:١٢٨] من آخر ما نزل؛ لأنها تضمنت الأمر بالتوحيد، وتضمنت وصف النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بالأمانة، وتضمنت أن التدبير بيد الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وتضمنت الألوهية التي بُعِثَ الأنبياء لأجلها: ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾[التوبة:١٢٩].

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (**وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قال رسول الله ﷺ: «لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُوراً، وَلَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيداً، وَصَلُّوا عَلَيّ؛ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِإِسْنَادٍ**

حَسَنٍ، وَرُوَاتُهُ ثِقَاتٌ).

هذا الحديث فيه مسائل؛ أولها: ما يستدلُّ به أهل العلم من أن القبور لا تصحّ الصلاة فيها، وجاء أحاديث غير ذلك مرّت في الباب الذي قبل هذا، من حيث أن الصلاة في المقابر منهيٌ عنها -الصلاة في المقابر والصلاة إليها كلها مما نهى عنها النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ-.

لكن استدلالهم بهذا الحديث قالوا لأن النبي ﷺ لما قال: («لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُوراً، وَلَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيداً، وَصَلُّوا عَليّ؛ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ»)، بمعنى أن القبور ليست محلاً للصلاة، وإنما محلُّ الصلاة البيوت -المساجد لا شك في الفريضة، والبيوت-، صلاة الرجل في جوف بيته، لما سئل النبي ﷺ عن أفضل الأعمال؟ قال: «صلاة الرجل في جوف بيته».

بالتبع الصلاة على النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ليست مشروطة بزمان ولا بمكان يا إخواني، الصلاة على النبي ﷺ مشروطةٌ بسببٍ؛ لقول النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «البخيل من إذا ذُكِرت عنده لم يصلِّ عليَّ»، ولقوله ﷺ في حديث جبريل أن جبريل قال: «يا محمد، من إذا ذكرت عنده فلم يصلِّ عليك فأبعده الله»، فيكون لها سبب، لكن الأصل أن الصلاة على النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عبادةٌ مشروعة في كل وقت.

فتخصيصها بزمن دون زمن أو مكانٍ دون مكان ليس عليه دليل، وإنما يُكثَر من الصلاة عليه ﷺ في الجُمُعة كما جاء به الحديث، لكن لا يقال أنك كلما دخلت مجلسًا صلِّ على النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، كلما أخذت طريقًا صلِّ على النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، لكن يقال: أكثر من الصلاة على النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وهذا هو اتزان أهل السنة والجماعة وأهل الحق وأئمة الدعوة.

فإذا قيل: إن الصلاة على النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مخصوصةٌ بمكان ومخصوصةٌ بزمان؛ هنا فتحت للناس باب الإكثار من الصلاة أو ضيَّقت عليهم؟ ضيّقت عليهم، لكن لما قال النبي

عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم عليَّ صلاة»، فصارت محصورة بمكان وزمان أو يستكثر منها الإنسان؟ يستكثر، وهذا أقل ما يجب على المسلم اعترافًا بحق النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وهي عبودية لله -هي ليست عبودية للنبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، هي عبودية لله-؛ لأن الذي أمر بها الرب ﷻ في ثلاث آيات من القرآن، لأن بعض الناس يظن أن هذه العبادة التي هي من فرَّط فيها ولو مرة واحدة وصِفَ بالبُخل، يظن أن هذه العبادة بهذا الثِّقل في الشرع، ليس عليها إلا دليل واحدة، بل عليها ثلاثة أدلة.

ولو تأملت في القرآن المجيد ستجد أكثر من ذلك: ﴿إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[الأحزاب:٥٦]، ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾[النمل:٥٩] وعِباده الذين اصطفى أول من يدخل فيهم سيدهم ﷺ وإمام الأنبياء والمرسلين، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾[الصافات:١٨٠-١٨١] وأول من يدخل فيهم سيد الأولين والآخرين عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ. فصار الدليل على ذلك ثلاثة أدلة واضح الأمر فيها بالصلاة عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إما أمراً، وإما تسليمًا وصلاةً من الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: («فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ»)، يعني أن الله ﷻ يبلِّغ صلاة من صلى على نبيه ﷺ عن طريق ملكٍ، أوكل الله ﷻ إليه ذلك.

لما قال الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ في تمام هذا الحديث، قالوا: «يا رسول الله كيف تبلغك صلاتنا وقد أرمت؟» يعني تغيَّرت بعد أن مِتَّ -فيما يظنون رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ-، فقال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «إن الله وكَّل بي ملكًا يبلغني السلام عن أمتي».

فلو اعترض إنسان -وهذا موجود في بعض الكتب المعاصرة- يقول: إن هذا لا يستوعبه العقل، من حيث أن الذي يصلي على النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في اللحظة الواحدة خلائق لا يحصيهم إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فكيف يكون ذلك؟ نقول: هذا فيما يتعلق بالمقاييس الدنيوية،

لكن فيما يتعلق بقدرة الرب ﷻ التي أجرت هذا، وما هو أشد من ذلك، الله ﷻ فعَّالٌ لما يريد.

ثم هناك فرقٌ ما بين ما يقع في عالم الشهادة وما يقع في عالم الغيب، وإنما نصدِّق بذلك لأن النبي أخبر بذلك عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، حتى إنه في بعض ألفاظ الحديث قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لا يصلي عليَّ أحدٌ إلا رد الله عليَّ روحي فأُصلي عليه»، فلو قال إنسان: كيف تُرد روحه؟ نقول: كيف هذا عند الكون؟ الله ﷻ فعَّالٌ لما يريد، وإذا صح الحديث وجب التسليم له.

وقد قال الأولون: إذا جاء نهر الله بطل نهرُ معقل، إذا ورد كلام الله ﷻ وكلام الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فمن قِلَّة الديانة وقِلَّة تعظيم الله ﷻ أن يعارض قوله بعقله الصغير وتصوره القاصر، وأن يعارض به وحي الله ﷻ، هذا من عدم توقير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ومن باب رد النصوص والجرأة على ذلك، هذا مقامٌ عظيم، هذا يدلُّ على ضعف الديانة؛ رد النص من كلام الله وكلام الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بما يتصوره عقله، هذا يدل على رقة الدين وضعف الدين وعدم توقير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَعَنْ عَلَيٍّ بنِ الْحُسَيْنِ: «أَنَّهُ رَأَى رَجُلاً يَجِيءُ إِلَى فُرْجَةٍ كَانَتْ عِنْدَ قَبْرِ النَّبِيِّ ﷺ، فِيدْخُلُ فِيهَا فَيَدْعُو، فَنَهَاهُ وَقَالَ: أَلَا أُحَدِّثكُمْ حَدِيثًا سَمِعْتُهُ مِنْ أَبِي) يعني الحسين رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، (عَنْ جَدِّي) يعني علي بن أبي طالب، (عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيداً، وَلَا بُيُوتَكُمْ قُبُوراً، فَإِنَّ تَسْلِيمَكُمْ يَبْلُغَنِي أَيْنَمت كُنْتُمْ» رَوَاهُ فِي الْمُخْتَارَةِ) رواه في المختارة يعني ضياء الدين المقدسي.

في هذا الحديث أن علي بن الحسين، ويُذكر أن هذا وقع للحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب -الذي يسمى الحسن المثنى-، وسواء هذا أو هذا، الجميل في هذا الأمر أن هذا المعلِّم من بيت النبوة، جده علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ الصهر، وجدته فاطمة بنت النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فأخذ العلم من قريب -من بيت النبوة-؛ بمعنى أنه أعرف بمثل هذه المسائل من غيره، وإن

كان العلم بهذه المسألة فاشياً في الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، لكن أن يُستدل بكلام تابعيٍ يبلغ به علياً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى رسول الله ﷺ أمتن فيما لو كان الحديث عن غير هذه الطريق، وإن كان هذا مقبولٌ لا يُردّ وهذا مقبولٌ لا يُردُّ؛ لصحة الحديث عن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

(**أَنَّهُ رَأَى رَجُلاً**) قيل في بعض ألفاظ الحديث أن هذا الرجل من التابعين اسمه سهيل بن أبي صالح، وبغض النظر عمن وقع منه، لكن الذي وقع في هذا الخبر وقع من تابعيٍ لم يكن الخطأ فيه انحرافاً في الاعتقاد، وإنما تكلُّفٌ في التماس الأجر.

ففرقٌ يا إخوة ما بين هذا وما بين هذا، الانحراف في الاعتقاد بدعة وقد يصل إلى الشرك، لكن التكلُّف في العبادة إنما أراد خيراً فأخطأ طريقه، هذا قصارى ما يقال.

الأقرب إلى الصواب الالتزام بما ثبت عن خيار الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في التسليم على النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، الصلاة على النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كما تقدم في أيّ مكان وفي أيّ زمانٍ تبلغه، وقد قال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**من صلى عليَّ صلاة واحدة صلى الله عليه بها عشراً**».

وصلاة الله عَزَّ وَجَلَّ عليك أنت؛ هل هو دعاء الله عَزَّ وَجَلَّ لك أو ثناء الله عَزَّ وَجَلَّ عليك عند الملأ الأعلى؟ لا يقال -يا إخواني- أن الله عَزَّ وَجَلَّ يدعو لنبيه ومن باب أولى لا يدعو لغيره، بمعنى أن الدعاء التماسٌ، فهل يُتصوَّر أن الله عَزَّ وَجَلَّ يلتمس وهو الغني الحميد؟ إنما يُثني الله عَزَّ وَجَلَّ، وهذا ذُكِر قديماً عن أبي العالية الرياحي أن صلاة الله عَزَّ وَجَلَّ على نبيه ﷺ ثناؤه عليه في الملأ الأعلى، وصلاة الملائكة على النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وصلاة المؤمنين على النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ دعاؤهم الله عَزَّ وَجَلَّ أن يصلي على النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فهذه صلاة وهذه صلاة هي من المخلوق التماس، بمعنى أنه يطلب شيئاً للنبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، لكنها من الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هل هي التماس وبيده تدبير ملكوت السماوات والأرض، وهو القوي العزيز سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟

ما تكون التماس وإنما تكون ثناء، ويُثني الله عَزَّ وَجَلَّ على عباده لفضيلة العمل الصالح الذي عملوه، كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: «**وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِهِ، وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ**

ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُ»، فهذا من هذا، من حيث أن صلاة الله ﷻ على من صلى على نبيه ﷺ أنفع لهم مما لو صلى عليهم النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ولا شك في هذا، ومع ذلك النبي ﷺ يصلي عليهم «إلا رد الله عليَّ روحي حتى أرد عَلَيْهِ السَّلَامُ».

هذا الاتزان عند أهل السنة والجماعة جعلهم على جادة الوسط ما بين من يفرِّط في الصلاة على النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وعلى رأس هؤلاء الرافضة؛ الرافضي إذا ذكر آل البيت قال: عليهم السلام، لكن إذا ذُكِر النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يقول: قال الرسول، قلَّ أن يصلّوا على النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لأن مقام النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عندهم مقامٌ أعظم من مقام النبوة، لهذا يجوزون الخروج عن شريعة النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لأنهم يرون أن المعصومين أعظم مقاماً، أو لأنهم يرون أن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وحاشاهم من ذلك غير مؤتمنين فيما رووا عن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لكنهم مقصرون، فأكثر الأمة تقصيراً في الصلاة على النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من جعل له سنة غير سنة النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وأكثر الناس انحرافاً عن سنة النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الرافضة.

والانحراف الآخر؛ أن يكون الذي يصلي على النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ غالٍ في الصلاة على النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حتى يجعل له مقاماً لا يجوز إلا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، كالطرقية والصوفية وأصحاب الأوراد المبتدَعة وغيرها، كـ"دلائل الخيرات" وغيرها، يصلون على النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ صلاةً حتى يصفون النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بـ "الفاتح لما أُغلِق"، ويصفون النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بألفاظٍ لا تكون إلا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

فَإِنَّ مِنْ جُودِكَ الدُّنْيَا وَضَرَّتُهَا وَمِنْ عُلُومِكَ عِلْمُ اللَّوْحِ وَالْقَلَمِ

وغير ذلك.

وأهل السنة والجماعة وسطٌ ما بين هذا وهذا؛ امتثلوا أمر الله، وأكثروا من الصلاة على النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وهم مع ذلك ملتزمون بسنة النبي ويدعون إليها، ويعظّمون شأن

الحديث النبوي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، لا يعارضونه بعقولهم.

هذا الوصف الذي لا يليق إلا بأتباع النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ليس لمن تقالَّ شأن السنة؛ إما فرط فيها، أو أحدث فيها ما ليس منها، أو ترك الصلاة على النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، أو غلا فيه ﷺ حتى جعله بمنزلة الألوهية والربوبية.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وَعَنْ عَلَيٍّ بنِ الْحُسَيْنِ: أَنَّهُ رَأَى رَجُلاً يَجِيءُ إِلَى فُرْجَةٍ كَانَتْ عِنْدَ قَبْرِ النَّبِيِّ ﷺ، فِيدْخُلُ فِيهَا فَيَدْعُو..**) إلى آخر الحديث.

الفُرْجة التي كان يدخل فيها سهيل -قيل: سهيل بن أبي صالح، وقيل سهيل بن أبي سهيل-، وذكره بهذا التفصيل شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "اقتضاء الصراط المستقيم" وابن القيم كذلك في بعض كتبه.

الفُرجة التي كان يدخل فيها ليست داخل الحُجْرة -كما جاء في بعض الآثار-، وإنما كانت فرجة ما بين جدار الحجرة وجدار المسجد.

لماذا؟ لأن الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ لما ماتت عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا دُفنت في البقيع، فبقيت الحُجْرة فارغة، وكانت عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا تحتاج إلى السقف حتى يُكنَّها من المطر والشمس ومن غير ذلك، وهذا من فقه الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ؛ لما ماتت عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا أُغلق الباب وصارت الحُجْرة مغلقة من جميع الجوانب وكُشف السقف، فإذا قيل إنه كان يأتي إلى فرجة، لا يعني ذلك أنه كان يدخل إلى القبر، وإنما في فُرجةٍ ما بين جدار الغرفة وما بين جدار المسجد.

في بعض ألفاظ الحديث أن علي بن الحسين: «ما أنت ومن في الأندلس إلا سواء»، من حيث أن من صلى على النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فالثواب بذلك عشر حسنات لا يزيدها ولا ينقصها أن يشد الرحلة إلى قبر النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ولا يزيدها ولا ينقصها أن يكون في المدينة أو أن يكون في الرياض. ولهذا كان السلف يزورون قبره عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، لكن ينشئون السفر للمسجد النبوي لا لزيارة القبر، فإذا استقروا هناك زاروا وسلّموا كل يوم إذا أرادوا؛

بمعنى أنه ليس هناك مانع.

ولهذا الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ -وقد تفرقوا بعد النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في الأقاليم فاتحين ومعلمين، وابن مسعود في الكوفة، وأنس في البصرة، وغيرهم، وابن عباس في الطائف- كانوا إذا زاروا المسجد النبوي إنما يزورون المسجد، لا يزورون القبر؛ لأن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال: «**لا تُشَدُّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى**».

وزيارة قبر النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -وهذا مما لا بد أن يُذكَّر به الناس- ليس لها ذكرٌ واردٌ عن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، بطبيعة الحال ليس لها ذكر وارد لأنها متعلقة به عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، لكن ليس لها أثرٌ عن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كالأثر الذي يكون في أذكار الصباح وأذكار المساء وغير ذلك.

وإنما الوارد عن ذلك أن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كان إذا قدم من سفر أتى إلى قبر النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ واستدبر القبلة -جعل القبلة وراءه-، وقال: «السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا أبا بكر، السلام عليك يا أبتاه» فقط لا غير، بمعنى أن زيارة الميت في الأصل تسليمٌ عليه، كما قال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**السلام عليكم أهل الديار من المسلمين والمؤمنين**».

والمعهود في مجتمعاتنا من فضل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إلى قريب أنهم يفرِّقون ما بين الصلاة على الميت -وهنا يُستقبل بالصلاة القبلة-، أو الصلاة عليه بعدما دُفن أيضًا يُستقبل بالصلاة القبلة، لكن الدعاء له بعد ذلك ليس من شرطه أن يستقبل القبلة، ولهذا نحن نرى إخواننا إذا دفنوا موتاهم يكونوا مُحافّين بالقبر ويدعون.

ما كان عليه عبد الله بن عمر من استدبار القبلة؛ حتى لا يُتوهَّم أن وقوفه للقبر وقوف استقبال -حتى لا يستقبلوا القبلة والقبر جميعًا-، وإنما وقوفه وقوفٌ لأجل دعائه للميت، ومع ذلك إذا وقع من إخواننا واستقبل القبر في الدعاء لا يُنكَر على ذلك، لكن الأدلة الثابتة

عن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في زيارة المقابر أنه يدعو للقبر كيفما اتفق، لا يستدبر القبلة ولا يقصدها إلى غير ذلك.

يدلُّ على ذلك حديث عائشة عند النسائي وغيره: «أن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قبل أن يموت بثلاث أتى مقبرة البقيع فوقف عندهم ورفع يديه ثلاثًا»، بمعنى أنه رفع يديه ثم دعا، ووضع يديه ثم دعا مرة أخرى، ورفع يديه ثلاثًا، يعني أنه ما زال يدعو لهم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ثلاث مراتٍ يرفع يديه في كل مرة ويخفضها، ما ذكرت عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا أن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قصد المقبرة مستقبلاً للقبلة، وإنما قصد المقبرة واقفًا عند القبر.

ولهذا الذي يفعله إخواننا الآن ليس محل نكيرٍ، لكن حتى يقال أنه من باب احتياطهم -أيْ ابن عمر وغيره من الصحابة- أنهم لا يقصدون القبلة بالدعاء وإنما قصدوا الوقوف عند القبر كيفما اتفق، لأن المقصود بالزيارة الميت بالدعاء له.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ بَعْضَ هَذِهِ الْأُمَّةِ تَعْبُدُ الْأَوْثَانَ

وَقَوْلُ الله تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾[النساء:٥١].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللهِ مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾[المائدة:٦٠].

وَقَوْلُهُ: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾[الكهف:٢١].

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قال: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ، قالوا: يا رَسُولَ اللهِ! الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى؟ قال: فَمَنْ؟!» أَخْرَجَاهُ.

وَلِمُسْلِمٍ: عَنْ ثَوْبَانَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ زَوَى لِيَ الْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ -الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ-.

وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ بِعَامَّةٍ، وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوّاً مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَلَوْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِم مَنْ بِأَقْطَارِهَا حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا».

وَرَوَاهُ الْبَرْقَانِيُّ فِي صَحِيحِه، وَزَادَ: «وَإِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الْأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ، وَإِذَا وَقَعَ عَلَيْهِمُ السَّيْفَ لَمْ يُرْفَعْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَلْحَقَ حَيٌّ مِنْ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِينَ، وَحَتَّى تَعْبُدَ فِئَامٌ مِنْ أُمَّتِي الْأَوْثَانَ، وَإِنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي كَذَّابُونَ ثَلاثونَ، كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ،

وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، لا نَبِيَّ بَعْدِي، وَلَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ مَنْصُورَةً، لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ تَبَارَكَ وَتعالى».



قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللّٰه:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه.

قال الإمام المجدد رَحِمَهُ ٱللَّهُ محمد بن عبد الوهاب: (**بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ بَعْضَ هَذِهِ الْأُمَّةِ تَعْبُدُ الْأَوْثَانَ**).

ومناسبة هذا الباب لما قبله: من حيث أن النبي ﷺ لما حمى جناب التوحيد وسدَّ طُرُق البدعة المفضية إلى الشرك، أخبر النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أن وقوع الشرك في هذه الأمة وقوعٌ قدري، وأن الله ﷻ تجري سنته القَدَرِيَّة في هذه الأمة كما جرت في الأمم قبلها؛ فكل أمةٍ بدأ نبيها بالدعوة إلى التوحيد، ثم خالفوه بعد ذلك، إما عن قريب أو أن يكون هو بين ظهرانيهم، أو أن قتلوا نبيهم.

والدعوة إلى التوحيد والانحراف عنه سنة قَدَرِيَّةٌ كونية؛ الدعوة إلى التوحيد سنة كونية من حيث وقوعها، وشرعيةٌ دينية من حيث الأمر بها، لكن الانحراف عن التوحيد إلى الشرك وتكذيب الأنبياء واقعٌ في هذه الأمة ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾[آل عمران:١٤١]، فما يقع من بلاءٍ ومن انحراف إلا وهو تمحيصٌ لأهل الإيمان.

فناسب أن يُذكر هذا الباب بعد قول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**بَابُ مَا جَاءَ فِي حِمَايَةِ الْمُصْطَفَى جَنَابَ التَّوْحِيدِ**)؛ يعني أن النبي ﷺ أقام الحُجَّة على أمته بالبلاغ المبين، وهداية الدلالة والإرشاد، ثم التوفيق والإلهام من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

فلما أدى الذي عليه والذي أُمر به ﷺ، ما يقع بعد ذلك من انحرافٍ عن التوحيد إلى

الشرك إنما هو من فِعل من انحرف لا من تقصيره -وحاشاه ﷺ-.

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وَقَوْلُ الله تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾**[النساء:٥١]).

المقصود بقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: **﴿الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ﴾** يعني الذين أوتوا حظًا من الكُتُب المنزَّلة، وسماه الله ﷻ "نصيبًا" من حيث أن فيه حظٌ من الصواب وهو بشارة به عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وإلا فالأصل أن التوراة والإنجيل طرأ على أكثرها التحريف. وإذا ذُكر "الكتاب" في كلام الله ﷻ في سياق اليهود والنصارى فالمقصود به جنس الكتاب، يشمل التوراة والإنجيل والزبور؛ لأنه مما نزل على بني إسرائيل، أما صحف إبراهيم فكان قبل ذلك، إبراهيم كان قبل أن تكون هناك يهودية ونصرانية، كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: **﴿وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ﴾**[آل عمران:٦٥] يعني إلا من بعد إبراهيم.

وهذه الآية ذكر أهل العلم أن سبب نزولها أن كعب بن الأشرف وحيي بن أخطب دخلا مكة، وسألا أهل مكة -وكانوا وقتها كبيرهم أبو سفيان بن حرب قبل أن يُسلم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ-، فسألوهم عما كانوا عليه من دينٍ وما يدعو إليه النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فأبوا أن يضيفوهم كفار مكة حتى يتأكدوا من أنهم موافقون لهم على دينهم، فأمر أبو سفيان -وكان كافراً- أن يسجدوا لأصنامهم حتى يطمئنوا إليهم، فسجد اليهوديان لأصنامهم.

ويدلُّ هذا الأمر على أن اليهود والنصارى لا يكترثون في أن يشاركوا غير دينهِم دينَهُم، هذا وإن كان لا يجوز في ملتنا والحمد لله، لكن اليهود والنصارى لا مانع أن يشارك اليهودي البوذي والهندوسي، وأن يشارك المسلم أيضًا باعتبار أنه يرى أن هذا من التعايش، وهذا ليس تعايشًا في شريعتنا.

فهم لما سجدوا للأصنام حتى يرضى عنهم كفار مكة، رضوا عنهم كفار مكة، فسألوهم بعد ذلك: أيُّنا أقرب إلى الصواب وإلى الهدى نحن أو محمد؟ قالوا: اعرضوا عليَّ ما

تعتقدون وما يأمر به. فلما عرضوا عليهم تعظيمهم للأصنام وأنهم يأمرون بالعفاف والصلة وتعظيم البيت -يعني كفار مكة-، والنبي يأمر بذلك وأزيد من ذلك عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، لكنهم كذبوا على النبي أو أنهم -أيْ اليهود- كتموا على اليهود ما يأمر به النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من مكارم الأخلاق ومن السجايا الحميدة التي بُعِث بها، فقال الكافران اليهوديان: أنتم أهدى من محمدٍ وأصحابه. فنزلت هذه الآية فيهم قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني عُبّاد الأصنام، وإن كانوا كلهم كفاراً: ﴿هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾[النساء:٥١].

والمقصود بالجبت في إطلاقه: كل ما لا فائدة منه، ويُطلق على ما ليس فيه فائدة ويكون سبباً للانحراف عن التوحيد من أصله. ولهذا من الجبت السحر؛ السحر كفرٌ بكل صوره، ومن الجبت الكهانة والعيافة والطرْق وغير ذلك من الطُّرُق التي يزعمون أنهم يعرفون بها المخبوء.

وإذا قلنا إن السحر كفرٌ بجميع أنواعه؛ لأن الله ﷻ ما فرّق ما بين سحر وسحر، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾[البقرة:١٠٢]، وقال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كما في حديث سمرة عند الترمذي: «حد الساحر ضربةٌ بالسيف»، وقال: «ضربُهُ بالسيف» يعني قتله، وذكره النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مقروناً بالشرك لما قال: «اجتنبوا السبع الموبقات» قيل: وما هن يا رسول الله؟ قَالَ: «الشرك بالله والسحر».

وهذا التفصيل يُرَدُّ به على من قال بأن من السحر ما يكون كفراً أكبر مخرجٌ من الإسلام، ومنه ما يكون دون ذلك، فالسحر بجميع أنواعه لا يكون إلا بادعاء علم الغيب وبالاستعانة بالشياطين، والشياطين لا يعينون السحرة إلا بالخروج من الإسلام، إما بفعل ناقضٍ كتدنيس المصحف وسبّ الله ﷻ وغير ذلك، أو بفعل عبادةٍ يفعلونها للجن كالذبح لغير الله، أو استقبال المشرق والمغرب بالذبيحة، وذبحها من قفاها أو غير ذلك من شرك الطاعة.

وهذا التفصيل يدلُّ على أن من قال بأن السحر بابه واحد، قولهم متّجه لقوة الأدلة، ولأنه إذا رُقِّق الأمر هذا وقيل إنه منه ما يكون كفراً ومنه ما لا يكون، تساهل الناس بالسحر الذي جعله الله ﷻ كفراً.

ولهذا السحر بكل أنواعه كفر؛ إنما تختلف أنواع السحر من حيث أثره على المسحور، أما من حيث هو فهو نوعٌ واحد، فالسحر نوعٌ واحد من حيث حكمه أنه كفر، لكنه يختلف باعتبار أثره على المسحور، فقد يكون السحر تخييلاً، وهذا ذكره الله ﷻ في كتابه فقال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾[طه:٦٦]، وقد يكون سحراً متعلقاً بإزهاق الروح وقتلها، وقد يكون متعلقاً بهزال البدن واصفراره وضعفه وتغير لونه، وقد يكون متعلقاً بصرف العطف، وقد يكون متعلقاً بعبادة غير الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بأن يكون الساحر ساحراً باعتبار صرف العبادة لغير الله، وإن لم يسحر بذلك أحداً ولكن دعا غيره إلى السحر.

ومن السحر -النوع الخامس- ما يتعلق بالذاكرة، إما بالنسيان الذي لم يعهده الإنسان من نفسه، أو الجنون -والعياذ بالله-، وهذا النوع من السحر وقع على النبي ﷺ أضعفه والحمد لله؛ لأنه عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ لما عقد لبيد بن الأعصم السحر في المشط والمشاطة -والحديث في البخاري-، قالت عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: «حتى إنه ليُخيَّل إليه أنه عمل الشيء ولم يعمله»، فكان سحراً متعلقاً بالتذكُّر.

ولا شك أن الله ﷻ عصم وحيه -سبحانه وبحمده-، كما قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[فصلت:٤٢]، لكن ما وقع عليه ﷺ من ذلك حتى يكون في ذلك حكمةٌ، وأن يكون للأمة سلفٌ في رفع السحر إذا وقع بالرقية الشرعية، فلا يذهبون إلى سَحَرَة ينشرون السحر بالسحر، ولهذا حلَّه النبي ﷺ بالمعوذتين -الفلق والناس-.

فالشاهد أن الجبت يُطلق على كل ما كان انحرافًا عن التوحيد.

والطاغوت -الأصل في الإطلاق أن المقصود بالطاغوت-: ما جاوز حدّه من متبوع أو مطاع، وذكروا من أمثلته: من دعا إلى عبادة نفسه -والعياذ بالله-، أو من رضي بعبادة نفسه ولو ما دعا إلى ذلك، أو أن يكون من الطواغيت من ادَّعى أنه يعلم الغيب -ادعاه لنفسه، أو ادعاه له الناس فرضي بذلك، أو جوّز وقوع ذلك في الناس-.

وشأن ادعاء علم الغيب بكل أحواله كفر ورِدَّة -والعياذ بالله-؛ لأنه مناكفة ومنازعة في توحيد الربوبية والألوهية أيضًا.

ورأس الطواغيت الشيطان الرجيم، وإنما سُمي طاغوتًا لأنه طغى عن طاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

أما فيما يتعلق بمناسبة الآية للباب، فمن حيث أن الجِبْت والطاغوت وصفان يصدقان على عبادة الأوثان، وأن الأوثان معبودةٌ في هذه الأمة في آخر الزمن، كما قال النبي ﷺ -كما في صحيح مسلم-: «**لا تقوم الساعة حتى تعبدوا اللات والعزى، ولا تقوم الساعة حتى تلحق فئامٌ من أمتي بالمشركين، ولا تقوم الساعة حتى تعبد قبائلٌ من أمتي الأوثان**».

فتسميته ﷺ لـلات والعزى ليس كما يقول بعض الناس أن المقصود بذلك جنس الأصنام، لا، سماها النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كما سمى ذا الخلصة صنمٌ لدوس، قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوس حول ذي الخلصة**». وهذا يدل على أن الباطل يبقى له بقيةٌ في الأمة.

ولا يعارض هذا قول النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إن الشيطان أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب ولكن رضي بالتحريش بينهم**»، وهذا الحديث صحيح، وهو مما قاله النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في أعظم مشهدٍ للصحابة في حجة الوداع.

وقوله: «**أيس أن يعبده المصلون**» إخبارٌ عن إياسه، وأنه غلب على ظن الشيطان الرجيم أن الناس لا يعبدونه، لكن أخبر النبي ﷺ أن ذلك واقع من حيث أن بعض الناس ربما ينحرف

فيه -والعياذ بالله- الضلال إلى أن يعبد الداعية إلى ذلك -الشيطان الرجيم-، قد يكون بذل عبادةٍ له من دون الله، وقد تكون عبادةٌ من حيث أنها طاعةٌ شركية، يطيع الشيطان في معصية الرحمن سبحانه وبحمده.

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللهِ﴾) يعني شرٌ من ذلك عقوبة عند الله، المثوبة تُطلَق على العقوبة وتُطلَق على الرحمة؛ لأن الأصل في ذلك "الثَّوْب"، والثوب الرجوع، كما يسمى ثوب الرجل ثوبًا لأنه يعود إلى بدنه. قالت عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: «أول ما نزل من القرآن ذِكْر الجنة والنار، فلما ثاب الناس نزل الحلال والحرام». فالثوب يُطلق ويُراد به ما يرجع إليه الأمر، فإذا قيل المثوبة في هذه الآية المقصود بذلك ما يثوب لهم من عقاب وحساب، ويُطلق أيضًا على الجزاء والثواب.

قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: (﴿مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾[المائدة:٦٠])؛ يعني أن الله ﷻ بشّرهم بشرٍّ مثوبة؛ لأن الله لعنهم في الدنيا وغضب عليهم، وقعت لهم -والعياذ بالله- عقوبات في الدنيا مع ما أعدّ لهم من النكال في الآخرة؛ فاللعن والغضب، والمسخ قردةً وخنازير وقعت في الدنيا لأنهم عبدوا الطاغوت، كما قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾.

وقد يكون توجيه هذه الآية من حيث أن من سخط الله عليهم أن خلَّى بينهم وبين أنفسهم حتى اختاروا الضلال فترِكوا على ذلك: «إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ»، فخلَّى بينهم وبين طاعة الشيطان؛ لأن حُجَّة الله قائمة على بني آدم، لا يضل أحد لأن الله ﷻ ما أقام الحُجَّة عليه، حُجج الله كثيرة وكلها قائمة على عباده.

وإذا قيل "حجج الله" ليس المقصود بذلك الوحي المنزَّل والنبي المرسل -وهي من أعظم الحجج-، لكن من حجج الله: واعظ الله في قلب العبد، والفطرة التي فُطِر عليها، وما يرى في ملكوت السماوات والأرض، وما يرى من تصرفه هو في حماية نفسه؛ فإذا كان يحمي

نفسه من الجوع فيأكل، ومن الحرِّ فيتبرد، ومن الشتاء فيدفأ، أن يحمي نفسه من الشرك من باب أولى من العقوبة على الشرك؛ فيريهم الله ﷻ حججه عليهم من أنفسهم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَقَوْلُهُ: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾[الكهف:٢١])، يعني قال الذين غلبوا على أمر الفتية الذين آمنوا بربهم ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ﴾، فلما تبيَّن حالهم للناس أووا إلى كهفهم وعلم الناس بمحلهم، فقال الذين غلبوا على أمرهم: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾.

هذه الآية يحتج بها القبوريون الذين يجوِّزون بناء المساجد على القبور، وهذا الاحتجاج ليس متجهًا؛ لا من حيث أنه معارضةٌ لقول النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ الذي ذُكِر معه اللعن «لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»، وقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «لعن الله زوَّارات القبور والمتخذين عليها المساجد والسُّرُوج»، فهذا نهي في الصحيحين، هذا نهيٌ صحيح مقرون باللعن، فكيف توجَّه الآية إلى تجويز ذلك؟

وقد ذكره النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ذِكر الناهي واللاعن، قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك»، وهذا مما يدلُّ على ضعف حُجَّة القبوريين، وأنهم يتمسكون بالقشة كما يقال، يتمسكون بالأدلة التي على غير وجهها.

ومن الخطأ أن يقال: إن هذا كان في الأمم قبلنا؛ بعض الناس يقول: إن هذا كان جائزاً في الأمم قبل الإسلام، أنه يجوز لهم أن يبنوا مساجد على القبور، وهذا من أظهر الخطأ؛ لأن بناء المساجد على القبور أمرٌ متعلِّقٌ بالعقيدة لا بالأحكام، والعقائد لا يدخلها النسخ، ما كان عقيدةً وسنّةً ودينًا وتوحيداً في شريعتنا هو كذلك في زمن نوح؛ فالعقائد لا يدخل فيها النسخ، وما كان بدعةً وضلالاً وشركًا في زمننا فهو كذلك في زمن نوح أول الرسل.

فالأحكام هي التي يدخلها النسخ -الحلال والحرام والتخفيف وغير ذلك-، أما العقائد والأخبار فهذه لا يدخلها نسخٌ؛ لأنه خبرٌ قطعي -خبرٌ بوقوع شيءٍ أو عدم وقوعه- فلا

يدخله نسخ، والتوحيد أعظم الأخبار قطعـًا. فالـذي قال بـأن الـذين غلبـوا علـى أمرهـم كـان ذلك في شريعتهم، هذا قولٌ باطل.

والتوجيه الصواب في ذلك أظهرهما توجيهان:

الأول: أن ذلك فعله بعض الذين أحبوا الفتية لصـلاحهم، وفعلـوا ذلـك جهـلاً بالتوحيـد، بمعنى أنهم بنوا على الكهف مسجداً جهلاً منهم بأن هذا لا يجوز، وإنمـا حملهـم علـى ذلـك حبهم للفتية الذين دخلوا الكهف، هذا قول قال به بعض المفسرين.

والأكثر: علـى أن هـذا في سـياق مـا وقـع مـن الـذين غلبـوا علـى أمـرهم كمـا ذكـر الله ﷻ، والذين غلبوا على أمر الفتية كُفَّار؛ لأنه لما قصدوهم لقتلهم أووا إلـى الكهـف الـذي خرجـوا منه، فقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ﴾ يعني من أهل الشرك الذين يخـالفون الفتية على ما كانوا عليه، وأمرهـم -مع أنهـم أهـل شـرك- ببنـاء المسـجد على كهفهـم الـذي دخلوا فيه، من باب النكاية -فيما يزعمون- بالفتيـة الصـالحين، يعني بقصـد تحريـف مـا هـم عليه من الدين في زعمهم، وإلا فالأصل أنهم ما قصدوا ذلك من بـاب الإحسـان إلـيهم، وإنمـا قصدوا ذلك من باب مصادمة ما هم عليه من التوحيد، وهذا هو التوجيه الصواب لهذه الآية.

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قال: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَـانَ قَبْلَكُمْ حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ»**) والقُذَّة: الريشة التي تكون في طرف السهم من جهة الرامي، (**«حَتَّى لَـوْ دَخَلُـوا جُحْـرَ ضَـبٍّ لَـدَخَلْتُمُوهُ، قـالوا: يـا رَسُـولَ اللهِ! الْيَهُـودُ وَالنَّصَـارَى؟ قـال: فَمَـنْ؟!» أَخْرَجَاهُ**).

هذا الحديث مرويٌ أيضـًا عن غير أبي سعيد، من حديث أبي واقد الليثي، لما قـال بعـض الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ للنبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وكانوا حدثاء عهدٍ بإسلام: «اجعل لنا ذات أنواط كمـا لهـم ذات أنـواط»، المشـركون كـان لهـم شـجرة يعلّقـون بهـا أسـلحتهم -يعنـي ينوطـون بهـا الأسلحة-؛ يزعمون أنها تُكسِب سيوفهم المضاء والغلبة وغير ذلك، قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «الله

أكبر، إنها السنن»، قيل "السُّنن" وقيل "السَّنن"، وكلاهما بمعنى الطُرُق، «**قلتم -والذي نفسي بيده- كما قال بنو إسرائيل لموسى: اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة**».

ثم ذكر النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في حديث أبي واقد زيادةً على هذا، إلى أن قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ، شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ**»، جاء في بعض ألفاظه أن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال: «**حَتَّى لَوْ كَانَ فِيهِمْ مَنْ يَقَعُ عَلَى أُمِّهِ عَلَانِيَةً لَكَانَ فِيكُمْ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ**» -والعياذ بالله-.

فلما قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**حتى لو دخلوا جُحْر ضبٍ**»، هذا دليل على أنها متابعة -والعياذ بالله- عمياء، والمتابعة بحد ذاتها خروجٌ عن السنة، لكنها متابعةٌ حتى وإن كانت تضرهم في ذلك؛ لأن جُحْر الضبّ طويلٌ وملتوي، ولا يحفره إلا في أراضٍ صُلْبة، ولو دخلوا هذا الجُحْر، هذا غير واقع من حيث وقوعه حقيقة، لكن هذا من باب أن المتابعة ستكون إلى هذا الأمر؛ فإخبار النبي بذلك عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ دلالة على تمام التقليد -والعياذ بالله- من غير تحرٍّ للحِلِّ والحُرْمة.

وقد يضرب النبي ﷺ مثالاً يدلُّ على عظيم المعنى الذي تضمنه المثال، ولا يدل على وقوع المثال نفسه؛ فليس هناك أحد يدخل جُحْر الضب، لا يهودي ولا نصراني ولا غيره، لكن ضرْب المثال هذا للدلالة على تمام التقليد والمتابعة.

فهو مثل قوله ﷺ: «**اِسْمَعْ وَأَطِعْ وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ رَأْسُهُ كَالزَّبِيبَةِ، مُجَدَّعُ الْأَطْرَافِ**» -يعني ليس له يدين ولا رجلين-، فيُستبعد أن يقع ذلك، والله ﷻ قادر سبحانه وبحمده، لكن ضرْب المثال إلى هذا الحد من البُعْد دليلٌ على وجوب السمع والطاعة ما لم تكن معصية. وضرْب المثال إلى هذا الحد من البُعد «**حتى لو دخلوا جُحْر ضبٍ**» دليلٌ على أن المتابعة واقعةٌ إلى هذا الحد، وهذا بحدّ ذاته زاجرٌ عن متابعة اليهود والنصارى.

ولما سأل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: «**فَمَنْ؟**»، من حيث

أن اليهود والنصارى يُغَشُّ بهم الناس، أو أن اليهود والنصارى تُبسَط لهم الدنيا إما بالقوة وإما بالمال وإما بالظهور، وإما بالغلبة وإما بالهيمنة، وإما التصرُّف بمصالح الناس ومقدّرات الدول أو غير ذلك، بمعنى أن شأنهم عند الناس ليس كشأن عُبَّاد الأصنام وعُبَّاد البقر والحجر وغير ذلك، لكن شأنهم شأن الذي يتصرَّف في مفاصل مصالح الناس سواء دولهم أو استقرارهم أو غير ذلك، والواقع يصدِّق ذلك.

قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «فمن؟» يعني فمن الذي تنصرف الأنظار إليه ويُفتن به الناس غير اليهود والنصارى؟ مع أن المشركون -عُبَّاد الأصنام- كانوا يقدمون اليهود والنصارى على أنفسهم؛ من حيث أنهم أميُّون لا يقرؤون وأهل الكتاب يقرؤون، وهذا لا يعني أنهم يوافقونهم في اعتقادهم، لكن من حيث أنهم ينبهرون بهم ويقلدونهم.

فكان كفار مكة على سبيل المثال يفعلون أشياءً ليست من دينهم الذي هو عبادة الأصنام، وإنما لأنهم رأوا اليهود والنصارى ورأوا أنهم أقرب إلى الصواب فيقلِّدونهم في بعض ما يفعله اليهود والنصارى، لدرجة أن كفار مكة كانوا يصومون عاشوراء، وما صاموه إلا لأن اليهود والنصارى كانوا يصومونه فوافقوهم في ذلك. فكفار مكة كانوا معجبين باليهود والنصارى، وهذا كان في صدر الإسلام؛ فأن يكون ذلك في آخر الإسلام -إذا قلَّ العلم وكثُر الجهل وكثرت دُعاته، ورَقَّ باب الولاء والبراء، وانبهر الناس بأمور الدنيا وجعلوها هي سبب التقديم- أن يقع ذلك في آخر الزمن من باب أولى.

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وَلِمُسْلِمٍ: عَنْ ثَوْبَانَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ**)، ثوبان مولى رسول الله ﷺ، (**أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ زَوَى لِيَ الْأَرْضَ»**) يعني عرضها عليه سبحانه وبحمده، (**«فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا»**)، رأى ﷺ إما أن تكون رؤيا منامٍ، وإما أن تكون رؤيا عرض، وبهذين القولين قال أهل العلم في قوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**عُرِضت عليَّ الأمم، فرأيت النبي ومعه الرجل..**» إلى آخر الحديث، فقد تكون عُرضت عليه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في المنام، وقد يكون يقظة، وكلاهما وحيٌ

صادق؛ لأن الله ﷻ يعرض على نبيه ويُرِيه ﷺ ما هو أبعد من ذلك، قال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لقد رأيت الجنة في مقامي هذا» لما صلى بالصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ صلاة الكسوف، «ورأيت النار في مقامي هذا، وذلك لما رأيتموني تقدّمت وتأخّرت»، فإذا كان أُريها ﷺ وهي أعظم من الأرض وما زوي منها، أن يكون ما رآه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مما زوي له من الأرض -يعني جُمِع له- من باب أولى.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: («وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا»)، يعني أن النبي ﷺ ستبلغ دعوته ومُلْك أمته -المقصود بذلك ليس ملك التملُّك ملك الأرض، لكن أن تسري دعوته ﷺ في أطراف الدنيا-، وهذا يصدِّقه قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الدِّينُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ»، يعني الكرة الأرضية كلها ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ﴾[الزمر:٥].

قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: («وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ»)، يعني أن الله ﷻ بشَّر نبيه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بفتح الخزائن له، على حال شظفٍ وقِلَّة ذات يد، فيشد على بطنه الحجرين من الجوع ﷺ، ومع ذلك بُشِّر بأنه تُفتح له كنوز الدنيا.

والكنزين: الأحمر والأبيض؛ الأحمر الذهب، والأبيض الفضة، وفتح الله ﷻ الخزائن للمسلمين في خلافة عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وما بعده.

قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: («وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ بِعَامَّةٍ»). السنة تُطلَق على الجدب وإمساك المطر، كما قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «ليست السَّنَة بأن لا تمطروا، ولكن السنة أن تمطروا وتمطروا وتمطر، ثم لا تُنبت شيئًا»، ولهذا تُسمى سنين عِجاف إذا انقطع المطر.

(«وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ بِعَامَّةٍ، وَأَنْ لا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوّاً مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ»)؛ أيْ شوكتهم، بيضتهم المقصود بذلك الشوكة، («وَلَوْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِم مَنْ بِأَقْطَارِهَا حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكَ بَعْضًا وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا»).

الشواهد على هذا الحديث كثيرة، منها في غير هذا الحديث -فيما رواه أبو هريرة وغيره-

أن النبي ﷺ سجد بين ظهراني صلاته فأطال السجود حتى خشي الصحابة عليه، فلما سلم سألوه عن ذلك؟ فقال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إني سألت ربي ثلاثًا فأعطاني اثنتين ومنعني الثالثة: سألت ربي ألا يُهلك أمتي بسنة بعامة فأعطانيها، وسألت ربي ألا يُسلِّط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم فأعطانيها، وسألت ربي ألا يجعل بأسهم بينهم شديداً فمنعنيها**».

وهذا واقع منذ أن قُتِل عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كما قال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إن السيف إذا وُضع في أمتي لن يُرفع عنها إلى يوم القيامة**» رواه مسلم عن ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، «**ولتلحقنّ فئامٌ من أمتي بالمشركين، ولتعبدنّ قبائل من أمتي الأوثان**» كلها في حديثٍ واحد، وهو حديثٌ صحيح عند أبي داود -حديث ثوبان هذا عند أبي داود- في سننه.

وأول ما وقع الخلاف ما بين المسلمين بقتل عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بمعنى أن قتْل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم يقع به خلاف، بل لما قُتل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الخلافة في صلاة الفجر اجتمع الناس، وفي صلاتهم وراء إمام عبد الرحمن بن عوف وما اختلفوا في ذلك في يوم مقتل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ ولهذا عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما قال: «انظروا من قتلني» قالوا: أبو لؤلؤة، قال: «الحمد لله الذي لم يجعل قتلي على يد رجل يشهد أن لا إله إلا الله».

نعم، فُتحت الفتن بعد عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لكن السيف إنما وقع في الناس بعد أن قُتل عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وتغيرت القلوب، الله عَزَّ وَجَلَّ أراد أن يكون السيف تطهيراً لهذه الأمة.

وهذا -يا إخواني- من باب حُسْن الظن بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ وأنها ما وقعت فتنةٌ في المسلمين وقع فيها قتل ووقع فيها مما يكرهه الإنسان للمسلمين إلا أن في طياتها رفعٌ للدرجات وتكفيرٌ للسيئات، وأيضًا زيادة في التبصر ونظرٌ في عواقب الأمور.

وفيها أيضًا أدبٌ نبويٌ بأن يبعد الإنسان عن مواطن الفتن؛ فإذا وقعت الفتن، السعيد من ينأى بنفسه عنها، كما قال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إن السعيد لمن جُنِّب الفتن .. إن السعيد لمن جُنِّب الفتن .. إن السعيد لمن جُنِّب الفتن، ولمن ابتُلي فصبر فواهًا**»، وأحيانًا تكون الفتنة قوية

حتى تغترف بعض الراجحين؛ لأنهم تشوفوا لها، فمن تشوَّف لها واستشرف لها ابتُلي بها.

ولا مانع أن يُذكر في هذا مثالاً؛ والأمثلة كثيرة في ذلك:

شَبث بن رِبعي كان في أول أمره من التابعين، بُعِث النبي عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فلم يدركه، كان شِبث يظهر الصلاح، فلما مات النبي عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وارتدت الناس، كان له أثرٌ في الناس حتى صار يصدِّق سجاح بنت الحارث التميمية في نبوتها، وصار حظياً عندها حتى صار مؤذناً لها، مع أنه أدرك الصحابة -أدرك أبو بكر وعمر-، لكنه كان يتشوَّف للفتن، فكان إذا سمع "هيعة" ذهب إليها، فلما ذهب إليها أظهر الناس له أن له منزلة على غيره حتى أذْنته وصار مؤذناً لها.

ثم لما قُتِل مسيلمة الكذاب وعادت سجاح إلى الإسلام -وهي أسلمت بعد ذلك-، كان شِبث من أوائل من دخل على عثمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ يوم الدار وقُتِل عثمان في تلك الليلة؛ سمع أن الناس اجتمعوا على دار عثمان وأنهم حاصروه فدخل مع من دخل -الطيش والعجلة-، فكان مع الذين تسوروا على عثمان أو دخلوا حرمته، وجرأوا الناس على قتله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ.

ثم لما خرج عليٌ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ إلى الكوفة أظهر التوبة والندم على ما فعل في يوم الدار مع عثمان، فذهب مع عليٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ إلى الكوفة، ثم انقلب وصار رأساً مع الخوارج في "حروراء"، وكفَّر علياً رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ مع من كفَّر، ثم تاب بعد ذلك وانعزل عن الناس، فلما اجتمع الناس على قتل الحسين بن علي بن أبي طالب كان معهم، بمعنى أنه عاد بعد ذلك إلى الفتنة ودخل غمارها حتى قُتل الحسين، وكان مع من قتله.

ثم بعد ذلك صار مع عبيد الله بن زياد إلى أن ظهرت فتنة "المختار بن أبي عبيد" الذي ادّعى النبوة، فلما ظهرت فتنة المختار بن أبي عبيد كبُرت سِنُّه فرأى أن العافية اعتزل الفتن. فلما ظهر من يصدِّق المختار بن أبي عبيد خطب الناس وقال: "يا أيها الناس، لا تكفروا بالله ضحوة النهار"، لأنه كان يرى ألا يصدقوا المختار. قال بعض الناس: شَبَث؟ قالوا: نعم

شبث قال ذلك، قَالَ: "لعلها تنفعه"، يعني بعد هذا التقلب -والعياذ بالله-.

فأحيانًا تعرض للإنسان الفتن فيتشوَّف لها، ويظن أنه سيتخلص منها، فإذا كانت قوية ضعُف أولاً أن يدفع الأذى عن نفسه، وربما ضعُف أن يخلص منها فيجبرونه الناس على ذلك.

ومن الأمثلة أيضًا: عبد الملك بن عُمير؛ من خيار التابعين، قاضي الكوفة -رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغفر له-، لكنه كان قريبًا من السلاطين وولاة الأمور، بغض النظر عن كونهم سلاطين خير أو ضلال، لكنه كان قريبًا منهم لدرجة أنه ما كان يستطيع أن يدفع عن نفسه مجالستهم والدخول عليهم.

كان في مجلس عبد الملك بن مروان -وهو أقوى خلفاء بني أمية بعد معاوية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، إذ ثبّت ملك بني أمية بإخماد الثورات والخروج وغير ذلك-، فقال القاضي عبد الملك بن عُمير للخليفة عبد الملك بن مروان: "والله يا أمير المؤمنين، لقد رأيتُ العجب! كنتُ عند عبيد الله بن زياد حين أُتي إليه برأس الحسين، ثم كنت عند المختار بن أبي عُبيد حين أُتي إليه برأس عبيد الله بن زياد، ثم كنت عند مصعب بن الزبير حين أُتي إليه برأس المختار بن أبي عُبيد، ثم ها أنا ذا عندك يا أمير المؤمنين حين أُتي إليك برأس مصعب بن الزبير!". فتشاءم منه عبد الملك بن مروان وطرده.

الشاهد من هذا: أنه إذا كان الإنسان قريبًا من الفتن، لا بد أن يلزمه الحضور، أو أنه يحضر حتى يدفع عن نفسه القالة -كلام الناس-، ولهذا يصدق على ذلك أن الإنسان إذا نأى عن الفتن وابتعد عنها نأى عن البلاء في دينه وفي نفسه، وأصدق من ذلك قول النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «إن السعيد لمَن جُنِّب الفتن».

قال ﷺ: («**وَلَوْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِم مَنْ بِأَقْطارِهَا حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكَ بَعْضًا وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا**») وهذا وقع -يا إخوان-، وإن استُبعد ذلك في زمن الصحابة -فما وقع سبيٌ

بين المسلمين في زمنهم، والذي وقع في خلافة أبي بكر في أيام الردة لم يكونوا مسلمين، بل كانوا مرتدين-، لكن يقع ذلك في آخر الزمن كما أخبر النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بأن ذلك واقع فلا بد أن يقع.

قال الإمام المجدد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وَرَوَاهُ الْبَرْقَانِيُّ فِي صَحِيحِه**)، والبرقاني هو أبو بكر البرقاني أحمد بن محمد بن غالب الخوارزمي، توفي ٤٢٥هـ، له كتاب "المستخرج على الصحيحين"، والمستخرجات هي أن يخرِّج الأحاديث من جهته هو حتى يجتمع مع صاحب الكتاب من الصحيحين في شيخه أو شيخ شيخه.

قال ﷺ: («**وَإِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الْأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ**») وصف "المضلين" يُطلَق على كل من انحرف عن السنة، قد يكون مُضِلاً من حيث أنه يعرف الحق ويتركه ويدعو إلى ضده، أو أنه يمالئ على الباطل لمصلحةٍ متعلقة بالدنيا، أو يقلب الحلال والحرام -والعياذ بالله-، أو أن يدعو الناس إلى بدعةٍ أو إلى أمرٍ يظن أنه شرعٌ وهو لا يعلم؛ فإنه لا يجوز للإنسان أن يدعو إلى شيء حتى يتأكد أنه من دين الله، كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿**قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ**﴾[يوسف:١٠٨]. الإنسان إنما يدعو على بصيرة، فإن كان على غير بصيرة صار داعيةً إلى خلاف ما أمر الله به.

قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: («**وَإِذَا وَقَعَ عَلَيْهِمُ السَّيْفَ لَمْ يُرْفَعْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَلْحَقَ حَيٌّ مِنْ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِينَ، وَحَتَّى تَعْبُدَ فِئَامٌ مِنْ أُمَّتِي الْأَوْثَانَ**»)، حيٌّ من أمتي يعني قبيلةٌ من القبائل، كما جاء في بعض الأحاديث: «**ولا تقوم الساعة حتى تلحق قبائل من أمتي بالمشركين، وحتى تعبد قبائل من أمتي الأوثان**»، وتقدم الكلام في التفريق بين الوثن والصنم؛ فالصنم ما عُبد على صورةٍ نُحت عليها، والوثن ما عُبِد على هيئته كالشجر والقبر وغير ذلك.

(«**وَإِنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي كَذَّابُونَ ثَلَاثونَ، كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ**»). الكذابون الثلاثون هم الذين يكون لهم شوكة، والذين ادَّعوا النبوة بعد النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كثير، لكن هؤلاء هم

الذين يكون لهم شوكة ويكثر أتباعهم ويقاتلهم المسلمون، سواء قتال سِنان أو قتال بيان، ليس بالضرورة أن يكون قتال سِنان -سلاح-، بل قد يكون القتال من باب المغالبة والمحاججة بالبيان.

وكان منهم اثنان في زمنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: الأسود العنسي -الذي يسمى "ذو الخمار"، واسمه عبهلة-، ومسيلمة الكذاب -مسيلمة بن حبيب بن ثمامة الحنفي-. كلاهما كان في زمنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وكلاهما أخبر عنهم النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ فالأسود العنسي -عبهلة- قُتِل والنبي حاضر، قتله "فيروز الديلمي" رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

قال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في صحيح مسلم: «**رأيتُ فيما يرى النائم في منامي أن في يدي سوارين من ذهب، فأهمني شأنهما**». لأن الفرق -يا إخوان- ما بين السوار وما بين القيد؛ القيد ثباتٌ في الدين، والغِل ذِلَّة وتعدٍ على من رأى شيئًا في منامه.

والسواران الرجال لا يلبسون الأساور، فهذه فتنة، ولما صار من ذهب، صار معنى ذلك أنها ليست ذات شأن؛ لأنها مأخوذة من كلمة "الذهب" الذي هو بمعناه الزوال، ويدلُّ على ذلك باقي الحديث. وهذا بابٌ من أبواب تعبير الرؤى.

قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**فأهمني شأنهما، فقيل لي: انفخهما، فنفختهما فطارا**». يعني بمعنى أنه ما تكلَّف في قطعهما ومعالجة ذلك، وإنما نفخهما لأنهما ليسا بشيء.

«**فأوّلتهما الكذَّابيْن اللذين أنا بينهما: الأسود العنسي -لأنه كان في نجران- ومسيلمة الكذاب**».

الأسود العنسي قُتل والنبي حاضر عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، مع بلوغ ملكه نجران ووصل إلى صنعاء، ومع ذلك قاتله فيروز الديلمي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وقال النبي لفيروز خيراً رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، فيروز الديلمي كان من الأساورة الذين جاءوا من بلاد فارس إلى اليمن ثم بعد ذلك أسلم.

أما مسيلمة الكذاب فإنما قُتِل في زمن أبي بكر الصديق في معركة اليمامة، ومسيلمة

الكذاب لما بلغه أن سجاح بنت الحارث التميمية ادّعت النبوة؛ لأن هذا الحديث في تتمته أن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال: «وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون، منهم أربع نسوة». يعني أنه سيكون هناك نساءٌ يدّعين النبوة، منهن سجاح بنت الحارث التميمية اليربوعية، وكانت ذات شأن؛ بمعنى أنها ما ادّعت النبوة ووافقها الناس إلا لأنها كانت ذات شأن، هي وإن كانت من تميم وتميم منازلها الجزيرة العربية، إلا أنها كانت مقيمة عند أخوالها من "تغلب" في الجزيرة الفراتية -ما بين النهرين دجلة والفرات-، فكانت مقيمة عند أخوالها، فلما ادعت النبوة في خلافة أبي بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ونزلت، تسامع بها كبراء تميم، وبعضهم صحابة.

وهذا مما يدلُّ على أنه كان لها شأن، لا كما يقول بعض الناس، فبعض القُصَّاص يذكرون عن مسيلمة وعن سجاح أكاذيب من باب أكاذيب المجان والقُصّاص الإخباريين، أنه لما تزوجها أسقط عن الناس صلاة العصر والظهر أو الفجر والعشاء.. هذا مما كذبه الناس.

الشاهد أنه لما ادّعت النبوة تبِعها الزبرقان بن بدر، وعطارد بن حاجب، والأحنف بن قيس، وشبث بن ربعي -الذي كان مؤذناً لها-؛ هؤلاء قامات وليس أفراد الناس، بمعنى أن فتنتها كانت قوية، فلما نزلت إلى الجزيرة العربية، إلى "نجد" تحديداً، هابها مسيلمة الكذاب، فخطبها لنفسه ووعدها أن يقتسم هو وإياها المُلْك -يعني ما يكون لهم بعد قتال أبي بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، فوافقت على ذلك. فلما قُتل مسيلمة، رجعت إلى الإسلام.

الشاهد أن ادِّعاء مسيلمة الكذاب للنبوة، وادّعاء الأسود العنسي، وادّعاء سجاح، هذه هي التي قصدها النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فتنةٌ تضرب الأرض وتغترف عقول الرجال.

الزبرقان بن بدر كان من خيار الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، عطارد بن حاجب كذلك، والأحنف بن قيس، هؤلاء من خيار الصحابة أو من قامات بني تميم -كان لهم عقل-، لكن لما نزلت من الجزيرة الفراتية، قيل إنه نزل معها أربعون ألف رجل؛ هذا زحفٌ مهول! فهابها مسيلمة

وغشّها بأن تزوجها، فلما تزوجها وقُتِل عنها، رجعت ورجع من كان معها من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وهؤلاء يُذكرون في الصحابة من حيث أنهم لما رأوا حزم أبي بكر رجعوا إلى الإسلام.. عطارد بن حاجب، والأحنف بن قيس، والزبرقان بن بدر وغيرهم، بعضهم امتدت حياته بعد قتال المرتدين في خلافة أبي بكر حتى صار له أثرٌ في الإسلام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وأرضاهم.

عطارد بن حاجب كان له أثر في الإسلام، كان سيداً من سادات بني تميم.

الأقرع بن حابس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، هو الذي قال للنبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**يا رسول الله، تقبِّلون أولادكم؟ قال: نعم، قال: إن لي عشرةٌ من الولد ما قبَّلت منهم أحداً**». هذا الأقرع بن حابس سيد بني تميم، ومع ذلك في معركة اليرموك كان من الذين استشهدوا هو وأبناؤه العشرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، من حيث أنهم لهم شأن في الجاهلية وفي الإسلام.

لكن لما وقعت الفتنة ورأوا هذا الجيش الجرَّار مع "سجاح"، استمالهم الموقف إلى الخطأ.

أما مسيلمة الكذاب فيُقال أن مسيلمة الكذاب قتله وحشي بن حرب، وأنه جعل قتله كفارةً له عن قتل حمزة. ويذكر المؤرخون أن مسيلمة الكذاب اشترك في قتله خمسة من الصحابة، لكن الذي أجهز عليه رجلان، يقول عدي بن سهل في قصيدته:

أَلَـمْ تَـرَ أَنِّـي وَوَحْشِـيُّهُمْ ... قَتَلْـتُ مُسَـيْلِمَةَ الْمُفْتَـتَنْ

وَيَسْأَلُنِي النّاسُ عَنْ قَتْلِهِ ... فَقُلْتُ: ضَرَبْت، وَهَـذَا طَعَنْ

فممن شارك في قتله شن بن أبي قيس الجرشي، وهو من المعدودين في الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، قتل مسيلمة بحربته كما قتله وحشي بحربته في وقتٍ واحد، وممن شارك في قتله أيضًا ابن عمه "جبلة بن ثور التميمي"، وقيل أن "أبو دجانة سماك بن خرشة" كان معهم، وقيل "عبد الله بن زيد الأنصاري"، وهكذا.

فالمقصود أن الله عَزَّ وَجَلَّ أراح الأمة في زمنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الأسود العنسي، وقُتِل مسيلمة الكذاب

في خلافة أبي بكر بعد أن قُتل القُرَّاء، وكانت معركة اليمامة معركةً شديدة، وهي التي أُمر فيها البراء بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بأن يُحمل على الدرع والترس حتى يُلقى من فوق الأسوار، وفتح الباب وقُتِل بعد ذلك الكذاب.

قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: («كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ»)، كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾[الأحزاب:٤٠]. وفي حديثٍ آخر قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أُعطيت خمسًا -وذكر منها-: وخُتِم بي النبيون».

فالنبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ خُتمت به أربعة أمور:

خُتمت به النبوات فلا نبوة بعده عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وخُتمت به آيات الأنبياء لأنها لا تنزل على الأنبياء، فلا آية لنبيٍ بعده -إلا أن تكون امتداداً لآيةٍ أُعطيها، كإخباره عما يقع والقرآن المجيد وغير ذلك-.

وخُتمت به ﷺ الأمم؛ فلا أمة بعد أمته ﷺ.

وخُتمت به الشريعة؛ فلا شريعة بعد الشريعة التي بُعث بها عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: («وَلَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ مَنْصُورَةً، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ تَبَارَكَ وَتعالى»).

الطائفة المنصورة هم الذين قال عنهم الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[غافر:٥١]، وهي التي قال فيها الرب ﷻ: ﴿كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾[المجادلة:٢١].

قال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -وهذا الجزء من الحديث معدودٌ من متواتر الأحاديث-: «لا تزال طائفةٌ من أمتي على الحق ظاهرين، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم»، بمعنى أنه سيكون هناك من يخذلهم -يكيد لهم، أو يخالفهم أصحاب البدع والضلالات-.

«حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك»، أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعني قَدَر الكوني الذي أخبر عنه

النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بأنه علامةٌ للظهور الأخير لأهل الإسلام؛ إما أن تكون بنزول عيسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وإما أن يكون بخروج المهدي يملأ الأرض عدلاً كما مُلئت جوراً وظلمـًا - وهذا تقديرٌ شرعي ديني-.

وإما أن يكون بالتقدير الكوني القَدَري، كما قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في بعض ألفاظ الحديث: **«فيبعث الله ريحًا تقبض أرواح المؤمنين من آباطهم، فلا يبقى إلا شرار الخلْق، وعليهم تقوم الساعة»**.

فقوله ﷺ: **«حتى يأتي أمر الله»**، يعني حتى تقوم الساعة على شرار الخلْق؛ أما قبل ذلك فيبقى الحق والباطل وما بينهما مغالبة؛ يُظهِر الله الحق، ويديل الله ﷻ على أهل الإيمان، كما وقع ذلك للنبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -خير الخلْق- وزمنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ خير القرون، ومع ذلك يُدال على الحق تمحيصـًا وابتلاءً وفتنةً وتوطيداً؛ من حيث إن هذا الطريق محفوفٌ بالشوك والبلاء، ويُديل الله ﷻ أهل الإسلام على أعدائه، كما قال سبحانه: ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾[آل عمران:١٤٠].

ولو كان الحق دائمـًا دائلاً على غيره -ظاهراً على غيره-، لربما أوقع في قلوب أهله الزهو والغرور والعُجب والركون إلى أنفسهم، وقد كره النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من الصحابة ما هو أقل من ذلك، لما قالوا في حُنين: «لن نُغلب اليوم من قِلَّة» وكانوا اثني عشر ألفـًا، كره النبي ذلك، ووقع البلاء على الصحابة في أول حنين، وإن كان الأمر في آخره صار للمؤمنين.

فالمقصود أن الله ﷻ لطيفٌ بعباده، وخبيرٌ بمآلات الأمور، وعالمٌ بما يُصلحهم، فلو كانت الأمة دائمـًا في نُصرة -وهذا لا يقع ولا حتى لأنبياء الله- لأكسبهم ذلك زهواً وغروراً.

وبالمقابل، لو كانوا دائمـًا مبتلين، ودائمـًا مُدالٌ عليهم، ودائمـًا مُسلَّطٌ عليهم، لكانوا كاليهود الذين قال الله ﷻ فيهم: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾[البقرة:٦١]؛ فأكرم الله ﷻ هذه الأمة ألا تكون كاليهود، يقع لهم بلاء، لكن الله ﷻ يُعقِّب البلاء عافية، أما غيرهم من الأمم فقد

يقع لهم بلاء دائم، كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾[المائدة:٦٤].

نسأل الله أن يرزقنا وإياكم العمل الصالح، وأن يختم لنا ولكم بالصالحات.

والله أعلى وأعلم.

وصلى الله على نبينا محمد.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بَابُ مَا جَاءَ فِي الْكُهَّانِ وَنَحْوِهِمْ

رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ: عَنْ بَعْضِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ أَتَى عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ، فَصَدَّقَهُ؛ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ يَوْمًا».

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قال: «مَنْ أَتَى كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ؛ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ.

وَلِلْأَرْبَعَةِ، وَالْحَاكِمِ -وَقال: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِهِمَا-: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «مَنْ أَتَى عَرَّافًا أَوْ كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ؛ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ».

وَلِأَبِي يَعْلَى بِسَنَدٍ جَيِّدٍ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مِثْلُهُ: مَوْقُوفًا.

وَعَنْ عِمْرَانَ بنِ حُصَينٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مَرْفُوعًا: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَطَيَّرَ أَوْ تُطِيِّرَ لَهُ، أَوْ تَكَهَّنَ أَوْ تُكُهِّنَ لَهُ، أَوْ سَحَرَ أَوْ سُحِرَ لَهُ، وَمَنْ أَتَى كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ؛ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ» رَوَاهُ الْبَزَّارُ بِإِسْنَادٍ جَيِّدٍ.

وَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الْأَوْسَطِ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: دُونَ قَوْلِهِ: «وَمَنْ أَتَى..» إِلَى آخِرِهِ.

قال: الْبَغَوِيُّ: الْعَرَّافُ الَّذِي يَدَّعِي مَعْرِفَةَ الْأُمُورِ بِمُقَدِّمَاتٍ يَسْتَدِلُّ بِهَا عَلَى الْمَسْرُوقِ، وَمَكَانِ الضَّالَّةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وَقِيلَ: هُوَ الْكَاهِنُ. وَالْكَاهِنُ: هُوَ الَّذِي يُخْبِرُ عَنِ الْمُغَيَّبَاتِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ. وَقِيلَ: الَّذِي يُخْبِرُ عَمَّا فِي الضَّمِيرِ.

وَقال أَبُو الْعَبَّاسِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ: الْعَرَّافُ: اسْمٌ لِلْكَاهِنِ، وَالْمُنَجِّمِ، وَالرَّمَّالِ، وَنَحْوِهِمْ، مِمَّنْ يَتَكَلَّمُ فِي مَعْرِفَةِ الْأُمُورِ بِهَذِهِ الطُّرُقِ.

وقال ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي قَوْمٍ يَكْتُبُونَ «أَبَا جَادٍ»، وَيَنْظُرُونَ فِي النُّجُومِ: «مَا أَرَى مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ لَهُ عِنْدَ اللهِ مِنْ خَلَاقٍ».



قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللّه:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه.

اللَّهُمَّ عَلِّمْنَا مَا يَنْفَعُنَا وَانْفَعْنَا بِمَا عَلَّمْتَنَا وَزِدْنَا عِلْمًا يَا كَرِيمُ.

توقف الكلام على قول المؤلف الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله: (**بَابُ الدُّعَاءِ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلا اللهُ**).

ومعنى الترجمة: أيْ هذا بابٌ يتعلق بالدعوة إلى شهادة أن "لا إله إلا الله"، وما تدعو إليه من إفراد الله ﷻ بالعبادة، وتخليص التوحيد من شوائب الشرك، وأن هذا هو منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله؛ يدعون أول ما يدعون إليه توحيد الله ﷻ، والعمل بما يوجبه التوحيد من كمال التعبُّد والذُّلِّ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ أيْ على نورٍ من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وإنما نور الله ﷻ ما أنزله في كتابه وبعث به أنبياءه ورسله.

قال الشيخ رحمه الله: (**وَقَوْلِهِ تَعَالَى**) هذه معطوفةٌ على الدعاء ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ﴾؛ يعني هذه سبيله ﷺ وسنته وطريقته في الدعوة إلى الله على بصيرة.

وفي هذا القَدْر من الآية بيان أن دعوات الأنبياء كلهم على هذا الأمر، من حيث أنهم إنما يدعون إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وعلى بصيرةٍ أيْ على علم؛ لأن من يدعو إلى الله ﷻ على غير بصيرة ربما دعا إلى باطل يظنه حقاً، وربما دعا إلى شِركٍ يظنه توحيداً، وربما دعا إلى غيٍ يظنُّه رشداً.

ولهذا يُؤخذ من هذه الآية أن العِلْم سابقٌ للعمل، والبصيرة علمٌ فتكون سابقة للعمل.

وهكذا دعوات الأنبياء؛ الأنبياء إنما نُبِّئوا في أول الأمر ثم أُرسلوا بعد ذلك، بمعنى أنه حصل لهم العلم من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بأنهم دعاةٌ إلى توحيد الله ﷻ، ثم بدأوا بعد ذلك بالدعوة.

فقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ تقدير الجزء من هذه الآية: أن البصيرة التي سبقت الدعوة هي التي بموجبها يعرف الإنسان ما أوجب الله وما حرَّم، وما شرع وما نهى سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عنه مما يُضاد التوحيد.

وهذه دعوات الأنبياء وأتباع الأنبياء؛ قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾؛ فكل أتباع الأنبياء إنما يكونون أتباعًا لأنبيائهم إذا سلكوا ما كان عليه الأنبياء، ومن خالف سنن أنبياء الله ﷻ ورسله فليسوا من أتباعهم ولو سموا أنفسهم بذلك، ومعيار الصدق في الاتباع والاقتداء إنما يكون بموافقة ما بُعِث به أنبياء الله ﷻ.

ثم ذكر الشيخ بعد ذلك حديث (**عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمَّا بَعَثَ مُعَاذاً إِلَى الْيَمَنِ**).

قال أهل العلم: إن هذا كان في السنة التاسعة من الهجرة. (**قال لَهُ: «إِنَّك تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ؛ فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُم إِلَيْهِ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ -وفِي رِوَايَةٍ: إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللهَ-»**)، هذا الجزء من الحديث يدلُّ على أن الدعوة إلى شهادة أن "لا إله إلا الله" هو معنى التوحيد -إفراد الله ﷻ بالألوهية-؛ لأن "الإله" المقصود به المألوه المعبود سبحانه وبحمده، لأن من معاني كلمة "التألُّه" التعبُّد لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

قال ﷺ: (**«فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُم إِلَيْهِ»**)؛ بمعنى أنه لا يصح أن يُدعى الناس إلى شيءٍ قبل التوحيد، لأنه ولو وافقوك على ما تدعوهم إليه ولم يوافقوك على التوحيد لا ينفعهم ذلك؛ فلا بد أن يُدعى إلى التوحيد أولاً. وهكذا كان أنبياء الله ﷻ: ﴿اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ

﴿غَيْرُهُ﴾؛ دعوا إلى التوحيد، فمن وافقهم على ما دعوا إليه من إفراد الله ﷻ بالقصد والطلب، أمروهم بعد ذلك أو دعوهم بعد ذلك إلى ما أوجب الله ﷻ عليهم وما نهاهم عنه؛ فلا يُسبق في الدعوة إلى شيءٍ قبل التوحيد.

قال الشيخ رحمه الله: (وفِي رِوَايَةٍ: «إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللهَ -؛ فَإِنْ هُم أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ»).

مفاده أنهم إذا لم يطيعوك إلى ذلك فلا تدعوهم إلى غيره؛ لأنهم وإن أتوا به على وجه الكمال لا ينفعهم ذلك، («فَإِنْ هُم أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ») هذه جملة شرطية في أنه لا يُدعى إلى شيءٍ بعد التوحيد حتى يُقرُّوا بالتوحيد لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ ولهذا كل عملٍ صالح لا ينفع صاحبه إذا لم يكن مبنيًا على توحيد الله ﷻ، كما قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ ۚ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾[التوبة:١٧].

بمعنى أن العمل الصالح -ولو سماه الإنسان عملاً صالحًا- لا ينفع صاحبه حتى يسبقه ما هو أصلح منه وهو توحيد الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فإذا فعل عملاً صالحًا أو طاعة وغير ذلك؛ فإن الله ﷻ قال في مثل هؤلاء: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[هود:١٦].

ففي قوله ﷺ: («فَإِنْ هُم أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ») دليلٌ على أن مطاوعتهم لمعاذٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فيما دون ذلك لا تنفعهم، حتى يستجيبوا له في المطاوعة بتوحيد الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

قال ﷺ: («فَإِنْ هُم أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ؛ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِم خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ»). وهذا دليلٌ على أن الله ﷻ هو الذي افترض على عباده هذه الصلوات الخمس بأوقاتها، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾[النساء:١٠٣]، وأركانها وواجباتها وشروطها وما يتبعها من أحكام.

وهذا مثل حديث الرجل الذي جاء إلى النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ وقال: يا رسول الله ما

أوجب الله علي؟ وفيه أن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال: «خَمْسُ صَلَوَاتٍ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ»، قال: هل عليَّ غيرها؟ قال: «لا، إِلَّا أَنْ تَطَوَّعَ». يعني أن الله ﷻ إنما أوجب هذه الصلوات الخمس، وهذا الحد الأدنى مما أوجب الله وافترض على عباده، ويُرد به على من أوجب الوتر وغيره.

المقصود أن هذا لا يعني أن يتقلل الإنسان من الطاعات، وإنما يُراد أن هذا هو الحد الذي لا يجوز تركه من الصلوات، وإلا فقد قال النبي ﷺ للصحابي الذي قال: يا رسول الله أسألك مرافقتك في الجنة، قال: «أَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ». وفي حديث آخر قال: «إِنَّكَ لَنْ تَسْجُدَ لِلَّهِ سَجْدَةً إِلَّا رَفَعَكَ اللهُ بِهَا دَرَجَةً، وَحَطَّ عَنْكَ بِهَا خَطِيئَةً».

فالاستكثار من السجود أمرٌ مسنون مدعوٌ إليه، وشرعه النبي ﷺ لأمته، وهو مُقرِّبٌ إلى الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ قال ﷻ: ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾[النجم:٦٢]، وقال: ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب﴾[العلق:١٩] إلى غير ذلك من الآيات.

لكن المقصود من هذا الجزء من الحديث أن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أراد بذلك أن يعلموا أن الحد الأدنى مما افترض الله ﷻ عليهم من الصلوات هو الصلوات الخمس بصفتها وزمانها وواجباتها وأركانها.. مما يتبعها من أحكام.

ثم قال: («فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ؛ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ»). وإضافة الصلاة والزكاة إلى الله ﷻ فرضاً هو إخبارٌ لهم أن هذا إنما افترضه الله وحده، والنبي مبلِّغٌ عنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. كما أن نسبة الافتراض إلى الله في الزكاة يدفع الظنة أن النبي ﷺ بُعِث جابياً للأموال -وحاشاه من ذلك-، فلما نسبها إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ دُفعت هذه التهمة عن معاذٍ وعمَّن هو أفضل منه ﷺ. وأكَّد دفع ذلك بقوله: («تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِم»)؛ بمعنى أنه إنما بُعِثَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لينتفع الناس بعضهم من بعض، لا لينتفع هو من أموالهم.

ففي قوله ﷺ: («تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ») أيْ أغنياء أهل اليمن، («فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِم») أي

فقراء أهل اليمن، ثم التفصيلات في كتب الفقه حول نقل الزكاة أمرٌ آخر، لكن المقصود أن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لما قال: («تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِم») فيه أَنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -كما يقول المعاصرون- بُعِث بـ"التكافل الاجتماعي"، بُعِث لكي يغتني الفقير من مال الغني، وتعطف قلوب المسلمين على بعضهم، وحتى يواسوا بعضهم بعضاً... إلى غير ذلك من المعاني الإنسانية.

والنبي دينٌ إنساني -كما يقول الناس المعاصرون الآن-، يجعلون الإنسانية ديناً يبعث إليه الخُلُق البشري والخُلُق الإنساني، هذا في ظنهم، لكن الإسلام دعا إلى مثل هذه المعاني الإنسانية وما هو أعظم من ذلك، كما أنه دعا أول ما دعا إلى حق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من إفراد العبادة له سبحانه وبحمده وطاعة نبيه ﷺ واتباعه.

فقوله ﷺ: («تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِم»)، ثم قَالَ: («فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوك لِذَلِكَ») أيْ فإن هم أطاعوا معاذاً فيما يتعلَّق بأخذ الزكاة من الأغنياء إلى الفقراء.

ثم قَالَ: («فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ») أيْ لا تأخذ نفائس الأموال وإنما خذ أوسطها، لا تأخذ الرديء منها لأن ذلك يضر بالفقير -لا ينتفع بالشاة العجفاء إذا أخذ الشاة من الغني الموسر-، ولا تأخذ كرائم أموالهم؛ لأنها تضر بصاحب المال، وإنما يُؤخذ ما لا يضر بالطرفين.

ثم ختم بقوله: («وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلَومِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ»). ومناسبة ذكر دعوة المظلوم هنا: أن من أخذ نفيس المال من الغني أضرَّ بصاحب المال فصار مظلوماً في حكم الله، ومن أخذ المال الرديء ودفعه للفقير أضرَّ بالفقير فصار مظلوماً، وهذا بحد ذاته يبعث على الدعاء على جابي الزكاة -العاملين عليها-، ففي كلتا الحالتين يقع الظلم، سواء على صاحب المال أو على الفقراء.

ولهذا توقي دعوة المظلوم بحد ذاته أمرٌ يدفع إليه مراقبة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أولاً؛ كما قال الله

سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا»، أيْ لا يظلم بعضكم بعضـًا.

ثم طلب السلامة من ذلك أيضـًا؛ أن يسلم الإنسان من أن تلحقه دعوة إنسانٍ ناله ظلم، وقد جاء في بعض الأحاديث أن دعوة المظلوم تصعد إلى السماء كأنها شررة، فيقول الله ﷻ: «وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَأَنْصُرَنَّكِ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ»، وقد قال النبي ﷺ: «اتَّقُوا الظُّلْمَ؛ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

وفي قوله ﷺ: («وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلَومِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ»)، يعني أن الله ﷻ سبحانه وبحمده ينصر المظلوم ممن ظلمه؛ كما قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾[النمل:٦٢]. والله ﷻ حُكْمُه عدلٌ، وأمره عدلٌ، فإذا وُضع الشيء في غير موضعه صار ظلمـًا. فظَلَمَ الذي أخذ المال عباد الله بشيءٍ نسبه إلى الله، أو ظنوا أن هذا حكم الله فيهم، فيكون بذلك قد تعدى على الرب سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بسوء ما فعله، وبما ظنه الناس من شرع الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

وفي هذا الحديث دليلٌ على أن الله ﷻ يستجيب دعوة المظلوم ولو كان كافراً، وهذا مما قاله أهل العلم، وإن كان من أهل العلم من قالوا أن هذا محمولٌ على أنهم فيما لو وحَّدوا الله ﷻ وأقرُّوا بالصلاة والزكاة وصاروا مسلمين، ثم دعوا بعد ذلك على من ظلموا استجاب الله دعاءهم.

فصار آخر الحديث لأهل العلم فيه قولان: من حيث أن يكون القول بأن دعوة المظلوم مستجابةٌ على كل حال، وإن كان كافراً ليس بالضرورة أن يستدل بهذا الحديث -قد يكون له أدلةٌ أخرى-، لكن هذا وجه من أوجه توجيه الحديث.

والوجه الآخر: أن النبي ﷺ لما قَالَ: («وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلَومِ») قَصَد بالمظلوم هنا المسلم من أهل اليمن الذي وافق معاذاً في دعوة إلى التوحيد، وأقام الصلاة وآتى الزكاة، ثم ظُلِم بعد

ذلك، فإذا ظُلِم بعد ذلك ودعا على من ظلمه استجاب الله دعاءه.

وسواء هذا أو هذا إجابة الرب ﷻ دعوة المظلوم هي من لوازم ربوبيته سبحانه وبحمده، والرب ﷻ ربٌ للخلائق أجمعين الموحِّد وغير الموحِّد، فالله ﷻ من لوازم ربوبيته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في ملكوته أن يستجيب لمن دعاه سبحانه وبحمده.

وعلى كل حال، جاء في كلام الله أن الكافر العابد لغير الله، ربما يتوجَّه قلبه إلى الله ﷻ فيدعو الله حتى في غير مسائل الظلم إذا نزل به اضطرار؛ بمعنى أن هناك ما يبعث إلى قصد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في قلب الكافر في أحوالٍ خاصة.

معنى هذا أنه ربما يتصور أن يدعو الكافر بالله، أن يدعو الله ﷻ في بعض أحواله وفي بعض ما ينزل به، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[العنكبوت:٦٥]، وقال: ﴿لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾[يونس:٢٢].

فقد يميل الكافر إلى الله ﷻ لما فطر الله الخلائق عليه، ولما خضعت القلوب لوجود الله وربوبيته لخلقه؛ فورود ذلك من الكافر ليس مُستبعَداً بدلالة الكتاب وبدلالة هذا الحديث وغيره.

قال الشيخ رحمه الله: («فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَها وبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ» أَخْرَجَاهُ) أيْ البخاري ومسلم من حديث معاذ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(وَلَهُمَا) أيْ للبخاري ومسلم (عَنْ سَهْلِ بنِ سَعْدٍ)؛ سهل بن سعد الساعدي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ من صغار الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، وقيل: إنه آخر من مات منهم، كعامر بن واثلة وأنس بن مالك وغيرهم.

(أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال يَوْمَ خَيْبَرٍ) -وكان يوم خيبر في السنة السابعة من الهجرة-: («لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَداً رَجُلاً يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ»).

هنا نوعان من المحبة:

المحبة الأولى: محبة الله ﷻ، وهي محبة تعظيم وعبادةٍ وتألُّه وتذلُّل، وهي أصل كل محبةٍ مشروعة، ولا يصح دين الإنسان حتى تكون لله ﷻ خالصة، لا يصح فيها التنديد كغيرها من أوجه العبادة؛ بمعنى أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُحَبُّ -سبحانه وبحمده- محبة تعظيم وتذلل.

فإذا قال الإنسان: لماذا أحب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟ فالجواب على ذلك: لكل ما تراه وما لا تراه من خيره سبحانه وبحمده، ولأن المحبة التي هي محبة العبادة والتذلل لا تصح إلا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولأن الإنسان لا يذوق الإيمان وحلاوته حتى يكون مُحباً لله ﷻ، ولأن من أشرك مع الله ﷻ غيره في هذه المحبة كمن أشرك مع الله ﷻ غيره في الدعاء؛ ولهذا محبة غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كمحبة الله تنديدٌ وشركٌ وخروجٌ من الإسلام.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[التوبة:٢٤]. الفسق هنا المقصود به الفسق الكلي -الخروج من الإيمان-؛ من أحب غير الله ﷻ كمحبة الله فهذا ليس بمسلم ولا موحِّد، بل هو كافر خارجٌ من الإسلام.

قال النبي ﷺ في هذا الحديث: («لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَداً رَجُلاً يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ»).

يا إخواني! مثل هذه المعاني التي ربما تمرُّ علينا مرًّا -ما أقول جامداً لكننا لا نتأمل فيها-، أحب الله ﷻ لما غذاني من نعمه، لما دفع عني من النقم، لأن الله خلقني من العدم وأسبغ عليَّ النِّعم، ليس هذا الحامل على محبة الله ﷻ فقط.

بل أعظم من ذلك أنك تحب الله ﷻ لما هداك وأضل غيرك، أن الله ﷻ أرشدك ووقع غيرك في الغي، أن الله ﷻ اختار لك سبحانه وبحمده أن تكون من أهل توحيده وإفراده بالعبادة؛ ما اختلط عليك الحق بالباطل، ما اختلطت عليك السنة بالبدعة، ما جعلك الله ﷻ

في عمى، بل أنزل إليك كتابًا وأرسل إليك رسولاً عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ما ترك خيراً إلا دلك عليه، ما علم شراً إلا حذَّرك منه، جعل الله ﷻ لك مدركًا عقليًا تميِّز بين ما يحب وما يكره سبحانه وبحمده.

أخذ بقلبك إلى الطاعة يا رجل -الله ﷻ مِنَّته عليك عظيم-، ما بغَّضك ونفَّرك عنها، ثم حببها إليك، ثم جعلك ثابتًا عليها، ثم أحدث في قلبك استشعار أنك عبداً له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ثم أحدث في قلبك توقُّع الخير من الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على الطاعة التي هداك إليها وحببها إليك وثبَّتك عليها، وجعلك تحس باللذة في فعلها طاعةً لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ولهذا محبة الله ﷻ لا يحيط العقل بلوازمها؛ لأن كل خيرٍ تتقلَّب فيه -لا نقصد بالخير الطعام والشراب، هذا خيرٌ لا شك في ذلك، ولا باللباس ولا بالدفئ ولا بالأمن ولا بغيرها مما هو متعلِّقٌ بزهرة الدنيا-، الخير الذي هو أعظم من ذلك ما يتعلَّق بإفراد الله ﷻ بالعبادة.

ولهذا الإنسان يحمد الله ﷻ إذا شعر بما هو فيه من توحيده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ومطاوعته لأمر الله وأمر رسوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، لا القلب نافر، ولا النفس كارهة، ولا اختلط عليك الحق بالباطل، ولست والحمد لله في ضلالٍ كما ضل غيرك، ومع ذلك ترى أن أكثر الناس في ضلال والله ﷻ خصَّك بالخير.

هذا بحد ذاته يحرك القلب إلى أن الله ﷻ يُحَبُّ سبحانه وبحمده محبة التعظيم والتذلُّل، وهي محبةٌ تبعث إلى الازدياد من الطاعات -هي بحد ذاتها محبةٌ تبعث إلى الاستكثار من الطاعات-، إلى التزود من القربات، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾[البقرة:١٩٧].

إذا عرفت أنا وإياك أن الله ﷻ يحب السجود أكثروا من ذلك، يحب الذكر أكثروا من ذلك، يحب كلامه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كما جاء في بعض الأحاديث عن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بحديثٍ معناه؛ أن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال: «اعلموا أنكم لن ترجعوا إلى الله ﷻ بشيءٍ أحب إليه مما

خرج منه» يعني كلامه سبحانه وبحمده، فإذا علمت بالطاعات وأنها في محل محبته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تستكثر من ذلك.

هذا الاستطراد الطويل أحتاجه أنا قبل إخواني، لكن هذا من باب التذكير؛ أن الإنسان إذا عرف أن محبة الله ﷻ، هذه بعض الأسباب المحرِّكة للقلوب إلى استشعار عظم منزلتها تحمل الإنسان على الاستكثار من الطاعات، على التزود منها، تحمل الإنسان أن يتأمل في حاله وهو في ظل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لما وحَّد الله ﷻ وضل غيره.

أذكر أنني قلت لإخواني في غير هذا المقام: أن بشر بن الحارث الحافي -صاحب الإمام أحمد رحمه الله- كان رجلاً صالحًا ناسكًا، مُقبلاً على الآخرة ليس له همة بالدنيا، ومع ذلك من الأثبات الثقات الذين يُسند عنهم حديث النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، خرج من بيته فوقف عند مصراع الباب، قدمٌ خارج البيت وقدمٌ داخلها، وكان له أخوات صالحات ثلاث كلهن مثله على ما هو عليه من الصلاح والزُّهد، فنظرت إليه الكبرى منهن وهو واقف عند الباب -لا خرج ولا دخل-، ثم دخل وأغلق الباب، قالت: ما لك يا بشر قطعت الوقوف؟ قال: تذكرت في بشرٍ النصراني في الكوفة، وبشر المجوسي، وبشر اليهودي، وبشر بن عبد الرحمن الحارث، بماذا خصَّني الله ﷻ من الناس بهذا التوحيد؟!

يعني أن الإنسان يستشعر -وكلنا خلق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ-، لماذا هداك الله ﷻ وأضل غيرك؟ الخلْق خلقه، لكن هذا بحد ذاته يُحرِّك القلب على أن الإنسان يستشعر أنه في ظل الله ﷻ، وأن الله ﷻ خصَّك بشيء أنت في هذه الدار لا تُدرك عظيم النِعمة التي خصك الله ﷻ بها وهو توحيده سبحانه وبحمده.

قال النبي ﷺ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ»، ما هو الإيمان بس، حلاوة الإيمان -لذَّته-.

وحلاوة الإيمان باعثة -يا إخواني- على الاستمرار عليه والثبات عليه، مثل ما يجد

الإنسان -وهذا تقريبٌ للمثال- طِيْب الطعام من أول لُقمة تدفعه إلى اللقمة الثانية والثالثة حتى يستكثر من ذلك، كذلك الحلاوة -حلاوة الإيمان-؛ إذا قذف الله ﷻ في قلبك التلذُّذ بطاعة الله وحلاوة الإيمان، هذا يحملك على الثبات عليه وعلى التمسُّك به والتشبُّث به، قال النبي ﷺ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ».

قال النبي ﷺ: («يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ»).

محبة رسول الله ﷺ فرضٌ على كل مسلم؛ لما هداهم الله ﷻ به عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من التوحيد عن الشرك، ومن الهدى عن الضلال، ومن الرَّشد عن الغي، ومن ظلمات الباطل إلى نور الحق، إلى غير ذلك من المعاني.

ولأن النبي ﷺ ما علم خيراً إلا ونصح الناس به، وما علم شراً إلا وحذَّرهم منه؛ فلو نصحك إنسان في شيء يضرُّك فوجدت بعد ذلك أن هذا كان فيه مهلكة لك، لكنك تحمد الله أن سخَّر لك زيداً من الناس فنصحك ألا تسلك هذا الطريق. ألا يقع في قلبك حبٌ له؟ هذا وهو موقفٌ واحد، كيف والنبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ما ترك خيراً لا في مالٍ، ولا في طعامٍ، ولا في شرابٍ، ولا في عبادة، ولا في غير ذلك إلا ودلّ الأمة عليه، وما علِم شراً إلا وحذّرهم منه؛ إذن هو أنصح الناس بالناس، وأصدق الناس قولاً وفعلاً عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

قال الشيخ رحمه الله: قال ﷺ: («يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ») يعني أن الله ﷻ يحبه، وأن رسوله ﷺ يحبه، وهذا مطمعٌ يتعلق به قلب كل موحِّدٍ؛ أن يكون الله ﷻ محبًا لك، وأن يكون رسول الله ﷺ يحبك.

بمعنى أن النبي ﷺ قال ذلك؛ من حيث أن الإنسان إذا كان محبًا لله ﷻ، ومحبًا لرسوله ﷺ، فبالتبع يكون الله ﷻ محبًا له؛ لأنه أتى بالمحبة التي هي محبة التوحيد ولم يخلطها

بشيءٍ من التنديد.

وإذا كان محبـًا للنبي ﷺ محبـة المتـابع والمتأسـي بـه، يحبـه النبـي ﷺ لـذلك، مـع أنـه لا ينفع النبي ﷺ شيئـًا ولا يضرُّه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، والله ﷻ من باب أولى.

لكن هذه المقابلة من حيث محبة الله ورسوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ للعبد المؤمن، ومحبة العبد المـؤمن لله ورسـوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، لمناسـبة المحبـة عمـلاً قلبيـًا مـن المـؤمن يحـب الله ورسوله، ومكافأة بأن الله ﷻ يحبه، وإذا أحبه الله ﷻ ونال رضا الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ دخل جنته وفاز بالفوز العظيم -جعلنا الله وإياكم من أصحابها-.

قال ﷺ: («يَفْتَحُ اللهُ عَلَى يَدَيْهِ») يعني يفتح الله على يديه خيبر، وهذا فيه عَلَمٌ مـن أعـلام النبوة؛ أن خيبر ما فُتحت إلا على يد علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

كما أن فيها أيضـًا إشارة إلى أن هذا فضْـلٌ خـص الله ﷻ بـه واحـداً مـن الصـحابة، ولـيس ذلك إلا له؛ لأن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لا ينطق عن الهوى، وما أخبر النبي بأنه كـائنٌ هـو كـائن؛ كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾[النجم:٣].

قـال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: («يَفْـتَحُ اللهُ عَلَـى يَدَيْـهِ» فَبَـاتَ النَّـاسُ)، والمقصـود بالنـاس هنـا الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ؛ لأنهم كانوا أحرص الناس على الخير وتشوُّقـًا إليـه وحِرصـًا عليـه، فبـاتوا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ (يَدُوكُونَ) أيْ يخوضون (لَيْلَتَهُمْ)؛ لأن الراية ستُعطى من الغد من الفجر.

فباتوا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ الليل كله (يَدُوكُونَ لَيْلَـتَهُمْ؛ أَيُّهُـمْ يُعْطَاهَـا)، هـذا لـيس معنـاه أن الصـحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ كان نظـرهم إلـى الرايـة فحسـب، وإن كـان هـذا بحـد ذاتـه عمـلٌ صـالح، فالجهـاد في سبيل الله عملٌ صـالح، لكـن لأن النبـي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قـال: («يُحِـبُّ اللهَ وَرَسُـولَهُ، وَيُحِبُّـهُ اللهُ وَرَسُـولُهُ»)، فـدوكهم في آخـر الليـل لقولـه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: («وَيُحِبُّـهُ اللهُ وَرَسُـولُهُ»)، وكلهـم يريدون هذا الفضل.

(فَلَمَّا أَصْبَحُوا؛ غَدَوا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ)، يعني جاءوا إلى النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مع أنهـم

صلوا معه، فيكون معنى غدوِّهم على النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إما غدوهم عليه لما خرج من المسجد حتى يُرتب الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في فتح خيبر، أو غدوهم عليه وهو في محله؛ بمعنى التفافهم عليه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بعد الصلاة.

(**فَقال**) ﷺ: (**«أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ؟» فَقِيلَ**) أيْ فقال الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: (**هُوَ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ. فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ، فَأُتِيَ به، فَبَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ، وَدَعَا لَهُ، فَبَرَأَ حَتَّى كَأَنْ لَمْ يَكُنْ به وَجَعٌ**).

والذين قالوا في هذا الحديث ذِكر علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أعطى الراية علياً مع حضور أشياخ الصحابة؛ أبي بكر وعمر وعثمان وباقي العشرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين، ومن شهد بدراً ومن شهد بيعة الرضوان، فخصَّ علياً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بذلك.

من أهل العلم قالوا: أن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ خصَّ علياً بهذا الفضل؛ لأن علياً تكلم فيه المنافقون لما كان غائباً عن صلاة الفجر، ولم يعلموا أن علياً -أو علموا ذلك وأرادوا الكلام في علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- ما شهد الصلاة لِعلَّة الرمد التي كانت في عينه، فلما تكلموا فيه، أراد النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنه بريء من هذا الذي قيل فيه، وأنه يحبه الله ورسوله؛ لأنه يحب الله ورسوله.

وهذا بحدِّ ذاته -يا إخواني- فضْلٌ ثابتٌ لعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يُمدَح عليه عليٌ في هذا وفي غيره من الأحاديث؛ بمعنى أن الفضل لعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في هذا الحديث وفي غيره، ففضائله كثيرة سواء في الصحيحين أو في غيرهما.

لكن ننتبه إلى أنه إذا ذكر النبي ﷺ صحابياً بفضل، لا يعني ذلك اختصاص الصحابي بهذا الفضل، وأن الصحابة غيره ليس لهم حظٌ من ذلك الفضل.

ولا مانع أن نضرب مثالاً في ذلك؛ لما قال النبي ﷺ في أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -أبو بكر الصديق خير الأمة بعد نبيها-، قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**ألستم تاركو لي صاحبي**». فالصحبة فضلٌ عظيم، طيب هل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لهم حظٌ من هذه الصُّحبة أو لا؟ قال النبي

عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «وددنا أنا قد رأينا إخواننا»، قالوا: يا رسول الله، أولسنا إخوانك؟ قال: «أنتم أصحابي، وإخواني قومٌ يؤمنون بي ولم يروني».

فذكر النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أبا بكر وذكر الصُّحبة له، ولا يعني ذلك أن الصحبة لم تقع لغيره.

والأمثلة على ذلك كثيرة؛ لما بشَّر النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ثابت بن قيس بن شماس في اعتزاله الصلاة مع النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لأنه كان جهوري الصوت، قال: «ادعوه وبشّره بالجنة» ثابت بن قيس بن شماس. هل معنى ذلك أنه لم يبشَّر بالجنة أحدٌ غيره؟

لما قال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لبلال رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «إني سمعت دُفّ نعليك في الجنة»، هل معنى ذلك أن هذا فضلٌ يخص بلالاً دون غيره؟

هنا لما قال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في عليٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: («يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ»)، هل معنى ذلك أن علياً رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وحده دون الصحابة الذي يحبه الله ويحبه رسوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؟ الله عَزَّ وَجَلَّ يحب الصحابة كلهم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، ولهذا أثنى عليهم رب العالمين، أثنى عليهم بالتوبة والرضوان: ﴿لَقَد تَّابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ﴾[التوبة:١١٧]، ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾[الفتح:١٨]، ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾[الفتح:٢٩]، إلى غير ذلك من الآيات.

فليس معنى ذلك أن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يحصُر الفضل المذكور في هذا الحديث لعليٍ دون غيره، بل يذكر النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ للصحابي فضلاً ويكون غيره مشاركاً له في الفضل ذاته؛ كما قال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينٌ وَأَمِينُ هَذِهِ الْأُمَّةِ أبو عبيدة». هل هو فقط الأمين من الصحابة أو كلهم أمنة؟ كلهم أَمَنَة، وهذا في صحيح مسلم قال: «وَأَصْحَابِي أَمَنَةٌ لِأُمَّتِي»؛ يعني أمناء وأمينون، «فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون».

قال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «لكل نبي حواري وحواريِّ الزبير بن العوام» يعني صاحبي، هل

الزبير بن العوام فقط له هذا الفضل دون غيره؟ فالمقصود أن هذا لا يعني أن الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ فاتهم الفضل الذي ثبت لعلي في هذا الحديث.

قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: («أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ؟» فَقِيلَ: هُوَ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ. فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ، فَأُتِيَ به، فَبَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ). جاء في بعض ألفاظ الحديث: «أُتِيَ به يُهادى» لا يُبصر طريقه من شدة الرمد في عينيه.

(فَبَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ، وَدَعَا لَهُ، فَبَرَئَ حَتَّى كَأَنْ لَمْ يَكُنْ به وَجَعٌ). بصق النبي ﷺ في عيني علي فبرئ؛ من أهل العلم من قَالَ: أن هذا لأجل بركة ريقه ﷺ، لأن الحديث لم يأتِ فيه أن النبي قرأ ثم نفث، وإنما ذُكِر في الحديث أن النبي بصق ﷺ، والنبي ﷺ مباركٌ في ريقه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

فبرؤ عليٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ -كما في لفظ هذا الحديث- بعد أن قال سهل بن سعد: (فَبَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ، وَدَعَا لَهُ، فَبَرَئَ حَتَّى كَأَنْ لَمْ يَكُنْ به وَجَعٌ)، فاجتمع فيه البصق والدعاء.

قال الشيخ رحمه الله: (فَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ، وقال: «انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ»). "على رسلك" يعني على مهلك؛ لأنه سيقود جيشًا جراراً، وإذا كان بطيء المشي أصابهم فتور وخَوَر، وإذا كان سريعًا ستجهدهم السرعة ويكونون وقت الحاجة إلى النشاط غير نشيطين بسبب السرعة التي ساقهم بها.

ولهذا قوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: («انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ») يعني على هونك من غير تكاسلٍ يثبِّط، ومن غير سرعة تُجهد؛ لأنهم يحتاجون إلى جهدهم في قتال أو في حصار خيبر («حَتَّى تنزِلَ بِسَاحَتِهِمْ»).

وقوله ﷺ: («حَتَّى تنزِلَ بِسَاحَتِهِمْ») أيضًا وسطٌ بين أن يقرب من حصونهم فيكونوا في مرمى نبلهم ويصيبونهم بنبالهم، ووسطٌ بين أن يكونوا بعيدين عنهم فلا يسمعون كلام عليٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ إذا كلمهم. ففي قوله ﷺ: («حَتَّى تنزِلَ بِسَاحَتِهِمْ») يعني قريبًا منهم؛ قُربًا لا يؤذي

الصحابة وقُربٌ أيضاً يسمعون به كلامك إذا دعوتهم إلى التوحيد، («ثُمَّ ادْعُهُم إِلَى الْإِسْلَامِ»).

وشاهدوا هذا الحديث في هذا السياق أن الإسلام هو دعوة شهادة أن "لا إله إلا الله"؛ لأن الإسلام هو توحيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وما من نبي إلا بُعِث بالإسلام؛ فقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الْإِسْلَامُ﴾[آل عمران:١٩]. هذا فيما يتعلق بشريعتنا، لكن لا يعني ذلك أن نوحاً عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أول الأنبياء ومن بعده لا يعني أنهم بُعِثوا بالإسلام؛ لأن الإسلام كما قال ذلك ابن عبد الوهاب رحمه الله في "ثلاثة الأصول": "الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله". وبهذه الأمور الأربعة بُعِث سائر الأنبياء، ولهذا سموا أنفسهم مسلمين -الأنبياء سموا أنفسهم مسلمين- قبل نبينا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

مما يدلُّ على أن الإسلام المذكور في هذا الحديث («ثُمَّ ادْعُهُم إِلَى الْإِسْلَامِ») المقصود به ترجمة الباب: (شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلا اللهُ).

في سورة يونس قال نوح عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[يونس:٧٢] وهو نوح وأول الأنبياء والرسل. وفي قصة إبراهيم: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[البقرة:١٣١]. وفي قصة يعقوب مع بنيه: ﴿إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[البقرة:١٣٣].

وفي قصة بلقيس مع سليمان قالت: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[النمل:٤٤].

إذن الإسلام الذي بُعِث به نبينا ﷺ هو الذي بُعِث به سائر الأنبياء، كما في الحديث المشهور في الصحيحين قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إنَّا معشر الأنبياء إخوةٌ لعلات، ديننا واحد»؛ يعني الذي هو الإسلام، «وشرائعنا شتى».

قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: («ثُمَّ ادْعُهُم إِلَى الْإِسْلَامِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِم مِنْ حَقِّ اللهِ تعالى فِيهِ») يعني مما يجب عليهم فيما لو أسلموا من باقي شرائع الدين من صلاةٍ وزكاةٍ

وحجٍ وصيامٍ وصلةٍ وعفافٍ وتقوى وبرٍّ والدين وغير ذلك؛ هذه كلها من شرائع الإسلام وتشريع الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وحكمه في عباده. لكنهم يُدعون أول ما يُدعون إلى توحيد الله ﷻ الذي هو الإسلام.

قال: («فَوَاللهِ! لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِداً خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ»). وحُمْر النَّعَم أجاويد الإبل في ذلك الوقت، ومعنى ذلك أن الإنسان إذا هُدي على يديه رجلٌ كتب الله ﷻ له من العمل الصالح ما يفعله من هُدي على يديه، مع كتابة عمله الصالح الذي فعله. قال النبي عَلَيْهِ‌ٱلصَّلَاةُ‌وَٱلسَّلَامُ: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا».

وعلى كل حال قد أمر الله ﷻ بالدعوة إلى الخير؛ قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾[النحل:١٢٥]. فلو لم يكن في دعوة الناس إلى الخير إلا أن الله ﷻ يجعل لك صحيفتين: صحيفة عملك لنفسك، وصحيفة غيرك لنفسه ويكون ثوابها مثله لك، «من دل على هدى فله مثل أجر فاعله»، ولهذا لما قال النبي عَلَيْهِ‌ٱلصَّلَاةُ‌وَٱلسَّلَامُ: («خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ»)؛ هذا مثال يُضرَب على أن الناس يرون من أنْفَس أموالهم الإبل الحُمر لندرتها، أو عِظَم سنامها، أو غير ذلك. لكن وإن بلغت من الغنى مبلغـًا إلا أن مآلها إلى فناء؛ الدنيا كلها تفنى إبلها وغير إبلها، لكن العمل الصالح لا يفنى، يُدَّخر.

وثوابه أيضـًا في الآخرة ليس كالثواب على العطاء في الدنيا؛ ثوابه في الآخرة أعظم مما يتخيله أهل الدنيا من عطاء الدنيا. قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ﴾، ثم قال بعد ذلك: ﴿وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾[البقرة:٢٦١]. فالثواب في الآخرة أعظم مما يتعلق بثواب الدنيا؛ ولهذا ناسب أن يذكر النبي عَلَيْهِ‌ٱلصَّلَاةُ‌وَٱلسَّلَامُ من الأموال ما يستنفسها الصحابة أو الناس في زمن الصحابة رَضِيَ‌ٱللَّهُ‌عَنْهُمْ.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بَابُ تَفْسِيرِ التَّوْحِيدِ وَشَهادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ

وَقَوْلُ الله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾[الإسراء:٥٧].

وقَوْلُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ قال إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[الزخرف:٢٦-٢٨].

وقَوْلُهُ تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُم وَرُهْبَانَهُم أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ﴾[التوبة:٣١] الْآيَةُ.

وقَوْلُهُ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُم كَحُبِّ اللهِ﴾[البقرة:١٦٥] الْآيَةَ.

وفي الصحيح: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ؛ أَنَّهُ قال: «مَنْ قال: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ، حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ، وَحِسَابُهُ عَلَى اللهِ».

وَشَرْحُ هَذِهِ التَّرْجُمَةِ مَا بَعْدَها مِنَ الْأَبْوابِ.



قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللّه:

ثم ذكر الشيخ رحمه الله بعد ذلك (بَابُ تَفْسِيرِ التَّوْحِيدِ)؛ وهذا الباب والذي بعده بينهما علاقةٌ من حيث أن البابين كلاهما يتعلقان بمعنى "لا إله إلا الله". ومعنى "لا إله إلا الله" أنه: لا معبود بحقٍ إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويتعلقان بتفسير التوحيد.

أن تفسير التوحيد لما قال الشيخ رحمه الله في الباب الأول: (بَابُ الدُّعَاءِ) يعني الدعوة إلى شهادة أن "لا إله إلا الله"، ناسب أن يذكر بعد ذلك ما هو التوحيد، وما هي شهادة أن "لا إله إلا الله".

ومعنى شهادة أن "لا إله إلا الله": عبادة الله ﷻ على الانقطاع له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وألا يشرك معه غيره سبحانه وبحمده؛ لا مَلَكٌ مُقرَّبٌ، ولا نبي مرسل، ولا من دونهم من باب أولى.

قال الشيخ رحمه الله: (بَابُ تَفْسِيرِ التَّوْحِيدِ وَشَهادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ).

حل الترجمة أن يقال: باب تفسير التوحيد وباب تفسير شهادة أن "لا إله إلا الله"؛ يعني أن التفسير متعلق بالأول ومتعلقٌ بالثاني، بمعنى أن الأول والثاني كلاهما واحد؛ يعني أن التوحيد هو شهادة أن "لا إله إلا الله".

ثم ذكر أدلةً على هذه الترجمة؛ قَالَ: (وَقَوْلُ الله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾[الإسراء:٥٧]). يعني هؤلاء الذين يدعوهم المشركون من الملائكة والصالحين والأولياء وغيرهم، هم أنفسهم يبتغون إلى الله ﷻ وسيلةً طلباً لرضاه سُبْحَانَهُوَتَعَالَى وأمناً من عقوبته؛ بمعنى أنهم مفتقرون إلى الله ﷻ، فكيف ينفعون غيرهم؟ قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾؛ يعني أولئك الذين يُدْعَون مع الله من أولياءٍ وصالحين وأنبياء وملائكة، هم أنفسهم مُفتقرون إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، والمفتقر لا يكون غنياً وإنما يكون مفتقراً إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، ولهذا يتبرؤون منهم يوم القيامة.

قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى عمن عيسى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[المائدة:١١٦-١١٧].

ولهذا هذا الانحراف في التوحيد يقع في كل من خلف أنبياء الله ﷻ ورسله، ولو كذب في انتسابه إلى أنبياء الله؛ بعض المشركين يقع في الانحراف عن التوحيد ويعبد غير الله ﷻ، ومع ذلك يدّعي أنه تابعٌ للنبي الذي بُعِث إليه؛ كما وقع للنصارى، يزعمون أنهم مسيحيون وعيسى بريءٌ منهم، وهم مع ذلك يُشركون بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

بعض الناس -يا إخواني- في زماننا يقول: أن النصارى واليهود ليسوا مشركين، وهذا

خطأ بيّن يدلُّ عليه كلام الله وكلام رسوله عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ. أولاً من الأدلة هذه الآية: قال الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ في خبر عيسى: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾[المائدة: ١١٧]، يعني أن عيسى دعاهم إلى عبادة الله ﷻ.

طيب. هل عبدوا الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أو عبدوا معه غيره؟ اليهود ظاهر أنهم عبدوا العجل، وظاهر أنهم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، لكن النصارى وقع الشرك فيهم كما وقع في غيرهم من الأمم، والذي يدلُّ على ذلك كلام الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ منها هذه الآية، ومنها قوله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾[المائدة:٧٢].

قال الشيخ رحمه الله: (وقَوْلُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ قال إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[الزخرف:٢٦-٢٨]).

هاتان مقترنتان -يا إخواني-: أن يوحِّد الإنسان الله ﷻ، وأن يتبرأ ممن أشرك بالله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ؛ بمعنى أن التوحيد لا يستقيم إلا على قدم الكفر بكل ما سوى الله، والبراءة ممن عبد غير الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

ولهذا في شروط "لا إله إلا الله" التي تعرفون: العلم واليقين والإخلاص والانقياد.. وفي آخرها الشرط الثامن: أن يكفر بكل ما عُبِد من دون الله.

علمٌ يقين وإخلاص وصدقك معْ ... محبةٍ وانقياد والقبول لها
وزيد ثامنها الكفران منك بما ... سوى الإله من الأنداد قد أُلِها

يعني أنه لا يستقيم التوحيد حتى يكفر بالطاغوت؛ كما قال الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾[البقرة:٢٥٦]. فلما ذكر الإمام إبراهيم، دل

على أن إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الذي هو أبو الأنبياء وإمام الحنفاء، والذي أمر الله ﷻ نبيه ﷺ بأن يتّبع مِلّة إبراهيم، كان على هذا من حيث أنه لا يجتمع التوحيد مع الرضا بالشرك، وإنما يكون التوحيد مع البراءة من الشرك وأهله. قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾[الزخرف:٢٨]؛ يعني في كل من جاء من بعده على دعوته، سواء كانوا من عقبه الذين هم لصلبه أو أتباعه من الأمم بعد ذلك، إلى أن يرث الله ﷻ الأرض ومن عليها.

قال الشيخ رحمه الله: (وقَوْلُهُ تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُم وَرُهْبَانَهُم أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ﴾[التوبة:٣١]). هذا في سياق ما كان عليه اليهود والنصارى؛ ﴿اتَّخَذُوا﴾ أيْ اليهود والنصارى، ومعنى الآية: اتخذوا اليهود أحبارهم واتخذ النصارى رهبانهم أربابًا من دون الله. يعني في مقام الرب الذي يُشرِّع للناس حلالاً وحرامًا.

"الأحبار" جمع حَبْر وهو العالم من اليهود، و"الرهبان" جمع راهب وهو العابد من النصارى.

واتخاذهم إياهم أربابًا من حيث أنهم يقلبون الحلال حرامًا فيطاوعونهم في ذلك، ويقلبون الحرام حلالاً ويطاوعونهم في ذلك؛ هذا مع علمهم أنهم يكذبون على الله ورسوله. أما إذا كانوا مغشوشين فهذا أمرٌ آخر، لكن الخطاب في هذه الآية فيمن اتخذ هؤلاء الأحبار أربابًا لأنهم يعلمون أنهم كذبةٌ على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فلا يرد على هذا من طاوعهم على الحرام وعلى الحلال وهو لا يعلم أن هذا حلالٌ وهذا حرام، لكنها متجهةٌ إلى من يعلم أن الحرام ما حرَّمه الله، ثم قال الرهبان والأحبار أن هذا حلالٌ فطاوعوهم على ذلك؛ ولهذا جعلوهم أربابًا من دون الله، يعني جعلوهم في مقام الرب الذي يُحرِّم ويُحلِّل.

جاء عدي بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقال للنبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لما سمع هذه الآية -وكان عدي قبل الإسلام نصرانيًا-: «يا رسول الله، ما كنا نعبدهم». لما سمع قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سورة التوبة: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم

بِأَفْوَاهِهِمْ ۖ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ ۚ قَاتَلَهُمُ اللهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٣٠) اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾[التوبة:٣٠-٣١]، يعني وجعلوا المسيح ربـًا مع الله -تعالى الله عن قولهم يقولون علواً كبيراً. قال عدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -وهذا الحديث وإن تكلم فيه بعض أهل العلم لسبب راوٍ فيه يسمى غطيف بن أعين، لكنه مذكورٌ في كتب الاعتقاد وله أدلة كثيرة من كلام الله وكلام رسوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: يا رسول الله، ما كنا نعبدهم. قال: «أليسوا يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتحلونه؟» قال: بلى. قال: «فتلك عبادتهم». بمعنى أن هذا من الشرك الذي يتعلق بالطاعة، يسمى "شرك الطاعة"؛ لأن الباب الذي قبله متعلق بـ"شرك المحبة"، محبة غير الله مع الله ﷻ، ومذكورٌ في هذا الباب أيضـًا "شرك المحبة": أن يحب غير الله ﷻ محبة تألُّه وتذلُّل؛ وهذه الآية مليئة بشرك الطاعة، يعني أن يطيع غير الله ﷻ في معصية الله سبحانه وبحمده مع علمه أن الله ﷻ حرَّم هذا وأحل هذا.

ثم ذكر الشيخ رحمه الله دليل شرك المحبة، وهو (**قَوْلُهُ** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُم كَحُبِّ اللهِ﴾[البقرة:١٦٥]).

"التنديد" يا إخواني معناه: أن يجعل مع الله ﷻ نداً؛ التنديد ضد التوحيد.

التوحيد: جعْل الشيء المتفرِّق واحداً، العبادة كلها لله. والتنديد تبديد -يعني تفريق-، بمعنى أن يجعل مع الله ﷻ أنداداً. والتنديد قد يكون مُخرجـًا من المِلَّة وقد يكون غير مخرِج، لكنه بكل حالٍ إما أن يكون نقصـًا في التوحيد وإما أن يكون هادمـًا للتوحيد كله.

مما يدلُّ على أن التوحيد قد يقع ولا يكون شركـًا أكبر، قول النبي ﷺ للرجل الذي قال: ما شاء الله وشئت؛ قال: «أجعلتني لله نداً؟ بل ما شاء الله وحده». وفي لفظ: «قل ما شاء الله ثم شئت». فدل على أن التنديد قد يكون شركـًا أكبر مخرجـًا من المِلَّة، وقد يكون شركـًا أصغر غير مخرجٍ من المِلَّة. لكنه في كل حال لا يناسب مقام الرب ﷻ الذي له العبادة سبحانه

وبحمده وليس لأحدٍ حظٌ فيها، قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا﴾.

ولهذا الذي يندِّد مع الله ﷻ يظهر له يوم القيامة بوار فعله، وذهاب أجره -والعياذ بالله- وخسرانه، قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عن المشركين: ﴿تَاللهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُم﴾ يعني نندد بكم ﴿بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[الشعراء: ٩٧-٩٨].

قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُم كَحُبِّ اللهِ﴾[البقرة:١٦٥]؛ يعني يحبون أصنامهم كحب الله، سواء كانت أصنامهم أو أولياءهم.

وهذا فاشٍ -يا إخواني- عند الصوفية بكل طوائفهم؛ يحبون أولياءهم محبة تعظيم وتذلُّلٍ وخضوع، يسمون أنفسهم "مريدين" لكنهم في الحقيقة "مُنددين"، خاصة غلاة الصوفية الذين يعتقدون الأقطاب والأغواث والأوتاد والأبدال وغير ذلك من مسميات الصوفية. هؤلاء وصلوا إلى حد التنديد مع الله ﷻ -ثبتنا الله وإياكم- في تدبير ملكوت السماوات والأرض، في إحياء الموتى، في كشف الضر، في حفظ الغائب، بل وصل الحال إلى أن بعضهم يعتقد أن محبته للولي عاصمةً له من دخول النار ولو فعل ما فعل؛ وهذا فشا أيضًا حتى عند الروافض.

وهنا مقالة حقٍ ظهرت من إنسانٍ منحرف في العقيدة -هذا من باب الفائدة التي جاءت تبعًا- قيل: أن الرفض خرج من عباءة التصوُّف، أول من قال ذلك أبو حامد الغزالي الذي وقع منه التصوف. ناهيك عن الانحراف في ذلك العقيدة والأسماء والصفات وغير ذلك، وهذه كلمة حق، لكنها ليست على إطلاقها.

المقصود بذلك فيما يتعلق بالانحراف في توحيد الألوهية؛ أن الرافضة خرجوا من عباءة التصوف، مما خرجوا به في هذه العباءة من التصوف اعتقاد الرافضة أن محبة آل البيت كافيةٌ للنجاة يوم القيامة، كما هو فاشٍ عند أصحاب الطرق والمنحرفون في توحيد الإلهية، الذين

يرون أن محبتهم للولي فلان -سواء كان الولي صالحاً أو مكذوباً عليه-؛ لأن هناك أولياء يزعمهم الصوفية أولياء ولو كانوا أحياءً لتبرؤوا من انحراف الصوفية؛ كعبدالقادر الجيلاني صاحب كتاب "الغنية"، كأبي عمر الذين يقولون: يا خائفين من التتر ... لوذوا بقبر أبي عمر ... ينجيكم من الضرر.

أبو عمر هذا المقدسي من أجداده موفّق الدين ابن قدامة، من صلحاء المقادسة، ومع ذلك غلوا فيه حتى صار له مقامٌ -والعياذ بالله-، وحتى صاروا يعتقدون أن أبا عمر هذا وغيره ممن يعظمونهم؛ أنهم يكشفون الكروبات، ويحفظون الغائب، ويغيثون اللهفات إلى غير ذلك، وربما اعتقدوا فيهم ما هو أشد من ذلك من حيث تدبير السماوات؛ كما يقول بعضهم: "عبدالقادر يا جيلاني .. يا مصرف الأكواني"، وغير ذلك -والعياذ بالله-.

المقصود أن محبة غير الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ -محبة التذلُّل والتألُّه- وقعت عند المشركين، كما قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في هذه الآية الذين أحبوا الأصنام كمحبتهم لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، محبة تعظيمٍ وتذلل وانقطاعٍ وعبادة، ووقعت عند بعض من ينتسب للإسلام حتى أحبوا من يرون أنهم من أولياء الله.

قال الشيخ رحمه الله: (**وفي الصحيح: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ؛ أَنَّهُ قال: «مَنْ قال: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ»**)، بمعنى أن الإنسان لا ينفع بأن يقول "لا إله إلا الله" ولم يكفر بما سوى الله، بل لا بد أن يكفر بما سوى الله.

ولهذا هذا الشرط الثامن الذي ذكره بعض أئمة الدعوة في شروط "لا إله إلا الله"، أخذوه من كلام الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ من آية سورة البقرة، وأخذوه من هذا الحديث؛ آية سورة البقرة التي قلناها قبل قليل: ﴿**فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ**﴾[البقرة:٢٥٦]، وهنا قال النبي ﷺ: (**«مَنْ قال: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ»**).

ولهذا لا يجتمع التوحيد مع الشرك الأكبر -لا يجتمعان-، إلا إذا اجتمع الموت

والحياة، والعمى والبصر؛ لا يجتمع هذا مع هذا. فإما أن يكون الإنسان مشركًا شركًا أكبر ويذهب عنه التوحيد -يراجع نفسه-، وإما أن يكون موحِّداً ينفي الشرك بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بكل صوره. والكلام هنا عما يتعلق بالشرك الأكبر؛ فمن عبد الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وأخلص لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لا يكون توحيده مخالطًا للشرك الأكبر؛ لقوله ﷺ في هذا الحديث: («مَنْ قال: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ»).

سواء كان المعبود من دون الله ﷻ له مقامٌ عند الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أو لا؛ له مقام عند الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ كأنبياء الله وملائكته وعيسى والنبي ﷺ، هناك من يعبدهم مع الله ﷻ غيرهم ممن جعلهم الله ﷻ قدوة لأمامهم، أو ممن أثنى الله ﷻ عليهم في كتابه.

فالذين عبدوا الملائكة والله ﷻ يقول: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾[الأنبياء:٢٦]، قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾[آل عمران:٨٠]. قال الله ﷻ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾[الأنبياء:٩٨] يعني ما تعبدون من دون الله من أصنامٍ وأوثان، ومن دعاكم إلى عبادة نفسه ورضي بذلك، أو عبدتموه من دون الله ورضي بذلك.

قال رحمه الله: قال ﷺ: («وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ، حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ») يعني إذا أظهر ذلك فيعامل معاملة المسلم، ومن معاملة المسلم للمسلم أن يحرم عليه ماله ودمه وعرضه، كما قال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «كل المسلم على المسلم حرام؛ دمه وماله وعرضه». وفي الحديث المشهور حديث جابر في حجة الوداع أن النبي ﷺ قال: «فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا».

(«وَحِسَابُهُ عَلَى اللهِ»)؛ لأنه يرد أن بعض الناس يظهرون الإسلام لكنهم يبطنون الكفر، كما هو الحال في المنافقين في زمنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

والنفاق يا إخواني يبقى ما بقيت المغالبة ما بين الحق والباطل، النفاق باقٍ في الأرض ما

بقي الباطل وما بقي الحق؛ «**حتى يبعث الله ﷻ ريحًا تقبض أرواح المؤمنين فلا يبقى إلا شرار الخلْق وعليهم تقوم الساعة**». فالمنافق قد يُظهر إيماناً ويُبطن كفراً، فإذا أظهر ذلك نكل سرائره إلى الله، كما قال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**أُمرت أن أحكم بالظاهر والله يتولى السرائر**»؛ توكل سرائرهم إلى الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ لكنهم يعاملون معاملة المسلمين.

ومعاملة المسلم فيما يتعلق.. وهذا لا يعني أن معاملة المسلمين تكون على حد سواء؛ فليس أولياء الله والأتقياء والصالحون والمتمسكون بالسنة والمتبعون كمن عندهم نوعٌ من المخالفة في ذلك، كما قالت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: «**أنزلوا الناس منازلهم**»، بمعنى أن الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أنزل الناس منازلهم ودرجاتهم بحسب ما عندهم من مطاوعةٍ لأمره ومطاوعةٍ لأمر الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فهم درجاتٌ عند الله كما قال سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿**هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللهِ**﴾[آل عمران:١٦٣]، لكنهم كلهم يتفقون في درجةٍ واحدة من حيث حفظ المال وحفظ الدم وحفظ العرض؛ إذا أظهروا الإسلام يُحفظ ماله ودمه وعرضه، حتى وإن غلب الظن على أنه على خلاف ما يظن المسلم بإخوانه؛ لأن الظن أكذب الحديث، ولأن الحق لا يُدفع بالظن.

ولهذا أنكر النبي ﷺ على أسامة الذي قتل الرجل بعدما قال "لا إله إلا الله"؛ لأن كلمة "لا إله إلا الله" عصمت دمه، تأوَّل أسامة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لكن لم يكن تأوله سائغًا عند النبي ﷺ لأنه تضييعٌ لحق "لا إله إلا الله"، بل قال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**أقتلته بعد أن قالها؟ أقتلته بعد أن قالها؟**» فما زال يكررها، حتى قال أسامة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: "تمنيت أنني لم أُسلم إلا يومئذ". وفي لفظٍ آخر أن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال: «**كيف تفعل بـ"لا إله إلا الله"؟**». فكلمة "لا إله إلا الله" كلمةٌ عظيمة تحفظ الحقوق في الدنيا ولها منزلةٌ عند الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ في الآخرة.

قال ﷺ: («**وَحِسَابُهُ عَلَى اللهِ**»).

ثم قال الشيخ رحمه الله في خاتمة هذا الباب: (**وَشَرْحُ هَذِهِ التَّرْجَمَةِ مَا بَعْدَها مِنَ الْأَبْوابِ**).

يعني أن كل الأبواب المتقدمة تُنزَّل منزلة المقدمة للكتاب، وما بعد ذلك من أبواب إما أن يكون تقرير توحيد، وإما أن يكون بيان بدعةٍ تُنْقص التوحيد أو تزيله بالكُلّيَّة.

أسأل الله أن يرزقنا وإياكم العلم النافع والعمل الصالح، وأن يثبتنا وإياكم على ما يحب ويرضى.

والله أعلى وأعلم.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه.

حسابات فضيلة الشيخ

فهد بن مقعد العتيبي

- حفظه الله -

يوتيوب

https://youtube.com/@fahdbenmqed?si=DbzIsb5Ppu1SOswd

تويتر

https://x.com/fahdbenmqed?t=N8yFXcYwSbG50wH4JBzGZQ&s=09

تك توك

https://www.tiktok.com/@fahad_bin_miqid_alotaibi?_r=1&_t=ZS-92TEUhyCAxF

تليجرام

https://t.me/fahdbenmqed

مجموعة وتس أب

https://chat.whatsapp.com/CNliJyzyYE7ExcaZBTF7pq

اشترك تكرما وانشر الرسالة لتصل الفائدة إلىٰ أكبر قدر من الناس



للاطلاع على مؤلفات أو نظم الشيخ أمسح الترميز.